

حسين علي المصطفى

مطارحات في الدين و الفكر والمجتمع

مكتبة
مؤمن قريش
www.muhammadibrahimgroup.com



الواحة
للخدمات الثقافية

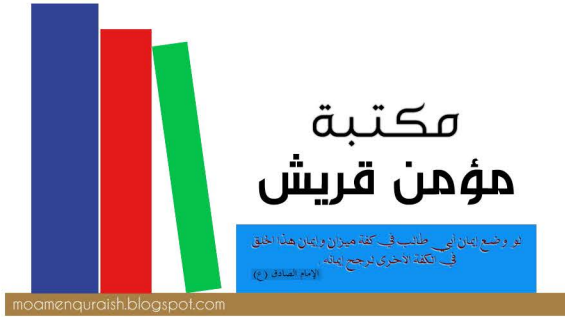
دار المحجة البيضاء

مطارحات في الدين والفكر والمجتمع

تأليف

حسين علي المصطفى

حُفُوقُ الظَّبَعِ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الأولى
1426 هـ - 2005 م



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب، ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف، ٢٨٧١٧٩ / ٠٣ - تليفاكس، ٥٥٢٨٤٧ / ٠١

E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com



المحتوى

11	كلمة الافتتاح
13	رحلتي إلى طلب العلم
14	مسؤولية طالب العلم
17	القضية المذهبية ولغة التسامح
19	ثقافة المرأة المتدينة
20	الزواج بأخرى
20	تفعيل دور المسجد
21	المثقف وعالم الدين والدور المتكامل
22	الأسرة مؤسسة تربوية
23	المرأة والمنتديات الاجتماعية
24	المرجعية وضرورات الفتوى 1
25	الحجاب الشكل والمضمون
25	المرجعية وضرورات الفتوى 2
32	الشهادة الثالثة في الأذان
51	مشكوك التذكية.. الحكم والأثر
61	وظيفة تاج القرآن الكريم
73	قراءة القرآن بالألحان والمقامات
76	إحباط العمل
83	الستلايت (الدش) في الميزان
87	الجنس.. نظرة واقعية
89	الفرق بين إخبار الثقة وشهادة الثقة
95	مناهج توثيق الأخبار
97	طرق إثبات وثاقة الرواي

102	ألفاظ التوثيق
110	الشهرة الفتوائية وأثرها
111	الشباب والقراءة
115	الفرق بين الحكم والفتوى
116	الفرق بين الاحتياط في الفتوى والفتوى بالاحتياط
118	دور الطالب الجامعي في ترسيخ الوحدة
125	دعوة الرسول.. منهج وخصائص
162	مشكلات الدعوة ومنهج مواجهتها
178	معطيات التغيير الاجتماعي
183	الإجماع.. المفهوم والدلالة
194	الحوزة بين التقليدية والتجديد
214	أوقات الفراغ عند الشباب.. الإجازات الصيفية تحديداً
220	المنبر الحسيني.. تحديات الحاضر وآمال المستقبل
225	مفهوم الإصلاح الديني في قضية كربلاء
235	المأتم الحسيني النسوي وآفاق التطوير
243	آفاق رسالة المسجد العبادية والدعوية والتربوية والاجتماعية
269	ظاهرة التقديس في الميزان
288	أطر التعاطي مع السجال المذهبي
290	إدارة الحقوق الشرعية
291	علماء الدين والعمل الجمعي في إدارة شؤون المجتمع
291	حكم تهوة الشعير
307	دور علماء الدين في المطالبة بحقوق الطائفة
308	آفاق دور علماء الدين في المنطقة
310	أصناف العلماء من منظور الإمام علي
312	دور المثقف في النهوض بالإنسان
315	المثقف والغزو الثقافي
320	علماء الدين وآفاق العمل الاجتماعي
322	موقفنا من طرائق قراءة النصوص الشرعية
322	محاولات في قراءة تاريخ كربلاء
323	ممن تلقى الحسين الأمر بالرحيل إلى كربلاء؟
324	الخطباء ووعي الوضع الراهن في منطقتنا
325	إضاءات حول الخمس وأحكامه

337	مسؤوليات العمل الثقافي.. الإنترنت نموذجاً
343	نحو مجالس حسينية للاطفال
352	المرأة والمسجد نحو علاقة تفاعلية
353	هل بكت السماء على الإمام الحسين؟
354	مفهوم التركيب الاتحادي والانضمامي
357	دور العرف في تفسير العناوين الشرعية
358	إضاءات في مسألة تحريف القرآن
370	نصوص في سلامة القرآن من التحريف
381	رؤية
383	وللختام كلمة
385	فهرس موضوعي

كلمة الافتتاح (*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حلقت بين ثنايا كلماتك وفكرك الوقاد فاندفعت نفسي منساقه دون ملل أو كلل تحطم قيودها لتقرأ ما تخطه هذه الأنامل من معاني الفكر والثقافة.

ولكم كنت أحلق معك بفكرك وابداعاتك فكننت المعلم والمثقف، وكنا نشتاق إلى رؤية ما تخطه كلماتك على صفحات (دانا فجر)؛ منتظرين تنظيرك وتمحيصك للفكرة، مفكراً ومثقفاً وفتياً وأصولياً ورجالياً بارعاً.

بل حطمت قيوداً تعارف عليها الكتاب والمؤلفون، فعندما ترجع إلى عالم الفكر والمفكرين تجد أنّ الكاتب يبحث عن شخص مرموق فكراً وعلماً وجاهاً ليقدم كلمة للكاتب على صفحات كتابه ولكن أن يصر الكاتب على أن يكون المقدم لكتابه متعلم منه فإنّ ذلك بحق مما يستحق النظر والتأمل.

أطل علينا شيخنا العلامة الشيخ حسين المصطفى - دام فضله وعزه - في منتدى (دانا فجر) فكان الكاتب المتألق فكراً وثقافة وعمقاً، وبرزت معالم فكره الوقاد من خلال ما أبداه من فنون علمية رائعة بهر بها القارئ،

* فضيلة الشيخ حسين البيات هو مشرف هذا الحوار - في منتدى (دانا فجر) الموقر - ويعود له الفضل في هذا اللقاء الأخوي.

واستمتعنا جميعاً بعمقه وعلمه طوال فترة تواجده النشط معنا.

ومن خلال حواريات دانا فجر، والتي كانت تمثل عمقاً فكرياً، وتضم مجموعة من المفكرين وطلبة العلوم الدينية الذين كانوا بحق يمثلون فكراً رائعاً، فكان ساحة الشيخ من بينهم متميزاً بالعطاء والعمق والتحمس لطرح فكره بصورة شجاعة دون أن يعطي لمردودها الانتقائي أي اثر على تصوره وعطائه.

وقد يلاحظ القارئ أنّ هناك بعض الحواريات مما تمثل بعض التبسيط الثقافي، ولكن الردود تمثل قوة في التتبع ومبالغة في إعطاء القارئ جزءاً كبيراً من اهتمامه وفكره بجدية عالية. ولعل هذه المجموعة الحوارية هي كشكول علمي يضم بين جوانبه علماء وفكراً وثقافة أملت عليه قراءته الواسعة وتحوره من قيود المفكرين التقليديين، فسترى أنّ قراءته للواقع تمثل صورة حية لما نعيشه ولما نرجوه من منظرينا أن يطلّوا به علينا من سعة الأفق وجرأة في الطرح وبراعة في الأسلوب.

لا أطيل عليك أيها القارئ النبیه بكلمات تصادر عليك ما نطمح نفسك برؤيته والتمعن فيه بل أنصحك ونفسي بالتحديق في معاني الكتاب وتنظيراته بجدية وواقعية راجياً لك وقتاً ممتعاً بالخير والبركات.

حسين البيات

القطيف - 1424/11/19هـ

سؤال: ما هي الدوافع التي جعلتك تلتحق بالعلوم الدينية؟ وكيف وجدت طلب العلم؟

جواب: منذ وعيت على هذه الدنيا وأنا أميل إلى التساؤل فيما حوي من أمور شتى، بداية من العقل موهبة الله الكبرى، ونهاية إلى وجودنا ومسؤوليتنا في هذه الحياة، وخاصة أن انفتاحي على القراءة الجادة ابتدأت وأنا في سن مبكرة من عمري، وساعدني على هذا وجود بقايا كتب من مكتبة والدي رحمه الله، فصررت أقرأ الكتب الكبار، وأخوض معها نقاشاً في ذهني، واسترسل لمخيلتي الصغيرة أن تعبت بكلمة هنا وبكلمة هناك، وما زالت بعض ملخصات تلك الكتب موجودة عندي أحفظ بها كذكرى عزيزة على قلبي.

وكانت هذه السنوات الأولى تمثل المخاض لسنوات الكفاح الآتية، الذي أخذ ينمو وينمو، ويزداد معه الطموح، وتشتد فيه الرغبة لركوب هذه الأمواج، وما زلت أتذكر أنني قدمت تساؤلات لبعض قراءتي في قصة آدم في القرآن الكريم لبعض أهل العلم، وكانت دهشته عندما أخبرته بأن هذه التساؤلات فقط جاءت نتيجة تصفحي لآيات القرآن، ولا أجد حلاً لها إلا بهذه الكيفية، ما دمننا نقول بعصمة الأنبياء، فأطلعني على بعض الروايات التي تطابقت مع بعض رؤيتي لهذا الموضوع، وحينها عزمتم على أن ألج إلى هذه الحوزة العلمية التي أربها وأخافها طالما تذكرت عمالقة هذه المدرسة.

وكنت يومها في مرحلة الثالث المتوسط (الإعدادي) وعزمت أن أفتح أبي برغبتي في هذا الموضوع، وأن أتوجه إلى النجف الأشرف للدراسة، ولكنني سمعت بعض أهل العلم ممن التقى بالشهيد الصدر ثُمَّ أنه يفضل أن ينتهي الفرد من الثانوية، وبعدها يأتي للدراسة في الحوزة، وبالفعل امتثلت لهذه الرغبة الكريمة، وجئت إلى الدراسة بعد أن أنهيت الثانوية العامة.

ولا شك أنّ تأخري لهذا العمر آنذاك كان له أثره الإيجابي على مسيرة حياتي، حيث يذهب الإنسان إلى الحوزة وهو في طور أقرب إلى النضج الاجتماعي منه في ما لو ذهب إليها مبكراً، مما جعلني أنظر إلى الحوزة بصورة المراقب الذي يحاسب نفسه في هذه الأجواء، وكم كانت لذة المرء أن يرتشف من هذا الكأس الذي ارتشف منه الكثير من العلماء، وخاصة أننا توجهنا في فترة لم نكن نحاسب أنفسنا: في كم سنة درست هذا الكتاب، وكم سنة قطعت هذه المرحلة، بل كان رائدنا هو: هل أتقنت دروسك وفروضك.

سؤال: وهل ترى أنّ طالب العلم يقوم بواجباته بشكل يتناسب وتحديات العصر؟

جواب: الخطأ الكبير الذي يعيشه الطالب في الحوزة أنّه يستطيع أن يعيش حراً بلا قيود، بمعنى أن تعيش عالية بمعنى الكلمة دون أي مراقب أو مساند، إلا أن تشملك رحمة من أستاذ يريد أن يحافظ على تربيتك التربوية الفاضلة، ومن هنا عرفت سبب إصرار الشهيد الصدر ثُمَّ في أن يأتي الفرد للحوزة بعد الانتهاء من الثانوية؛ ليكون راشداً متفهماً للحياة ومتطلبات العصر.

وكنت دائماً أردد مقولة الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس»⁽¹⁾. فكانت أقرأ من هنا وهناك، وألمّ بمعارف متنوعة أخرى، وكان الكثير من الطلبة يعيرون هذا التوجه فكانوا يعيشون حالة الانغلاق الفكري على الثقافات الأخرى، فكثير من هؤلاء، والذين انغلقوا فكرياً،

(1) تحف العقول: ص 356.

انفتحوا على ثقافة الصورة من خلال (الستلايت) والانترنت⁽¹⁾، ولكنهم ما زالوا محافظين على مستوى هذا الانغلاق.

ولا يمكن لطالب العلم أن يتحرك بالصورة المطلوبة إلا في أجواء توظف طاقته بالصورة الصحيحة، فالتغيير يحتاج إلى أن يعيش الطالب في أجواء تقوم بتربيته وسائل التغيير، وأن تصقله بالتجربة الواعية، وأن تهياً له فرص هذا الدور.

وقد قلت في أكثر من مناسبة: قد يملك الحوزوي تخصصاً ما في العلوم التي تهتم بها الحوزات العلمية، وأما ما مدى تجاوب الحوزوي مع حركة المجتمع فيحتاج الحوزوي حينذاك إلى أن يضم إلى تخصصه قراءاته المعمقة التي تؤهله أن يخوض غمار التجربة بوعي وحرية وإبداع.

وإذا ما علمنا أنّ الحوزات العلمية لا تقتصر في مهماتها إلا على اللغة والمنطق والفلسفة القديمة، وبنطاق ضيق، والفقه والأصول فحينئذ ندرك أنّ الحوزة لا يمكن أن تقدم إلينا رواداً لهم تأثيرهم في الأمة إلا النزر القليل فأمثال الإمام الخميني والشهيد الصدر والشهيد المطهري وأمثالهم لا يتكرر في كل جيل⁽²⁾.

(1) أتذكر أنّ للدكتور محمد جابر الأنصاري مقالاً عنوانه: (التلفزيون: عصر حجري جديد؟ ثقافة الصورة ومحذور التخلف العقلي للجنس البشري) والغاية من هذا المقال دراسة التأثير المعرفي للتلفزيون على الأجيال الجديدة من البشرية التي اعتمدت منذ بداية تكوينها العقلي على تلقي المعلومة والمعرفة بالصورة بدل تلقيها كما اعتاد البشر عبر تاريخهم الحضاري المكتوب على تلقيها بالكلمة والفكرة والرمز الذهني التجريدي. فنحن نلاحظ أنّ التأسيس التربوي والتعليمي العام يقوم على: الأم، والأب، والمعلم .. وغياب هذا الثالث نلاحظه فيما للتلفزيون من تأثير متزايد في تكوين العادات والسلوكيات الحياتية الأساسية. ومن هنا يتجلى أحد العوامل الأساسية لتدني القراءة في مجتمعاتنا، والركون إلى الثقافة البصرية من خلال ثقافة الصورة.

(2) ومن المبكي، عندما خرج تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي، أن تقابل بعض الأوساط في الحوزة العلمية الإنجاز العظيم للعلامة الطباطبائي بردود فعل سلبية، وربما عدوانية، ووصل الأمر إلى نطاق الكتابات أيضاً، دفعت تلميذ العلامة الطباطبائي الشيخ مسلم ملكوتي أن يتصدى للدفاع عن تفسير أستاذه، فخاض حوارات عديدة مع هؤلاء من دون أن يجد أذنأ صاغية لما يقول، وكان يذهب إلى أنّ هؤلاء لم يندفعوا

إضافة إلى كل ذلك علينا أن نعي بأن سنن التغيير ليست حكراً على الحوزوي أو غير الحوزوي ما دام الجميع ينشد العدل؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽¹⁾ فإن مهمة الأنبياء مهمة حياتية شاملة تمتد إلى كل جوانب حياة الإنسان ليرتبط الجانب الروحي بالجانب المادي، في ما توحيه كلمة (القسط) من العدل الذي يحدد لكل ذي حق حقه، ويربي الناس في هذا الاتجاه، ليكون الإنسان العادل هو الذي يطبق الشريعة العادلة، ويبنى الحياة على أساس العدل.

ولا شك أنّ ذلك لا يقوم به إلا أهل الحل والعقد من العلماء والمختصين والمثقفين الذين يدركون منافع البشر وحاجات الإنسان، فإذا انسجمت الخطوط التي بيدها مفاتيح المعرفة الدينية بالمعرفة الإنسانية تحقق للناس ما يصبون إليه. وأما إذا انقطعت أو اصر الالتقاء حينئذ تحوّل الدين إلى طقوس وعادات وشعائر خالية من الروح، وابتعدت عن التوازن في الجانب الواقعي العملي في حاجات الإنسان.

فينبغي للحوزوي أن يفسح لأخيه غير الحوزوي مكاناً للقاء والحوار فيما يتعلق بخدمة الأمة فـ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»⁽²⁾.

وكما يقول الفيلسوف الإنجليزي (بيكون): «العلماء ثلاثة أصناف:

1- فبعضهم كالنمل يجلب الحبوب من الخارج ويخزنها دائماً. فذهنهم كالمخزن، وفي الحقيقة أنهم مسجل يسجلون كل ما سمعوه. ومتى أردت

بسوء نيّة لاخاذا هذا الموقف، وإتّما يعود ذلك لسوء الفهم. ولذلك قال الشهيد المطهري: «إنّه لعجيب أن يقضي المرء عمره في أهم العلوم الإسلامية كتفسير القرآن، ثم يكون عرضة لكثير من المصاعب والمشاكل، في رزقه، في حياته، في شخصيته، في احترامه، وفي كل شيء آخر. ولكنّه لو صرف عمره في تأليف كتب مثل الكفاية لنال كل شيء. فتكون النتيجة: أنّ هناك آلاف من الذين يعرفون الكفاية معرفة فائقة، أي: أنهم يعرفون الكفاية، والرد عليها، ورد الردّ عليها، والردّ على ردّ الردّ عليها، لكن لا نعتز على شخصين يعرفان القرآن معرفة صحيحة، وعندما تسأل أحداً عن تفسير آية قرآنية، يقول لك: يجب العودة إلى التفاسير» (إحياء الفكر الديني: ص 47).

(1) الحديد: 25.

(2) حديث نبوي؛ التهذيب؛ ج 3 ص 146 ح 317.

ذكروا لك ما تعلموه.

2- أما الصنف الثاني فهم كدودة القز تنسج من لعابها نسيجاً وتخرجه منها. وهذا أيضاً ليس عالماً حقيقياً لأنه لا يكتسب شيئاً من الخارج. يريد أن يصنع من خياله وباطنه، وعاقبته أنه سيختنق داخل شرنقته.

3- وأما الصنف الثالث فهم العلماء الخفيقيون. فهؤلاء كالنحلة، يمتصون رحيق الورد من الخارج ثم يصنعون العسل في داخلهم».

سؤال: كيف ترون العلاقة الشيعية السننية وأسباب زيادة المتشيعين؟

جواب: دائماً أنظر بصورة مختلفة في هذا الشأن، فقضية الشيعة وقضية السنة لا تؤرق مضجعي، ولا أستسلم إلى الخوض فيها، بل يهمني بالدرجة الأولى - ونحن نعيش في بلد يحكمه مذهب مسلم سني - كيف نتعايش معهم في وئام وحسن جوار كما كان أئمة أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم يتعايشون معهم، ويحضرون مجالسهم، ويلتقون في محاوراتهم العلمية.

ولذا علينا أن نُشيعَ في بلدنا لغة التسامح بكل أبعادها:

فالتسامح: هو احترام حقوق الآخرين وحررياتهم.

والتسامح: هو اعتراف وقبول بالاختلافات الفردية، وتعلم كيفية الإصغاء للآخرين والانصال بهم وفهمهم.

والتسامح: هو تقدير التنوع والاختلاف الثقافي، وهو انفتاح على أفكار الآخرين وفلسفاتهم، منبثق من الرغبة في التعلم والاطلاع على ما عند الآخرين، والاستعداد لعدم رفض ما لا نعرفه.

والتسامح: هو الاعتراف بأن ليس هناك فرد أو ثقافة أو وطن أو ديانة تحتكر المعرفة والحقيقة.

والتسامح: هو شكل من أشكال الحرية وعدم التحيز وعدم التمسك بالأفكار، فالتسامح هو سيد رأيه وفعله.

والتسامح: هو موقف إيجابي تجاه الآخرين دون أي مقدار من الاستعلاء.

فيمكننا في عصر توافر الأيديولوجيات إيجاد نوع من الوفاق والتعايش بين أتباع تلك الأيديولوجيات، على أساس فهم كل فريق للآخر وقبوله. ما لم تتدخل مسألة المذهبية في حركة الساحة السياسية، ومخططات الأجهزة المخبرانية الدولية والإقليمية والمحلية في أكثر من بلد عربي أو إسلامي. وإلا فإنّ المسألة ستتجه في اللعبة السياسية إلى اتجاه محاربة القيم الإنسانية التي تزخر بها تلك المدارس المختلفة.

ونحن - كمذاهب إسلامية - تجمعنا الأسس والمظاهر الأخلاقية والتي ترسخها الظواهر التالية:

أولاً: إنّ الأخلاق تشمل الحياة كلها، والإنسان المسلم المثالي هو الأخلاقي المثالي في كل وجوده وسلوكه.

ثانياً: إنّ الأخلاقية الإسلامية ليست أخلاقية انعزالية عن الحياة والملمات، وإثما هي أخلاقية الانهالك في العمل الاجتماعي بروح زاكية مع امتلاك ملكة الزهد والقدرة على التحرر من الأسر المادي الوضع إذا تطلّب الموقف ذلك.

ثالثاً: إنّ معاييرنا الأخلاقية مستمدة من عقيدتنا، وحينئذٍ مهما امتدت هذه المعايير، فلا تتأثر بالأبعاد الجسمية، ولا العرقية، ولا المادية، وما إلى ذلك، وهي بالتالي تصلح لأن تكون معايير إنسانية كاملة.

رابعاً: إنّ الأخلاقية الإسلامية ليست سطحية عارضة، وإثما هي تتعامل مع الفطرة وتستمد منها مسوغاتها وتعمل على تجليتها وإسراء مفعولها إلى ظاهر السلوك.

خامساً: إنّ أخلاقياتنا ليست منافية للتغير المادي والرفاهية البدنية، بل هي متلاحمة معه لصنع أهداف معنوية سامية.

سادساً: إنّ أخلاقياتنا لا تتعامل مع الخيال المفرط، وليست طوبائية النظرة، وإثما هي واقعية قائمة على أساس علمي بالواقع الإنساني والواقع الكوني والعلاقة بينهما، وتقدير دقيق لهدف الخلقة الإنسانية. ولذا فهي تتجنب أي تخدير كاذب وتسعى للرفقي المعنوي الحقيقي.

سابعاً: إنّ الأخلاقية الإسلامية لم تطرح أهدافاً ومبادئ عليا تاركة إياها دونها تفصيل لها ولكيفية تحقيقها، وإتّما هي إذ تطرح مفهوم العدالة مثلاً تعطي التخطيط الكامل لها وللأساليب العملية التي يتم تحقيقها بها، وعندما تطرح فكرة تزكية النفس تعطي البرنامج العملي الدقيق الذي يحققها لئلا ينحرف السبيل بالإنسان عن الهدف الأسمى.

ثامناً: إنّ أخلاقياتنا ليست أخلاقية مصلحية، أي ترعى مصالح الذات الضيقة، وإتّما هي أخلاقية إنسانية ترمق الهدف العام كله وتحاول أن تنسق كل أجزاء المسيرة مع هذا الهدف.

تاسعاً: إنّ أخلاقياتنا أخلاقية متوازنة، فلا هي بالتي تفني الفرد تحت عجالات المصلحة الاجتماعية العليا، ولا هي بالتي تسمح للفرد أن يسحق المصالح الاجتماعية، وإتّما هي تحاول إيجاد التوفيق، وربّما أوجدت تلاهماً بين المصلحتين فلا يحس الفرد العامل لذاته أنّه منفصل عن العمل لمجتمع.

عاشراً: وبالتالي فإنّ الأخلاقية الإسلامية ليست مقطعية تنطفئ عندما تصل إلى حد معين، وإتّما هي برنامج تكامل إنساني لا ينقطع؛ لأنّه يسير إلى الله تعالى، وهو عز وجل الكمال الذي يتسامى فوق كل عروج.

سؤال: كيف ترى ثقافة المرأة المؤمنة اليوم؟ وكيف تطور نفسها؟

جواب: عايشت المرأة في أكثر من موقع: في الدرس، وفي صلاة الجماعة، وفي مواسم الحج والتبليغ... ومن خلال ذلك كله أرى أنّ المرأة قد تقدمت خطوات (كباً) ولكنها لم تتقدم (كيفاً) بالمستوى المطلوب، وخاصة أنّ هناك انجرافاً لمتابعة ثقافة الصورة على حساب ثقافة الكتاب، وكم تلعب هذه الثقافة في الأذهان، بحيث شوّهت ثقافتنا وبعض عاداتنا الجميلة.

سؤال: يكثر أهل العلم الحديث عن الزواج بأخرى فهل تشجع على ذلك؟

جواب: لا مانع منه إذا توفرت شروط:

- 1- الحاجة الماسة إليه.
- 2- أن لا يؤدي إلى تعطيل الزواج الأول.
- 3- تفهم الزوجة الأولى لهذا الزواج.
- 4- وعي الزوج بالحقوق المطلوبة.
- 5- يسار الزوج لتحمل النفقات.

سؤال: لماذا لا يفعل دور أكبر للمسجد بحيث تكثر فيه المحاضرات وليس باللازم أن تكون دينية فقط بل تشمل الندوات وأن يكون للنساء دور في فعاليات المسجد أكثر؟

جواب: نأشدنًا كثيراً من ذوي الاختصاص في أن يتفاعلوا مع هذا الموضوع، وأن يأخذوا على عاتقهم بناء الأجيال من خلال أروقة المساجد، ولكن الهمم قاصرة ونظرة المجتمع ضيقة، ويضاف إلى ذلك قصور مجموعة من أهل العلم لأهمية هذا الدور الحيوي في الأمة.

وأما بالنسبة لدور النساء في المساجد فأنت تفترض -يا أخي التقي- جواً من الانفتاح لا يعيشه مجتمعنا الخليجي، بل ما زال يترنح من سكر العادات والتقاليد. فما زلت أتذكر عندما أعلنت أن المسجد سيهيئ مكاناً لصلاة المرأة في المسجد جماعة، مع كل شرائط الستر فيه، النبى من على المنابر وأروقة المساجد من قام بتسخيف هذه الفكرة واعتبرها أجنبية عن الدين الإسلامي و... و...

ولكنني متفائل من أن المرأة ستلعب دوراً في هذا المجال ما دامت العزيمة قائمة في نفوس الغيارى والرساليين.

سؤال: كيف تفسرون اقتصار طلبة العلوم على المواضيع الحوزوية دون الاقتحام للمواضيع الحديثة إلا على نحو الدروس الاختيارية؟

جواب: هذا يعود بالدرجة الأولى إلى التخصصات، فطالب العلم لا يتناول إلا العلوم التي درسها وتناولها في الحوزة العلمية: الفقه، الأخلاق، القرآن،...

والقليل من طلبة العلوم الدينية من أضاف إلى مخزونه معرفة أخرى، ولذا بدل أن نلزم علماء الدين بالاهتمام بالمعارف الأخرى -وأراها ضرورية في هذا العصر- فلا مانع من المشاركة الفاعلة بين العلماء والمثقفين في هذا الشأن وقد قلت في بداية حديثي: إن سنن التغيير ليست حكراً على الحوزوي أو غير الحوزوي ما دام الجميع ينشد العدل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽¹⁾ فإن مهمة الأنبياء مهمة حياتية شاملة تمتد إلى كل جوانب حياة الإنسان ليرتبط الجانب الروحي بالجانب المادي، في ما توحيه كلمة (القسط) من العدل الذي يحدد لكل ذي حق حقه، ويربي الناس في هذا الاتجاه، ليكون الإنسان العادل هو الذي يطبق الشريعة العادلة، ويبني الحياة على أساس العدل. ولا شك أن ذلك لا يقوم به إلا أهل الحل والعقد من العلماء والمختصين والمثقفين الذين يدركون منافع البشر وحاجات الإنسان، فإذا انسجمت الخطوط التي بيدها مفاتيح المعرفة الدينية بالمعرفة الإنسانية تحقق للناس ما يصبون إليه. وأما إذا انقطعت أواصر الالتقاء حينئذ تحول الدين إلى طقوس وعادات وشعائر خالية من الروح، وابتعدت عن التوازن في الجانب الواقعي العملي في حاجات الإنسان. فينبغي للحوزوي أن يفسح لأخيه غير الحوزوي مكاناً للقاء والحوار فيما يتعلق بخدمة الأمة ف«كلكلم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»⁽²⁾.

ولو نظرنا للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة وهو يشير إشارة واضحة إلى عمليات النقل والاتصال الثقافي حيث يقول: «أي بني، إني وإن لم أكن عُمُرْت عُمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأبي بما انتهى إلي من أمورهم قد عُمُرْت مع

(1) الحديد: 25.

(2) حديث نبوي؛ التهذيب: ج 3 ص 146 ح 317.

أولهم إلى آخرهم، فعرفت صَفْوَ ذلك من كدره، وَتَفَعَه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر جليله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله، ...»⁽¹⁾.

كل ذلك من خلال وعي الإمام علي عليه السلام للقرآن الكريم - إتما أراد بذلك منح ولده الحسن عليه السلام قوة للدفع في مجال التغيير الاجتماعي الذي كان يتوخى استمراره ونموه. وحرى بنا أن نجعله نهجاً لنا.

سؤال: ما نصيحتك للأمهات خاصة في مجال تربية الأبناء؟

جواب: المشكلة التي نعاني منها هي مشكلة الخلل التربوي أو العجز التربوي.. وذلك لغياب: المعالج، أو خطأه أو سوء تعامله.

فقبل كل شيء علينا أن ندرك بأن العملية التربوية هي عملية مركبة من: موهبة + ثقافة، فهما يشكّلان أبجدية الفقه التربوي، إلى جانب القدرة على حسن التعامل مع هذه الوظيفة.

أقول «وظيفة» لأنّ التربية لم تعد - كما السابق - مجرد ميول فطرية فقط، بل هي مؤسسة ذات أركان وأسس، رائدها ثلاثة أطراف مهمة: «الأم + الأب + المعلم» ولذا لا ينبغي لكل طرف من هذه الأركان أن يساهم في هذه التربية دون أي اتفاق على صيغ التربية الملائمة، لكي لا يحصل التضارب في هذا المجال. فالتربية باختصار: «شركة مساهمة متحدة»، وليست أهواء تبتذل هنا وهناك.

فكما نهتم بشركتنا المالية في الحياة، علينا أن نهتم أضعافاً بمؤسسة الأسرة.. يقول النبي صلى الله عليه وآله: «لئن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم»⁽²⁾.

وعلينا أن نجيب كآباء وأمهات على هذه التساؤلات بصراحة:

كم نخصص من وقتنا يومياً للاهتمام بأبنائنا ومراقبة تصرفاتهم

(1) نهج البلاغة: كتاب 31.

(2) وسائل الشيعة: أبواب أحكام الأولاد ب 83 ح 8.

وتوجيههم وتربيتهم؟

هل نبذل ما في وسعنا لتربية أبنائنا وتنمية قدراتهم الجسدية والروحية والمعنوية؟ أم أنّ مشاغل الحياة ومشاكلها تلهينا عن القيام بهذه المهمة؟

ألا يحتاج أبنائنا إلى الإرشاد والتوجيه والمراقبة والمساعدة من قبلنا؟

هل أبنائنا في مأمن من شباك ومصائد الشيطان؟

ينبغي أن نهتم بهذه المؤسسة، وعدم قدرتنا على امتلاك ثقافة علمية وروحية وأخلاقية لن يسعنا أن نكون أسرة كريمة.. ولنضع نصب أعيننا أن هذه التربية جهاد يقيمها الله في ميزان الأعمال، يقول الرسول ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا تربيتهم ليغفر الله لكم»⁽¹⁾.

ولهذا فليكن منهجنا في تربية أبنائنا تحمل عناصر التقويم:

- 1- الكرامة أساس التربية والسعادة.
- 2- تربية الأبناء طريق لتربية أنفسنا.
- 3- تنمية العادات الجميلة والمحبة.
- 4- الرفق أفضل أسلوب في التربية.
- 5- عاملوا أبناءكم على أساس العدالة والمساواة.
- 6- احترام حقوق الطفل احترام لشريعتنا ونهجها القويم.
- 7- نمّوا في أبنائكم الشعور بالكرامة والقدرة والاستطاعة.
- 8 - مصاحبة الأبناء والحوار معهم تربية للقاء لا للاختلاف.

سؤال: لماذا لا يكون للمرأة وجود حقيقي في المتدييات الاجتماعية؟

جواب: التغيير لا يكون إلا عن طريق المرأة نفسها، فنحن نرى أنّ للمرأة تأثيراً على واقعنا من خلال لبسها وطريقة هندامها، فقد استطاع البعض منهن أن تفرض بعض ظواهر الترف والإسفاف، أفلا تستطيع أن تفرض واقعاً ثقافياً مناهضاً؟! ينبغي على النساء الفاضلات أن يجاهدن في

(1) وسائل الشيعة: أبواب أحكام الأولاد ب 83 ح 9.

سبيل التنمية الصحيحة، وأن لا تفرض المسؤولية على الرجل فقط.

وينبغي أن نعترف أنّ مجالس النساء تخلو من المسائل الجادة، كما أنّ كثيراً من النساء المتدينات لا يملن طموحاً ثقافياً واقعياً، ومن هنا ينبغي من أخواتنا الكريهات أن يقمن علاقات ثقافية مع بعضهن البعض، فقد مرّت علينا فترة كنا - كشباب - نعقد جلسات ثقافية أسبوعية تدور فيها محاورات عديدة، في جميع المحاور الثقافية والاجتماعية، وكان البعض يقدم قراءته لكتاب معين فيقوم بعرض موجز عنه، وربما يدور بنا الأمر لمناقشة بعض المحاور الهامة في الكتاب.

كما أذكر أنّ هناك جلسات أخرى للبعض منا في قراءة كتاب من الكتب المهمة، فنقوم بقراءته بشكل جماعي، بحيث لا يتعدى الموجود أربعة أشخاص، وكانت تنتج عن هذه اللقاءات محاور مهمة، وكم انضم إلينا بعد ذلك أناس وأناس حببوا هذه الفكرة..

الذي أريد أن أقوله: على المرأة المبادرة للتفكير الجاد في تنمية شؤونها، وتنظيمها بشكل مدروس، والابتعاد عن الأجواء العاطفية أو الشللية الباهتة، وليكن رائدها خدمة الدين.

سؤال: هناك من يحاول زج المرجعيات الدينية في إطلاق فتاوى التفسير أو التكفير من خلال الكتابة إلى هذه المرجعيات عن حيثيات بعيدة - أحياناً كثيرة - عن الواقع، أو من خلال تصوير بعض الأقوال أو الأفعال بصورة معيبة، فما هي رؤيتكم حول هذا الموضوع؟ وهل المرجعيات الدينية معنية بالخوض في مثل هذه الأمور؟

جواب: هذا راجع إلى أهمية الموضوع المثار، ودرجة خطورته، فكما هو معلوم لديكم أنّ العلماء تدخلوا في قضايا مهمة عامة: كثرة العشرين، وفتوى التنبك، وقضية فلسطين، وفتوى ضد سلمان رشدي.. وهي قضايا حيوية تحتاج من العالم أن يطرح رأيه فيها.

نعم، إذا تحولت الفتوى إلى حيثيات أخرى فلن يكون لها أثر في المقام.

سؤال: يحصل أحياناً أن يفتي بعض المراجع بفتاوى قد لا ترضي بعض طلاب العلم أو بعض المكلفين مما يحذوهم لكثرة الاستفتاءات للمراجع حول نفس الموضوع أو قد يؤدي لتكران الفتوى والإدعاء بالتروير، ما الذي يؤدي لطالب العلم أن يتخذ مثل هذه المواقف؟ وما المطلوب من المكلف العادي للتصدي لهذا الموضوع؟

جواب: إذا كانت فتوى المرجع راجعة إلى حكم تكليفي محض، فلن يغير رضى طالب العلم أو عدم رضاه من قناعة المجتهد في رأيه، فما وصل إليه من رأي لا يكون إلا من خلال الدليل الشرعي.

نعم، قد يناقش بعض أهل العلم المرجع في بعض الاستفتاءات التي يكون الإفتاء بها راجعاً لموضوع تشخيص في الخارج، فقد يشخص المرجع هذا الموضوع خطأً وحينئذ تكون هذه الفتوى متلقاة في ظروف موضوعية خاطئة، وهنا قد يُناقش رأي المرجع ويُراجع المرة تلو الأخرى في هذا التشخيص.

سؤال: يميل الإنسان وحسب فطرته للتطوير، ويظهر هذا الميل عند المرأة أكثر من الرجل فما رأي سماحتكم حول تطور شكل الحجاب الشرعي عند المرأة بحيث لا ينافي الحد الأدنى من الشرعية؟

جواب: الفقهاء لم يفتوا بوجوب شكل حجاب معين للمرأة، نعم اتفقوا على عنوان العفة والستر كمظهر من مظاهر الحجاب.

وقد أوضح القرآن الكريم عنوان الستر في قوله تعالى:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى

الله جميعاً أيُّها المؤمنون لعلَّكم تُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

ولا بدّ لنا من بحث عدة نقاط لمعرفة ما هي الحدود التي فرضها الله على زي المرأة:

النقطة الأولى: تفرض علينا هذه الآية الكريمة أن نعود إلى المجتمع الذي نزلت فيه؛ وذلك لأنّها نزلت عليه، وحدّدت حدود اللباس طبقاً لما كان متعارفاً لبسه في تلك المرحلة.

ولا يمكن أن نبين فهمنا للآية وحدود الزي من دون أن نعود إلى المجتمع الذي نزلت فيه، وبعد تحديد الزي يمكننا تعميم هذه الحدود على أي مجتمع آخر في أي زمان كان، وذلك لأنّ هذه الآية تتكلم عن ستر جسد المرأة، وهو لا يتغير، وما يتغير هو الزي وطريقة الستر، ومن اليسير تحديد الزي طبقاً لهذه الحدود مهما تغيرت الأزياء وتطورت.

ويظهر، بعد مراجعة بعض المصادر، أنّ المرأة في زمن الجاهلية، وإلى ما بعد الهجرة، أي إلى زمن نزول الآية، لم تكن تهتم كثيراً⁽²⁾ بمسألة الستر.

يقول الزمخشري: «كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليتها، وكن يسدلن الحُثُر من ورائهن فتبقى مكشوفة»⁽³⁾.

ويقول أيضاً: «كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها»⁽⁴⁾.

ويقول الغرناطي: «كُنَّ في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن بالأخمة -وهي المقانع- سدلنها من وراء الظهر، فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك»⁽⁵⁾.

ويقول الفخر الرازي: «إنّ نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من

(1) النور: 31.

(2) السورة كلها مدنية بلا خلاف؛ مجمع البيان: ج 7 ص 163.

(3) الكشف: ج 3 ص 231.

(4) م.ن.

(5) تفسير القرطبي: ج 12 ص 230.

خلفهن، وأن جيوبهن كانت من قدام، فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن،⁽¹⁾.

إنّ ما نقلناه هنا يوضح لنا كيفية اللباس وكيفية اهتمام المرأة بالستر في ذلك الوقت، بالإضافة إلى أنّ الخمار نفسه لم يكن أمراً ملزماً للمرأة، بل كانت بعض النساء تخرج من دون خمار في غير أيام الحر؛ حيث كن يخرمن اتقاء الحر، ولم يكن الخمار أمراً مشرعاً في دين الجاهليين أو عرفهم، ولذلك قال الغرناطي: «كن إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة...»، فإنّه يظهر أنّه لم تكن المرأة تستعمل الخمار دائماً.

ويظهر، هذا الأمر أيضاً، مما نقل عن السيدة عائشة قولها: «ما رأيت خيراً من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، قامت كل واحدة منهن إلى مرطها فصعدت منه صدعة فاختمرت، فأصبحن كأنّ على رؤوسهن الغربان»⁽²⁾.

حيث إتّها قالت: «فاختمرت»، ولم تقل «فأصلحت خمارها»، أو غيرها من التعبيرات، ما يدل على أنّ بعض نساء الأنصار لم يكن مختمرات قبل نزول الآية وتشريع الحجاب.

ما المراد من الزينة في الآية الكريمة؟

الزينة لغة: اسم جامع لكل شيء يتزين به، والزينة ما يتزين به⁽³⁾.

أما استعمالها، فقد استعملت في كثير من المواضع بمعان مختلفة ومتفاوتة:

قال تعالى: ﴿وَالتَّيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾⁽⁴⁾.

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾⁽⁵⁾.

(1) التفسير الكبير: ج 23 ص 206.

(2) التفسير الكبير: ج 23 ص 206.

(3) لسان العرب: مادة: زين.

(4) النحل: 8.

(5) الأعراف: 31.

نلاحظ، هنا، أنّ الزينة عبارة عن أشياء يستعملها الإنسان، ففي الآية الأولى الزينة هي الحيوان المركوب نفسه وفي الآية الثانية الزينة هي الثياب، وكلتاها تعدّان زينة عرضية. وفي قبالة تستخدم الزينة في المعنويات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزِينَةً فِي قُلُوبِكُمْ﴾⁽¹⁾. ويمكن أن تكون الزينة بمعنى المكان، فيكون المكان نفسه زينة، وذلك كالأماكن التي تكون بطبيعتها جميلة وملفتة كما تقول: تزينت الأرض، وازينت أي حسنت. ويمكن أن تشمل الشئية والمكانية معاً كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾⁽²⁾، فإنّها تشمل الاثنين معاً، فزينة الله الواردة في الآية تشمل الشيء والمكان وغيرهما أيضاً.

وفي الآية التي نحن في صددنا اختلاف في تفسير معنى الزينة، فذهب أكثر المفسرين إلى أنّ الزينة هي ما تتزين به المرأة من حلي أو كحل أو خضاب... وأنّه تعالى ذكر الزينة وأراد مواضعها للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر⁽³⁾. وذهب بعض المفسرين إلى أنّ الزينة هي جسد المرأة كله⁽⁴⁾.

والظاهر أنّ المراد من الزينة هنا هو الزينة الطارئة على الجسد، وهي ما تتزين به المرأة، ومن ثم يكون المقصود هو مواضع الزينة، كما ذهب إليه أكثر المفسرين واللغويين، لكونها في اللغة «اسم لما تزين به». والجسد لا يتزين به، بل يكون موضعاً للزينة وإن استعمل في بعض الأحيان على أنّه زينة، فهذا يكون من باب مناسبة الحال والمحل.

وعلى هذا سوف يكون المراد من الزينة، في الآية، مواضعها، وهي الشعر والوجه والرقبة وموضع القلادة من الصدر والزندين (وهما موضع السوار وغيره من الزينة)، والقدمين والكفين (وهما موضع الحناء). ويمكن أن يشمل أكثر من ذلك، وهذا يرجع إلى الأعضاء التي كانت تزينها المرأة بزينة طارئة عليها.

(1) الحجرات: 7.

(2) الأعراف: 32.

(3) تفسير الميزان: ج 15 ص 112، وتفسير الكشاف: ج 5 ص 415، ومجمع البيان: ج 7 ص 182.

(4) التفسير الكبير: ج 23 ص 205.

ولقد استثنى، سبحانه وتعالى، من مواضع الزينة هذه ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ والاستثناء هنا يرجع إلى ما ظهر عادة وعرفاً عند العام الغالب من النساء؛ وذلك ينحصر بالوجه والكفين والقدمين؛ حيث إنّ هذه الثلاثة مما لم يتعارف ستره عند النساء في ذلك الزمان.

وهنا يمكن أن نورد بعنوان الاحتمال: إننا لو بقينا نحن وهذا المقطع من الآية ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لدخل أيضاً العنق وموضع القلادة في «الظاهر منها»، وهذا إذا تحقق كون هذين الموضعين كان متعارفاً ظهورهما عند العام الغالب من النساء في ذلك الوقت. ويقوي هذا الاحتمال ما جاء في تنمة هذه الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، فإنه لو كانا داخليين في المستثنى منه في المقطع الأول، لما احتج إلى التنبيه على سترهما بالخمار، اللهم إلا أن يكون من باب التأكيد على هذه المواضع لكونها من أبرز المواضع اللافتة وأكثرها إثارة من غيرها من مواضع الزينة. وعليه فإنّ الضرب بالخُمُر على الجيوب تأكيد وتشديد لإخفاء الزينة وتأييد وتقوية له؛ ليكون الظهور في محالّ الزينة وموارد الحسن الجمال أقل.

ومن هنا يظهر تقسيم الزينة بحسب هذه الآية إلى قسمين: ظاهرة وخفية.

فالزينة الظاهرة: الوجه والكفين والقدمين.

والزينة الخفية: ما دون ذلك من مواضع الزينة، وتدخل فيها الأعضاء التي لا تكون مواضع للزينة من باب الأولوية.

ما المراد من الخمار في الآية الكريمة؟

الخمار، لغة، جمه حُمُرٌ، والخمار ثوب تغطي به المرأة رأسها، ولذلك يطلق على العمامة خمار⁽¹⁾.

والجيوب، لغة، جمع جيب، ويقال: جيب القميص والدرع وفلان

(1) لسان العرب: مادة: حمر، والمصباح للفيومي: مادة: حمر.

ناصح الجيب، يعني بذلك أنّ صدره وقلبه واسعين، أي أمين⁽¹⁾، وفي حديث علي عليه السلام: «أخذت إهاباً معطوناً فَجَوَّبْتُ وسطه وأدخلته في عنقي»⁽²⁾.

والإهاب هو الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ⁽³⁾.

والعطن: أن يجعل في الدباغ. ومعطونٌ: مدبوغٌ⁽⁴⁾.

فيكون المقصود أنه أخذ جلدأ مدبوغاً، وأحدث فيه فتحة ليدخل رأسه منها.

وبهذا يصبح تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ واضحاً، خصوصاً بعد ما قدمناه عما كان متعارفاً لبسه عند النساء في ذلك الوقت.

فبعد أن كانت سعة الجيوب عند النساء - وهي فتحة الثوب عند الصدر التي منها يدخل الرأس - أمراً منتشرأ، بحيث يظهر منها موضع القلادة من الصدر، بل شيء من الصدر وما حوله والرقبة أيضاً، كما تقدم عن الزمخشري أنفاً، وبعد أن كنّ يسدلن الخمار من وراء ظهورهن - كما تقدم أيضاً - أنزل الله تعالى هذه الآية، تأمر النساء بأن يغطين هذه الجيوب؛ وذلك بأن يسدلن الخمار عليها من الأمام، وبهذا تستر الجيوب وما يمكن أن يظهر من خلالها.

بعد هذا نقول:

إنّ الاستثناء الأول الذي ورد في الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إنّما كان استثناء من «المبدى»، أي من المواضع التي لا يجوز ابدائها، أما من ناحية «المبدى له» فكان هذا المقطع من الآية مسكوتاً عنه، فيشمل كل ناظر أياً كان هذا الناظر، ولذلك كان لا بدّ من تحديد

(1) لسان العرب: مادة: جيب.

(2) النهاية في غريب الحديث: ج 1 ص 310..

(3) لسان العرب: مادة: أهب.

(4) لسان العرب: مادة: عطن.

«المبدى له» حتى لا يبقى الحكم على شموله، فجاء بالاستثناء الثاني:
﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ...﴾.

وقبل الدخول في تفسير هذا المقطع، لا بدّ من الإشارة إلى نقطة مهمة لها علاقة وثيقة بفهمه. وهي أنّ هذا المقطع، من الآية الشريفة، له نظر إلى الحياة الأسرية للمرأة بخلاف المقطع السابق الذي كان له نظر شمولي كما ذكرنا، فحكم المرأة «في المجتمع العام» يختلف عن حكمها في «المجتمع الأسري». وهناك مجتمع آخر، وهو «مجتمع الزوجية» أضيق من هذين، ويختلف حكمه فيه عن المجتمعين السابقين، وفي تفسيرنا لهذه الآية لا يمكن صرف النظر عن هذه المجتمعات الثلاثة التي تواجهها المرأة، والسؤال الذي يطرح هنا هو: إلى أي من تلك المجتمعات ناظرة هذه الآية؟

نلاحظ أنّ الآية ناظرة إلى المجتمعين الأولين من دون الثالث، وهي في صدد بيان حكم الستر للمرأة من هاتين الناحيتين، وهي غير ناظرة إلى علاقة المرأة مع زوجها، وذكرت الزوج في ضمن «المجتمع الأسري»، لأنّه لا ينفك عنه، فهو داخل فيه على كل حال، فذكره هنا كان باعتبار أنّه أحد أفراد هذا المجتمع لا باعتبار أنّه أحد ركني «المجتمع الزوجي». ولهذا نرى أنّ هناك كثيراً من الآيات تحدّثت عن علاقة الزوج بالزوجة وحددت أحكام المجتمع الزوجي وضوابطه في موارد عديدة بمعزل عن ذكر المحارم، أو أي أحد آخر، فإنّ «المجتمع الزوجي» قائم بركنين فقط هما الزوج والزوجة قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾⁽¹⁾.

وقال أيضاً في مورد الزوجين: ﴿هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ هُنَّ﴾⁽²⁾.

وبعد هذا الإيضاح.. فقد قالت الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ...﴾، والزينة هنا هي الزينة عينها التي مرّت بنا سابقاً، والتي منعت المرأة هناك من إبدائها - وهي مواضع الزينة - أباح لها إبداءها أمام المذكورين في الآية الكريمة ووسّع عليها من هذه

(1) الروم: 21.

(2) البقرة: 187.

ويبقى الكلام، في ذيل الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لقد قدمنا سابقاً ما كانت عليه عادة بعض النساء وما كن يقمن به من ضرب أرجلهن، لكي يلفتن نظر الرجال واهتمامهم، فجاءت هذه الآية لتنهى عن هذه العادة بشكل صريح، ويمكن أن يفهم هنا أن النهي عن هذه العادة ليس نهياً مختصاً بها، بل يمكن - بقرينة التعليل المذكور في الآية - أن نعمم النهي إلى كل ما يلفت الرجل، أو بالأحرى إلى كل ما يمكن أن تلفت به المرأة الرجل من لبس للثياب المثيرة وإن كانت ساترة للجسد كله، أو طريقة المشي المثيرة للرجل أو استعمال العطور أو «الماكياج» المثير، إلى ما هنالك من أمور تقع في هذا التعليل.

فنخلص، مما تقدم، أنّ الآية الكريمة جاءت في سياق تبين فيه حدود لبس المرأة، والصيغة التي جاءت فيها واضحة في الأمر، ولا مجال لحملها على غيره، كما أنّ النواهي فيها أيضاً واضحة في النهي، ولا مجال لحمله على غير ذلك، فتبين أنّ ما يجب للمرأة ستره أمام الرجل الأجنبي، أو في «المجتمع العام» هو الجسد كله باستثناء الوجه والكفين والقدمين، أمّا ما يجب ستره أمام المذكورين في الآية من محارم وغيرهم فهو الجسد باستثناء مواضع الزينة.

سؤال: هل هناك دليل من نص أو آية أو دليل على استحباب قول «أشهد أنّ علياً ولي الله» في الأذان؟

جواب: اتفق الفقهاء على أنّه لا يوجد نص صريح أو ظاهر لهذه المسألة. وسنحاول أن نعرض المسألة في ثلاثة محاور:

- 1 - ما جاء في التاريخ.
- 2 - رأي العلماء من القرن الرابع إلى القرن العاشر.
- 3 - رأي العلماء بعد القرن العاشر.

المقام الأول: ما جاء في كتب التاريخ:

هناك مظاهر متعددة في بعض الأماكن فيما يتعلق بإعلان الشهادة الثالثة في الأذان، أو التصريح بـ «محمد وآله خير البرية» وما شابهها، وإليك بعض النماذج منها:

في العراق: قال التنوخي: أخبرني أبو الفرج الأصفهاني - المتوفى 356هـ - قال: سمعت رجلاً من القطيعة⁽¹⁾، يؤذن: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن علياً ولي الله، محمد وعلي خير البشر، فمن أبى فقد كفر، ومن رضي فقد شكر، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على خير العمل، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله⁽²⁾.

وقال ابن الأثير: «...في هذه السنة في صفر تجددت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعنة وعظمت أضعاف ما كانت قديماً، فكان الاتفاق الذي ذكرناه في السنة الماضية غير مأمون الانتقاض لما في الصدور من الإحن، وكان سبب هذه الفتنة أن أهل الكرخ شرعوا في عمل باب السماكين، وأهل

(1) والظاهر أن هذه الكلمة مصحفة عن القطيعة وهي الفرقة التي قطعت بموت موسى ابن جعفر وإمامة علي بن موسى الرضا عليه السلام، وهم في مقابل الواقفية التي وقفت على إمامة موسى بن جعفر الكاظم ولم تقل بإمامة من بعده، وهو اصطلاح للشيعنة الإثني عشرية (فرق الشيعنة، لسعد بن عبد الله القمي: ص 86، وفرق الشيعنة للتوبختي: ص 90).

ورجح محقق الكتاب أن يكون المقصود من القطيعة هي قطيعة أم جعفر، وهي حلة ببغداد عند باب التبن وهو الموضع الذي فيه مشهد الإمام موسى بن جعفر، وعلى فرض صحة هذا الاحتمال، فقد كانت من الأماكن التي يقطنها الشيعنة الإمامية الإثنا عشرية؛ قال الحموي: «وأهل الكرخ كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سني البتة» (معجم البلدان: ج 4 ص 448).

وفي قطيعة أم جعفر جامع جدّه الشريف أبو أحمد الموسوي - والد الشريفين المرتضى والرضي - وصل الناس فيه. (البداية والنهاية، لابن كثير: ج 11 ص 307).

وذكر المؤرخون في حوادث سنة 353هـ: في العاشر من محرم عملت الشيعنة المأتم على الحسين عليه السلام، وعظمت الأسواق وأقامت النوح «فلما أضحى النهار وقعت فتنة عظيمة في قطيعة أم جعفر وطريق مقابر قريش بين السنة والشيعنة، ونهب الناس بعضهم بعضاً ووقعت بينهم جراحات» (المنتظم: ج 7 ص 19).

(2) نشوار المحاضرة: ج 2 ص 133.

القلائن في عمل ما بقي من باب مسعود، ففرغ أهل الكرخ، وعملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذهب: (محمد وعلي خير البشر)؛ وأنكر السنيّة ذلك وادّعوا أنّ المكتوب: (محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر)؛ وأنكر أهل الكرخ الزيادة وقالوا: ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا فيما نكتبه على مساجدنا، فأرسل الخليفة القائم بأمر الله أبا تمام نقيب العباسيين، ونقيب العلويين وهو عدنان بن الرضي، لكشف الحال وإنهائه، فكتباً بتصديق قول الكرخيين، فأمر حينئذ الخليفة ونواب الرحيم بكفّ القتال، فلم يقبلوا. وانتدب ابن المذهب القاضي، والزهيري، وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبد الصمد بحمل العامة على الإغراق في الفتنة، فأمسك نواب الملك الرحيم عن كفهم غيظاً من رئيس الرؤساء ليله إلى الحنابلة، ومنع هؤلاء السنّة من حمل الماء من دجلة إلى الكرخ، وكان نهر عيسى قد انفتح بثقّة، فعظم الأمر عليهم، وانتدب جماعة منهم وقصدوا دجلة وحملوا الماء وجعلوه في الظروف، وصبّوا عليه ماء الورد، ونادوا: الماء للسبيل؛ فأغروا بهم السنّة.

وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة، فمحو: (خير البشر)، وكتبوا: (علي)، فقالت السنّة: لا نرضى إلا أن يُقلع الأجر الذي عليه (محمد وعلي) وأن لا يؤدّن: (حي على خير العمل)؛ وامتنع الشيعة من ذلك، ودام القتال إلى ثالث ربيع الأول، وقُتل فيه رجل هاشمي من السنيّة، فحملة أهله على نعش، وطافوا به في الحربية، وباب البصرة، وسائر محال السنّة، واستنّفروا الناس للأخذ بثأره، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل، وقد اجتمع معهم خلق كثير أضعاف ما تقدم.

فلما رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التبن فأغلق بابه، فنقبوا في سوره وتهدّدوا البواب، فخافهم وفتح الباب فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضة وستور وغير ذلك، ونهبوا ما في التبر والدور، وأدركهم الليل فعادوا.

فلما كان الغد كثر الجمع، فقصدوا المشهد، وأحرقوا جميع التبر والأراج، واحترق ضريح موسى، وضريح ابن ابنه محمد بن علي الجواد، والقبتان الساج اللتان عليهما، واحترق ما يقابلهما ويجاورهما من قبور ملوك

بني بويه، معز الدولة، وجلال الدولة، ومن قبور الوزراء والرؤساء، وقبر جعفر بن أبي جعفر المنصور، وقبر الأمين محمد بن الرشيد، وقبر أمه زبيدة، وجرى من الأمر الفظيع ما لم يجر في الدنيا مثله. فلما كان الغد خامس الشهر عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمد بن علي لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه.

وسمع أبو تمام نقيب العباسيين وغيره من الهاشميين السنية الخبر، فجأؤوا ومنعوا عن ذلك، وقصد أهل الكرخ إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه، وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعد السرخسي، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء. وتعدت الفتنة إلى الجانب الشرقي، فاقتتل أهل باب الطاق وسوق بَج، والأساكفة، وغيرهم.

ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دُبَّيس بن مَزِيد عظم عليه واشتد وبلغ منه كل مبلغ؛ لأنه وأهل بيته وسائر أعماله من النيل وتلك الولاية كلهم شيعة، فقطعت في أعماله خطبة الإمام القائم بأمر الله، فروسل في ذلك وعوتب، فاعتذر بأن أهل ولايته شيعة، وانفقوا على ذلك، فلم يمكنه أن يشق عليهم كما إنَّ الخليفة لم يمكنه كف السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا، وأعاد الخطبة إلى حالها»⁽¹⁾.

وفي حمص: قال ابن العديم (ت 660هـ): «...فصار [صاحب الخال] إلى حمص ودُعي له بكورها وأمرهم أن يصلوا الجمعة أربع ركعات، وأن يخطبوا بعد الظهر ويكون أذانهم: أشهد أنّ محمداً رسول الله، أشهد أنّ علياً ولي الله، حي على خير العمل»⁽²⁾.

وفي مصر: وجاء في كتاب (أخبار بني عبيد) لمحمد بن علي بن حماد في ترجمة عبيد الله المهدي - مؤسس الدولة العبيدية في مصر - : «...وكان مما أحدث عبيد الله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبله، وقتت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من أذان صلاة الصبح: الصلاة خير من النوم،

(1) الكامل في التاريخ: ج 8 ص 59 - 60 حوادث سنة 443.

(2) بغية الطلب: ج 2 ص 944.

وزاد حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر، ونص الأذان طول مدة بني عبید بعد التكبير والتشهدین: حي على الصلاة، حي على الفلاح مرتین، حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر مرتین مرتین، لا إله إلا الله مرة⁽¹⁾.

وقال المقریزي في خططه: «... وأول من قال في الأذان بالليل: (محمد وعلي خير البشر) الحسين المعروف بأمر ابن شكنبة، ويقال اشكنبة، وهو اسم أعجمي معناه: الكرش، وهو: علي بن محمد بن علي بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أول تأذینه بذلك في أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، قاله الشريف محمد بن أسعد الجوباني النسابة. ولم يزل الأذان بحلب يزداد فيه (حي على خير العمل، ومحمد وعلي خير البشر) إلى أيام نور الدين محمود، فلما فتح المدرسة الكبيرة المعروفة بالحلاوية استدعى أبا الحسن علي بن الحسن بن محمد البلخي الحنفي إليها، فجاء ومعه جماعة من الفقهاء، وألقى بها الدروس، فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان وقال لهم: مُرُّوهم يؤذِنوا الأذان المشروع، ومن امتنع كُتِبَوه على رأسه، فصعدوا وفعلوا ما أمرهم به، واستمر الأمر على ذلك.

وأما مصر فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم [يعني الشيعة الفاطميين] إلى أن استبدَّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطنة ديار مصر وأزال الدولة الفاطمية في سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان ينتحل مذهب الإمام الشافعي رحمته الله وعقيدة الشيخ أبي الحسن الأشعري، فأبطل الأذان بـ(حي على خير العمل) وصار يؤذِن في سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة، وفيه تربيعة التكبير وترجيعة الشهادتين، فاستمر الأمر على ذلك إلى أن بنت الأتراك المدارس بديار مصر وانتشر مذهب أبي حنيفة في مصر، فصار يؤذِن في بعض المدارس التي للحنفية بأذان أهل الكوفة، وتقام الصلاة أيضاً على رأيهم⁽²⁾.

(1) أخبار بني عبید: ج 1 ص 50.

(2) خطط المقریزي: ج 2 ص 271 - 272.

وتكلم المقرئ في (اتعاظ الحنفاء) عن أبي علي أحمد بن الأفضل، فقال: «وكان إمامياً متشدداً فالتفت عليه الإمامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامي وتزايد الأمر فيه إلى التأذين فانفعل بهم، وحسنوا له الدعوة للقائم المنتظر ف ضرب الدراهم باسمه ونقش عليها (الله الصمد، الإمام محمد)... إلى أن يقول:... وكان قد أسقط منذ إقامة الجند ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الطائفة الإسماعيلية، وأزال من الأذان قولهم فيه (حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر)، وأسقط ذكر الحافظ من الخطبة، واخترع لنفسه دعاءً يُدعى به على المنابر...»⁽¹⁾.

وفي (المواعظ والاعتبار) قال: «...ولما تغلب أبو علي بن كتيفات بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي على رتبة الوزارة في أيام الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله في سادس عشر ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسة، سجن الحافظ وقيده، واستولى على سائر ما في القصر من الأموال والذخائر، وحملها إلى دار الوزارة، وكان إمامياً متشدداً في ذلك، خالف ما عليه الدولة من مذهب الإسماعيلية، وأظهر الدعاء للإمام المنتظر، وأزال من الأذان (حي على خير العمل) وقولهم (محمد وعلي خير البشر)، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الذي تنتسب إليه الإسماعيلية، فلما قتل في سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسة عاد الأمر إلى الخليفة الحافظ وأعيد إلى الأذان ما كان أسقط منه»⁽²⁾.

وقال القلقشندي: «...قال المؤرخ: ولعشر مضي من ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسة أمر الملك الناصر [أي صلاح الدين الأيوبي] أن يسقط من الأذان قولهم (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر) وكانت أول وصمة دخلت على الشيعة والدولة العبيدية، ويسوا بعدها من خير يصل إليهم من الملك الناصر، ثم أمر أن يذكر في الخطبة بكلام

(1) اتعاظ الحنفاء في تاريخ الأئمة الخلفاء: ج 3 ص 143، وبدائع الزهور لابن إباص.
(2) المواعظ والاعتبار للمقرئ: ج 2 ص 271، وأنظر قصة قتل أبي علي بن كتيفات في الكامل في التاريخ: ج 8 ص 334 أحداث سنة 526هـ.

مجمل، ليلبس على الشيعة والعامّة: اللهم أصلح العاضد لدينك...»⁽¹⁾.

وفي الشام: وما يجب الإشارة إليه أنّ دولة سيف الدولة الحمداني (المتوفى سنة 356هـ) اتسعت وشملت حلب وأنطاكية وقنّسرين ومنبج وبالس ومعرة النعمان ومعرة مصرين، وسرمين، وكفر طاب، وافامية، وعزاز، وحماة، وحمص، وطرطوس، ثم تولى بعده أخوه ناصر الدولة وكانت دولة شيعية اثني عشرية تعلن عن معتقداتها وآرائها.

روى ابن ظافر في أحداث سنة أربع وخمسين وثلاثمائة أنّ سيف الدولة صاهر أخاه ناصر الدولة، فزوج ابنيه أبا المكارم وأبا المعالي بابنتي ناصر الدولة، وزوج أبا تغلب بابنته (ست الناس) وضرب دنانير كبيرة، في كل دينار منها ثلاثون ديناراً وعشرون وعشرة عليها مكتوب: (لا إله إلا الله محمد رسول الله. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فاطمة الزهراء. الحسن. الحسين. جبريل عليه السلام). وعلى الجانب الآخر (أمير المؤمنين المطيع لله. الأميران الفاضلان: ناصر الدولة، سيف الدولة. الأميران أبو تغلب وأبو المكارم)⁽²⁾.

وفي حلب: وقال أبو الفداء في (اليواقيت والضرب في تاريخ حلب): «... وأقام سعد الدولة يحاصر القلعة مدة حتى نفذ ما فيها من القوت، فسلمها بكجور إليه في شهر ربيع الآخر سنة 367، وولى سعد الدولة بكجور حمص وجندها. وكان تقرير أمر بكجور بين سعد الدولة وبينه على يد أبي الحسن علي بن الحسين المغربي الكاتب والد الوزير أبي القاسم. واستقر أمر سعد الدولة بحلب، وجدّد الحلبيون عمارة المسجد الجامع بحلب، وزادوا في عمارة الأسوار في سنة 367 وغير سعد الدولة الأذان بحلب وزاد فيه (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)، وقيل إنّه فعل ذلك في سنة 369 وقيل سنة 58،⁽³⁾.

وقال المقرئزي: «... وأول من قال في الأذان بالليل: (محمد وعلي خير البشر) الحسين المعروف بأمر ابن شكنبة، ويقال اشكنبة، وهو اسم

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب: الفن 5 / القسم 5 / الباب 12 أخبار الملوك العبيديين.

(2) أعيان الشيعة: ج 8 ص 269.

(3) اليواقيت والضرب: ص 134.

أعجمي معناه: الكرش، وهو: علي بن محمد بن علي بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أول تأذينه بذلك في أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، قاله الشريف محمد بن أسعد الجوباني النسابة. ولم يزل الأذان بحلب يزاد فيه (حي على خير العمل، ومحمد وعلي خير البشر) إلى أيام نور الدين محمود...⁽¹⁾.

واشتد المرض في شهر رمضان بنور الدين وخاف على نفسه، فاستدعى أخاه نصر الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدمين، وأوصى إليهم وقرر أن يكون أخوه نصر الدين القائم في منصبه من بعده ويكون مقيماً في حلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصر الدين... واتفق وصول نصر الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب...، ودخل نصر الدين في أصحابه وحصل في البلد، وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والإنكار والوعيد، واقترحوا على نصر الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر) فأجابهم إلى ما رغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعد...⁽²⁾.

وفي (زبدة الحلب من تاريخ حلب) : «... ثم عاد نور الدين إلى حلب فمرض بها في سنة أربع وخمسين مرضاً شديداً بقلعتها، وأشفى على الموت، وكان بحلب أخوه الأصغر نصر الدين أمير أميران محمد بن زنكي، وأرجف بموت نور الدين، فجمع أمير أميران الناس واستمال الحلبي وملك المدينة دون القلعة، وأذن للشيعنة أن يزيدوا في الأذان (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر) على عادتهم من قبل، فمالوا إليه لذلك»⁽³⁾.

وفي اليمامة (سنة 394): وذكر الرحالة ناصر خسرو المروزي المتوفى سنة 450هـ في رحلته وعند حديثه عن أحوال مدينة اليمامة: «...وأمرؤها علويون منذ القديم، ولم ينتزع أحد هذه الولاية منهم... ومذهبهم الزيدية،

(1) خطط المقرئ: ج 2 ص 271 - 272.

(2) الروضتين في أخبار الدولتين: ج 1 ص 347، وبغية الطلب في تاريخ حلب: ج 4 ص 2024.

(3) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم: ج 2 ص 486.

ويقولون في الإقامة (محمد وعلي خير البشر وحي على خير العمل) «⁽¹⁾».

وفي القطيف (سنة 729هـ): ذكر ابن بطوطة في رحلته سفره إلى القطيف، فقال: «ثم سافرنا إلى مدينة القطيف، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير، يسكنها طوائف العرب، وهم رافضية غلاة، يظهرون الرفض جهاراً لا يتقون أحداً، ويقول مؤذنبهم في أذانه بعد الشهادتين: (أشهد أنّ علياً ولي الله)، ويزيد بعد الحيعلتين (حي على خير العمل) ويزيد بعد التكبير الأخير: (محمد وعلي خير البشر من خالفها فقد كفر)»⁽²⁾.

المقام الثاني: رأي العلماء من القرن الرابع إلى القرن العاشر:

وفيه رأيان:

الرأي الأول: جواز الإتيان بذكر «محمد وعلي خير البشر» في الأذان ولكن لا على كونه جزءاً من الأذان، وقد تفرد بهذه المسألة الشريف المرتضى (ت 434هـ)، والقاضي ابن البرّاج:

فقد سئل الشريف المرتضى: هل يجب في الأذان بعد قول حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر؟ فأجاب قائلاً: إن قال: محمد وعلي خير البشر - على أنّ ذلك من قوله خارج من لفظ الأذان جاز⁽³⁾.

وأفتى القاضي ابن البرّاج باستحباب ذكر هذا التفسير، فقال: ويستحب لمن أدّن أو أقام أن يقول في نفسه عند حي على خير العمل: آل محمّد خير البرية، مرتين⁽⁴⁾.

الرأي الثاني: وفيه جهتان:

الجهة الأولى: ذهب قاطبة علماء هذه الفترة إلى رفض إعلان الشهادة الثالثة في الأذان. ونعني بالرفض - هنا - الأعم من الحرمة والكراهة.

(1) سفرنامه ناصر خسرو: ص 122.

(2) رحلة ابن بطوطة: ص 186.

(3) رسائل المرتضى: ج 1 ص 279، مسألة 17، وجواهر الفقه لابن البرّاج: ص 257 مسألة 15.

(4) المهذب ج 1 ص 90 باب الأذان والإقامة وأحكامها.

وإليك ما جاء في كلماتهم:

1 - الشيخ الصدوق (ت 381هـ) قال: «المفوضة - لعنهم الله - قد وضعوا أخباراً وزادوا بها في الأذان محمد وآل محمد خير البرية مرتين، وفي بعض رواياتهم بعد أشهد أنّ محمداً رسول الله، أشهد أنّ علياً ولي الله مرتين، ومنهم من روى بدل ذلك أشهد أنّ علياً أمير المؤمنين حقاً مرتين، ولا شك أنّ علياً ولي الله وآته أمير المؤمنين حقاً، وأنّ محمداً وآله خير البرية ولكن ذلك ليس في أصل الأذان»⁽¹⁾.

2 - الشيخ الطوسي (ت 460هـ) قال: «فأما ما روي في شواذ الأخبار من قول: أنّ علياً ولي الله وآل محمد خير البرية، فمما لا يعمل عليه في الأذان والإقامة، فمن عمل به كان مخطئاً»⁽²⁾.

وقال في المبسوط: فأما قول: أشهد أنّ علياً أمير المؤمنين وآل محمد خير البرية، على ما ورد في شواذ الأخبار فليس بمعمول في الأذان، ولو فعله الإنسان لم يَأثم به، غير أنّه ليس من فضيلة الأذان ولا كمال فصوله»⁽³⁾.

3 - يحيى بن سعيد الحلبي (ت 690هـ) قال: «والمروي في شاذ الأخبار من قول: أنّ علياً ولي الله، وآل محمد خير البرية فليس بمعمول عليه»⁽⁴⁾.

4 - العلامة الحلبي (ت 726هـ) قال: «وأما ما روي في الشاذ من قوله: أنّ علياً ولي الله، وأنّ محمداً وآله خير البرية مما لا يعول عليه. قال الشيخ في المبسوط: فإن فعله لم يكن آثماً، وقال في النهاية: كان مخطئاً»⁽⁵⁾.

(1) من لا يحضره الفقيه: ج 1 ص 188 ذيل الحديث 897، ووسائل الشيعة: ج 4 ص 648 أبواب الأذان ب 19 ح 25.

(2) النهاية: ص 69.

(3) المبسوط: ج 1 ص 99.

(4) الجامع للشرائع: ص 73.

(5) منتهى المطلب: ج 1 ص 255.

وقال أيضاً: «وأما ما روي في شواذ الأخبار من قول: أنّ علياً ولي الله وآل محمد خير البرية، فمما لا يعمل عليه في الأذان، فمن عمل به كان مخطئاً»⁽¹⁾.

وقال أيضاً: «ولا يجوز قول: إنّ علياً ولي الله، وآل محمد خير البرية في فصول الأذان؛ لعدم مشروعيته»⁽²⁾.

5 - الشهيد الأول (ت 786هـ) قال: «وأما الشهادة لعلي عليه السلام بالولاية، وأنّ محمداً وآله خير البرية، فهما من أحكام الإيمان لا من ألفاظ الأذان، وقطع في النهاية بتخطئة قائله، ونسبه ابن بابويه إلى وضع المفوضة، وفي المبسوط: لا يَأْتُم به»⁽³⁾.

وقال أيضاً: «قال الشيخ: وأما ما روي في شواذ الأخبار من قول علياً ولي الله وآل محمد خير البرية، مما لا يعمل عليه في الأذان، ومن عمل به كان مخطئاً. وقال في المبسوط: لو فعل لم يَأْتُم به. وقال ابن بابويه: والمفوضة روي أخباراً وضعوها في الأذان «محمد وآل محمد خير البرية، وأشهد أنّ علياً ولي الله، وأنّ علياً أمير المؤمنين حقاً حقاً» ولا شك أنّ علياً ولي الله وآل محمد خير البرية وليس ذلك في أصل الأذان. قال: وإتيا ذكرت ذلك ليعرف بهذه الزيادة المتهمون المدلسون أنفسهم في جملتنا»⁽⁴⁾.

وقال أيضاً: «ولا يجوز اعتقاد شرعية غير هذه في الأذان والإقامة كالشهاد بالولاية وأنّ محمداً وآله خير البرية وإن كان الواقع كذلك»⁽⁵⁾.

6 - الشهيد الثاني (ت 965هـ)، قال في رده على ما جاء في اللمعة: «فما كل واقع حقاً يجوز إدخاله في العبادات الموظفة شرعاً، المحدودة من الله تعالى فيكون إدخال ذلك فيها بدعة وتشريعاً، كما لو زاد في الصلاة

(1) تذكرة الفقهاء: ج 3 ص 45.

(2) نهاية الأحكام: ج 1 ص 412.

(3) الدروس: ج 1 ص 162.

(4) ذكرى الشيعة: ج 3 ص 202 - 203.

(5) اللمعة: ص 28.

ركعة أو تشهداً..»⁽¹⁾.

وقال أيضاً: «وأما إضافة أنّ علياً ولي الله، وآل محمد خير البرية، ونحو ذلك فبدعة، وأخبارها موضوعة وإن كانوا عليه السلام خير البرية؛ إذ ليس الكلام فيه، بل في إدخاله في فصول الأذان المتلقى من الوحي الإلهي، وليس كل كلمة حق يسوغ إدخالها في العبادات الموظفة شرعاً»⁽²⁾.

وقال أيضاً: «كما يحرم زيادة محمد وآله خير البرية، وإن كانوا عليه السلام خير البرية»⁽³⁾.

7 - المحقق الأردبيلي (ت 993هـ) قال: «ثم قال (أي الشيخ الصدوق): «هذا هو الأذان الصحيح، لا يزداد ولا ينقص منه، والمفوضة - لعنهم الله - قد وضعوا أخباراً وزادوا في الأذان محمد وآل محمد خير البرية، مرتين، وفي بعض رواياتهم بعد أشهد أنّ محمداً رسول الله، أشهد أنّ علياً ولي الله، مرتين، ومنهم من روى بدل ذلك أشهد أنّ علياً أمير المؤمنين حقاً، مرتين. ولا شك أنّ علياً ولي الله وأنه أمير المؤمنين حقاً، وأنّ محمداً وآله خير البرية ولكن ذلك ليس في أصل الأذان، وإنّما ذكرت ذلك ليعرف بهذه الزيادة المتهمون المدلسون أنفسهم في جملتنا» فينبغي إتباعه لأنه الحق، ولهذا يُشْتَع على الثاني بالتغيير في الأذان الذي كان في زمانه عليه السلام فلا يَنْبَغِي ارتكاب مثله مع التشنيع عليه»⁽⁴⁾.

8 - السيد محمد العاملي (ت 1009هـ) قال: «الأذان سنة متلقاة من الشارع كسائر العبادات فتكون الزيادة فيه تشريعاً محرماً، كما تحرم زيادة: أنّ محمداً وآله خير البرية، فإنّ ذلك وإن كان من أحكام الإيمان إلا أنّه ليس من فصول الأذان»⁽⁵⁾.

9 - المولى محمد باقر السبزواري (ت 1090هـ) قال: «وأما إضافة أنّ

(1) الروضة البهية: ج 1 ص 573.

(2) روض الجنان: ج 2 ص 646.

(3) مسالك الأفهام: ج 1 ص 190.

(4) مجمع الفائدة والبرهان: ج 2 ص 181.

(5) مدارك الأحكام: ج 3 ص 290.

علياً ولي الله، وآل محمد خير البرية، وأمثال ذلك فقد صرح الأصحاب بكونها بدعة وإن كان حقاً صحيحاً؛ إذ الكلام في دخولها في الأذان موقوف على التوقيف الشرعي، ولم يثبت⁽¹⁾.

10 - الفيض الكاشاني (ت 1091هـ)، قال في (باب ما يكره في الأذان والإقامة): «ومن الكلام المكروه الترجيع لغير تقية أو إشعار،... وكذا التثويب،... وكذا غير ذلك من الكلام وإن كان حقاً بل كان من أحكام الإيمان؛ لأنّ ذلك كله مخالف للسنة، فإن اعتقده شرعاً فهو حرام»⁽²⁾.

الجهة الثانية: عند ملاحظتنا لبقية كتب المتقدمين نجزم أنّ القليل منها قد تناولت هذه المسألة فيها، حيث لم تذكر هذه المسألة في كثير من الكتب ومنها:

المقنة وبقية الرسائل الفقهية للشيخ المفيد. الوسيلة لابن حمزة. غنية النزوع لابن زهرة الحلبي. السرائر لابن إدريس. إشارة السبق لأبي المجد الحلبي. شرائع الإسلام والمعتبر والمختصر النافع للمحقق الحلي. جامع الوفاق والخلاف لعلي بن محمد القمي. إيضاح الفوائد لفخر المحققين. المقتصر والرسائل العشر لابن فهد الحلي. التنقيح الرائع للمقداد السيوري. غاية المرام للصيمري. خلاصة التنقيح لابن فهد الأحسائي. جامع المقاصد للمحقق الكركي. كفاية الأحكام للفقيه السبزواري. كشف اللثام للفاضل الهندي.

ونستغرب من مثل المحقق السيد علي الميلاني الذي قال ما نصه: «أما في أصحابنا، فلم أجد أحداً، لا من السابقين ولا من اللاحقين، من كبار فقهاءنا ومراجع التقليد، لم أجد أحداً يفتي بعدم جواز الشهادة بولاية أمير المؤمنين في الأذان، ومن يتتبع ويستقصي أقوال العلماء منذ أكثر من ألف سنة وإلى يومنا هذا، ويراجع كتبهم ورسائلهم العملية، لا يجد

(1) ذخيرة المعاد: ص 254.

(2) مفاتيح الشرائع: ج 1 ص 118 رقم 135.

فتوى بعدم جواز هذه الشهادة»⁽¹⁾.

ويردّ عليه ما أسردناه من أقوال المتقدمين والمتأخرين من علماء الطائفة، والتي يستفاد من بعضها المنع، وكونها بدعة.

المقام الثالث: الشهادة الثالثة وأراء الفقهاء بعد القرن العاشر:

اتفق علماء الشيعة منذ القرن الحادي عشر على جواز ذكر الشهادة الثالثة عقيب الشهادتين في الأذان والإقامة، بل أكدوا على استحبابها بالاستحباب العام، وفيما يلي نشير إلى أسماء العلماء الذين سجّلوا في كتبهم الاستدلالية ورسائلهم العملية آراءهم واعتقادهم، مرتبين على سنّهم وفياتهم:

- 1 - الشيخ محمد باقر المجلسي (ت 1110هـ).
- 2 - الشيخ يوسف البحراني (ت 1286 هـ).
- 3 - المولى محمد باقر الوحيد البهبهاني المولى محمد باقر (ت 1206هـ).
- 4 - السيد محمد مهدي بحر العلوم (ت 1212 هـ).
- 5 - الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت 1328 هـ) - وربما يعتبر كلامه **تَبَيَّنَ** أجمع كلام في هذه المسألة - حيث قال:
«وليس من الأذان قول: «أشهد أنّ علياً ولي الله» أو «أنّ محمداً وآله خير البرية» و«أنّ علياً أمير المؤمنين حقاً» مرتين مرتين؛ لأنّه من وضع المفوّضة - لعنهم الله - على ما قاله الصدوق.
ولما في النهاية: إنّ ما روي أنّ منه: «أنّ علياً ولي الله، وأنّ محمداً وآله خير البشر أو البرية» من شواذ الأخبار، لا يعمل عليه.
وفي المبسوط: قول: «أشهد أنّ علياً أمير المؤمنين عليه السلام وآل محمد خير البرية» من الشاذ لا يُعوّل عليه.
وما في المنتهى: ما روي: من أنّ قول: «أنّ علياً ولي الله، وآل محمد

(1) الشهادة بالولاية في الأذان: ص 8 - 9 رقم 135.

خير البرية، من الأذان من الشاذ لا يُعوّل عليه.

ثم إنّ خروجه من الأذان من المقطوع به؛ لإجماع الإمامية من غير كبير، حتى لم يذكره ذاكر بكتاب، ولا فاه به أحد من قدماء الأصحاب.

ولأنّه وضع لشعائر الإسلام، دون الإيثار ولذا ترك فيه ذكر باقي الأئمة عليهم السلام.

ولأنّ أمير المؤمنين عليه السلام حين نزوله كان رعيّة للنبي صلى الله عليه وآله، فلا يذكر على المنابر.

ولأنّ ثبوت الوجوب للصلاة المأمور بها موقوف على التوحيد والنبوة فقط.

على أنّه لو كان ظاهراً في مبدأ الإسلام، لكان في مبدأ النبوة من الفترة ما كان في الختام، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله مكرراً في نصبه للخلافة، والنبي صلى الله عليه وآله يستعفي؛ حذراً من المنافقين، حتى جاءه التشديد من رب العالمين.

ومن حاول جعله من شعائر الإيثار، لزمه ذكر الأئمة عليهم السلام ولأنّه لو كان من فصول الأذان، لنقل بالتواتر في هذا الزمان، ولم يخفّ على أحد من آحاد نوع الإنسان.

وإنّما هو من وضع المفوضة الكفار، المستوجبين الخلود في النار، كما رواه الصدوق، وجعله الشيخ والعلامة من شواذ الأخبار كما مر.

وروي عن الصادق عليه السلام: «أنّه من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فليقل: علي أمير المؤمنين».

ولعل المفوضة أرادوا أنّ الله تعالى فوّض الخلق إلى علي عليه السلام، فساعده على الخلق، فكان ولياً ومعيناً.

فمن أتى بذلك قاصداً به التأذين، فقد شرع في الدين. ومن قصده جزءاً من الأذان في الابتداء. بطل أذانه بتمامه. وكذا كلما انضم إليه في

القصد. ولو اختص بالقصد، صح ما عداه.

ومن قصد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام لرجحانه في ذاته، أو مع ذكر سيد المرسلين أثيب على ذلك.

لكن صفة الولاية ليس لها مزيد شرفية إذا لم تُقرن مع الله ورسوله في الآية الكريمة؛ لحصول القرينة فيها لأن جميع المؤمنين أولياء الله، فلو بدّل بالخليفة بلا فصل، أو بقول أمير المؤمنين، أو بقول: حجة الله تعالى، أو بقول: أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ونحوها، كان أولى.

ثم قول: وإنّ علياً ولي الله، مع ترك لفظ «أشهد» أبعد عن الشبهة. ولو قيل بعد ذكر رسول الله: «صلى الله على محمد سيد المرسلين، وخليفته بلا فصل علي ولي الله أمير المؤمنين» لكان بعيداً عن الإيهام، وأجمع لصفات التعظيم والاحترام⁽¹⁾.

6 - السيد علي الطباطبائي (ت 1231 هـ).

7 - الميرزا أبو القاسم القمي صاحب كتاب القوانين (ت 1231 هـ).

8 - الشيخ أحمد النراقي (ت 1244 هـ).

9 - الميرزا إبراهيم الكرباسي (ت 1261 هـ).

10 - الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر (ت 1266 هـ).

11 - الشيخ مرتضى الأنصاري (ت 1281 هـ).

12 - الشيخ مشكور الحولاوي النجفي (ت 1282 هـ).

13 - الشيخ جعفر الشوشتری (ت 1303 هـ).

14 - الميرزا محمد حسن القمي (ت 1304 هـ).

(1) كشف الغطاء: ج 3 ص 143 - 145. ويفهم من كلامه رحمته أنه متحفظ على أداء الشهادة بالطريقة المتعارفة في زماننا؛ لكي يبتعد الإنسان عن شبهة الزيادة في الأمور التي أوقفها الشارع في صيغة الأذان، ولذا يكتفى بقول: «وإنّ علياً ولي الله» مع ترك لفظ «أشهد». أو قول بعد ذكر رسول الله: «صلى الله على محمد سيد المرسلين، وخليفته بلا فصل علي ولي الله أمير المؤمنين»؛ ليكون بعيداً عن الإيهام، وأجمع لصفات التعظيم والاحترام.

- 15 - الشيخ محمد الإيرواني (ت 1306 هـ).
 - 16 - الشيخ زين العابدين الحائري المازندراني (ت 1309 هـ).
 - 17 - الميرزا الكبير السيد محمد حسن الشيرازي (ت 1312 هـ).
 - 18 - الشيخ آغا رضا الهمداني (ت 1322 هـ).
 - 19 - الشيخ حسن المامقاني (ت 1323 هـ).
 - 20 - السيد محمد بحر العلوم صاحب بلغة الفقيه (ت 1326 هـ).
 - 21 - الآخوند الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب كفاية الأصول (ت 1329 هـ).
 - 22 - السيد محمد كاظم اليزدي (ت 1337).
 - 23 - السيد إسماعيل الصدر العاملي (ت 1338).
 - 24 - الميرزا محمد تقي الشيرازي (ت 1338).
 - 25 - شيخ الشريعة الأصفهاني (ت 1339).
 - 26 - الشيخ أحمد كاشف الغطاء (ت 1344 هـ).
 - 27 - السيد محمد الفيروز آبادي (ت 1346 هـ).
 - 28 - الشيخ عبد الله المامقاني (ت 1351 هـ).
 - 29 - السيد حسن الصدر الكاظمي (ت 1354).
 - 30 - السيد محمد مهدي الصدر الكاظمي (ت 1358).
 - 31 - الميرزا محمد حسين النائيني (ت 1355).
 - 32 - الشيخ محمد حسين الإصفهاني (ت 1361 هـ).
 - 33 - السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني (ت 1365 هـ).
 - 34 - السيد حسين القمي (ت 1366 هـ).
 - 35 - الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت 1373).
- وغيرهم من العلماء...

ومن العلماء المعاصرين فضل السيد الخوئي ثُمَّ (ت 1413 هـ) في

هذه المسألة فقال: «وربما يتمسك لإثبات الاستحباب بقاعدة التسامح نظراً إلى ما سمعته من ورود الشهادة الثالثة في شواذ الأخبار»⁽¹⁾.

وفيه: مضافاً إلى أنّ القاعدة غير تامة في نفسها، إذ لا يثبت بها إلا الثواب دون الاستحباب. لتكون الشهادة من فصول الأذان وأجزائها المستحبة - كما فصلنا البحث حوله في الأصول⁽²⁾ - إنّه على تقدير تسليمها فهي خاصة بصورة بلوغ الثواب فحسب لا بلوغه مع بلوغ عدمه كما في المقام، حيث إنّ الراوي وهو الشيخ والصدوق بلغنا عنه القطع بكذب تلك الرواية وعدم الثواب على الشهادة.

أضف إلى ذلك: إنهما لو كانت جزءاً من الأذان لنقل ذلك عن المعصوم عليه السلام ولفعله ولو مرة واحدة، مع أنّ الروايات الحاكية للأذان خالية عن ذلك بتاتاً.

نعم، قد يقال: إنّ رواية الاحتجاج تدل عليه بصورة العموم فقد روى الطبرسي في الاحتجاج عن القاسم بن معاوية عن الصادق عليه السلام «أنّه إذا قال أحدكم: لا إله إلا الله محمد رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين»⁽³⁾، لكنّها لضعف سندها غير صالحة للاستدلال إلا بناءً على قاعدة التسامح، ولا نقول بها كما عرفت.

ولعل ما في البحار من كون الشهادة من الأجزاء المستحبة⁽⁴⁾ مستند

(1) لم يرتض الفقيه الهمداني تتخذ العمل بقاعدة التسامح في هذا المورد حيث قال: «ولو لا رمي الشيخ والعلامة لهذه الأخبار بالشذوذ وادعاء الصدوق وضعها، لأمكن الالتزام بكون ما تضمنته هذه المراسيل - من الشهادة بالولاية والإمارة وأنّ محمداً وآله خير البرية - من الأجزاء المستحبة للأذان والإقامة، لقاعدة التسامح - إلى أن قال -: ولكنّ التعويل على قاعدة التسامح في مثل المقام - الذي أخبر من نقل إلينا الخبر الضعيف بوضعه أو شذوذه - مشكل، فالأولى أن يشهد لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين بعد الشهادتين قاصداً امتثال العمومات الدالة على استحبابه كالخبر المتقدم، لا الجزئية من الأذان أو الإقامة» (مصباح الفقيه: ج 11 ص 313).

(2) مصباح الأصول: ج 2 ص 319.

(3) الاحتجاج: ج 1 ص 366.

(4) بحار الأنوار: ج 81 ص 111.

إلى هذه الرواية، أو ما عرفته من شهادة الصدوق والشيخ وغيرهما بورود النصرة الشاذة هذا.

ولكن الذي يهون الخطب أننا في غنى من ورود النص، إذ لا شبهة في رجحان الشهادة الثالثة في نفسها بعد أن كانت الولاية من متمات الرسالة ومقومات الإيوان، ومن كمال الدين بمقتضى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾⁽¹⁾ بل من الخمس التي بني عليها الإسلام، ولا سيما وقد أصبحت في هذه الأعصار من أجل أنحاء الشعار وأبرز رموز التشيع .. فهي إذن أمر مرغوب فيه شرعاً وراجح قطعاً في الأذان وغيره، وإن كان الإتيان بها فيه بقصد الجزئية بدعة باطلة وتشريعاً محرماً حسبما عرفت⁽²⁾.

هذا وينبغي التنبيه على أن أكثر فقهاء الشيعة الإمامية المعاصرين رغم قولهم برجحان ذكر الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة، إلا أنهم لم يعدوها جزءاً لهما، غير أن هناك من لم يستبعد جزئيتها لهما، كما أن هناك من صرح بجزئيتها لهما، وهناك من تركها في الأذان والإقامة.

وقد اشتهر عن الفقيه الشيخ محمد نجل الشيخ محمد مهدي الخالصي ترك الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة.

كما كان يوجد في مدينة تبريز - في عهد الحكم القاجاري - جماعة يمنعون بشدة قول: أشهد أن علياً ولي الله⁽³⁾.

وقد وجه سؤال للسيد الخوئي: متى أدخلت (أشهد أن علياً ولي الله) إلى الأذان والإقامة، وهل وردت رواية من المعصوم باستحبابها؟

فأجاب: الرواية واردة باستحباب الشهادة بالولاية له عليه السلام متى شهد بالنبوة، لا في خصوص الأذان والإقامة، ولذا لا نعدّها جزءاً منها، والله العالم.

(1) المائة: 3

(2) شرح العروة الوثقى: ج 13 ص 258 - 260

(3) علم المحجة، للميرزا محمد حسين المامقاني: 241.

سؤال: اشرح لنا كيف أنّ الأكل المشكوك في تذكّيته والمشتري من سوق المسلمين، هل يؤثر في البصيرة والروح أو لا يؤثر؟

جواب:

للبحث ثلاث جهات:

الجهة الأولى: من المبادئ التشريعية التي قررها الدين الإسلامي الحنيف قاعدة «كل شيء لك حلال»، والمعروفة على لسان الفقهاء بـ«أصالة الحلّية» وتعني بها أنّ الأصل فيما خلق الله من منافع ومآكل هو الحلّ والإباحة إلا ما خرج بدليل خاص، وقد استدل فقهاء الإمامية (رحمهم الله) على ذلك بالأدلة الأربعة.

فمن الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽¹⁾.

ومن السنّة الشريفة: صحيحة عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: «كل شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً حتى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه»⁽²⁾.

وبناء على ذلك أفتى الفقهاء بأنّ الأساس في الأشياء مأكولة كانت أو مشروبة الحلّية، إلا ما ورد النص بتحريمه خاصة كالميتة والدم ولحم الخنزير، أو عامة كالمأكولات الضارة وشرب المواد السامة وما إلى ذلك لقاعدة لا ضرر ولا ضرار.

ومن ناحية أخرى قد يصير الحلال بالذات محرّماً بالواسطة كالمغصوب والمنتجس، وقد يصير الحرام بالذات محللاً بالواسطة كأكل الميتة والأطعمة المنتجسة للمضطر.

(1) الأنعام: 145.

(2) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتب به ب 4 ح 1، وأبواب الأطعمة المحرمة ب 63 ح 2.

الجهة الثانية: ومن ناحية أخرى نقرأ قول الله تعالى في سورة عبس:
﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾⁽¹⁾، أي فليُنظر إلى طعامه أحلال هو أم حرام؟ طيب هو أم خبيث؟ نافع هو أم مضر؟ وأن يعرف محل الحاجة والضرورة منه، ويعرف أنه من نعم الله العظيمة عليه.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحرام نار تسعر»⁽²⁾.

وقال عليه السلام: «لحم نبت من الحرام فالنار أولى به»⁽³⁾.

وفي حديث آخر للرسول ﷺ مبيناً فيه الآثار السيئة لأكل الحرام قوله: «إن لله ملكاً ينادي كل ليلة من أكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»⁽⁴⁾.

أضف إلى ذلك الأثر الكبير على الذرية جزاء أكل الحرام، ففي الرواية المعتبرة عن الصادق عليه السلام: «كسب الحرام يبين في الذرية»⁽⁵⁾.

وفي مقابل ذلك نجد أن النبي ﷺ بين أيضاً الآثار الحسنة لأكل الحلال في عدة مقامات نذكر منها قوله: «من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه»⁽⁶⁾.

وسئل الرسول ﷺ مرة من قبل أحد أصحابه أن يجعله مجاب الدعاء فقال له: «أطيب كسبك تُستجاب دعوتك»⁽⁷⁾.

الجهة الثالثة: الطوائف من الروايات في هذا المقام:

واليك دراسة هذه الروايات:

(1) عبس: 145.

(2) مستدرک وسائل الشيعة: ج 16 ص 208 ح 19614.

(3) م.ن.

(4) عدة الداعي: ص 153.

(5) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 1 ح 3.

(6) بحار الأنوار: ج 53 ص 326.

(7) بحار الأنوار: ج 90 ص 358.

الطائفة الأولى: روايات الجبن:

أ - ما رواه عبد الله بن سليمان قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الجبن؟ فقال: «لقد سألتني عن طعام يعجبني، ثم أعطى الغلام درهماً، فقال: يا غلام ابتع لنا جيناً، ثم دعا بالغداء، فتغدينا معه، فأتي بالجبن، فأكل وأكلنا، فلما فرغنا من الغداء قلت: ما تقول في الجبن؟ قال: أو لم ترني أكله؟ قلت: بلى، ولكني أحب أن أسمعه منك، فقال: سأخبرك عن الجبن وغيره، كل ما كان فيه حلال وحرام فهو لك حلال، حتى تعرف الحرام بعينه فتدعه»⁽¹⁾.

والسند نقي إلا في عبدالله بن سليمان، فإنه لم يوثق، ولكن روايات الجبن متضافرة كما ستظهر، مضافاً إلى نقل المشايخ عنه كأبان، وصفوان، وابن أبي عمير وهذا يلحقه بالحسان.

ثم إن قوله: «فيه حلال وحرام» ليس بمعنى احتمال الحلال والحرام، حتى ينطبق على الشبهة البدوية. بل في القسمين، فينطبق على المحصورة وغير المحصورة، والمورد قرينة على الثانية، مضافاً إلى أنّ الترخيص في المحصورة يحتاج إلى التنصيص القاطع للاحتمال؛ لأنّ الترخيص فيه بنظر العرف، ترخيص في المعصية فلا يصار إليه إلا بالدليل الحاسم.

ب - صحيح معاوية بن عمار، عن رجل من أصحابنا، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام: فسأله رجل عن الجبن؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «إنه لطعام يعجبني، فسأخبرك عن الجبن وغيره، كل شيء فيه الحلال والحرام فهو لك حلال، حتى تعرف الحرام، فتدعه بعينه»⁽²⁾.

ومن المحتمل أنّ الرجل السائل هو عبد الله بن سليمان، ويشهد بذلك تقارب ألفاظهما، وقد عرفت مفاد الضابطة.

ج - ما رواه أبو الجارود قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الجبن،

(1) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 1.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 7.

فقلت له: أخبرني من رأى أنه يجعل فيه الميتة؟ فقال: «أمن أجل مكان واحد، يجعل فيه الميتة حرّم في جميع الأرضين؟! إذا علمت أنه ميتة فلا تأكله، وإن لم تعلم فاشترِ وبع وكل، والله أّبي لأعترض السوق، فأشتري بها اللحم والسمن والجبن، والله ما أظنّ كلهم يسمّون، هذه البربر وهذه السودان»⁽¹⁾.

والسند مخدوش بأبي الجارود، ولكن كما قلنا سابقاً: إنّ روايات الجبن متضافرة. نعم، أورد الشيخ الأنصاري على دلالة بوجهين:

1- أنه ظاهر في الشبهة البدوية ببيان أنّ المراد: أنّ جعل الميتة في الجبن في مكان واحد لا يوجب الاجتناب عن جبن غيره من الأماكن، لا أنّه لا يوجب الاجتناب عن كل جبن يحتمل أن يكون من ذلك المكان.

ويلاحظ عليه: أنّ مجموع الروايات الواردة في الجبن حاكية عن ابتلاء الناس بظاهرة جعل الميتة في الجبن وعقد اللين بها، أعني الانفحة المأخوذة عن المعز الميت وأثما كانت متفشية فيها فكان مردداً بين كونه من الميتة وعدمه، ففي ذلك المورد، حكم الإمام عليه السلام بالجواز ومثله لا ينطبق إلا على الشبهة غير المحصورة.

2- أنّ الحلية لأخذه من سوق المسلم بناء على أنّ السوق أمانة شرعية لحلية الجبن المأخوذ منه ولو من يد مجهول الإسلام.

يلاحظ عليه: أنّه لو كانت الحلية مستندة إلى سوق المسلم وأمانة لها فما معنى: «والله ما أظنّ كلهم يسمّون هذه البربر وهذه السودان» فإنّها على طرف النقيض من كون مثل هذه السوق أمانة للحلية فإنّه بصدد تضعيف كونه أمانة، فلا وجه للحلية إلا كون الشبهة غير محصورة.

د - روى عبدالله بن سليمان عن أبي عبد الله عليه السلام في الجبن، قال: «كل شيء لك حلال، حتى يجيئك شاهدان يشهد أنّ فيه ميتة»⁽²⁾.

(1) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 5.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 2.

هـ - روى عبد الله بن سنان، قال: سألت رجل أبا عبد الله عليه السلام عن الجبن؟ فقال: «إن أكله ليعجبني، ثم دعا به فأكله»⁽¹⁾.

ويحتمل اتحاده مع سابقه، وقد نقلنا بالمعنى والاختصار بأن يكون المراد من قوله: «رجل» هو عبد الله بن سليمان، كما يحتمل تغييرهما.

و - ما رواه بكر بن حبيب قال: «سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الجبن، وأنه توضع فيه الأنفحة من الميتة، قال: لا تصلح، ثم أرسل بدرهم، فقال: اشتر من رجل مسلم، ولا تسأله عن شيء»⁽²⁾.

والمسبب للحلية هو كون المورد من قبيل الشبهة غير المحصورة، وأمره بالشراء من مسلم، لأجل رفع غبار الشك عن قلب السائل ليتخذ دليلاً على كونه مذكياً وإن كان الدليل واقعاً غيره ولذلك قال: «ولا تسأله عن شيء».

ز - صحيح حماد بن عيسى، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان أبي يبعث بالدرهم إلى السوق، فيشتري بها جبناً، ويسمي، ويأكل، ولا يسأل عنه»⁽³⁾.

ح - خبر عمر بن أبي شبيب قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجبن؟ قال: كان أبي ذكر له منه شيء فكرهه، ثم أكله، فإذا اشتريته فاقطع، واذكر اسم الله عليه، وكل»⁽⁴⁾.

فمجمّل القول في هذه الروايات أنّ فيها احتمالات:

1- أنّها راجعة إلى الشبهة غير المحصورة.

2- أنّها راجعة إلى الشبهة المحصورة وغيرها، خرج الأولى بالدليل وبقي الثانية.

(1) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 3.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 4.

(3) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 8.

(4) وسائل الشيعة: أبواب الأطعمة المباحة ب 61 ح 6.

3- أنّها راجعة إلى الشبهة البدوية كما احتملها الشيخ في خبر أبي الجارود.

4- أنّ الحلية مستندة إلى سوق المسلم وبده.

والترجيح مع الأول خصوصاً مع ملاحظة المجموع من حيث المجموع مع ملاحظة تفشي ظاهرة جعل الميتة في الجبن.

الطائفة الثانية: جواز شراء الطعام والأنعام من العامل الظالم:

هناك روايات تدل على جواز شراء الطعام والأنعام من العامل الظالم، وهذا المبيع إما زكاة وصدقة أخذه من الفلاحين، وإما خراج الأرض المفتوحة عنوة، المسمى باسم المقاسمة، ومن المعلوم أنّ أموالهم لم تكن نقية من الحرام، ومع ذلك وسّع الإمام المعاملة معه. وإليك بعض الروايات:

أ - صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج قال: قال لي أبو الحسن موسى عليه السلام: «مالك لا تدخل مع علي في شراء الطعام إليّ أظنك ضيقاً، قال: قلت: نعم فإن شئت وسّعت عليّ، قال: اشتره»⁽¹⁾.

وقوله: «فإن شئت وسّعت» ليس دليلاً على أنّ الحلية من باب الولاية، لأنّه واقع في كلام الراوي.

ب - مرسل محمد بن أبي حمزة، عن رجل قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أشتري الطعام فيجيثني من يتظلم ويقول: ظلمني، فقال: اشتره»⁽²⁾.

ج - صحيحة أبي عبيدة (الحذاء)، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سألته عن الرجل منا يشتري من السلطان من إبل الصدقة وغنم الصدقة وهو يعلم أنهم يأخذون منهم أكثر من الحق الذي يجب عليهم؟ قال: فقال: ما الإبل إلا مثل الحنطة والشعير وغير ذلك لا بأس به حتى تعرف الحرام بعينه»⁽³⁾.

واحتفال أنّ التوسيع من باب الولاية، يرده في صحيحة الحذاء حيث

(1) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 52 ح 1.

(2) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 52 ح 3.

(3) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 52 ح 5.

ضرب القاعدة؛ وهو أنّ الشراء ما لم يعلم بعينه.

د - صحيحة معاوية بن وهب، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: اشتري من العامل الشيء وأنا أعلم أنّه يظلم؟ فقال: اشتري منه»⁽¹⁾.

هـ - ما رواه إسحاق بن عمار - مضمراً - قال: «سألته عن الرجل يشتري من العامل وهو يظلم؟ قال: يشتري منه ما لم يعلم أنّه ظلم فيه أحداً»⁽²⁾.

و - ما رواه عبد الرحمن بن أبي عبد الله - مضمراً - قال: «سألته عن الرجل يشتري من العامل وهو يظلم؟ فقال: يشتري منه»⁽³⁾.

ولفظ العامل قرينه على أنّ المبيع كانت زكاة وصدقة، أو خراج ومقاسمة، فقد جوّز الإمام الشراء إلا إذا علم الحرام مشخصاً، ومن المعلوم كون الحرام بالنسبة إلى الحلال كان قليلاً، أشبه بالشبهة غير المحصورة.

الطائفة الثالثة: ما يدل على أخذ جوائز العامل للظالم:

هناك روايات تدل على جواز أخذ العالم جوائز الظالم وأكل طعامه نذكر منها ما يلي:

أ - صحيحة أبي ولاد قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما ترى في رجل يلي أعمال السلطان ليس له مكسب إلا من أعمالهم وأنا أمرّ به فأنزل عليه فيضيفني ويحسن إليّ، وربما أمر لي بالدرهم والكسوة وقد ضاق صدري من ذلك؟ فقال لي: كل وخذ منه، فلك المهّنا، وعليه الوزر»⁽⁴⁾.

ب - صحيحة أبي المعز قال: «سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام وأنا عنده فقال: أصلحك الله أمرّ بالعامل فيجيزني بالدرهم أخذها؟ قال: نعم، قلت: وأحج بها؟ قال: نعم»⁽⁵⁾.

(1) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 52 ح 4.

(2) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 53 ح 2.

(3) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 53 ح 3.

(4) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 51 ح 1.

(5) وسائل الشيعة: أبواب ما يكتسب به ب 51 ح 2، ولاحظ الحديث 3، 5.

الطائفة الرابعة: التصرف في مال مختلط بالربا:

وردت روايات في باب الربا: أنّ من ورث مالاً فيه ربا، لا يجرم عليه إلا إذا عرفه بعينه تقتصر بروايتين صحيحتين:

أ - صحيحة أبي المعز قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لو أنّ رجلاً ورث من أبيه مالاً وقد عرف أنّ في ذلك المال ربا، ولكن اختلط - في التجارة - بغيره حلال كان حلالاً طيباً فليأكله، وإن عرف منه شيئاً أنّه ربا فليأخذ رأس ماله وليردّ الربا»⁽¹⁾.

ب- صحيحة الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أتى رجل أبي عليه السلام فقال: إني ورثت مالاً وقد علمت أنّ صاحبه الذي ورثته منه قد كان يربي، وقد أعرف أنّ فيه ربا واستيقن ذلك، وليس يطيب لي حلاله لحال علمي فيه، وقد سألت فقهاء أهل العراق وأهل الحجاز فقالوا: يحل أكله، فقال أبو جعفر عليه السلام: إن كنت تعلم بأنّ فيه مالاً معروفاً ربا وتعرف أهله فخذ رأس مالك وردّ ما سوى ذلك، وإن كان مختلطاً فكله هنيئاً، فإنّ المال مالك، واجتنب ما كان يصنع صاحبه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد وضع ما مضى من الربا وحرّم عليهم ما بقي، فمن جهل وسع له جهله حتى يعرفه، فإذا عرف تحريمه، حرم عليه»⁽²⁾.

والروايتان ظاهرتان في الشبهة المحصورة، فإذا جاز التصرف فيها ففي غيرها أولى. نعم ليست لها شمول لغير مورد الربا، ولعل التسويغ لأجل التسهيل من باب الربا.

ولعل هذه الروايات، مع بناء العقلاء والسيرة الجارية بين المتشرعة، كافية في رفع اليد عن إطلاق الدليل لو قلنا بأنّ له إطلاقاً لصورة انتشار الحرام بين الكثير..

بعد هذا نقول:

لا نرى تناقضاً بين الجهات المذكورة فإنّ ما يقوم بأثره هو أكل الحرام المعلوم الحرمة، والسبب في ذلك ليس مادة الأكل والطعام، وإلا فالتشريع

(1) وسائل الشيعة: أبواب الربا ب 5 ح 2.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الربا ب 5 ح 3.

الإلهي واضح لبني إسرائيل حيث يقول تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾⁽¹⁾ فما من شأنه ذاتاً أن يؤثر لا يختلف حكمه قبل الإسلام وبعده، كما هو تأثير الشمس وغيره من الذوات.

فمن أكل الطعام اعتماداً على إجراء قاعدة سوق المسلمين⁽²⁾ - مثلاً - فقد أكل طعاماً معترف به في الشريعة المقدسة، فإذا ما عرف بعد ذلك أنه

(1) آل عمران: 93.

(2) هذه القاعدة من القواعد المهمة في حياتنا اليومية؛ حيث نثبت من خلالها حلية أكل اللحوم الموجودة في أسواق البلدان الإسلامية؛ وجواز استعمال الجلود فيما يشترط فيه الطهارة كالصلاة. ويقع البحث حولها في نقاط:

1 - معنى القاعدة: أنه إذا وجدنا ذبيحة في سوق المسلمين وشككنا في تذكيتها فنجري هذه القاعدة؛ لكي نثبت التذكية للحيوان المذبوح، فيجوز أكله واستعمال جلده وجواز الصلاة فيه، فتثبت لنا القاعدة التذكية ولوآزمها؛ أما في سوق غير المسلمين فمع الشك لا تجري القاعدة بل يجري استصحاب عدم التذكية؛ فلا يجوز أكل الذبيحة ولا الصلاة في جلدها.

2 - دليل القاعدة: ويستدل الفقهاء لهذه القاعدة بأمر نذكر أهمها:

أ - سيرة المتشريعة من أصحاب النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام؛ فقد كانوا يأكلون اللحوم ويستعملون الجلود مع عدم علمهم بأن البائع قد ذكّى الذبيحة أو كان ذبحه على الطريقة الشرعية، وهذه السيرة حجة لأنها متلقاة من الشارع المقدس.

ب - إنه إذا لم نقل بحجية سوق المسلمين على التذكية ولوآزمها، للزم منه اختلال النظام للمسلمين، وهذا غير معقول، فيثبت حجية سوق المسلمين.

ج - الروايات الدالة على هذه القاعدة وهي عديدة وأهمها: صحيحة فضيل، وزرارة، ومحمد بن مسلم، حيث سألوا الإمام الباقر عليه السلام عن شراء اللحوم من الأسواق ولا يدري ما صنع القصابون فقال: «كُلْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ سَوْقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْأَلْ عَنْهُ»، وكذا موقفة إسحاق بن عمار عن العبد الصالح عليه السلام قال: «لَا بَأْسَ بِالصَّلَاةِ فِي الْفَرَاءِ الْبَيَّانِي وَفِيهَا صَنَعٌ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ؛ قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا غَيْرُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: إِذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهَا الْمُسْلِمِينَ فَلَا بَأْسَ». وهناك روايات عديدة يمكن ملاحظتها في وسائل الشيعة الباب (50) من أبواب النجاسات.

ويتحصل من هذه الروايات أنه يجوز للإنسان المسلم أن يشتري من سوق المسلمين (البلد الغالب فيه من أهل الإسلام) اللحم ويبني على أنه مذكى، ويصح له استعمال الجلود ولبسها في الصلاة. وفي بعض الروايات أنه لا يجب عليه السؤال أيضاً - كما في صحيحة البرنظي من نفس الباب -، والتعبير الأدق هو: أن يد المسلم تكشف عن كون الذبيحة - مثلاً - مذكاة.

ميتة فلا شيء عليه، ولا أثر لذلك في روحية الإنسان وعبادته، بينما تتأثر هذه العبادة في من تجرأ على الحكم الشرعي وأكل الميتة علماً قاصداً، فإن ذلك من مصاديق أكل الحرام، وله تأثيره على النفس، بل لم يقدم الإنسان على هذا الفعل المحرم إلا وهو حالك النفس.

الا نعتقد نحن المشرعة أنّ الولد الناتج عن وطء الشبهة لا يقال أنّه ولد زنا، مع أنّه أتى من غير أبوين شرعيين؟!!

إذن من قال بتلك المقالة يذهب إلى وجود التهافت بين ما هو محلل شرعاً، وبين ما يؤثره ذلك الشيء على النفس والروح. وهل يعاقب من لم يتجرأ على أكل الحرام، كمن تجرأ على أكل الحرام!!؟

وربما يذهب البعض إلى الاستغراق في أخذ ذلك من مقولة الإمام الحسين عليه السلام وصاحبه حبيب بن مظاهر الأسدي رضي الله عنه عندما وصفا حال جيش بني أمية فقالا: «ملئت بطونكم حراماً».

فماذا تعني هذه الكلمة؟

تعني أنّ أكل الحرام يورث قسوة القلب.. تلك القسوة التي كانت عند شمر وعند عمر بن سعد، وحرملة.. وهي التي نراها عند الجلادين الذين يقتلون الشباب المؤمن في السجون تحت التعذيب.

فالأمة الإسلامية في عصر الإمام الحسين عليه السلام بدأت تنحرف اقتصادياً وكانت تحتاج إلى صيحة قوية، وتلك الصيحة كانت صيحة الحسين عليه السلام.

لقد جاءت ثورة كربلاء لتقول للناس: لقد انحرفتم حينما ارتبطتم بالنظام الاقتصادي، تأكلون الحرام من أجل دراهم معدودات. كما فعل عبيدالله بن زياد الذي أعلن أنّ كل من يذهب إلى قتال الحسين يضاف إلى عطاءه عشرة - ولم يقل ماذا يعني بالعشرة، فزعم الناس عشرة دنائير - فلما عادوا من قتل الحسين قالوا، أين العشرة؟ فأعطاهم عشر تمرات، وقال: هذه عشرة.

ومن هنا يبدأ انحراف الأمة، وانحراف النفس التي تبيع ذاتها من

أجل المال، فهذه النفس لا تساوي فلساً واحداً؛ لأنه حينها ينزل الإنسان لمستوى يبيع نفسه فلا فرق بين أن يبيع نفسه بدينار أو يبيعها بمليون دينار.

وشمر بن ذي الجوشن مثال على ذلك إذ قال لابن زياد:

املاً ركابي فضة أو ذهباً لقد قتلت الرجل المحجبا

قتلت خير الناس أمأ وأبا

فقيل له: لم قتلته، إذا كان خير الناس أمأ وأبأ؟

فأجابه قائلاً: قتلته لعطائك.

قال له: لا عطاء لك، اذهب!

هذا معنى أكل الحرام، والتعبير بالأكل الحرام أفضل من وصفه بالانحراف الاقتصادي، لأن الانحراف الاقتصادي يمكن أن يفسر بشيء مختلف، والحرام يعني أكل ما لا تجوزه الشريعة الإسلامية.

سؤال: ما هي وظيفتنا الفعلية تجاه القرآن الكريم؟

جواب: الكثير منا ينشد إلى أن يفهم القرآن فهماً صحيحاً، وأن يقف على أسراره وتعاليمه، وهناك مقدمات ضرورية وضعها العلماء في فهم القرآن:

1- الفهم الإجمالي للقرآن الكريم لا يختص بفئة معينة، فقد جاء القرآن ليستفيد منه الجميع، وهو ما أكدته آيات كثيرة، كما أكدت دائماً أنّ القرآن كتاب هداية للمتقين. فهو نور ومنور، مبین ومبين للحقائق والوظائف. وواضح جداً أنّ المستفيدين مباشرة من القرآن هم الذين بُعث فيهم النبي الأكرم ﷺ. وفي التاريخ قصص عديدة تحدثت عن أفراد كانوا كافرين بالإسلام ويعارضونه، ولكنهم بعد أن استمعوا لبعض آيات القرآن وأدركوا معانيها تعلقوا بالإسلام تعلقاً شديداً واستهدوا بهداه.

2- إنّ القرآن مع كون معظمه ميسراً لفهم العامة قد نزل: باللغة العربية لغة عصر النبي، وكان خطابه خطاباً شفهاً وليس خطياً.. وعلى

المهتمين بدراسة القرآن وفهمه أن يولوا هذه المعطيات، وما يترتب عليها، اهتماماً كبيراً، وذلك من خلال ثلاثة شروط:

الشرط الأول: الإحاطة باللغة العربية: وذلك للرجوع المباشر إلى القرآن الكريم، فكما ذكرنا أنّ لغة القرآن هي العربية، ولا شك أنّ فهم المتن العربي يقتضي -في من يطالعه- الإلمام جيداً بلغة العرب. ولا يستطيع أي شخص لا يجيد العربية، أن يفهم القرآن باعتماده فقط على إطلاعه السطحي بعلوم الصرف والنحو، وعلى معاجم عربية.

من هنا، فإنّ المعرفة الجيدة بالصرف والنحو واللغة، وقابلية الاستفادة من الكتب اللغوية، مع الالتفات إلى أنّ لبعض المفردات عدّة معانٍ، الأمر الذي يقتضي مقدرة نسبية في الاستفادة من الكتب اللغوية لتحديد المعنى المناسب.

الشرط الثاني: ضرورة الاطلاع على ثقافة اللغة العربية في الحجاز ونجد واليمن ومناطق التداول في عصر النبوة، ويعلم كل من لديه معرفة باللغات، أنّ اللغة عند كل الشعوب تتطور وتتغير. فإنّ هناك مفردات لغوية تعطي الآن معنى مغايراً للمعنى الذي أعطته قبل ألف وأربعمائة عام، لذا تجب معرفة معاني المفردات القرآنية في ذلك العصر، فإذا اكتسبت إحدى المفردات اليوم معنى نميل إليه ونرغب أن يكون هو المعنى الذي تقصده الآية من استخدامها لتلك المفردة، فمن الخطأ حمل هذه المفردة على ذلك المعنى باعتباره المقصود في عصر نزول القرآن، إذ لم يكن لهذا المعنى أي وجود في ذلك العصر.

ويضم إلى معرفته باللغة إحاطته بالظروف الاجتماعية وغيرها التي نكتنف عصر صدور الموضوع، لأنّ الخطاب القرآني عاش في وسط تلك الأجواء، لذلك ثمة مجموعة من القرائن تساعد على فهم قصد المتحدث والكاتب.

ففي معركة أحد -مثلاً- نزلت آيات خاطبت المقاتلين فأدركوها ووعوها على الفور لأنهم كانوا في ساحة المعركة، وعاشوا الحدث بكل أبعاده، أما أنا الذي لم أكن كذلك، فماذا يجب عليّ أن أفعل حتى أدرك ذلك الموضوع؟ إذن يجب عليّ أن أعيش تلك الأجواء من خلال دراسة التاريخ.

فالتحقيق والدراسة التاريخية والإطلاع على أسباب نزول القرآن هي من شروط الفهم الصحيح للكثير من الآيات القرآنية، وقد ألف المحققون السابقون كتباً متعددة في أسباب النزول، من بينها كتابان مهمّان جداً استفاد منهما مفسرو القرآن قديماً:

أحدهما: «أسباب النزول» للواحدي.

والثاني: «لُبَاب النقول في أسباب النزول» للسيوطي.

وفي عصرنا، كتب السيد مجيب جواد الرفيعي «أسباب النزول» في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام.

الشرط الثالث: إنّ القرآن ليس مؤلفاً على شكل كتاب وإتّما هو مجموعة من الآيات والسور التي تنزلت على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وفي مناسبات مختلفة، وظروف متنوعة، ثم جمعت بهذا الشكل. ولم يكن تنظيم الآيات وترتيبها حسب نزولها ووحيتها، فإنّ الأدلة التاريخية تثبت أنّ بعض الآيات وضعت في آخر سورة من السور مع أنّها نزلت قبل ذلك بسنين. من هنا، فإذا رأينا أحياناً أنّ المعنى الظاهر والواضح لآية لا يرتبط ارتباطاً كاملاً مع موضوع الآيات اللاحقة أو السابقة، فيجب أن لا يستولي علينا الشك والريب، فنحاول عبثاً أن نفرض معنى للآية كي نوجد الترابط بينها وبين تلك الآيات.

3- الملاحظ في آيات القرآن الكريم أنّ ثمة آيات قرآنية تناولت نفس الموضوع في فترات مختلفة ونتيجة لتغيّر الظروف، تعالج ما جدّ من أمور وتكمل الموضوع السابق، لذلك فإذا أردنا أن نتبين رأي الإسلام في موضوع معين فيجب استقصاء كل الآيات ذات العلاقة بذلك الموضوع وتنظيمها وفق التسلسل الزمني لتنزّلها، ومن هنا قيل: «القرآن يفسر بعضه بعضاً».

4- ينبغي أن ندرك أنّ القرآن وإنّ نزل في ظروف تاريخية خاصة، وعالج قضايا العصر الذي نزل فيه، إلا أنه بحكم كونه كتاباً عالمياً وخالداً لا يمكن أن يقتصر محتواه على ظروف ذلك العصر، بل يتجاوزها ليشمل كل زمان ومكان. من هنا فالقرآن شمولي يمتد بامتداد الزمان والمكان. إلا

أنَّ استيحاء المعنى القرآني في مختلف الأعصار والامصار عمل فوق الفهم العادي للقرآن ولا يتيسر لأي فرد كان حتى لمن عاصر الرسالة وفهم معاني القرآن، فذلك عمل مهم يتطلب تخصصاً واستعداداً.

وهذا ما نلاحظه في تطبيقات أئمة أهل البيت عليهم السلام للقرآن في شؤون الحياة المختلفة، ولا بأس في توضيح هذا الأمر لنقف على خدمات أهل البيت عليهم السلام في هذا الشأن:

لقد استدل أئمة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن على كثير من الأحكام التي غفل عنها فقهاء عصرهم، ونذكر هنا نموذجاً على ذلك:

قدّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: الإيهان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود.

فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي عليه السلام يسأله، فلما قرأ الكتاب، كتب: «يضرب حتى يموت».

فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلة؟

فكتب عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيَّاهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (1) فأمر به المتوكل، فضرب حتى مات (2).

إنك تجد الإمام الهادي عليه السلام قد استنبط حكم الموضوع من آية مباركة، لا يذكرها الفقهاء في عداد آيات الأحكام، غير أن الإمام لوقوفه على سعة دلالة القرآن، ولسعة امتدادات الآيات القرآنية في الحياة، استنبط حكم الموضوع من تلك الآية، وكم لها من نظائر. ولو جمعت الروايات التي استشهد بها أئمة أهل البيت على مقاصدهم استشهاداً تعليمياً لا

(1) غافر: 84.

(2) مناقب آل أبي طالب: ج 4 ص 403 - 405.

تعدياً لوقف على سعة آفاق القرآن.

وسنذكر مثالين على سعة آفاق دلالاته:

المثال الأول: إنّ الأصوليين تحمّلوا عبثاً ثقيلاً لإثبات كون الأمر موضوعاً حقيقة للوجوب ومجازاً في النذب، فإذا ورد الأمر في الكتاب احتاجوا في استفادة الوجوب منه إلى نفي المدلول المجازي، بإجراء أصالة الحقيقة.

ولكن هذا النمط من الاستعمال كثيراً ما يجري في المحاورات العرفية، والقرآن في غنى عن مثل هذا الاستعمال الدلالي في أغلب الموارد أو أجمعها، فإنّ لاستفادة الوجوب أو النذب في الأوامر الواردة في القرآن طريقاً آخر، وهو الإيعاز بالعذاب أو النار كما نجده في كثير من الواجبات مثل الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾⁽¹⁾، وقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾⁽²⁾ بل كل ما أوعد على فعله أو تركه يستفاد منه الوجوب أو الحرمة.

المثال الثاني: اختلف الفقهاء في وجوب الكتابة في التداين بدين والاستشهاد بشاهدين الواردين في قوله سبحانه: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾⁽³⁾.

فمن قائل بالوجوب أخذاً بأصالة الحقيقة، وقائل باستحبابه مستدلاً بالإجماع، ومعتزراً عن الأصل المذكور بكثرة استعمال صيغة الأمر في النذب⁽⁴⁾، مع أنّ الرجوع إلى نفس الآية وما ورد حولها من الحكمة يعطي بوضوح أنّ الأمرين لا للوجوب ولا للنذب، بل الأمران إرشاديان لثلا يقع الاختلاف بين المتدائنين فيسد باب النزاع والجدال. قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ إِلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاصِرَةً

(1) المدثر: 42 - 43.

(2) الليل: 17 - 18.

(3) البقرة: 282.

(4) مختلف الشيعة: ج 8 ص 501 مسألة 78.

تُدِيرُ وَنَهَا بَيْنَكُمْ ﴿(1)﴾.

ويدل على سعة دلالاته أيضاً ما رواه المعلّى بن خنيس، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله عز وجل، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»⁽²⁾.

وقال الإمام علي عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم، أخبركم عنه إن فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلمتكم»⁽³⁾.

وقال الصادق عليه السلام: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمه»⁽⁴⁾.

والمتتبع في روايات أهل البيت عليهم السلام يقف على أنهم كانوا يستنبطون من الآيات نكات بديعة ومعاني رفيعة عن مستوى الأفهام.

وربما يتصور البعض أنّ هذا النوع من التفسير بالرأي أو فرض على الآية، ولكن بعد الإمعان في الرواية والوقوف على كيفية استدلالهم عليهم السلام يدعن بأنّها دلالة خفية على ذلك المعنى الرفيع الشامخ وقد غفل عنه الآخرون.

ومن أمثلة ذلك: ما رواه العياشي في تفسيره، عن زرقان صاحب ابن أبي دواد: أنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد حضر محمد بن علي عليه السلام فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع، فقال الفقهاء: من الكرسوع⁽⁵⁾، لقول الله تعالى في آية التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾⁽⁶⁾...

فالتفت الخليفة إلى محمد بن علي فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟

(1) البقرة: 282.

(2) الكافي: ج 1 ص 60.

(3) الكافي: ج 1 ص 60.

(4) الكافي: ج 1 ص 61.

(5) الكرسوع: طرف الزند الذي يلي الخنصر، وهو ناتئ عند الرسغ.

(6) النساء: 43.

فأجاب: «إثمهم أخطؤوا فيه السنّة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، ويترك الكف».

قال: لم؟

قال: «لقول رسول الله ﷺ: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين؛ فإذا قطعت يده من الكرسوع لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به الأعضاء السبعة التي يسجد عليها: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾⁽¹⁾ وما كان الله لم يقطع».

فأعجب المعتصم ذلك، فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف⁽²⁾.

ولكن علينا التنبيه من الوقوع في التفسير الغربية القائمة على التفسير بالرأي، والذي هو عبارة عن إبراز رأي جديد خارج عن نطاق الدليل الشرعي العقلي العرفي وهو إما فسر به آرائه الشخصية أو بأهوائه أو بمسبقاته الفكرية فيحمل اللفظ القرآني على خلاف الظاهر أو على أحد احتمالين دون دليل.

وبعبارة أوضح نقول: إنّ التفسير بالرأي هو: أن نجعل القرآن في إطار رأينا، لا أن يكون محكماً للرأي، أي أن نقرأه في قوالب الرأي وليس ميزاناً للرأي. وقد نهى عنه الشارع الحكيم.

يقول السيد الخوئي رحمته الله: «التفسير هو إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز، فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان، ولا على شيء لم يثبت أنه حجة من طريق العقل، أو من طريق الشرع، للنهي عن اتباع الظن، وحرمة إسناد شيء إلى الله بغير إذنه. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾⁽³⁾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾⁽⁴⁾.

(1) الجن: 43.

(2) وسائل الشيعة: أبواب حد السرقة ب 4 ح 5.

(3) يونس: 59.

(4) الإسراء: 36.

والروايات الناهية عن التفسير بالرأي مستفيضة من الطريقتين»⁽¹⁾.

ومن معالم هذا النوع محاولة زج الدين في كل أمر حياتي ونسبة رأي له فيه، ناسين أنّ في الإسلام مساحة فراغ تركها للناس ليملئوها بجهدهم الفكري وكفاحهم العملي ومن خلال المصلحة العامة لهم.

وقد كان من نتاج هذا الزج التحميلي للدين، أن ظهرت ألوان من التفاسير العلمية، التي تُحمّل آيات القرآن معان ونظريات لا تتضمنها الآيات القرآنية، فكان لونا من ألوان التفسير بالرأي المنهي عنه.

ولم يبع هؤلاء أنّ القرآن كتاب هداية، رغم ما تضمنه من حقائق علمية، وأن الإسلام منهج حياة، لا بديل للعلوم ولا معطل للجهد البشري الخلاق الذي حث عليه الإسلام وشجّع عليه، وأن معنى «ما من واقعة إلا وللإسلام فيها حكم»، لا يعني أنّ له رأياً تفصيلياً في سائر الشؤون بل أن يعطي خطأ عاماً ويترك التفاصيل للجهد البشري والفكر العلمي، مع وجود مساحة الإباحة الواسعة وأصالة الحلية في الكثير من الأمور الحياتية. ولذا فلا داعي للتكلف ونسبة آراء للإسلام في أمور تفصيلية وبعضها متغيرة، حتى وجدنا أنّ البعض ينسب للإسلام القول بنظرية علمية سرعان ما تتغير، أو يزج الإسلام في أمور تفصيلية تركها الإسلام لحكمة وعظمة فيه.

ومما يجدر ذكره في هذا المجال: أنّ امرأة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب كانت تمارس الجنس مع مملوكها - وهذا بالطبع أمر محرّم في نظر الإسلام - فذكر ذلك لعمر، فأمر أن يؤتى بها، ولما جاءت سألتها: ما حملك على ذلك؟!!

فقلت: تناولت آية من كتاب الله وهي: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُقْرُونَ لَهُمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿⁽²⁾.

(1) البيان: ص 397.

(2) المؤمنون: 8.

وفي بعض الروايات: «كنت أراه يحلّ لي بملك يعني كما يحلّ للرجل المرأة بملك اليمين»⁽¹⁾.

إنّ هذا التعامل مع الآيات القرآنية يسلب كتاب الله أصالته، فلا يصح لأي شخص كان أن يشكّل الآيات القرآنية كيفما يشاء ليستنتج ما يريد من المعاني، بدلاً من أن يكون القرآن هو الذي يعطينا إطاراً فكرياً بأبعاد مشخصة، ويحدد لنا نظرة كونية وإيديولوجية معينة.

وعلينا أن نقول إضافة إلى ما تقدم:

يطلق الرأي على الاعتقاد والاجتهاد والقياس، والمراد بالرأي هنا الاجتهاد بعد التوفر على أدوات الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة كلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفة الألفاظ العربية، ووجوه دلالتها والوقوف على أسباب النزول ومختلف علوم القرآن.

ولسنا هنا في معرض مناقشة المعارضين للاخذ بهذا المنهج في التفسير، ولكننا نعارض التفسير المذهبي الذي يعني أن يجعل المفسر المذهب والرأي أصلاً والتفسير تابعاً، فيحتال في التأويل حتى يصرّفه إلى عقيدته ويردّه إلى مذهبه بأي طريقة كانت، إنّ هذا الاتجاه زاوله كثير من أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية ليصحح مذهبه ورأيه على النص القرآني المقدس، وليس هذا في الاعتقاد فحسب بل تناوله أصحاب الفنون الأخرى أيضاً. فالنحوي لا هم له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل في ذلك من أوجه، وصاحب العلوم العقلية تراه يُعنى في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وكذا صاحب الفقه والتاريخ، وهكذا يفسر كل صاحب فن أو مذهب ما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه ولو بطريق إخضاع النص القرآني والميل به مع رأيه، مما حدا ببعض المسلمين إلى القول: إنّ القرآن يدل على الاختلاف، فالقول (بالقدر) صحيح وله أصل في الكتاب، والقول (بالجبر) صحيح وله أصل في القرآن الكريم...

(1) الغدير: ج 6 ص 118.

إننا نرى أنّ التفسير المذهبي سواء كان بالرأي أو صرف الآية بالمأثور
يجب المفهوم القرآني الصحيح ويجرف مدلول الآية الكريمة عن غير وجهتها.

فلا بدّ من تفسير القرآن بطريقة منهجية نجعل فيه القرآن متبوعاً
رائداً، وإماماً نتحرك بحركته ونستنير بضوئه ونهتدي بهديه، فما دلت عليه
الآيات تأخذ به ولا نفر أموراً مسبقة، ثم نحاول بمختلف الأساليب
إخضاع النص القرآني لذلك الرأي والمذهب، إننا يجب أن نفسر القرآن
بموضوعية مجردة عن الذاتية والخلفيات الفكرية التي تشد النص إليها.

5- قد يزعم البعض أنّ لغة القرآن رمزية! وهنا يجب إيضاح
المقصود من هذا الزعم: فإذا كان المقصود منه أنّ لغة القرآن كالرسائل
المشفرة المتداولة بين السياسيين والعسكريين التي تكتب بإشارات ورموز
مصطلح عليها فنحن نرفض ذلك. فالقرآن ليس كتاب رموز وإشارات، إنّه
كتاب مبین بمفاهيم بيّنة ومبيّنة، وأنّ القسم الأعظم والأساسي فيه هو
الآيات المحكمات بمعانيها الثابتة والقريبة من فهم العامة. أجل هناك قسم
من الآيات القرآنية يسمى بـ«المتشابهات» وهي رمزية إلى حد ما، ولكنها
لا تشكل سوى قسم قليل من الآيات.

وأما إذا كان المقصود أنّ ثمة مفاهيم ومعاني أعلى في القرآن - إضافة
إلى المعاني القريبة من فهم الجميع، بحيث يدركها بصورة أفضل أولئك
المتقدمون فكرياً أو اجتماعياً، وهذه لا تتنافى مع تلك، إنّما هي مرحلة فوقها
- فنحن نوافق على هذا الفهم ولا ضير فيه.

6- إنّ فهم القرآن في المستويات العالية يتطلب تخصصاً، ولا يتسنى
ذلك في بعض هذه المستويات إلا بالاستعانة بمنبع الوحي. إذ أنّ إحدى
درجات فهم القرآن مختصة بالنبي ﷺ، ولا يمكن الوصول إلى هذه
الدرجة إلا عن طريق رواياتهم، ويكون هذا في الموارد التي لا يبدو فيها
الترابط واضحاً بين المفردات والعبارات القرآنية وبين المعنى الرمزي أو
العام، حتى لو كان المعنى مفهوماً.

فكما أنّ النبي تلقى الوحي، فباستطاعته كذلك تقديم هذه الإيضاحات
الاستثنائية. وإلى هذه الدرجة من التفسير أشارت الروايات التي تحدّثت

عن كون التفسير مختصاً بالنبى ﷺ.

وهناك نوع آخر للمعنى الرمزي لا يكون فيه الترابط بين المعنى واللفظ واضحاً بحيث يستطيع الكثيرون فهمه، ولكن إذا فهمه أحدهم وشرح المعنى للآخرين قبلوه باعتباره المعنى الجديد الذي تعكسه الآية. وهذا تفسير للقرآن أيضاً، لكن ليس ذلك التفسير الذي يختص به النبى ﷺ، ويجب في هذا التفسير تجاوز الأهواء النفسية والرغبات الذاتية، وإلا فإن معنى الآية سيكون انعكاساً لتلك الأهواء والرغبات، وهناك من يتمنى أن تعطي الآيات معاني ثلاثم أهواءه ورغباته، ويسعى للعثور على من يدعي فهم تلك المعاني من الآيات لقبولها منه على الفور.

وإذا كان كذلك صار نوعاً من التفسير بالرأي، وهو أمر مذموم ومرفوض، وقد عارضته الروايات الواردة عن النبى والأئمة بشدة، ذلك أن المفسر بالرأي يرغب في الحصول على شواهد من الآيات القرآنية تبرهن على رأيه الخاص، لذلك فإن ذهنه لا يلتفت إلا إلى معان لا يرى فيها المحايدون أي ارتباط باللفظ.

7- في القرآن آيات متشابهة، وهناك نوعان للمتشابه:

أ - المتشابه الكامل مثل: «ألم».

ب- المتشابه النسبي، بمعنى وضوح معنى العبارة إلى حد ما، وتجاوزه تصبح من المتشابهات، ويحار الإنسان في فهمها، وهنا عليه إلا يلجأ إلى التأويل.

هنا يجب الامتناع عن التأويل في المتشابهات الكاملة والنسبية. وفي حالات التشابه - أي عندما يتردد الإنسان في فهم المعنى من العبارة، وإن العبارة تعطي معنيين متقابلين - عليه أن يتوقف عند هذا الحد من الدلالة الواقعية للعبارة، فلا ننسب للقرآن مواضيع لا يمكن التوصل إليها من خلال الألفاظ. فمن الممكن أن تعطي العبارة معنى مباشراً في حد معين، لكنها تعطي معنيين أو أكثر إذا تجاوزنا ذلك الحد، ويطلق على هذه العبارة تسمية «المتشابه النسبي» فهي محكمة بالنسبة للمعنى المباشر ومتشابهة بالنسبة لما بعده.

وفي كل الأحوال يجب عدم الاستناد إلى العبارات في الحد الذي تعطي فيه معنيين أو عدة معان، وهذه من الوصايا التي أكد عليها القرآن الكريم، لأنه لا ثمرة ترتجى من اتخاذ العبارات متعددة المعاني كمستمسكات، غير الفتنة والاختلاف، فقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾⁽¹⁾ فلا يعلم تأويل الآيات المتشابهات غير الله تعالى ومن أخذوا علمهم عن الله، أي الأنبياء والمرسلون ﷺ.

8- هناك من ينسب تفسير آية أو موضوع قرآني إلى النبي أو الإمام بمجرد أنه وجد رواية واحدة أشارت إلى ذلك المورد، لكن من قال إن أي رواية هي في واقعها صادرة عن النبي أو الإمام إذا نسبت لهما في أي كتاب؟

نعم، إذا ثبت أن الرواية التفسيرية صادرة عن النبي أو الإمام فلا نقاش في ذلك فإنها تلعب دوراً مهماً في فهم القرآن، ولكن ما هي مقدار الروايات التفسيرية التي يمكننا الجزم بأنها صادرة عن النبي والأئمة؟

فمما لا شك فيه أن الكثير من الروايات التفسيرية غير تامة السند، وإذا لم تكن كذلك كانت خيراً واحداً، وبالتالي لا تشكل دليلاً قاطعاً أيضاً.

وعلى هذا الأساس فإنّ موقفنا من الروايات التفسيرية موقف واضح، وهو موضع تأييد عموم العلماء الكبار. فكل رواية صحيحة السند ويقينية الدلالة هي برأينا في مصاف القرآن. وهذا معنى الكتاب والسنة. أما إذا كان سند الرواية مطعوناً به أو ظنياً، أي لم تكن دلالة عبارته قطعية، فليس من حقنا منحها دوراً مهماً في فهم القرآن.

إنّ هذا الموقف هو موقف محققينا عموماً، وهو ينص على أن كل رواية ثبت صدورها عن النبي أو الأئمة ﷺ ولم تكن عبارتها مبهمة ولا معقدة، وكان معناها واضحاً، فإنّ لها دوراً حاسماً وأساسياً في تفسير القرآن، وفي غير هذه الصورة لا يكون لها مثل هذا الدور، كما هو موجود في الدراسات التاريخية، فأكثر الروايات التفسيرية ليست ثابتة السند وغير واضحة المعنى.

(1) آل عمران: 7.

ولذلك تجد أنّ هناك نقاشات حول تفسير علي بن إبراهيم، وحول الروايات الواردة في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام، وحول تفسير فرات الكوفي، وحتى حول الروايات التفسيرية الموجودة في كتاب الكافي.

إنّ القرآن هو المعيار الأساسي لأنّ نسبته إلى النبي الأكرم ثابتة، وأحاديث النبي والأئمة عليهم السلام مثل القرآن وعدله إذا كانت قطعية. وعليه فإنّ الاستفادة من الأحاديث والروايات في فهم القرآن فن دقيق وحاذاق جداً، ويتطلب تخصصاً كاملاً، وذلك لأنّ بعض الأحاديث موضوعة، وبعضها غير معتبرة فتوقع الإنسان في الخطأ.

سؤال: هل إنّ قراءة القرآن الكريم بالألحان والمقامات المعروفة بين القراء الآن له مستند شرعي؟ أرجو إيضاح ذلك.

جواب: فن المقام، أو المقامات هي عبارة عن نغمات وأصوات ذات سلّم موسيقي معين، اشتهرت عند العرب، وأخذتها بلدان مجاورة كإيران، وتركيا.. ونحن نلاحظ أنّ هذه المقامات دخلت في كثير من الأمور الصوتية، كالمدائح، والمراثي الحسينية، وكذلك في تلاوة القرآن الكريم، بل أغلب القراء المشهورين - إن لم نقل كلهم - يعتمدون على هذه النغمات والأصوات في ترتيل القرآن الكريم.

ولما للقرآن من مكانة مميزة، فقد اختص بمجموعة من الأحكام التي تتماشى مع ما له من قدسية في نفوس المسلمين.

منها: حرمة مس آياته دون طهارة، وحرمة تنجيسه وتحقيره، واستحباب قراءته بخشوع وسكينة وبصوت شجي حسن.

ففي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله: «لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن»⁽¹⁾.

(1) الكافي: ج 2 ص 615.

ويقول عليه السلام: « حَسَبُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ فَإِنَّ الصَّوْتِ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حَسَنًا »⁽¹⁾.

وفي الصحيح عن الباقر عليه السلام: « وَرَجَّعَ بِالْقُرْآنِ صَوْتَكَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجِبُ الصَّوْتِ الْحَسَنَ يُرْجَعُ فِيهِ تَرْجِيعًا »⁽²⁾.

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على استحباب تحسين وترقيق الصوت أثناء تلاوة القرآن.

ومن آداب القرآن أن يُقرأ بلغة عربية فصيحة، وبلحن عذب يضفي على التلاوة رواءً خاصاً، وروحانية تلهب النفس اشتياقاً لكلمات الله. فتلحين القرآن أمر ضروري إذا أريد للتلاوة أن تؤتي ثمارها المرجوة. وقد مارس المسلمون تلحين القرآن - بما يتناسب والأجواء القرآنية - على مر العصور، وسيرة مجالس أهل الذكر وأرباب المعرفة شاهدة على ذلك.

يقول الرضا عليه السلام: « إِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام كَانَ يَقْرَأُ فَرَبِمَا مَرَّ بِهِ الْمَارُ فَصَعِقَ مِنْ حَسَنِ صَوْتِهِ »⁽³⁾.

ويقول الصادق عليه السلام: « كَانَ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ، فَكَانَ السَّقَاءُونَ يَمْرُونَ فَيَقْفُونَ بِبَابِهِ يَسْتَمْعُونَ قِرَاءَتَهُ »⁽⁴⁾.

ولقد أجاز الكثير من الفقهاء تلحين القرآن، وأفتوا باستحباب ذلك.

يقول المولى السبزاوي: « الظاهر من تفسير الطبرسي أن التغني في القرآن مستحب عنده، وأن خلاف ذلك لم يكن معروفاً بين القدماء »⁽⁵⁾.

وقد يتوهم أن الطبرسي لم يذكر إلا تحسين اللفظ وتزيين الصوت وتحزينه، وكل ذلك غير الغناء.

(1) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 24 ح 6.

(2) م.ن: ح 5.

(3) م.ن: ح 2.

(4) م.ن: ح 4.

(5) كفاية الأحكام: ص 86.

وهذا مردود حيث إنّه - بعد ذكر الرواية الأمرة بالتغني بالقرآن - ذكر تأويل بعضهم بأنّ المراد منه: الاستغناء بالقرآن، ثم قال: وأكثر العلماء على أنّه تزيين الصوت وتخزينه⁽¹⁾.

ولا نعني أنّ المراد بالتغني هنا هو ما تحصل به زينة الصوت وتخزينه، وهو في مقام بيان معنى التغني ليس إلا ما يحصل به الغناء.

ثم إنّه يدل على استثنائها وجواز التغني فيها، مضافاً إلى المعتبرة الأمرة بقراءته بالحزن وبالصوت الحسن، والدالة على جوازها، بل رجحانها، وعلى حسن الصوت الحسن مطلقاً: كمرسلة ابن أبي عمير، وفيها: «إنّ القرآن نزل بالحزن فاقرءوه بالحزن»⁽²⁾.

وروايات عبد الله بن سنان⁽³⁾ وأبي بصير⁽⁴⁾، وروايات حفص⁽⁵⁾ وعبدالله التميمي⁽⁶⁾ ودارم بن قبيصة⁽⁷⁾ وساعة وموسى السمرى، وصحيحة معاوية بن عمار⁽⁸⁾، وغيرها.

ويقول المولى السبزواري أيضاً: «لا خلاف عندنا في تحريم الغناء في الجملة، والأخبار الدالة عليه متضافرة، وصرّح المحقق وجماعة ممن تأخر عنه بتحريم الغناء، ولو كان في القرآن، ولكن غير واحد من الأخبار يدل على جوازها، بل استحبابه في القرآن بناء على دلالة الروايات على حسن الصوت والتخزين والترجيع في القرآن، بل استحبابه. والظاهر أنّ شيئاً منها لا يوجد من دون الغناء على ما أستفيد من كلام أهل اللغة وغيره، وفصلناه في بعض رسائلنا»⁽⁹⁾.

(1) مجمع البيان: ج 1 ص 16.

(2) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 22 ح 1.

(3) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 22 و ب 24 ح 2، 1، 3.

(4) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 24 ح 5.

(5) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 22 ح 3.

(6) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 24 ح 6.

(7) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 24 ح 7.

(8) وسائل الشيعة: أبواب قراءة القرآن ب 23 ح 2.

(9) كفاية الأحكام: ص 86.

يقول السيد الخامنئي في هذا الصدد: «لا مانع من تلاوة القرآن الكريم بصوت جميل وأنغام تناسب شأن القرآن الكريم بل هو أمر راجح ما لم يصل إلى حد الغناء المحرم، وأما عزف الموسيقى معها فلا مبرر ولا وجه له شرعاً»⁽¹⁾.

سؤال: هل إن حب المدح من قبل الناس على ما يفعله الإنسان من أفعال خيرية مبطل لعمل الإنسان أو يحبط ثواب المرء؟

جواب: ينبغي الوقوف على معرفة مصطلح الإحباط لتنجلي لك الأمور:

أولاً: في المعنى:

ففي اللغة: الفساد والهدر، فيقال: حبط العمل حبطاً، وحبط دم فلان. وأصل الحبط في اللغة، فساد يلحق الماشية لأكل الحباط، وهو ضرب من الكلا مضر، تأكله الماشية فتكثر منه حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها.

وفي الاصطلاح: الإحباط مصطلح كلامي دخيل في الفقه يبحث عنه في بحث العدالة ومعناه.

وعرفه الشيخ الطوسي: «إبطال العمل وإحباطه عبارة عن إيقاعه على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب»⁽²⁾.

وقال أيضاً في تعريفه: «هو أن يسقط المكلف ثوابه المتقدم بالمعصية المتأخرة»⁽³⁾.

وقال صاحب الجواهر: «الموازنة بين الأعمال الصالحة والمعاصي، فكل ذنب يُحبط بالطاعة فهو صغيرة، وكل ذنب يُحبط بالطاعة فهو كبيرة»⁽⁴⁾.

(1) أجوبة الاستفتاءات: ج 2 ص 31 - 32.

(2) الاقتصاد في الاعتقاد: ص 122.

(3) تلخيص الشافي: ج 1 ص 174.

(4) الجواهر: ج 41 ص 29.

ثانياً: في القرآن:

الحبط هو بطلان العمل والسقوط مع المحو، ولم ينسب في القرآن إلا إلى العمل كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحِبِّطُ أَعْمَالَهُمْ﴾⁽²⁾، وذيال الآية يدل بالمقابلة على أن الحبط بمعنى بطلان العمل كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾⁽³⁾.

وبالجملة الحبط هو بطلان العمل وسقوطه عن التأثير، وقد قيل: إن أصله من الحَبَط وهو أن يكثر الحيوان من الأكل فينتفخ بطنه وربما أدى إلى هلاكه.

ثالثاً: في التاريخ:

الثابت أن الخوارج هم أول من أثاروا إشكالية الإحباط.

فقد جاء في تاريخ الطبري⁽⁴⁾: خرج علي عليه السلام يخطب في الناس فصاحوا به من جوانب المسجد: لا حكم إلا لله، وصاح به رجل منهم واضح إصبعه في أذنيه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽⁵⁾.

والمعروف بين الإمامية هو بطلان القول بالإحباط، بل الذنوب باقية على حالها حتى يجيء ما يزيلها مثل التوبة، أما الطاعات الأخر فلا مدخلية لها في زوالها، كما أن الذنوب لا مدخلية لها في إزالة الطاعات.

(1) الزمر: 65.

(2) محمد: 32 - 33.

(3) الفرقان: 23.

(4) تاريخ الطبري: ج 5 ص 73.

(5) الزمر: 65.

نعم، ربما يتوهم أنّ تقسيم الذنوب إلى الصغائر والكبائر - كما هو المعروف - ناشئ من القول بالإحباط، فكل ذنب تزيله الطاعات فهو صغيرة، وكل ذنب يزيل الطاعات فهو كبيرة.

لكنّه توهم فاسد، فإنّه يمكن الالتزام بهذا التقسيم مع عدم الالتزام بالقول بالإحباط؛ إذ أنّ مراد الفقهاء من هذا التقسيم هو عدّ بعض الذنوب صغائر مقابل بعض الذنوب الأخرى المعدودة من الكبائر سواء قلنا بأنّ الذنوب كلّها كبائر واقعاً أو هي منقسمة كذلك.

قال صاحب الجواهر في ردّ التوهم المذكور: «المعروف بين الإمامية عدم القول بالإحباط، كما أنّ المعروف بينهم تقسيم الذنب إلى كبير وصغير، فلا مدخلة للقول المزبور بذلك قطعاً فإنّ إطلاقها أي الصغائر عند الفقهاء بالنسبة إلى غيرها من الكبائر سواء قلنا بكون كل معصية كبيرة أو معاصٍ مخصوصة وهو واضح»⁽¹⁾.

رابعاً: هل الأعمال يبطل بعضها بعضاً؟

هناك خلاف بين العلماء في أنّه: هل الأعمال يبطل بعضها بعضاً بحيث تبطل الحسنة السيئة، أو السيئة الحسنة، أو يبقى كل واحد منهما على حاله في قضية الجزاء؟

القول الأول: بطلان الإحباط:

1- لأنّه ظلم مستحيل على الله سبحانه. وهذا ما ذكره نصير الدين الطوسي في تجريد الاعتقاد، قال: «إنّ الإحباط نوع من الظلم، فلو أنّ شخصاً قلّت حسناته وكثرت ذنوبه، فسيكون الإحباط بالنسبة إليه أن يصبح شخصاً لم يعمل حسنة قط، وهذا ظلم بحقه»⁽²⁾.

2- الآيات الدالة على أنّ الإنسان يجزى بعمله مطلقاً، سواء لحقه شيء مضاد له أو لم يلحقه كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

(1) الجواهر: ج 41 ص 29.

(2) تجريد الاعتقاد: ص 389.

يَرَهُ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَوْا
 اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
 إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾⁽²⁾، وظاهر هذه الآية أنّ الأعمال تبقى على حالها في
 نتائجها الإيجابية والسلبية حتى تأتيهم التوبة من الله سبحانه.

3- إنّه لا موجب للإيجاب بعد انطلاق كل منها من موقعه الداخلي
 في النفس الإنسانية، مما يفرض أن يأخذ كل واحد منها دوره في واقع
 الإنسان من خلال عدم ارتباط أحدهما بالآخر، أو غلبته عليه. فلا وجه
 لإلغاء أحدهما الآخر. وهذا هو المنهج العقلاني الذي جرى عليه العقلاء
 بفطرتهم التي خلقها الله فيهم في الجزاء على الحسنة بشكل مستقل كما لو لم
 تكن هناك سيئة، والجزاء على السيئة بشكل مستقل، كما لو لم تكن هناك
 حسنة. أما في العمل الذي يقطع العلاقة بين الإنسان وربّه كالكفر والارتداد،
 فإنّه يقطع المسألة من جذورها التي لا تبقى للحسنة أية قابلية للبقاء في
 حساب الأعمال.

القول الثاني: إنّ الأعمال تبقى على حالها في آثارها العامة والخاصة،
 ولكن الحسنة قد تكفر السيئة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ
 تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو
 الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَحْتَبِئُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
 عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى في تبديل السيئة
 بالحسنة: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ
 حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾⁽⁵⁾، وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي
 النَّهَارِ وَرُفَاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾⁽⁶⁾،
 وهذا أمر قريب إلى المنهج الإسلامي الذي يلتقي بالعتف والمغفرة والتوبة

(1) الزلزلة: 7 - 8.

(2) التوبة: 102.

(3) الأنفال: 29.

(4) النساء: 31.

(5) الفرقان: 70.

(6) هود: 114.

التي قد تكون كلامية، وقد تكون عملية بتبديل الخط العملي من السلب إلى الإيجاب.

القول الثالث: ذهب العلامة المجلسي إلى ثبوت سقوط الثواب بكفر يستمر إلى نهاية العمر، وسقوط العقاب بإيمان يستمر حتى الموت. والأخبار كثيرة بشأن هبوط كثير من الطاعات عن طريق كثير من المعاصي، وغفران كثير من المعاصي عن طريق كثير من الطاعات. وذلك كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾⁽¹⁾، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يُضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبِّطُ أَعْمَالَهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾⁽²⁾. فإن المقابلة بين الآيتين تقضي بأن يكون الأمر بالإطاعة في معنى النهي عن المشاققة. كما جاء في تفسير الميزان.

وفي الحديث عن الرسول ﷺ: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»⁽³⁾.

وعلق الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «وهذا ليس بقانون عام يشمل جميع الذنوب والطاعات، بل يختص ببعض منها، وبذلك نستطيع أن نجمع بين كل الآيات والروايات»⁽⁴⁾.

فذلكة البحث:

1- إن الحبط كما يتعلق بالأعمال الأخروية كذلك يتعلق بالأعمال الدنيوية.

2- إن التحابط بين الأعمال باطل بخلاف التكفير ونحوه.

(1) الحجرات: 2.

(2) محمد: 32.

(3) بحار الأنوار: ج 70 ص 255، الكافي: ج 8 ص 45، عدة الداعي: ص 312.

(4) تفسير الأمثل: ج 2 ص 69.

3- إنَّ الإنسان يلحقه الثواب والعقاب من حيث الاستحقاق بمجرد صدور الفعل الموجب له لكنّه قابل للتحوّل والتغيّر بعد ذلك، وإتّما يثبت من غير زوال بالموت.

4- إنَّ حبط الأعمال بكفر ونحوه نظير استحقاق الأجر، فيتحقق عند صدور المعصية ويتحتم عند الموت.

والذي ذكره الله تعالى من أثر الحبط، هو بطلان الأعمال في الدنيا والآخرة معاً، فللحبط تعلق بالأعمال من حيث أثرها في الحياة الآخرة، فإنَّ الإيمان يطيب الحياة الدنيا كما يطيب الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾، وخسران سعي الكافر وخاصة من ارتد إلى الكفر بعد الإيمان، وحبط عمله في الدنيا ظاهر لا غبار عليه، فإنَّ قلبه غير متعلق بأمر ثابت، وهو الله سبحانه، يبتهج به عند النعمة، ويتسلى به عند المصيبة، ويرجع إليه عند الحاجة، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِينًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾⁽²⁾. فالآية تبين أنّ للمؤمنين في الدنيا حياة ونوراً في أفعالهم، وليس للكافرين.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۗ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾⁽³⁾، حيث يبين أنّ معيشة الكافر وحياته في الدنيا ضنك، ضيقة متعبة، وبالمقابلة معيشة المؤمن وحياته سعيدة رحبة وسيدة.

وقد جمع الجميع ودل على سبب هذه السعادة والشقاوة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾⁽⁴⁾.

وليس من شك في أنّ المراد بالأعمال مطلق الأفعال التي يريد الإنسان

(1) النحل: 97.

(2) الأنعام: 122.

(3) طه: 123 - 124.

(4) محمد: 11.

بها سعادة الحياة، لا خصوص أعمال العبادة والأفعال المفترضة التي كان المرتد عملها وأتى بها حال الإيمان، أضف إلى ذلك أن الحبط وارد في مورد الذين لا يؤدون المفترضات ولا أعمال العبادة والقربى، كالكفار والمنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَاهُمْ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَاهُمْ﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿⁽²⁾

وإذا ما جئنا وفتشنا في أحكام الأعمال من حيث الجزاء نجد⁽³⁾:

- 1- إن من المعاصي ما يحبط حسنات الدنيا والآخرة كالارتداد، وكالكفر بآيات الله والعناد فيه⁽⁴⁾.
- 2- إن من الطاعات ما يكفر سيئات الدنيا والآخرة بالإسلام والتوبة⁽⁵⁾.
- 3- إن من المعاصي ما يحبط بعض الحسنات كالمشاقة مع الرسول⁽⁶⁾.
- 4- إن من الطاعات ما يكفر بعض السيئات كالصلوات المفروضة، وكالحج، واجتناب الكبائر⁽⁷⁾.
- 5- إن من المعاصي ما ينقل حسنات فاعلها إلى غيره كالقتل⁽⁸⁾، وقد ورد هذا المعنى في الغيبة والبهتان وغيرهما في الروايات.
- 6- من المعاصي ما ينقل سيئات الغير إلى الإنسان لا عينها وكذلك العكس⁽⁹⁾.

(1) محمد: 7 - 9.

(2) آل عمران: 21 - 22.

(3) تفسير الميزان: ج 2 ص 175.

(4) البقرة: 217، آل عمران: 22.

(5) الزمر: 55، طه: 124.

(6) محمد: 33، الحجرات: 2.

(7) هود: 114، البقرة: 203، النساء: 31، النجم: 32.

(8) المائدة: 29.

(9) النحل: 25، العنكبوت: 13.

- 7- من المعاصي ما يوجب تضاعف العذاب، وكذا العكس⁽¹⁾.
 8- من الحسنات ما يبدل السيئات إلى الحسنات⁽²⁾.
 9- من الحسنات ما يوجب لحوق مثلها بالغير⁽³⁾.

وجاء في الدعاء: «وطوقني طوق الإقلاع عما يحبط الحسنات، ويذهب بالبركات، وأشعر قلبي الأزديجار عن قبائح السيئات، وفواضح الحوبات».

وفي دعاء كميل: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصْمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النَّعْمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النَّعْمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُحْبِسُ الدُّعَاءَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ الْبَلَاءَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي كُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطِيئَةٍ أَخْطَأْتُهَا».

سؤال: القنوات الفضائية (الستلايت) موضوع ذات أهمية بالغة لتماسه المباشر بواقع الحياة المعاصرة، وذات حساسية واضحة أثرت ولا زالت تُثار حوله جدلية واسعة النطاق تنطلق من داخل الأسرة الواحدة وتمتد لتصل إلى أوساط المفكرين والمتقنين، بل أعضاء برلمان ووزراء ورؤساء بعض الدول الممنوع فيها هذا الجهاز -أو هذه الوسيلة!- رسمياً. فماذا يقول الأستاذ: (نعم) للستلايت أم (لا)؟

جواب: المصادفة جعلتني أدخل في يوم من الأيام موقعاً من مواقع الإنترنت ولفت نظري شعار في أعلى الصفحة يقول: «من مات وخلف في بيته (الستلايت) (الدش) فقد غش رعيته فحرم الله عليه الجنة».

وأصبحت هذه الثقافة خير وسيلة للتخويف والتهويل، وأصبحت جوائز (الجنة) و (النار) بيد عبيد الله مع أنّ المسألة كلها مرتبطة بالله عز وجل، ولكنها ثقافة الضعف والهوان في هذا الزمن الذي شح فيه العلماء

(1) الأحزاب: 30، البقرة: 261، القصص: 54، الحديد: 28، الأنعام: 160.

(2) الفرقان: 70.

(3) الطور: 21، النساء: 9.

المفكرون، وإن كثر فيه العلماء المبلّغون والفرق واضح بينهما.

وأما الصورة العامة لعلمائنا الكرام فنلاحظ أنهم تناولوا الموضوع الفقهي للاستلايت من واقع الاستخدام السيئ وعدمه، وهذان نموذجان من الفتوى في ذلك لمرجعين من مراجعنا:

س: ما هو رأي سماحتكم في استخدام الدش (الستلايت)؟

ج: الدش حكمه حكم الآلات المشتركة بحيث يكون المناط في الحلية أو الحرمة على الاستعمال، ولكن حيث إنّ الغالب فيه الابتلاء بالانتفاع المحرّم مضافاً إلى ترتب المفسد على نصبه، فلا يجوز استخدامه إلا لمن يطمئن بعدم استعماله في الحرام بتاتاً وبعدم ترتب المفسد على ذلك.

س: ما هو حكم اقتناء الأجهزة اللاقطة للبرامج الفضائية من القنوات الأجنبية مع العلم أنها تعرض برامج مفيدة كالعلمية والثقافية ولكن في بعض الأوقات تعرض لقطات تثير الشهوة؟

ج: اقتناء الأجهزة لا بأس به، ولكن يحرم التقاط البرامج المثيرة للشهوة والمحظورة شرعاً.

وما ينبغي أن يقال بعد ذلك:

هناك شكوى من الآباء حول التأثير السيئ لوسائل الإعلام على أبنائهم، وهذه ليست أول مرة يشكو فيها الآباء من التأثير السلبي لوسائل الإعلام المرئية على الأطفال ولن تكون الأخيرة ما دامت هذه الأجهزة تدأب في تقديم الإثارة والعنف في عصر تزداد فيه حاجتنا للتمسك بالأخلاق الفاضلة والمثل العليا قبل أن تصبح الأخلاق والمثل عادات قديمة وكلى زمانها.

ويرى بعض خبراء الإعلام أنّ دور الأسرة بدأ يتأخر قليلاً عن ذي قبل؛ وذلك بسبب الغزو الإعلامي للبيوت، ونتيجة للساعات الطويلة التي يقضيها الأبناء بين وسائل الإعلام، ولكن دور الأسرة ما زال قائماً وفعالاً وله التأثير الأقوى والأهم في عملية التربية.

فالمعركة بين الأسرة ووسائل الإعلام قائمة، وإن كانت خفية لا يعرف أحد مداها والأيام كفيلة بأن تحدد لمن تكون الغلبة.

بعض الآباء ينشغلون عن أبنائهم، خصوصاً في سنوات التكوين الأولى ولا يعطونهم حقهم من الرعاية والتأديب بل وربما وفروا لهم شتى وسائل الترفيه والتسلية ظناً منهم أنّ ذلك فيه سعادتهم. وهنا يجد الأبناء الفرصة متسعة للتعرض لمواد درامية من أفلام ومسلسلات وغيرها مما يعرضه التلفزيون أو الفيديو.

ولقد أُحصيت - من قبل بعض المتخصصين - مجموعة من الأفلام التي تعرض على الأطفال عالمياً وكانت النتيجة أنّ 29.6٪ منها تتناول موضوعات جنسية، وأنّ 27.4٪ منها تعالج الجريمة، كما تدور 15٪ منها حول مواقف درامية للابتزاز والانتقام والحرب على الكراهية والمقت.

فالخطر كل الخطر في بناء عقلية الطفل في تكوينه الأولى، أو في حال مراهقته، فيجب أن يُجَنَّب الصبي إذا عَقِل مجالس اللهو والباطل والفحش والبدع ومنطق السوء، فأى شيء يعلق بسمعه في هذه الفترة يعسر عليه مفارقتة في الكبر.

وأقول باختصار:

- لا بأس بالستلايت المقنن تحت نظر الوالدين (الواعيين) فبدونه نحرم من فوائد خبرية وعلمية ومتابعة الأحداث بشكل ملحوظ.

- لا للستلايت المفتوح (من دون رقابة).

- نعم للاب والام اللذين يتحملان المسؤولية ويتابعان اولادهما من خلال الإرشاد والحوار المقنن.

- لا للاب والام اللذين يهملان المسؤولية ويتركان اولادهما بلا إرشاد وبلا حوار وبلا هداية.

لقد أصبحت هذه القنوات أمراً مفروضاً، وواقعاً ملموساً، ولا يستطيع شخص أن يراهن على المطلق في الفوائد التي استفدناها من خلال متابعتنا

لهذه القنوات الفضائية، بحيث انفتحت لنا آفاق معرفية متعددة وثقافات مختلفة، فمن الذي يجعل من كل هذه التراكمات نسيجاً إيجابياً؟ لا شك أنّ الوعي والمتابعة بقدمان لأولادنا فكراً صحياً من خلال البرامج المتعددة.

ولذا ينبغي على علمائنا ومثقفينا أن يتعاملوا مع هذا الواقع بشكل جيد، كما تعامل معها أفراد المقاومة من خلال (قناة المنار) وكما تعامل معها بعض علماء الدين وبعض المثقفين من خلال حضوره الفاعل في أكثر من قناة فضائية.

وقد سئل أحد علماء الدين هذا سؤال: هل هناك ضرورة لتلييتكم دعوة بعض القنوات الفضائية مع أنّها معروفة بالانحراف، ألا يؤدي ذلك إلى الخدش في مقامكم، أم أنّ في ذلك مصلحة؟

فأجاب: إنّ المصلحة في ذلك ليست شخصية، فما دمت تستطيع أن تتكلم في الإسلام لمدة ساعة أو ساعتين وبكل ما تريد، فليّم لا تفعل والفرصة متاحة. نعم، هناك سلبيات لا تنكر، ولكن الإيجابيات أكثر بكثير. وقد طلبت إحدى المجلات النسوية من الشهيد مطهري أيام الشاه حديثاً إسلامياً عن المرأة، مع احتوائها صور فاضحة، فقليل له: هل أنت مستعد لنشر بحث حول المرأة في الإسلام؟ فقال بعد أن فكّر بالأمر: أنا مستعد، لأنّه رأى أنّ المجلة إذا كانت تطبع (20) ألف نسخة أو يزيد، فإنّ قراء المجلة من النساء والرجال الذين ليس لديهم فرصة للإطلاع على نظرية الإسلام في المرأة، وهم مستعدون لطرح كل ما تقوله أو تكتبه، فلم الإحجام؟

هل يترك هذا الأمر، لأنّ هناك من يقول إنّ في ذلك عيباً، أو أنّ هناك من ينتقد أن تنشر صورة العالم إلى جوار صور الفنانات؟

إنّ هذا هو طريق من طرق الدعوة إلى الله، فحينما تأتي مجلات نسوية كمجلة (الحسناء) التي تطبع (50) ألف نسخة، وتطلب مني مقابلة حول نظرية الإسلام في تعدّد الزوجات أو المرأة أو الحجاب أو المتعة، قد يكون ذلك غير لائق، ولكن عدم اللياقة شيء ومسؤوليتي أمام الله شيء آخر، المهم أن أبلغ رسالة ربي، وهذا ما يُسمّى في الفقه بباب التزاحم، فإذا كان لديك مصلحة 70% ومفسدة 30% فالمصلحة تغلب المفسدة.

فنحن نحتاج إلى الدعوة إلى الله والتبليغ من خلال هذه القنوات الإعلامية، والتقاليد التي كانت عند علمائنا - سابقاً - قد انتهت الآن، فلا بُدَّ من أن نطلَّ اليوم على العالم ونوصل صوتنا إليه.

سؤال: بيت العفاف مشروع طرح عام 1994 في الجمهورية الإسلامية الإيرانية لحل المشكلة المتجذرة في أوساط مجتمعاتنا الإسلامية والتي لَمَّا نجد لها حلاً بعد ألا وهي (طغيان الغريزة الجنسية لدى الشباب والشابات في سن المراهقة وقبل الزواج).

بيت العفاف عبارة عن مجمع سكني تشرف عليه الدولة بصفة رسمية، تحاول أن تجمع الشباب لتجري لهم صيغة العقد المؤقت (المتعة) لممارسة العملية الجنسية تحت إشراف الدولة وبصفة شرعية، وبذلك تقلل من المشاكل الجنسية التي يعج بها شارعنا الإسلامي؟!

فهل بيت العفاف هو المشروع المترقب لحل هذه المشكلة؟! مع ملاحظة أن الصحف الإيرانية تشن هذه الأيام هجوماً شرساً على هذا المشروع!!

جواب: القضية الجنسية مشكلة ضاغطة على الإنسان، وخاصة في زماننا الذي كثرت فيه صلتنا بالمثيرات الجنسية وقُلَّ فيه فرص الزواج في سن مبكر.

إذن المشكلة تبرز حين تكون الفتاة ويكون الشاب في سن الزواج، والغريزة على أشدها، والمغريات والمثيرات ضاغطة، ولكن الزواج غير متاح!! لسبب أو لآخر.

وهنا نتفكر، ونتساءل عن الحل؛ ليس لإلغاء الشهوة أو المصادرة عليها، ولكن للتجاوب معها والتعبير عنها حتى يجيء الفرج من عند الله بالزواج.

هناك جانب من المشكلة يبدو اجتماعياً عاماً، وملاحظه واضحة، وآثاره على ما نحن بصده كبيرة، فهناك عادات وتقاليد، وأعراف وأفهام، وأوضاع وملابس كثيرة جعلت الفجوة فيما يريد الله ويتسق مع الفطرة يبدو بعيداً عن واقع ممارساتنا وأعرافنا. وهناك مسافة ليست بالقليلة بين

الحرام والحلال الشرعي والخطأ والصواب الاجتماعي من ناحية أخرى، وينتج عن هذا كوارث.

ولا شك أصبحت محاولة الابتعاد عن المثبرات، تحتاج إلى الكثير من الجهد وخاصة في البلدان المفتوحة؛ فهل يستطيع أحد أن يغلّق عينيه وأذنيه ومشاعره، وأن يعقلن ما يرى وما يسمع، ويجعل ردّة فعله على كل المؤثرات المهيجة - إن صادفته - رد فعل هادئ يغلب التفكير في عالم الجنس على الاندفاع الشعوري ناحية الشوق إلى ممارسته.

هذا ممكن ولكن مع التدريب الذاتي المستمر، بعدم الذهاب إلى المهيجات وأسبابها بأرجلنا، مع الصوم التطوعي والذكر المستمر.

ولكن كم نسبة هؤلاء الشباب الذين يستطيعون أن يدرّبوا أنفسهم على مواجهة المثبرات، فهو أمام خيارين - إذا أراد أن لا يقع في الزنا - أحدهم مر والآخر خطير إذا لم يقنن. أما الأول: فهو موضوع (الاستمنا) ويعتبر بالنسبة للكثير من الشباب دواء مع المحاذير الكثيرة التي تكتنفه، مع كونه حراماً شرعاً.. إنه يشبه ما قاله أبو نواس في إحدى خمرياته:

* وداوني بالتي كانت هي الداء *

والثاني: (الزواج المؤقت) وما تكتنفه من مخاطر صحية في عدم الاختيار الصحيح لمن يريد أن يتمتع بها.

علينا أن نتذكر بأنّ الإنسان ليس جسداً فقط، وليس شهوة وغريزة فقط، والجنس الذي نجبه جميعاً ليس هو النشاط الإنساني الوحيد في الحياة، بل هناك آفاق أخرى في الثقافة والفكر، وفي الروح والذهن، وهناك متع كثيرة في الحياة جسدية وذهنية وروحية، والخاسر من يجرم من هذه الآفاق والمتع، والعاجز من يقبع في مكانه، ولا يتحرك طالباً لأنواع اللذة جميعاً.

ولا يعني كلامي هذا أن نهتمش خطر ضغط الجنس، أو نقاوم التفكير فيه، أو نصادر الطموح إلى ممارسته، حاشا وكلا.. إنّها الأمور ينبغي أن توضع في نصابها، وتأخذ أحجامها الحقيقية، ولا أعتقد أننا قادرين على حل مشكلة من هذا النوع.

فالمسألة تحتاج إلى توازن دقيق بين احترام هذه الغريزة، والتمحور حولها، وقد كان المسلمون الأوائل خير مثال وقدوة فلم تخجل السيدة خديجة أن تعلن عن رغبتها في الزواج من الرسول ﷺ.

وكان الزواج عامة في ظل النبي ﷺ سهلاً وميسوراً، لأنّ العقول كانت ناضجة، والنفوس كانت واسعة، وإرضاء الله بالحلال كان الهدف الأسمى دون مباحكات أو اعتبارات من عادات فاسدة أو تقاليد شكلية فارغة ثم كان دور المرأة التي تسعى بين البيوت لتوفيق - بحكمتها ومعرفتها - بين الرؤوس المتناسبة في الحلال، وكانت الأنشطة الاجتماعية والدوائر العائلية والعامة المناسبة.

فقضية إنشاء مؤسسة (بيت العفاف) تدار من قبل علماء دين أفاضل وأساتذة جامعيين محترمين، أو ممن هم مقبولين في المجتمع سلوكاً وفكراً، هي خطوة تحدّ من مخاطر الوقوع في الحرام، ولا أرى داع لمحاربته، ألا تعتقد بأنّ الغرب المتطور - والذي يريد البعض في إيران الانفتاح عليه - هي حضارة بغاء وجنس.

فلماذا يريد البعض محاربة المؤسسات التي تريد توظيف هذا الأمر بصورة شرعية، هذا أمر لا أفهمه، ولعل لهم وجهة نظر أخرى، وما أكثر نظراتهم في هذا الشأن.

سؤال: ما الفرق بين إخبار الثقة وشهادة الثقة؟

جواب: الجواب على هذا السؤال مبني على تحرير الكلام في معنى الشهادة والخبر:

معنى الشهادة في اللغة:

قال الفيومي: «إنّ الشهادة لغة اسم من المشاهدة، وهي الاطلاع على الشيء عياناً»⁽¹⁾.

(1) المصباح المنير، مادة: شهد.

وقال الفيروزآبادي: «إِنَّه الخبر القاطع. ولعله يعم الخبر عن غير المحسوس على وجه القطع»⁽¹⁾.

وهو مقتضى ما جاء في مسالك الأفهام من أنه «الإخبار عن اليقين»⁽²⁾.

وقال ابن فارس: «الإخبار بما شوهد»⁽³⁾. والمقصود به الإخبار عن المحسوس.

وقال الطريحي: إِنَّه حقيقة في الحضور نحو: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيُصُمْهُ﴾⁽⁴⁾، أي: حضره ولم يسافر. وشهدت المجلس، أي حضرته⁽⁵⁾.

ونقل ابن منظور عن بعضهم: اشتراكه بين الخبر القاطع والحضور. وقال آخر: كونه حقيقة في العلم، نحو: أشهد أنه لا إله إلا هو، أي أعلم⁽⁶⁾.

معنى الشهادة اصطلاحاً:

عرفه الشهيد الثاني بـ«إخبار جازم عن حق لازم لغيره، واقع من غير حاكم»⁽⁷⁾.

وقد يشكل على التعريف بأمور:

- 1- إطباق العلماء على قبول تزكية الشاهد بشهادة عدلين، مع عدم اعتبار العلم عند الأكثر، وعدم كون العدالة حقاً لازماً للغير.
- 2- لا إشكال في صدق الشهادة على شهادة العدلين برؤية الهلال، وإطلاق الشهادة عليها في كلماتهم ولو لم يكن حجة.

(1) القاموس المحيط، مادة: شهد.

(2) مسالك الأفهام: ج 14 ص 153.

(3) مجمل اللغة، مادة: شهد.

(4) البقرة: 185.

(5) مجمع البحرين، مادة: شهد.

(6) لسان العرب، مادة: شهد.

(7) مسالك الأفهام: ج 14 ص 153.

3- لا إشكال في صدق الشهادة مع علم الشاهد بكذبه، وكثيراً ما يتفق هذا.

كل ذلك لعدم اختصاص عنوان الشهادة بمقبولة عمر بن حنظلة؛ ولو كانت الشهادة مختصة بالمقبولة، للزم اعتبار العدالة بل الإيمان، بناء على عدم اختصاص العدالة بالإيمان في التعريف. وبما مر يظهر أن الشهادة لا تخرج عن حال المعنى اللغوي.

ولكن مقتضى تعريف الفيومي هو عدم اعتبار القول في الشهادة لغة. ولذا فإن تزكية الرواة لا تدخل في الشهادة، بل ابتناء التزكية على الظن.

معنى الخبر:

الخبر في اللغة: القول المخصوص، أي ما يقابل الإنشاء⁽¹⁾.

وجعله السيد الكاظمي بمعنى النبأ، حيث قال: «وهو المخبر به من حيث إنه أخبر به، كما يقال: جاءهم خبر شنيع»⁽²⁾.

وهو في اصطلاح النحويين ما يقابل المبتدأ، وعند أرباب المعاني بل أهل الأصول والعربية - كما ذكره السيد الكاظمي - ما يقابل الإنشاء، لكته من باب الجريان على المعنى اللغوي بناء على كونه حقيقة في القول المذكور لغة.

وفي اصطلاح علماء الرجال والحديث والفقهاء: ما يحكي قول المعصوم أو فعله أو تقريره⁽³⁾.

والظاهر أن المقصود بالكلام هو القول المتلفظ به، ولذا فإن إطلاق الخبر والحديث على المكتوب من باب المجاز.

(1) لسان العرب، مادة: خبر.

(2) عدة الرجال: ج 1 ص 170.

(3) الدراية: ص 6، ومشرق الشمسين: ص 21.

كما أنّ الظاهر من القول في تعريف السنّة هو ما يتلفظ به⁽¹⁾، فإطلاق السنّة على كتابة المعصوم من باب المجاز، اللهم إلا أن يعمم القول للكتابة تجزأً.

ولذا فإنّ كتاب فقه الرضا - بناء على اعتباره - يلحق بالسنّة بناء على تعميم القول للكتابة، وكذا الحال في مكاتبات المعصوم.

وأما الخبر - كما إذا قال شخص: «قال الرسول ﷺ» - إنّما هو مقول القول، لا نفس القول، وليس القول جزءاً من الخبر. ولا ينافيه قولهم: «متن الحديث» أو «متن الخبر»؛ فالإضافة - هنا - بيانية، والمعنى أصل الحديث ونفسه، فلا تغاير بين المتن والخبر والحديث، كما في متن اللغة.

ولا يلزم في صدق الخبر بالمعنى اللغوي كون المتكلم عالماً بالنسبة قطعاً، بل يكفي في صدقه مجرد إسناد المحمول إلى الموضوع ولو مع العلم بكونه كذباً. ولا إشكال فيه لو لم يكن المخاطب عالماً بكون المتكلم غير عالم بالنسبة.

فالظاهر من الخبر هو ما كان عن علم، كما أنّ الظاهر من صيغ الإخبار - أعني الجمل الخبرية - هو كونها عن علم، إلا أنّه غير داخل في مفرداتها، ولا وضع لتركيبها.

وباختصار نقول:

ما يدخل في قضايا (الجرح أو التعديل) هو الخبر بالمعنى اللغوي، والشهادة بالمعنى المصطلح.

وأما الخبر بالمعنى المصطلح فلا يرتبط بالمقام، كما أنّ الشهادة بالمعنى اللغوي لا يرتبط بالمقام أيضاً.

ولا جدوى في الكلام في قولنا: ما الفرق بين الخبر بالمعنى اللغوي والشهادة بالمعنى اللغوي؟ أو ما الفرق بين الخبر بالمعنى المصطلح والشهادة

(1) مشرق الشمسين: ص 24.

بالمعنى اللغوي؟ وإتيا المهم والأجدى هو: ما الفرق بين الخبر بالمعنى اللغوي والشهادة بالمعنى المصطلح؟

نقول: إنَّ الشهادة تطلق على أمور:

1- تطلق تارة على الإطلاع، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾⁽¹⁾ إذ الغرض أخذ المطلع بإحداث الإطلاع، ولا مجال لحمل الشهادة فيه على الإخبار، بل منه التعبير بأداء الشهادة؛ إذ الغرض إظهار الإطلاع، ولا معنى لأداء الإخبار. والفرق بين الخبر والشهادة -هنا- ظاهر.

2- وتطلق تارة على الإخبار، كما في كثير من موارد إطلاق الشهادة، بل أكثرها. والفرق بين الخبر والشهادة - هنا - يرجع به إلى العرف، بناء على تسرية المعنى المصطلح عليه للشهادة إلى العرف.

قال السيد الكاظمي: «إنَّ الشهادة وإن كانت إخباراً أيضاً إلا أنه قد أخذ في (مفهومها) أن يكون إنشاء الإخبار بين يدي الحاكم، فإذا أطلع على قتل -مثلاً- أو دين أو سرقة أو نحو ذلك فحكى ذلك ابتداء، كان إخباراً، وإن دعي للتسجيل، كان شهادة»⁽²⁾.

نلاحظ أنّ المدار في الشهادة عنده على أمرين: كونها في الخصومة بين يدي الحاكم، وكونها للتسجيل.

وينقض كلامه: بأنَّ الشهادة لا تختص بباب المرافعات ولو بناء على عدم عموم حجيتها؛ لثبوت ذكرها في بعض الموارد غير موارد الخصومة، ولا تختص الشهادة أيضاً بكونها بعد الاستشهاد.

ولذا قال: «إنَّ الشهادة وإن كانت إخباراً أيضاً إلا أنّها قد أخذ في مفهومها أن يكون الغرض من الإخبار إثبات ما يخبر به ولو مع انضمام إخبار آخر إليه، وذلك لا يكون إلا عند الاستشهاد، وأما الخبر غير

(1) الطلاق: 2.

(2) عدة الرجال: ج 1 ص 170.

الشهادة فالغرض منه إعلام السامع بوقوع النسبة أو لا وقوعها، أو كون المتكلم عالماً بذلك، أو نحوهما من إظهار الفجع والتحسر والحث على الفعل وغيرها. فإذا قال قائل: إني قد رأيت اليوم زيدا يقتل عمراً، أو يقذفه، أو يعطيه مالاً، قصداً إلى إعلام المخاطبين بذلك، كان ذلك إخباراً، فإذا تنازعا ودعي للإخبار بما اطلع عليه منهما فأخبر، كانت شهادة»⁽¹⁾.

وينقض: بأنه لا يلزم في صدق الشهادة الاستشهاد، بل لو بادر أحد عند الحاكم في مقام المرافعة إلى الإخبار، يعد شهادة. أليس قد حكموا بأن التبرع بأداء الشهادة قبل الاستنطاق وطلب الحاكم إياه من الشاهد يمنع عن القبول⁽²⁾.

وهذا العنوان - أعني التبرع بالشهادة - مشهور، إلا أن يقال: إن الغرض الاستشهاد ولو من غير المتبرع، وفي مقام المرافعة يتفق الاستشهاد لا محالة، فالتبرع لا ينافي الاستشهاد.

لكن نقول: إنّه ربما لا يكون شاهد في اليمين ولم يستشهد الحاكم وتبرع المتبرع، فالتبرع هنا ينافي اعتبار الاستشهاد.

بل يمكن القول بأنّ الظاهر من اعتبار الاستشهاد إنّها هو الاستشهاد عن المخبر، فالتبرع هنا ينافي اعتبار الاستشهاد.

ومن الأمثلة على ذلك: قال العلماء في أنّ الطريق في إثبات الاجتهاد والأعلمية بالعلم التعبدي أمران: البينة، وخبر الثقة.

وذكر السيد الخوئي رحمته في رسالته العملية «خبر الثقة في وجه» في عداد إثبات الاجتهاد والأعلمية. وهو يشير بقوله: «في وجه» إلى الإشكال في كفاية خبر الثقة هنا من جهة أنّ الاجتهاد والأعلمية من الموضوعات، ويعتبر في ثبوتها البينة، ولا يكفي فيها العدل الواحد على القول المشهور بين الفقهاء، فلا يثبت الاجتهاد والأعلمية بخبر الثقة.

(1) عدة الرجال: ج 1 ص 171.

(2) انظر: الروضة البهية في شرح اللمعة: ج 2 ص 134.

ولكنه تنتزح نقض هذا الرأي من جهة أنه قد دل الدليل على حجية خبر الثقة في مطلق الموضوعات، وهو بناء العقلاء الذي لم يردع عنه الشارع، بل أمضاه كما يظهر ذلك من الروايات الدالة على حجية خبر الثقة:

بعزل الوكيل⁽¹⁾، ودخول الوقت⁽²⁾، والوصية⁽³⁾، واستبراء الأمة⁽⁴⁾... وغير ذلك من الروايات الدالة على حجية خبر الثقة في الموضوعات الجارية على مبنى العقلاء وسيرتهم في قبول خبر الثقة وترتيب الآثار عليه إذا لم يكن في البين قرينة توجب اتهامه.

سؤال: إذا أردنا التعرف على سند رواية وهل سندها صحيح أو لا. فما هي الطريقة التي يلزم إتباعها؟ مع ذكر مثال للتوضيح؟

جواب: توثيق الأخبار لون من إحقاق الحق وإبطال الباطل. وقد اهتم المسلمون اهتماماً شديداً بهذا الجانب من المعرفة والاستدلال، وهناك طريق واحد لإرضاء الله سبحانه وتعالى ونيل محبته، من خلال إتباع نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾⁽⁵⁾.

وعلماء الأمة، من تاريخ بعيد، تصون التراث العزيز، وتحميه، وتعد الكذب على صاحب الرسالة تزوير للدين وافتراء على الله لقوله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»⁽⁶⁾.

(1) وسائل الشيعة: كتاب الوكالة ب 2 ح 1.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الأذان والوقت: ب 3 ح 1.

(3) وسائل الشيعة: كتاب الوصايا ب 97 ح 1.

(4) وسائل الشيعة: أبواب بيع الحيوان ب 11 ح 2.

(5) آل عمران: 31.

(6) من لا يحضره الفقيه: ج 4 ص 362 ح 5762، وصحيح البخاري: ج 1 ص 52 ح 107،

والسنن الكبرى: ج 3 ص 457 ح 5912.

ولذلك وضع العلماء شروطاً عامة لقبول الأحاديث الشريفة:

1- لا بد في السند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسمع، ويحكيه بعدئذ طبق الأصل ولو بالمعنى.

2- لا بد مع الوعي أن يكون على خلق متين وضمير يتقي الله به ويرفض أي تحريف.

3- أن يكون الحديث منسجماً مع روح القرآن ولهذا لا بد من عرض الروايات على كتاب الله: حيث إنّ القرآن الكريم هو المتفق عليه حين الاختلاف وبه قوام الأمة المسلمة دستوراً خالداً لتشريع أحكامها، فهو الموفق في حال الاختلاف، ولهذا أصدر الإمام الصادق عليه السلام أقوالاً كثيرة في هذا المقام، ومنها:

« لا تصدّق علينا، إلا ما وافق كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله »⁽¹⁾.

« ما أتاكم عنّا من حديث لا يصدّقه كتاب الله فهو باطل »⁽²⁾.

« لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإنّ المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي عليه السلام »⁽³⁾.

وهذا الكلام منهم عليه السلام ناتج عن الدس والتحريف في نصوص التشريع. فعن هشام بن الحكم، أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: « كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدس فيها الكفر والزندقة، ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه ويأمرهم أن يبشروا في الشيعة، فكلما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك ما دسّه المغيرة ابن سعيد في كتبهم »⁽⁴⁾.

(1) وسائل الشيعة: أبواب صفات القاضي ب 9 ح 47.

(2) بحار الأنوار: ج 2 ص 242.

(3) اختيار معرفة الرجال: ج 2 ص 489 ح 401.

(4) اختيار معرفة الرجال: ج 2 ص 491 ح 402.

4- أن لا يكون النص شاذاً.

5- أن لا تكون به علة قاذحة.

سؤال: ما هي طرق إثبات وثيقة الراوي؟

الجواب: هناك عدة طرق لإثبات وثيقة الراوي نذكر من بينها:

1- شهادة الإمام المعصوم عليه السلام:

إذا شهد المعصوم عليه السلام بوثيقة شخص فلا إشكال في كون ذلك طريقاً لإثبات الوثيقة من قبيل ما ورد في حق زرارة، ومحمد بن مسلم وغيرهما، بشرط أن لا يكون الراوي للتوثيق عن الإمام عليه السلام نفس الشخص المراد إثبات وثيقته بشهادة الإمام عليه السلام.

2- شهادة أحد الأعلام بالوثيقة:

ونقصد بأحد الأعلام المهرة في مقام التعديل والتجريح، وهم:

أ - الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن العباس المعروف بالنجاشي صاحب الكتاب المعروف بفهرست مصنفي الشيعة.

ب- الشيخ الطوسي صاحب كتابي الفهرست والرجال.

ج- الشيخ أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بالكشي، ويعد في طبقة الشيخ الكليني، وهو صاحب كتاب رجال الكشي.

إنّ شهادة أحد هؤلاء الثلاثة بوثيقة راوٍ معين طريق لإثبات الوثيقة باتفاق العلماء.

واختلف العلماء في توثيقات غير هؤلاء الثلاثة، ومن أمثلة هذا:

أ - توثيق ابن فضال وابن عقدة ومن ماثلهما:

قال الشيخ المامقاني: «قد تأمل جمع في توثيقاتهم نظراً إلى عدم كونهم

من الإمامية. وهو بناء على كون اعتبار التزكية من باب الشهادة لا بأس به، وأما على المشهور المنصور من كونها من باب الوثوق والظن الذي ثبتت حجيته في الرجال فلا وجه له»⁽¹⁾.

ولا يخفى أنّ ابن فضال كان فطحياً، وابن عقدة زيدياً جارودياً.

وقال البهبهاني: «من لم يعتمد على توثيق أمثالهم فلا اعتراض عليه، ومن اعتمد فلاجل الظن الحاصل منه، وغير خفي على المطلع حصوله، بل وقوته، وأيضاً ربما كان اعتماده عليه بناء على عمله بالروايات الموثقة فتأمل، ويمكن أن يكون اعتماده ليس من جهة ثبوت العدالة، بل من باب رجحان قبول الرواية وحصول الاعتماد والقوة»⁽²⁾.

وقال أيضاً: «لو جعل تعديل مثل علي بن الحسن من مرجحات قبول الرواية فلا إشكال، بل يحصل منه ما هو في غاية القوة، وأما لو جعل من دلائل العدالة فلا يخلو من إشكال»⁽³⁾.

وقال السيد الكاظمي: «الذي يستفاد من تتبع سيرة قدماء الأصحاب هو الاعتماد على أمثال هؤلاء»⁽⁴⁾.

ب- توثيقات إرشاد المفيد:

قال الوحيد: «استفادة العدالة منها لا تخلو من تأمل، نعم يستفاد منها القوة والاعتماد؛ والمحقق الشيخ محمد أيضاً تأمل، لكن قال في وجهه: لتحققها بالنسبة إلى جماعة اختص بهم من دون كتب الرجال، بل وقع التصريح بضعفهم من غيره على وجه يقرب الاتفاق، ولعل مراده من التوثيق أمر آخر»⁽⁵⁾.

وقال الشيخ المامقاني: «توثيقه من ضعفه أو توقفوا في حاله لا يوجب

(1) مقياس الهداية: ج 2 ص 290.

(2) فوائد الوحيد البهبهاني: ص 10.

(3) فوائد الوحيد البهبهاني: ص 21.

(4) عدة الرجال: ج 1 ص 143.

(5) فوائد الوحيد البهبهاني: ص 52.

وهن توثيقاته، غابته عدم الأخذ بتوثيقه عند تحقق اشتباهه»⁽¹⁾.

وقال أبو علي الحائري: «من أسباب المدح والقوة»⁽²⁾.

ج - توثيق العلامة وابن طاووس:

قال الوحيد: «توقف بعضهم في توثيقات العلامة وتوثيقات ابن طاووس وكذا الشهيد، ولعله ليس في موضعه، لحصول الظن منها والاكتفاء به»⁽³⁾.

واعترض المجلسي الأول عليهم بأنّ العادل أخبرنا بالعدالة أو شهد بها فلا بد من القبول»⁽⁴⁾.

وقال السيد الكاظمي: «إنّ التوقف في توثيق مثل ابن طاووس والعلامة ليس في محله»⁽⁵⁾.

وأيّد أبو علي الحائري بأنّ هذه التوثيقات «من أمارات الوثاقة»⁽⁶⁾.

أقول: لا يخفى أنّ منشأ الإشكال في قبول توثيق العلامة وابن طاووس ومن ماثلهما، كونها من المتأخرين فتوثيقاتهم مبنية على الحدس والاجتهاد.

3 - الإجماع على الوثاقة:

هناك بعض الرواة لم ينص النجاشي وغيره على وثاقته ولكنه من أحد الأفراد الذين ادعى الكشي إجماع الشيعة على قبول روايتهم. فالكشي إذا كان مصيباً في دعواه الإجماع، وكان هناك إجماع حقاً على الوثاقة فذلك هو المطلوب، وإذا لم يكن مصيباً في ذلك ولم يكن الإجماع متحققاً واقعاً فيكفي في إثبات الوثاقة شهادة الكشي الضمنية والمستبطنة، فإنّ دعواه الإجماع

(1) مقياس: ج 2 ص 291.

(2) منتهى المقال: ج 1 ص 110.

(3) فوائد الوحيد: ص 52.

(4) م.ن.

(5) عدة الرجال: ج 1 ص 138.

(6) منتهى المقال: ج 1 ص 108.

تستبطن وتتضمن شهادته بوثاقة الستة، وذلك يكفي في إثبات الوثيقة.

4 - الوكالة عن الإمام عليه السلام:

أ - قد تكون الوكالة على مستوى الممثلة العامة وفي جميع المجالات، وهي ما يعبر عنها بالسفارة، ولا إشكال في دلالتها على الوثيقة بل على ما هو أعلى منها من سمو المنزلة ورفعة المقام.

ب- وقد تكون في مجال خاص معين، وقد أنكر وثيقة ذلك جماعة بحجة أننا نرى كثيراً من الوكلاء قد صدر من الأئمة عليهم السلام ذمهم. وقد عقد الشيخ الطوسي في كتابه الغيبة باباً خاصاً بالوكلاء المذمومين.

والصحيح دلالة الوكالة على الوثيقة لانعقاد السيرة العقلانية على عدم إيكال العاقل أي أمر من أموره إلى غير الثقة وخصوصاً الإمام عليه السلام، فإنّ غير الثقة قد ينسب إلى مقام الإمامة شيئاً هو منه براء الأمر الذي قد يشكّل خطراً على بعض جوانبها.

وإذا قيل: كيف يفسر إذن الذم الصادر في حق بعض الوكلاء؟

كان الجواب: إنّ ذلك صادر بعد توكيلهم وليس قبل ذلك.

5- رواية أجلاء الثقات:

ذهب الميرزا حسين النوري صاحب المستدرک إلى أنّ الثقة إذا روى عن شخص كان ذلك دليلاً على وثاقته.

والصحيح عدم الدلالة فما أكثر رواية الثقات عن غير الثقات. ولو كانت رواية الثقة عن شخص دليلاً على وثاقته لزم وثيقة أغلب الرواة أو كلهم لأنّ الشيخ الطوسي تنبّه ثقة فلو روى عن شخص كان ذلك الشخص ثقة، وإذا روى الشخص المذكور عن ثالث كان الثالث ثقة أيضاً، وهكذا.

أجل إذا أكثر أجلاء الثقات وكبارهم الرواية عن شخص فلا يبعد كونها دليلاً على الوثيقة لعدم إكثار العاقل الرواية عن شخص لا يعتقد بوثاقته.

وإذا قبلنا هذا الرأي فسوف نخرج بنتائج مهمة نذكر من بينها على سبيل المثال: توثيق محمد بن إسماعيل، فإنّ الكليني قد أكثر في الكافي الرواية عن محمد بن إسماعيل عن الفضل بن شاذان. وقد قيل إنه مجهول الحال فتسقط رواياته الكثيرة المذكورة عن الاعتبار، بينما بناء على ما تقدم يمكن الحكم بوثاقته وان لم يمكننا تشخيصه على سبيل التفصيل، وبذلك سوف ترتفع مجموعة كبيرة من الروايات إلى مستوى الحجية.

6- شيخوخة الإجازة:

أخذ الرواية من شخص له صور متعددة:

أ - فتارة يسمع التلميذ الرواية من الأستاذ.

ب- وأخرى يقرأ الأستاذ الرواية على التلميذ.

ج- وثالثة يميز الأستاذ التلميذ بأن يدفع له الكتاب الذي سجل فيه الروايات وجمعها فيه ويقول له أجزتك في نقل الروايات الموجودة فيه عني.

ويصطلح على الشكل الثالث بتحمل الرواية بنحو الإجازة.

كما ويصطلح على صاحب الكتاب الذي صدرت الإجازة منه بشيخ الإجازة.

وقد اختلف في أنّ شيخوخة الإجازة هل تكفي لإثبات الوثاقة أو لا؟

والبحث عن النقطة المذكورة مهم لأنّ كثيراً من الأصول الحديثة - التي أُلّف منها التهذيب والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه - قد وصلت إلى الشيخ الصدوق والطوسي بواسطة أشخاص لم يرد في حقهم توثيق خاص غايته هم من مشايخ الإجازة: كأحمد بن عبدون، وأحمد بن محمد بن الحسن بن الوليد، وأحمد بن محمد بن يحيى، وغيرهم...

ولعل المعروف لدى القدماء كفاية شيخوخة الإجازة لإثبات الوثاقة خلافاً لآخرين منهم السيد الخوئي رحمته الله فاختراروا عدم كفاية ذلك.

سؤال: هل هناك ألفاظ تدل على التوثيق غير ما ذكر سابقاً؟

جواب: نعم، هناك الكثير من ألفاظ التوثيق، كما أنّ هناك كثيراً من ألفاظ المدح ولكنها قد لا ترتقي إلى درجة التوثيق.

فعندما تأتي لفظة من ألفاظ المدح فهي على أقسام⁽¹⁾:

- أ - ما يستفاد منه مدح الراوي وحسن حاله مطابقة، وحسن روايته بالالتزام.
- ب - ما يستفاد عكس ذلك.

وكّل من القسمين:

- أ - ما يبلغ المدح المستفاد منه إلى حد التوثيق.
- ب - ما لا يبلغ المدح المستفاد منه إلى حد التوثيق.

ثم كل منهما إما:

- أ - أن يكون دالاً على الاعتقاد الحق، أو خلافه.
- ب - أن لا يكون دالاً على الاعتقاد الحق.

وقال البهبهاني: «المدح منه ما له دخل في قوة السند وصدق القول، ومنه ما لا دخل له في السند بل في المتن، ومنه ما لا دخل له فيهما»⁽²⁾.

إذن بين المدح والتوثيق عموم وخصوص من وجه.

ولذا ينبغي من العالم أن يكون عارفاً بهذه الأمور، ومن هذه الأوصاف:

1 - في وصف شاعر:

فهذا التعبير من المدائح التي لا دخل لها في السند ولا في المتن، بل اعتبره بعضهم ممن لا يدل على مدح ولا ذم⁽³⁾.

(1) توضيح المقال: ص 181، ومقاس الهداية: ج 2 ص 139 - 140.

(2) فوائد الوحيد: ص 24.

(3) مقاس الهداية: ج 3 ص 17.

يعتبر هذا من ألفاظ المدح في المرتبة الأولى⁽¹⁾.

وذهب بعضهم إلى أنّ هذا الوصف يعتبر من المدائح التي لها دخل في قوة السند، فهو يوجب صيرورة الحديث حسناً أو قوياً⁽²⁾.

وذهب بعضهم إلى كونه يُعد من ألفاظ التوثيق، وتدل على الإيمان إذا صدر الوصف به من أصحابنا⁽³⁾.

3 - عارف باللغة أو النحو:

هذا التعبير لا يفيد الحديث حسناً أو قوة⁽⁴⁾.

وذهب البهبهاني إلى «أنّه لا يقصر عن المدح الذي له دخل في المتن، مع احتمال أنّه من الألفاظ التي لها دخل في قوة السند وصدق القول»⁽⁵⁾.

4 - قارئ: يقرأ القرآن عن نظر أو عن حفظ:

من المدائح التي لا دخل لها في قوة السند والمتن، فلا اعتبار له لأجل الحديث. نعم هو من المكملات⁽⁶⁾. ولهذا لا يفيد الحديث حسناً أو قوة⁽⁷⁾.

5 - اتخاذ الإمام عليه السلام رجلاً خادماً ملازماً أو كاتباً:

إنّه تعديل له؛ لعدم تعقل صدور شيء من ذلك منه بالنسبة إلى غير العدل الثقة⁽⁸⁾.

(1) الرعاية: ص 208، ومقاييس الهداية: ج 2 ص 249.

(2) وصول الأخيار: ص 192، وفوائد الوحيد: ص 24.

(3) عدة الرجال: ج 1 ص 119، والرواشح السماوية: ص 60.

(4) عدة الرجال: ج 1 ص 124.

(5) فوائد الوحيد: ص 24 - 25.

(6) فوائد الوحيد: ص 24.

(7) عدة الرجال: ج 1 ص 124.

(8) تنقيح المقال: ص 210.

هو من ألفاظ المدح في المرتبة الأولى، وذهب السيد الكاظمي إلى كونه من ألفاظ التوثيق⁽¹⁾.

وقال المامقاني: «لا شبهة في دلالة على المدح المعتد به المقارب للتوثيق بل يحتمل دلالة على ذلك»⁽²⁾.

وغيرها من المفردات التي لا يمكن حصرها إلا في مجلد مستقل.

ولتعلم أن كل ما ديجناه يعد مقدمة أولى على طريق صحة الرواية، فقد نظمنا للرواية من جهة سندها، وخلوها من الاضطراب السندي بحيث يكون العالم فيها ملماً بطبقات الرجال، كذلك ينبغي أن يكون ملماً بما يفرضه واقع المتن من: سلامة اللفظ، وعدم الإجمال، وعدم اختلاف النسخ،....

ولكي نوفر عليك الوقت نضع بعض الأمثلة:

المثال 1: صحيحة أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل قصّ ظفراً من أطافيره وهو محرم؟ قال: عليه في كل ظفر قيمة مدّ من طعام حتى يبلغ عشرة، فإن قلم أصابع يديه كلها فعليه دم شاة، فإن قلم أطافير يديه ورجليه جميعاً فقال: إن كان فعل ذلك في مجلس واحد فعليه دم، وإن كان فعله متفرقاً في مجلسين فعليه دمان⁽³⁾.

ويرويها الشيخ الصدوق بإسناده عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رثاب، عن أبي بصير نحوه، إلا أنه قال: «عليه مدّ من طعام»⁽⁴⁾.

الإشكال:

للصحيحة طريقتان: أحدهما: طريق الشيخ الصدوق، والآخر: طريق الشيخ الطوسي، فالصدوق روى رواية أبي بصير وذكر فيها: «عليه مدّ من

(1) عدة الرجال: ج 1 ص 119.

(2) مقباس الهداية: ج 2 ص 247.

(3) وسائل الشيعة: أبواب بقية كفارات الإحرام ب 12 ح 1.

(4) من لا يحضره الفقيه: ج 2 ص 227 ح 1075.

طعام»، ورواها الشيخ وذكر فيها: «قيمة مدّ من طعام..» ومن البعيد جداً أنّ الإمام عليه السلام أراد كلا الجوابين، وعليه فأبي من الجوابين نرجحه على الآخر؟!

ويمكن أن نرجح رواية الفقيه لوجهين:

الأول: إنّ الشيخ الطوسي ذكر هذه الرواية تعليقاً على متن المقنعة، حيث قال الشيخ المفيد: «وإذا قلّم المحرم شيئاً من أظفاره فعليه أن يطعم عن كل ظفر مسكيناً مدّاً من طعام...»⁽¹⁾، ولم يذكر الشيخ المفيد القيمة أبداً، ومن المناسب جداً أن يذكر الشيخ الطوسي مبنى كلام أستاذه في هذه المسألة كما هو ديدنه وغرضه، ومن هنا يتضح لنا أنّ ذكر القيمة في رواية أبي بصير برواية الشيخ الطوسي لا بدّ وأن يكون اشتباهاً، وإلا فلا يصلح أن تكون هذه الرواية دليلاً على ما جاء في المقنعة.

ويؤيده أنّ الشيخ الطوسي نفسه في كتابه النهاية لم يذكر عنوان القيمة حيث قال: «ومن قلّم ظفراً من أظفاره، كان عليه مدّ من طعام. وكذلك الحكم فيما زاد عليه. وإذا قلّم أظفار يديه جميعاً، كان عليه دم شاة. فإن قلّم أظفار يديه ورجليه جميعاً، وكان في مجلس واحد، كان عليه دم. وإن كان ذلك في مجلسين، كان عليه دمان»⁽²⁾، وهذا هو عين رواية الصدوق عن أبي بصير.

الثاني: إنّ قوله «قيمة مدّ من الطعام» لا يمكن أن تكون كفارة؛ لاستحالة التخيير بين الأقل والأكثر، فإنّ الطعام اسم للتمر والأرز والحنطة والشعير وقيمة هذه الأمور مختلفة فكيف يمكن جعل قيمة هذه الأمور ملاكاً للواجب فإنّ الأقل مما يصدق عليه قيمة الطعام يكون مصداقاً للواجب.

المثال 2: روى الشيخ الطوسي في التهذيب بإسناده عن موسى بن القاسم، عن عبد الرحمن، عن علاء، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن محرم قتل جراداً كثيراً، قال: كفّ من طعام، وإن كان أكثر فعليه شاة⁽³⁾.

(1) المقنعة: ص 434.

(2) النهاية ونكتها: ج 1 ص 498.

(3) تهذيب الأحكام: ج 5 ص 325 ح 1267.

وهذا الإسناد صحيح.

ورواها أيضاً في الاستبصار - بنفس السند - بسياق مختلف، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن محرم قتل جراداً، قال: كَفَّ من طعام، وإن كان أكثر فعليه دم شاة⁽¹⁾.

ورواها صاحب الوسائل أولاً كما في الاستبصار، ثم قال: «وبهذا الإسناد مثله، إلا أنه قال: قتل جراداً كثيراً»⁽²⁾ إشارة إلى رواية التهذيب.

والغرض من ذكر السندين أنّ صاحب الوسائل يريد أن يبين أنّ الرواية رويت على نحوين، رواها الشيخ تارة مع كلمة «كثيراً» وأخرى بدونها.

ورواها العلامة في المختلف هكذا: «محمد بن مسلم في الصحيح، عن الصادق عليه السلام قال: سألته عن محرم قتل جراداً، قال: كَفَّ من طعام، وإن كان كثيراً فعليه دم شاة»⁽³⁾.

ولا شك أنّ العلامة يريد رواية الاستبصار، إلا أنّها مختلفة عما في الاستبصار بإبدال كلمة (أكثر) إلى (كثيراً).

وعلق الشيخ يوسف البحراني على روايتي الشيخ فقال: «والظاهر أنّ قوله: (جراداً كثيراً) في الخبر وقع سهواً من قلم الشيخ، وإتبا السؤال عن جرادة واحدة، وكم له - رضوان الله تعالى عليه - مثل ذلك في الأسانيد والمتون، وإلّا فمعنى الخبر المذكور لا يخلو من تناف»⁽⁴⁾.

وأما التنافي فنوضحه بهذين الفرضين:

الأول: إنّ المحرم إذا قتل ثلاثين جرادة مثلاً - وهذا كثير بالطبع - فكفارته حينئذ كَفَّ من طعام، وأما إذا قتل أكثر من ثلاثين جرادة ففيه شاة.

(1) الاستبصار: ج 2 ص 280 ح 708.

(2) وسائل الشيعة: أبواب كفارات الصيد ب 37 ح 3.

(3) مختلف الشيعة: ج 4 ص 160.

(4) الحدائق الناضرة: ج 15 ص 246.

الثاني: ولو فرضنا أنه قتل عشرين جرادة - وهذا كثير بالطبع - فكفارته حينئذ كفت من طعام، وأما إذا قتل أكثر من عشرين جرادة ففيه شاة.

وحينئذ ثبتت كفارة الشاة فيمن قتل أكثر من عشرين جرادة، وثبتت أيضاً فيمن قتل أكثر من ثلاثين جرادة. وهذا لا معنى له، فيقع التناقض.

وأما الحل، فقال الشيخ المجلسي: «إن صاحب المختلف أسقط كلمة (أكثر) وضبط كلمة (كثير)»⁽¹⁾.

وتوضيحه ما يلي:

أولاً: حذف كلمة «جراداً كثيراً» التي جاءت في التهذيب، وأثبتها «قتل جراداً» كما جاء في الاستبصار.

ثانياً: حذف جملة «وإن كان أكثر» التي جاءت في الاستبصار، وأثبتها «وإن كان كثيراً» كما جاء في التهذيب.

فالرواية حينئذ تقرأ كالتالي: «سألته عن محرم قتل جراداً؟ قال: كفت من طعام، وإن كان كثيراً فعليه شاة» وينتفي الإشكال حينئذ.

المثال 3: عن محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى العطار، رفعه، عن أبي عبدالله عليه السلام، في الذي يخضب رأسه بالحناء ثم يبدو له في الوضوء، قال: لا يجوز حتى يصيب بشرة رأسه بالماء⁽²⁾.

هذه الرواية تتعارض مع رواية أخرى، وهي: معتبرة عمر بن يزيد. التي رواها محمد بن الحسن بإسناده عن محمد بن علي بن محبوب، عن محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن حماد بن عثمان، عن عمر بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام، عن الرجل يخضب رأسه بالحناء ثم يبدو له في الوضوء؟ قال: يمسح فوق الحناء⁽³⁾.

(1) ملاذ الأخيار: ج 8 ص 319.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الوضوء ب 37 ح 1.

(3) م.س: ح 3.

وطريق الشيخ الطوسي تنتشر إلى محمد بن علي بن محبوب سنده هكذا: الحسين بن عبيد الله، عن أحمد بن محمد بن يحيى العطار، عن أبيه محمد بن يحيى، عن محمد بن علي بن محبوب.. ورجاله ثقة أجلاء.

ولكن الكلام فعلاً في أحمد بن محمد بن يحيى العطار، فإنه لم يصدر في حقه توثيق أو غيره، إلا أننا نعتمده لأمر:

- 1- إنه من مشايخ الصدوق، وقد روى عنه كثيراً في كتبه، وترضى عنه⁽¹⁾.
- 2- ورود اسمه في كثير من روايات الكتب الأربعة المعتمدة.
- 3- من مشايخ الإجازات، فقد روى عنه هارون بن موسى التلعكبري، وسمع منه سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وله منه إجازة⁽²⁾.
- 4- لقد صحح العلامة تنتشر - في الفائدة الثامنة من الخلاصة - طريق الشيخ الصدوق إلى كل من: عبد الرحمن بن الحجاج، وعبد الله بن أبي يعفور، وفي كلا الطريقين: أحمد بن محمد بن يحيى.

ويتضح من كل ذلك اعتماد الأعلام على قبول روايته، وإثماً أغمض الرجاليون ذكره لكونه ليس له مصنفاً، وقد كان من دأب الشيخين الطوسي والنجاشي أن يذكرا في كتبهم أصحاب الكتب والمصنفات فقط.

وعليه فإن سند الشيخ الطوسي إلى محمد بن علي بن محبوب صحيح، ورجال السند بعد ابن محبوب كلهم ثقات أيضاً، فالرواية حينئذ صحيحة السند.

(1) انظر: الأمالي: ص 221 مجلس 39 حديث 8 وص 289 مجلس 48 حديث 11 وص 482 مجلس 73 حديث 5 وص 497 مجلس 75 حديث 5 وص 544 مجلس 81 حيث 9 وص 577 مجلس 85 حديث 6 وص 666 مجلس 95 حديث 2 - علل الشرائع: ص 439 - الخصال: ص 3، 11، 25، 26، 27، 36، 37، 39، 54، 81، 92، 97، 99، 103، 108، 110، 112، 148، 222، 230، 237، 238، 325، 351، 417، 431، 433، 434، 437، 497، 546، 581، 646، 647، 648، 649 - معاني الأخبار: ص 250، 234، 177 - عيون أخبار الرضا: ج 1 ص 134، 279 - كمال الدين: ص 221، 231، 318، 341، 342، 346، 371، 393، 408، 409، 412، 430، 509، 412، 430، 509، 654 - التوحيد: 102، 132، 145، 413.

(2) رجال النجاشي: ص 88 رقم 214.

وفي المقام أمور ينبغي أن نستجليها:

أولاً: هاتان الروايتان رويتا من طريق محمد بن يحيى العطار، وهما متعارضتان مفهوماً، وهل يعقل صدور روايتين متعارضتين على لسان شخص كمحمد بن علي بن محبوب الجليل القدر.

ثانياً: ثم إنَّ الشيخ الكليني، وهو المحقق الثبت المعتمد المحيط بالروايات، اعتمد على المرفوعة ولم يقبل بالصحيحة لمخالفتها للأصل الثابت، وهو عدم جواز الوضوء مسحاً ولا غسلًا على الحائل.

ثالثاً: إنَّ رفع ابن محبوب للرواية الأولى أمر لم يتضح لنا سببه، اللهم إلا إذا كان ابن محبوب قد أدرك تشويشاً في إسناد الرواية إلى الإمام عليه السلام، فإنَّ الرواية الأخرى الصحيحة اعتمدت في بعض إسنادها على محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، بينما جاء في نسخة الشيخ الطوسي بدلاً عن محمد بن الحسين.

رابعاً: أورد الشيخ الطوسي الروايتين في كتابيه واعتمدهما، فحمل الرواية الثانية منهما على حصول الضرر بكشفه، أو إرادة لون الحناء.. وهذا الحمل لا نقبله بعد الوقوف على نص صريح في المعارضة. ويؤيده صحيحة محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام: في الرجل يخلق رأسه ثم يظليه بالحناء ثم يتوضأ للصلاة، فقال: لا بأس بأن يمسح رأسه والحناء عليه⁽¹⁾.

وعليه فإنَّ الرواية الأولى أوضح دلالة من الأخيرتين مع صحتها.

وليس هذا الحكم بغريب في عالم النص بل له نظائر منها على سبيل المثال:

ما رواه الكليني عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن ابن أبي نجران، عن صفوان، عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ثلاث يتزوجن على كل حال - إلى أن قال: - والتي قد يئست من الحيض ومثلها لا تحيض، قلت: وما حدّها؟ قال: إذا كان لها خمسون سنة⁽²⁾.

(1) وسائل الشيعة: أبواب الوضوء ب 37 ح 4.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الحيض ب 31 ح 6.

وروى الشيخ الطوسي عن علي بن الحسن، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن صفوان، عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - قال: قلت: التي قد يئست من الحيض ومثلها لا تحيض؟ قال: إذا بلغت ستين سنة فقد يئست من الحيض ومثلها لا تحيض⁽¹⁾.

فالرواية الأولى وإن كان في سندها سهل بن زياد، إلا أنها مروية عن رجال العدة، وهم مشايخ إجازة الكليني الأجلاء الذين لا يطعن فيهم ولا يחדش في روايتهم.

وأما الرواية الأخرى فإسناد الشيخ الطوسي إلى علي بن الحسن بن فضال لا بأس به، حيث قال ثالثاً: «وما ذكرته في هذا الكتاب عن علي بن الحسن بن فضال، فقد أخبرني به أحمد بن عبدون المعروف بابن الحاشر، سماعاً منه، وإجازة عن علي بن محمد بن الزبير، عن علي بن الحسن بن فضال»⁽²⁾.

فأحمد بن عبدون وإن لم يوثق في كتب الرجال إلا أنه من مشايخ الشيخ النجاشي، حيث قال: «أحمد بن عبد الواحد بن أحمد البزاز، أبو عبد الله، شيخنا المعروف بابن عبدون»⁽³⁾. ومشايخ الإجازة غنيون عن التوثيق كما جاء في محله.

وأما علي بن محمد بن الزبير فلم تثبت وثاقته في كتب الرجال. نعم، ذكر الشيخ النجاشي أنه من المشايخ.

إذن الرواية ليست صحتها في سندها فقط، بل في دلالة متنها أيضاً.

سؤال: قيل إنّ الشهرة الفتوائية على خلاف الخبر الصحيح تسقطه عن الحجية. ما المقصود من ذلك؟

جواب: الشهرة الفتوائية: وتعني اشتهار فتوى بين الفقهاء دون أن يعلم مستندهم في تلك الفتوى.

(1) م.س: ح 8.

(2) مشيخة التهذيب: ص 16.

(3) رجال النجاشي: رقم 209.

فهذه الفتوى لدى فريق من العلماء تكشف عن وجود سنة استند إليها المفتون وإن لم تصل إلينا. وجدير ذكره أنّ بعض العلماء يرفض حجية الشهرة الفتوائية ولا يأخذ بها.

فإذا كان يوجد خبر صحيح السند فالمعروف حجيته بين العلماء، ولكن وقع الكلام في أنّ الشهرة الفتوائية إذا كانت على خلاف الخبر الصحيح فهل ذلك يسقطه عن الحجية أو لا؟

المعروف سقوطه عن الاعتبار إلا أنّ السيد الخوئي اختار عدم السقوط.

ويمكن توجيه السقوط بأنّ الطبقة المتقدمة من أعلامنا إذا عرضوا عن رواية فذلك يكشف عن وجود خلل في بعض جهاتها وإلا فلماذا عرضوا عنها.

نعم، اشترطوا في ذلك أن لا يكون إعراض المتقدمين عن الرواية وليد أعمال نظرهم واجتهادهم؛ إذ اجتهادهم حجة عليهم لا علينا.

إلا أنّ المشكلة - بعد هذا - تبقى في أنّه: كيف نحرز إعراض المتقدمين عن الرواية بعد أن كانت كلمات كثير منهم ليست بأيدينا؟!.

سؤال: يوجد كثير من الشباب المؤمن بحاجة ماسة إلى مفاهيم إسلامية وثقافية. كيف نرغبهم للتوجه للقراءة مع عدم رغبتهم وحبهم للقراءة؟ خصوصاً ونحن نعيش هذا الزمن العصيب وشبابنا مستهدف من قبل الاستعمار والاستكبار العالمي؟ وماذا ننصحهم؟ وما هي الكتب التي يمكن الاستفادة منها في المرحلة البدائية للقراءة؟

جواب: أول ما يتبادر إلى ذهني، وربما هو السؤال الأهم في هذا الموضوع الحيوي هو: هل القراءة هواية؟

لطالما كتب الكثير من التربويين عن القراءة وأهميتها وفوائدها، لكن أرى أن كتاباتنا السابقة لم تتعمق كثيراً في أهمية القراءة، فهناك مفاهيم أعمق مما يطرح يجب أن نتناولها، وهناك مفاهيم يجب أن تصحح، هذا ما أراه حسب وجهة نظري، والقراءة والكتاب والثقافة والتقدم والتطور أمور

متلازمة ومفاهيم مترابطة، لذلك علينا أن لا نمل من التطرق لمثل هذه المواضيع بحجة التكرار، وعلينا أن لا نمل من طرحها لأننا نعاني من ظاهرة شح القراءة في مختلف شرائح المجتمع..

وهناك إحصائية تقول: إن متوسط ساعات القراءة في إحدى الدول الأوروبية يصل إلى 200 ساعة سنوياً، بينما تنخفض هذه الساعات وتقلص إلى 6 دقائق فقط سنوياً للفرد العربي!!!

أليس هذا أمراً مخيفاً؟

من الإحصائيات أيضاً: في ألمانيا -على سبيل المثال- نلاحظ أنّ ميزانية وزارة الثقافة هي الوزارة الوحيدة التي لا تتأثر بتأثر الميزانية العامة، فهي ثابتة، ولذلك وصلت أرباح مبيعات الكتب فيها إلى 6 مليارات مارك.

بينما - في البلاد العربية - نلاحظ أنّ ميزانية وزارة الدفاع هي الوزارة التي لا تتأثر بتأثر الميزانية العامة، وربما ميزانية وزارة الثقافة هي أولى الوزارات المتأثرة بذلك.

عندما كنا نسأل عن هواياتنا، كنا نجيب بعدة إجابات ومن ضمنها القراءة، ولا أدري هل فعلاً نحن نقرأ بشكل مستمر وجاد حتى ندرج القراءة ضمن قائمة الهوايات؟

أم أنّ قراءة الجرائد وملاحقها الرياضية والفنية وقراءة مجلات (...)
نعتبرها قراءة؟

ثم هل القراءة تعتبر هواية؟

دعوني أضجركم قليلاً وأقول: هل التنفس ضمن قائمة هواياتنا؟!

إنّهُ سؤال غريب، أدرك ذلك تماماً!

ماذا لو سمعنا أحدهم يقول: هوايتي المفضلة هي الأكل؟!

سنضحك ونأخذ منه هذه الكلمات على أنها نكتة طريفة يريد بها أن يؤنسنا في هذا الزمان النكد أو حقيقة طريفة خصوصاً إن كان من أصحاب

الأجسام الممتلئة!

بالتأكيد ستستغربون هذه الفلسفة، لماذا؟ لأن هذه الأمور عادات أو أفعال ضرورية طبيعية لكل إنسان ولكل كائن آخر.

وكذلك هي القراءة، أرى أنّها أمر ضروري لكل إنسان تماماً كالتنفس والأكل لا غنى عنها، والقراءة أمر يتميز به الإنسان عن باقي المخلوقات ولذلك أرى أنّ القراءة ليست هواية أبداً.

ومن الأمور الأخرى التي يجب أن نتعمق في طرحها، هي مسألة غرس حب المعرفة في نفوسنا وفي أبنائنا، فحب المعرفة والاستطلاع والفضول العلمي والبحث والاستقراء والاستنتاج، من العادات المفيدة التي يجب غرسها في المجتمع وإحلالها محل عادات أخرى سلبية.

ولأنّ القراءة إحدى وسائل المعرفة والعلم، فمن الطبيعي أن نرى المجتمع يقبل على القراءة ما دام حب المعرفة قد غرس فيه، وإذا ما وضعنا المعرفة في مرتبة قصوى، بعد الغناء والحفلات والمظاهر والأسواق و.... الخ، فمعنى ذلك أننا ألغينا حب المعرفة تماماً من حياتنا وصارت حياتنا سلسلة من الأمور التافهة والنتيجة النهائية تساوي إنسان يعيش على هامش إنسانيته.

هل تعلمون أنني قد أضطر للذهاب مع أحد أفراد عائلتي لمكان يستوجب فيه الانتظار، كالمستشفى وغيره، فأخذ معي كتاباً للقراءة، فيكون الأمر غريباً لأنهم لم يعتادوا على أن يكون مناخنا هكذا، بينما اعتادوا أن يروا الأوربيين يقرءون في كل مكان.. ولذا فإنّ سياستي مع أطفالي تقتصر: لا ميزانية عندي للمعرفة اشترى ما شئتم من الكتب مهما كان سعر الكتاب، وأما بالنسبة لمجالات الترفيه فلا بدّ أن تقنعوني بجدوى شرائها.

الأمر طبعاً ليس بهذه السهولة، أعني غرس حب المعرفة، لأنّ تراكم العادات السلبية على مرّ السنين يحتاج إلى سنين طويلة لتغييرها، وكذلك غرس العادات الإيجابية يحتاج إلى مجهود منظم ومخطط يسير وفق أهداف محددة، وهذا ما نفتقده في الكثير من الجهود التي تهدف إلى غرس قيم إيجابية في المجتمع.

ولو نظرنا بنظرة شمولية لواقع وأسلوب الحياة عند أهم فئة من المجتمع وهي الشباب، سنرى مظاهر عديدة سلبية وإيجابية: الإيجابي منها هي وجود القدرة لدى الشباب في تغيير الوضع إلى الأفضل.

أقول هنا: وجود القدرة، لكن أين الإرادة؟

نحن نفتقد للإرادة بسبب السلبية والأنانية، الكل ينتظر الكل حتى يصلح أمراً ما، أو يزيل عائقاً ما، قد نكتب ونتحدث عن السلبيات لكن أين الفعل الإيجابي الذي يجب أن يقوم به كل فرد تجاه المشكلة أو السلبية؟

تقولون: وما علاقة هذا بموضوع القراءة؟

أقول: بأنّ الفعل الإيجابي تجاه أي مشكلة سيؤدي إلى حل هذه المشكلة ولو كان هذا الفعل صغيراً، وبتراكم المبادرات والأفعال الإيجابية سنصل إلى حل مشاكلنا، مثلاً، بمقدور كل مجموعة من الشباب سواء كانوا في المدرسة أو الجامعة أن يشكلوا جماعة للمكتبة أو للقراءة، ومن ثم يقوموا بعمل أنشطة تسير في اتجاه تشجيع القراءة وحب الاستزادة من العلم والثقافة.

وباستطاعة كل شاب أن يساهم في تكوين مكتبة على مستوى المنزل أو الحي أو المسجد، وفي استطاعة كل فرد منا تشجيع الآخرين على القراءة بإهدائهم الكتب أو حتى بتعريفهم بعناوين الكتب.

أشكال الفعل الإيجابي تجاه هذه القضية تتنوع وتتفرع، ولو حاولنا أن نذكرها فلن تنتهي لأنّ المجال في هذا واسع والآفاق رحبة، وكل شخص يستطيع أن يبدع في خدمة هذا الهدف، بغرس حب المعرفة في مجموعة محددة من المجتمع.

فالقراءة أمر ضروري ولا نستطيع أن نعتبرها هواية نمارسها متى نشاء، بل هي عادة نمارسها يومياً وبشكل تلقائي، وغرس حب المعرفة عامل مساعد على حب القراءة، لأنّ القراءة وسيلة من وسائل اكتساب المعرفة، وحتى نغرس حب المعرفة في المجتمع علينا أن نحاول ونبادر بأفعال إيجابية تجاه خدمة هذا الهدف.

وينبغي أن نلفت إلى أهمية دور الأم في هذا الاتجاه، فإنّ الأم المثقفة حصن حصين من الصعب اختراق ثغوره، وإنّ المرأة التي تكون مديرة لأخطر مؤسسة اجتماعية في الحياة وهي الأسرة، إن كانت متعلمة ومثقفة ثقافة العصر استطاعت أن تنجب أبناء صالحين، ولنعم ما عبّر به الفيلسوف روسو في مقولته الرائعة في هذا المجال، حيث يقول: «إذا أردت رجالاً فضلاء فعلموا المرأة العلم والفضيلة».

سؤال: ما الفرق بين الحكم والفتوى مع ذكر مثال لكل منهما؟
ومتى أتبع رأي الحاكم الشرعي العام ومتى أتبع رأي مرجع التقليد؟
جواب: (الإفتاء) هو استخراج الحكم الشرعي الأولي من المصادر الشرعية.

ويذكر الفقهاء في مقام تفسير عملية الإفتاء أنّ عملية الإفتاء: عبارة عن نيابة من المجتهد عن العامي بسبب عجزه عن استنباط الأحكام الشرعية. وفي مقابل ذلك فإنّ التقليد: عبارة عن رجوع الجاهل إلى العالم بسبب عجزه عن الاستنباط. ومنه يتضح أن الفتوى عبارة عن النتيجة العلمية التي يذكرها الفقيه ليعمل بها غير المجتهد بسبب عجزه عن معرفة الأحكام النظرية.

مثاله: يحرم على الجنب دخول المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ، فإنّه يحرم مطلقاً ولو اجتيازاً؛ لمفهوم صحيحة أبي حمزة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إذا كان الرجل نائماً في المسجد الحرام، أو مسجد الرسول ﷺ فاحتلم فأصابته جنابة فليتيّم، ولا يمرّ في المسجد إلا متيمماً حتى يخرج منه، ثم يغتسل، وكذلك الحائض إذا أصابها الحيض تفعل كذلك، ولا بأس أن يمرّ في سائر المساجد ولا يجلسان فيها»⁽¹⁾.

وتؤيده صحيحة جميل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجنب يجلس في المساجد؟ قال: «لا، ولكن يمر فيها كلها إلا المسجد الحرام،

(1) وسائل الشيعة: أبواب الجنابة ب 15 ح 3.

وهنا لا يجوز للمقلد مخالفة رأي المجتهد في ذلك.

(الحكم) هو تشخيص موضوع الحكم الشرعي أو القضاء بين الناس أو الحكم المؤقت الصادر من الفقيه العادل المقبول لدى عامة الناس بموجب اقتضاء المصالح الوقتية بعنوان الولاية.

فهو عبارة عن ما يأمر به الفقيه من جهة إعمال السلطة باعتبار ولايته وإنما يجري ذلك في الأمور الولاية دون غيرها. ويتضح من هذا أنّ الفقيه المتصدي للشئون الولاية في مقام تصديه لتلك الشؤون لا يفتي بل يحكم لأنّ تصديه من باب ولايته في تلك الأمور وليس من جهة النيابة عن العامي بسبب عجزه عن استنباط الأحكام الشرعية.

ومثاله: حكم الفقيه بثبوت الهلال.

وهنا يجوز للمقلد مخالفة رأي الفقيه إذا وجدت بينة عنده تخالف ما اعتمد عليه الفقيه في الحكم.

سؤال: ما الفرق بين الاحتياط في الفتوى والفتوى بالاحتياط مع التمثيل لكل منهما؟ وفي أي صورة يجوز لي الرجوع فيها إلى الغير؟

جواب: الاحتياط في الفتوى: يكون ذلك في الموارد التي لم يصل الفقيه فيها إلى دليل قطعي في المسألة؛ إما لتعارض الأدلة، أو عدم الدليل أصلاً، مع كون مبناه في ذلك الرجوع إلى الاحتياط.

ومثاله: قول المجتهد: «الأحوط وجوباً إلحاق المشاهد المشرفة للمعصومين عليهم السلام بالمساجد في الأحكام المذكورة، ولا يلحق بها أروقتها كما لا يلحق بها الصحن المطهر وإن كان الإلحاق أحوط».

الفتوى بالاحتياط: ويتحقق ذلك فيما إذا استفاد الفقيه لزوم

(1) وسائل الشيعة: أبواب الجنابة ب 15 ح 2.

الاحتياط من الأدلة كموارد الشبهة المحصورة مثلاً.

ومثاله: قد يستعمل اثنان لباساً واحداً على التعاقب والتناوب ثم يظهر على اللباس مني يعلم كل واحد منهما أنه من أحدهما يقيناً، ولكن لا على التعيين، فهل يجب الغسل عليهما، وعلى من يجب الغسل؟

توجد هنا عدة حالات:

1- إذا كان كل منهما ينتفع بغسل الآخر وطهارته، فيجب على كل واحد منهما الغسل، ومثال ذلك: أن يكون كل منهما عادلاً فينتفع الآخر بطهارته حيث يتيح له بذلك الائتمام به، ففي هذه الحالة يجب على كل منهما الغسل.

2- إذا كان أحدهما ينتفع بغسل الآخر وطهارته وأما الآخر فلا ينتفع في طهارته بشيء، فيجب الغسل على المنتفع خاصة، ومثال ذلك: أن يكون أحدهما جديراً بالاعتداء به في الصلاة والثاني غير جدير بذلك فالثاني ينتفع بطهارة الأول إذا أتبع له الائتمام به، والأول لا ينتفع بطهارة الثاني، وفي هذه الحالة يجب الغسل على المنتفع خاصة.

وفي كلتا الحالتين لا يجوز للمنتفع إذا اغتسل أن يأتى بالآخر ما دام الآخر لم يغتسل.

3- إذا كان كل منهما لا ينتفع بغسل الآخر وطهارته فلا يجب الغسل على أحد منهما، ومثال ذلك: أن يكون كل منهما غير واثق بجدارة صاحبه للإقتداء به في الصلاة فيجوز لكل منهما أن يصلي صلاته بدون غسل.

وفي كل الحالات الثلاث إذا كان هناك ثالث ينتفع بطهارة كل منهما بأن كان متمكناً عادة من الصلاة خلفهما وواثقاً بجدارتهما لذلك، فيجب على هذا الثالث أن يجتنب الصلاة خلف كل منهما ما لم يغتسل.

والفرق بين الاحتياط في الفتوى، وبين الفتوى بالاحتياط: هو إمكان الرجوع إلى مجتهد آخر في الأول دون الثاني؛ لأنه إفتاء في الواقع.

سؤال: ما هي الرسالة التي يمكن أن يؤديها الطالب الجامعي وسط خليط من الأجناس؟ وما هي الصفات التي ينبغي التحلي بها كشخصية رسالية؟

جواب: هذا السؤال يدخلنا في موضوع مهم وهو: مبدأ التعايش السلمي في الإسلام:

لقد اعتبر الدين الإسلامي ترسيخ قواعد الأخوة والوحدة في المجتمع هدفاً من أهدافه الرئيسية، إذ عزز بطرحه لقضية التآخي بين المسلمين أصرة الاتحاد وروح الأخوة في المجتمع، ووسع من نطاق هذه الوحدة والتعايش السلمي مع سائر الشعوب والأمم، من خلال الدعوة إلى إقامة علاقة سليمة تستند على أساس التفاهم، هادفاً إلى إيجاد بحر موج واحد من البشر في المجتمع؛ ومثل هذه الدعوة إلى توحيد المجتمع لم تقتصر على الدين الإسلامي فحسب، وإنما كانت دعوة جميع الأنبياء نصب في سبيل تحقيق هذا الهدف، يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾⁽¹⁾ ذلك أن الأخوة تساعد على إعمار المجتمع وإقرار أمنه واستقراره، تحقيقاً للهدف المنشود في مجاهدة الكفار وصددهم.

ولقد كان رسول الله ﷺ يدعو المسلمين دائماً إلى الأخوة الصادقة، فأخى بعد هجرته بين المهاجرين والأنصار، وانطلق ﷺ يدعو أتباع الأديان الأخرى إلى الوحدة والتفاهم من خلال توقيعه معها على المعاهدات والمواثيق والعهود⁽²⁾. وفي سبيل بلوغ هذا الطموح، كان رسول الله ﷺ يثني على الأخوة والوحدة، ويقول: «يد الله مع الجماعة»⁽³⁾، وكان ﷺ ينهى عن الفرقة والتشتت، ويحذر من مخاطر الخلاف؛ فيقول: «من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»⁽⁴⁾.

(1) الشورى: 13.

(2) أضواء على معالم المدينة، للمؤلف: ص 59 - 63.

(3) بحار الأنوار: ج 2 ص 261، وصحيح ابن حبان: ج 10 ص 438 ح 4577، وسنن الترمذي: ج 4 ص 466 ح 2166.

(4) المستدرک علی الصحیحین: ج 1 ص 150 ح 259، ج 1 ص 203 ح 402.

وثمة آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تدعو إلى الأمر المذكور، نثبت منها:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾⁽¹⁾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽²⁾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽³⁾.

وفي الآية فضلاً عن الأخوة إشارة إلى إحدى المسؤوليات التي ألقيت على عاتق المؤمنين، ألا وهي المبادرة إلى الإصلاح وإيجاد هذه الاخوة المطلوبة.

ونستنتج من الآيات الشريفة المذكورة ما يلي:

1- المعيار الرئيسي للأخوة الإسلامية هو الإيمان والاعتصام والتمسك بحبل الله، والاستقامة على صراط الإيمان؛ ولهذا نرى أنّ آية الوحدة بدأت بعبارة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾⁽⁴⁾، لأنّ هذه الوحدة تتحقق وتحفظ من خلال التمسك بحبل الله.

2- تقع على الدولة مسؤولية نبذ التفرقة، وإشاعة السلم والأخوة الإسلامية ويكون ذلك هدفاً من أهدافها الرئيسية.

3- إنّ الوحدة والأخوة نعمة ربانية ينبغي الحفاظ عليها، باعتباره نوعاً من أنواع الشكر، وفي المقابل تعتبر التفرقة والدعوة إليها وبث الخلافات نوعاً من الكفران والجحود والتمرد على الأوامر الإلهية.

(1) آل عمران: 103.

(2) الأنفال: 46.

(3) الحجرات: 10.

(4) الأنفال: 46.

4- تترك عملية الوحدة والأخوة تأثيرات إيجابية على المجتمع منها:

أولاً: تبرز في المجتمع ظاهرة التضامن، وتزيل عن القلوب آفات الحقد، ويعم السلم والصلح فيه، الأمر الذي أكد عليه الإسلام بشدة في تعاليمه، حيث دعا المؤمنين إلى اتخاذ زمام المبادرة في إقرار الصلح والصفاء في المجتمع؛ يقول ﷺ: «أيها مسلمين تهاجرا فمكثنا ثلاثاً لا يصطلحان إلا كانا خارجين من الإسلام، ولم يكن بينهما ولاية»⁽¹⁾، وحث على القيام بدور الوساطة في التقريب والإصلاح بين الناس، فإن «أكرم الخلق على الله بعد الأنبياء: العلماء الناصحون، والمتعلمون الخاشعون، والمصلح بين الناس في الله»⁽²⁾.

وعن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين»⁽³⁾.

ثانياً: توفر الأرضية المناسبة في المجتمع الإسلامي، لإزالة مظاهر النزاع وإيجاد الصلح والصفاء.

ثالثاً: تنشر في المجتمع روح التضامن والتضحية والإيثار وخدمه الآخرين.

رابعاً: زوال عوامل التفرقة والضعف في المجتمع، وهذا يساعد على فشل المؤامرات التي تربيص للكيد وتفريق صفوف المجتمع.

خامساً: تحقق الاستقلال في المجتمع الموحد؛ لأنّ العدو لا يجروء على مهاجمته.

سادساً: يتحقق أيضاً في مثل هذا المجتمع الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، لأنّ التكافل بين الأفراد يضمن لهم حياة شريفة دون الحاجة إلى الآخرين.

(1) الكافي: ج 2 ص 345.

(2) جامع الأخبار: ص 185.

(3) موارد الظمان: ج 1 ص 486 ح 1982.

ما هي حدود الأخوة؟

الأخوة نوع من الوحدة والانسجام يمكن أن نعبر عنها بالصدقة الإسلامية، التي تجمع بين الأفراد في ظل الإيمان بالله تعالى، وهي شاملة تحوي إذا ما تحققت الكثير من الصفات الإنسانية الرفيعة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام عن تأثير الأخوة الإسلامية على الواقع الحيوي: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك الشيء في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة»⁽¹⁾.

وقال عليه السلام أيضاً: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل، والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله ﴿رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾⁽²⁾ متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم، على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله»⁽³⁾.

حيث جاء في تعاليمه صلى الله عليه وآله: «المسلم أخو المسلم؛ لا يخذله، ولا يخونه، ولا ينسأه في مصيبة نزلت به، وإن تلف خيار العرب والموالي، يحب بعضهم بعضاً، لا يجدون من ذلك بدأ، وإن تلف شر صليت يبغض بعضهم بعضاً، لا يجدون من ذلك بدأ»⁽⁴⁾.

وعلينا أن نتنبه إلى أنّ الوحدة من حيث استخدامها العرفي، لا تقارن بالأخوة التي تعني رابطة من نوع خاص تحوي الكثير من الخصال الإنسانية.

ما هي حدود علاقاتنا مع الأمم الأخرى؟

يهدف الإسلام فيما يهدف إليه إلى إقامة علاقات سليمة مع الشعوب الأخرى، تؤخذ فيها بنظر الاعتبار حقوق الجانبين وتعزيز التعايش السلمي

(1) الكافي: ج 2 ص 166.

(2) الفتح: 29.

(3) الكافي: ج 2 ص 174.

(4) مجمع الزوائد: ج 8 ص 185.

بينهما، وتساعد على استمرار السلم والصدقة، وتستند على قاعدة قرآنية متينة وهي ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾⁽¹⁾.

لا ريب في أن الدين الإسلامي يطمح من خلال طرحه لمشروع التآخي بين المسلمين، وإقامة علاقات سليمة بين الأمة الإسلامية وسائر الملل والشعوب، إلى تحقيق حالة من الاستقرار والتعايش السلمي العالمي، فثمة آيات كثيرة في كتاب الله العزيز تدعو إلى إقامة علاقات طيبة بين المسلمين والشعوب الأخرى منها:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾⁽²⁾. فهذه الآية دعوة قرآنية لإقامة رابطة سليمة مع أهل الكتاب.

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثم لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمُ الْيَهُودَ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾⁽³⁾، والآية تتحدث عن التعايش السلمي مع المشركين أيضاً.

نستخلص من الآيتين السابقتين: أنّ التعايش السلمي وإقامة العلاقات السليمة لا يشترط فيه أن تنتمي أطراف التعايش إلى عقيدة خاصة، وإثما يُراد منه تأمين الأهداف الرئيسية لهذه العلاقات، التي لا يمكن نقضها بعد إبرامها إلا إذا خرقها العدو، وقد أمر الله تعالى المسلمين بالصبر والمصابرة والمرابطة⁽⁴⁾، فالصبر يراد به الصبر في الشدائد، والصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والمصابرة هي التصبر وتحمل الأذى جماعة باعتماد صبر البعض على صبر آخرين، فيتقوى الحال ويشد الوصف ويتضاعف تأثيره، والمرابطة أعم معنى من المصابرة، وهي إيجاد الجماعة، والارتباط بين

(1) البقرة: 279.

(2) آل عمران: 64.

(3) التوبة: 3 - 4.

(4) آل عمران: 200.

قواهم وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية⁽¹⁾.

ويمكن تثبيت الحقائق التالية على ضوء الموقف الإسلامي من إقامة علاقات سليمة مع سائر الأمم:

1- يرى الإسلام أنّ الناس كلهم من معدن واحد، يشكلون أسرة عالمية واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾⁽²⁾.

2- الدين الإسلامي هو دين البشرية جمعاء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾⁽³⁾.

وعليه يجب أن تبلغ الرسالة الإلهية التي جاء بها خاتم الأنبياء مسمع العالم بأسره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾⁽⁴⁾.

3- بلحاظ أنّ المجتمع البشري يشكل أسرة واحدة تنتمي إلى دين واحد ونبي واحد، فإنّه مما لا يخفى على أحد ضرورة الارتباط السليم بين أعضاء هذه الأسرة، في سياق إيجاد التعايش السلمي وإبلاغ الرسالة الإلهية. وقد حمل الإسلام معه رسالة إلى الأمم الأخرى يدعوها إلى التعايش والارتباط السليم.

وتعتبر قضية التآخي وتعزيز أواصر العلاقات بين المسلمين، أولى الخطوات التي أقدم عليها الرسول ﷺ حينما هاجر إلى المدينة، كما دعا إلى إقامة علاقات طيبة مع الطوائف والأديان الأخرى من خلال المعاهدات والمواثيق، ومع المشركين أيضاً من خلال الصلح المعروف بصلح الحديبية، وبعث الوفود إلى زعماء الأمم الأخرى وهي تحمل هذه الدعوة المباركة.

وبطبيعة الحال فإنّ ذلك يدخل في إطار العلاقة مع (أهل الذمة)، يقول رسول الله ﷺ: «من أخذ شيئاً من أموال أهل الذمة ظلماً فقد خان

(1) تفسير الميزان: ج 4 ص 91.

(2) النساء: 1.

(3) الأعراف: 158.

(4) سبأ: 28.

الله ورسوله وجميع المؤمنين⁽¹⁾، وإبواء أتباع الأديان الأخرى للعيش مع المسلمين معاً.

ففي السنة الأولى للهجرة المباركة آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وعقد المواثيق والعهود مع القبائل اليهودية - بني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة، و... - الساكنة في المدينة، من أجل إرساء قواعد مجتمع سليم يسوده التعايش والأمن والاستقرار، وكان النبي ﷺ يأخذ من غير المسلمين الذين يعيشون ضمن المجتمع الإسلامي العهد بعدم القيام بأي سلوك، من شأنه أن يخل بالأخلاق والآداب الإسلامية، من ذلك ألا يسخرُوا من العقائد والسنن الإسلامية، ولا يتعاملوا بالربا، ولا يتزوجوا بالمحارم⁽²⁾.

وفي مقابل ذلك كانوا يتمتعون بالكثير من الحقوق الاجتماعية، ومنها العمل والكسب والأمن والحرية في إطار قانون أهل الذمة، وقد أعفي هؤلاء من الضرائب والقوى البشرية التي يضعها المسلمون بتصرف الحكومة لتنظيم الشؤون الاجتماعية، في قبالة دفعهم الجزية التي تحددها الحكومة الإسلامية تحديداً عادلاً، وهي لا تشمل النساء والعجزة والشيخوخ والمجانين والأطفال⁽³⁾.

فالجزية هي إذن ضرائب تفرضها الحكومة الإسلامية بعدالة على أهل الذمة، ومن يعيش في كنف الدولة الإسلامية.

ويذكر هنا أن الجزية لا تؤخذ من المسلمين، وإنما تؤخذ ممن يرغب أن يقيم في ديار المسلمين ويتعايش معهم سلمياً، أو الكفار الذين جنحوا للسلم والصلح، أو الأسرى الذين يفرج عنهم، وتستطيع الدولة الإسلامية أن تفرض ضرائب أخرى غير الجزية عند الضرورة⁽⁴⁾.

من منطلق التعايش مع الآخرين، ومن منطلق ما رسمته الشريعة،

(1) الجعفریات: ص 81.

(2) بحار الأنوار: ج 97 ص 93.

(3) م.ن.

(4) نور الثقلين: ج 2 ص 203.

وما عايشه الرسل والأنبياء والأوصياء والمصلحون، علينا أن ننطلق، ولكي نقف على دقائق هذه الأمور، وأنصح إخواني الأعزاء بالسيرة النبوية الكريمة، فإنها غنية بمقومات العمل والسلوك الذي يجب أن نتحلى به.

سؤال: أرجو من سماحتك أن تسلط الضوء على منهج الرسول الأكرم ﷺ في نشر دعوته الأولى في مكة المكرمة.

جواب⁽¹⁾: لكي نقف على سيرة الرسول ﷺ في هذا الجانب المهم، علينا أن نستخلص تلك الدروس والعبر، وذلك وفقاً لمعطيات قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ابْتَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽²⁾.

أولاً: لماذا هذا الموضوع بالذات؟

1- الطابع النموذجي الفذ الذي تكتسبه الحركة النبوية المهمة، والتي تمثل الجهد الحضاري النموذجي، الذي تكاملت فيه قدرات البناء مع قدرات المحافظة على منجزات هذا البناء، وحماية مرجعيته بشكل لا نظير له. مما جعل من هذه السيرة الإطار المرجعي الأمثل للاقتداء والتأسي، كما يؤكد ذلك القرآن صراحة في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽³⁾.

وقوله سبحانه: ﴿فَلْيُحَذِّرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ نُصِيبَهُمْ فِتْنَةً أَوْ يُنصِبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽⁴⁾. وقد روي عن الصادق عليه السلام في ذلك: أن الله قد يسلط عليهم سلطاناً جائراً⁽⁵⁾.

وهذا يؤكد ضرورة استيحاء المنهج النبوي في مواجهة أعباء البناء

(1) انظر: منهج النبي في حماية الدعوة للطيب برغوث، والمنهج الحركي في القرآن الكريم لعبد اللطيف الراضي، وموسوعة التاريخ الإسلامي للشيخ محمد هادي اليوسفي.

(2) يوسف: 108.

(3) الأحزاب: 21.

(4) النور: 63.

(5) نور الثقلين: ج 5 ص 184.

وتحدياته، والحذر من الزيغ عنه، كشرط أساسي لاستقامة الخط، وانتظام السير، ومباركة الجهد، وأمن مزالق الطريق.

2- تبديد بعض الضباب الذي قد يغشى على فهمنا للقرآن والسنة من جراء العجز عن حماية المحتوى الرسالي للعمل، والمحافظة على منجزاته، ولفت النظر إلى الاتباع الأصوب لرسول الله ﷺ، والتأسي الأمثل به.

فلا بدّ حينئذ من محاولة لبيان كيف بلغ جهد النبي ﷺ درجة الإعجاز في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وهو ما يلزم الدعوة بالعمل على الارتقاء بفهمهم وأدائهم الرسالي إلى مستوى التأسي الحقيقي، الذي يرفع قدرهم وينصف نبهم ويشرف رسالتهم.

فـ«العلماء ورثة الأنبياء»⁽¹⁾؛ أي: لا بدّ لهم أن يتحركوا على مستوى الدعوة والحكم والجهار والحركة في خط الرسالة.

و«العلماء أمناء الرسل»⁽²⁾؛ أي: لا بدّ لهم أن يكونوا الحافظين لرسالتهم ولأمتهم، الحارسين لمواقعهم، الثابتين في مواقفهم.

فالعالم: شاهد عصره، وقائد أمته، ورسول ربه.. من دون وحي أو نبوة.

3- إنّ المتأمل لمناهج دراسة السيرة النبوية يلاحظ كيف غلب على القسم الأكبر منها الطابع التسجيلي السردى، الذي يحاول إثبات الوقائع، ووصف تطور أحداث الحركة النبوية الشريفة، وتقرير نتائجها، دون الالتفات إلى مقدماتها، ومحاولة اكتشاف ما كان وراءها من منهج محكم في الدعوة والبناء والمواجهة، والذي تم بواسطته صنع هذه الأحداث، وتحريكها نحو هذه النتائج.

ثانياً: ما دام الإسلام، كما يعتقد المسلمون، هو كلمة الله إلى الإنسان وحبلة المتين الذي تُشد به الحياة البشرية إلى سنن الاستقامة والقوة

(1) الكافي: ج 1 ص 32، وكنز العمال: حديث 28679.

(2) كنز العمال: حديث 28952.

والفعالية والتمكين في الأرض. فهو بالتالي جدول من نهر الناموس الإلهي العام الذي يحكم حركة الوجود كلها، لا تتسق حياة الإنسان، ولا يستقيم أمرها إلا بالتطابق مع ما جاء به من مبادئ، وقيم، وأحكام وتوجيهات، كما قرر ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾⁽¹⁾.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽²⁾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾⁽³⁾.

فالإسلام دون سواه هو المدخل الفطري للتحقق بالعبودية لله، وتحقيق الاستخلاف الأمثل في الأرض⁽⁴⁾.

يقول الإمام علي عليه السلام: «لأنسبَ الإسلام نسبةً لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»⁽⁵⁾.

وعليه فإن الدعوة إليه، وتعريف الناس به، وإقناعهم بالإقبال عليه، والتجاوب مع قيمه ومبادئه وتوجيهاته، وإبعادهم عن التناقض معه، والتصادم به... يصبح أمراً محتوماً لا بديل لاستقامة حياة الإنسان، وتناغم سعيه في العمارة مع سنن الله في الآفاق والنفس والكتاب.

وهو ما أكدته النصوص الكثيرة في القرآن، وارتقت به إلى قمة الأعمال الجليلة عند الله تعالى، لما يترتب عليه من الخير العظيم للناس الذين يعرفون الحق ويقبلون على الالتزام به كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ

(1) آل عمران: 19.

(2) آل عمران: 85.

(3) طه: 124.

(4) تفسير الميزان: ج 14 ص 224.

(5) نهج البلاغة: قصار الحكم 125.

المُسْلِمِينَ⁽¹⁾؛ من موقع إيمانه الذي عاش عمق العقيدة في عقله ووجدانه، وتحرك في حياته من موقع المسؤولية، في خط الدعوة، عاملاً على فتح عقول الناس وقلوبهم على الله ليعرفوه ويؤمنوا به ويتحركوا في طريق طاعته.

وهذه الدعوة التي تتوقف عليها معرفة الناس للإسلام، وإقبالهم عليه والتزامهم به، وانتفاعهم مما جاءهم من سنن الهداية والحكمة والاستقامة، لا تؤتي ثمارها المرجوة، ولا تحقق مقاصدها في الخلق، إلا بمنهج محكم، بحيث:

أ - يحقق نقل حقيقتها الحضارية كاملة شاملة حيّة أسرة إلى الضمير الإنساني.

ب- ويحمي محتواها الرسالي من التحريف والتشويه والاختزال.

ج- ويرعى حركة تبليغ هذا المحتوى الرسالي ونقله إلى الضمير الإنساني من الإعاقة والتوقف والتراجع.

د- ويحافظ على منجزات حركة التبليغ والبناء والمواجهة، ويصونها من التبديد والهدر والإتلاف، ويساعد على حسن الاستفادة منها في تأكيدات مصداقية الدعوة، ودعم مسيرتها، ومضاعفة عطاءاتها.

والمراجعة الفاحصة للتجربة التاريخية لكثير من الحركات الإنسانية تدلنا على أنّ أكبر تحدّ تواجهه الدعوات أو التجارب التغييرية هو:

1- تعقيد عملية حماية المضمون الرسالي للدعوة من التحريف والتشويه والاختزال.

2- صعوبة رعاية حركة التبليغ من أن تعاق أو تتوقف أو تتراجع.

3- تعقيد عملية المحافظة على منجزات حركة التبليغ والمواجهة من التبديد والهدر والإتلاف، والاستفادة المثلى منها.

(1) فصلت: 33.

ثالثاً: مفهوم الدعوة:

عندما نستقري كتب اللغة: (القاموس المحيط - مقاييس اللغة - لسان العرب - أساس البلاغة - المعجم الوسيط) نرى أنّ كلمة الدعوة وما أشتق منها من معاني كثيرة متقاربة في مضمونها تدور في جملتها حول: الدعاء أو السؤال والطلب والرغبة إلى الله - الحث - السّوق - الأذان والنداء والإمالة - الانتساب - الزعم - الصياح والنداء... وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على كل هذه المعاني وغيرها.

ونكتفي بإثبات عينات مما يؤكد المعنى الأساسي والمحوري الذي تدور حوله هذه البحوث، وهو نداء الناس وإمالتهم إلى الإسلام، وحثهم على الانتساب، والالتزام به، والاجتماع عليه.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿١﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٢﴾ ﴾ أي داعياً إلى توحيد الله وطاعته.. فهو نداء الرسالة في مضمونها، ونداء الرسول في حركته ودعوته وبشارته وتمرده على الواقع المضاد كله في كل رموزه، وانفتاحه على الله وحده؛ ليكون هو الذي يملأ الروح الرسولي بالثقة التي تثبت الموقع والموقف والحركة والاتجاه في كل ساحات التحدي.

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾⁽²⁾ أي أطيعوا ما طلب منكم عمله، والتزموا ما جاء به الرسول ﷺ في الكتاب من الهداية.

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾⁽³⁾ أي يوجه الإنسان إلى ما به يدخل الجنة، ويحثه على ذلك ويدفعه إليه بكل وسيلة تحقق هدايته بما يوفره له من أدوات الفكر والعمل، وأجواء الروح والإيمان.

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

(1) الأحزاب: 45 - 46.

(2) الأحقاف: 31.

(3) يونس: 25.

أَحْسَنُ ﴿١﴾. وهو تعبير عن طبيعة أسلوب الدعوة وضرورة اتصافه بالحكمة، وسلوكه طريقها. وهي دعوة لتبنيه الدعوة لله؛ كي لا يكون الأسلوب المتبع لديهم في العمل واحداً من حيث النوع، بل لا بد من أن يختلف حسب اختلاف الواقع الذي تعيشه الدعوة، أو يعيش فيه الدين.

﴿وَأَذِغْ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢﴾. وهو إرشاد لثلاث يتوقف الدعوة ولا يتراجعون، بل يستمرون في الطريق الذي بدؤوا في الدعوة إليه، لأنهم على هدى واضح يتحركون في خط الاستقامة، بحيث لا يستطيع أحد أن يسجل عليهم نقطة في خط الانحراف.

وانطلاقاً من المعاني السابقة التي أمدنا بها التحليل اللغوي للكلمة، واستناداً إلى المحاولات العديدة السابقة، وانسجاماً مع المقاصد العامة، فإنه يمكننا أن نعرّف الدعوة بأنها: «ذلك الجهد المنهجي المنظم، الهادف إلى:

- 1- تعريف الناس بحقيقة الإسلام.
- 2- إحداث تغيير جذري متوازن في حياتهم على طريق الوفاء بواجبات الاستخلاف، ابتغاء مرضاة الله تعالى، والفوز بما ادخره لعباده الصالحين في عالم الآخرة».

وينبغي أن نؤكد هنا ملاحظة مهمة جداً هي: أنّ الدعوة التي نعنيها هنا، ويدور حولها مجمل حديثنا، تشمل - كما هو واضح - التعريف في أمرين أساسيين هما وجهان لحقيقة واحدة:

- 1- الدعوة كمضمون رسالي، أي كدين يُبلّغ ويُلتزم.
- 2- والدعوة كعملية تبليغ لهذا المضمون الرسالي ومحاولة لتعريف الناس به، وحركة جهاد من أجل البناء ومواجهة الهدم.

إذن سنحاول أن نسلط الضوء على أربعة أمور مهمة:

- 1- العملية المنظمة التي كان النبي ﷺ يعرض بها الإسلام على

(1) النحل: 125.

(2) الحج: 67.

الناس، ويواجه به مشكلات الواقع والدعوة، ويجرك بواسطتها الأحداث من حوله بما يضمن حماية المحتوى الرسالي لدعوته، ويحافظ على منجزاتها، ويحقق أهدافها في الخلق.

2- العمل على وقاية المضمون الرسالي للدعوة، وحمايته من أي تشويه أو تحريف أو اختزال، وتجنب عملية التبليغ وحركة التغيير والبناء كل ما من شأنه أن يؤثر سلباً على استمراريتها ومصداقيتها من جهة أخرى.

3- حصيلة المكتسبات البشرية والمادية والمعنوية التي حققتها الدعوة من جراء حركة التبليغ والبناء والمواجهة.

4- رعاية مكتسباتها البشرية والمادية والمعنوية، وصيانتها من كل ما يعرضها لتضاؤل فعاليتها، وحرمان مسيرة العمل من خدماتها.

ما هي غاية الدعوة الإسلامية وآفاقها الرسالية الكبرى؟

الغاية من هذه الدعوة أمران:

- 1- عناية الإسلام بالوجود الإنساني وظيفية ومصيراً.
- 2- عناية الإسلام بوظيفة الاستخلاف كهدف استراتيجي للدعوة الإسلامية في هذا العالم.

أولاً: عناية الإسلام بالوجود الإنساني وظيفية ومصيراً:

الوظيفة الوجودية للإنسان، ومآله النهائي، تشكلان محور ارتكاز أساسي في اهتمامات الدعوة الإسلامية، بعد الاهتمام المركزي الأول لها وهو: توحيد الله سبحانه وتعالى. وهو ما سنحاول تأكيده في ما يلي من خلال المباحث الفرعية التالية:

1- العناية بالوظيفة الوجودية للإنسان:

تشكل هذه الوظيفة محوراً كبيراً في اهتمامات الدعوة الإسلامية على مستوى عالم الواقع وهي: تمكين الإنسان من تحقيق مستوى استخلافي راقٍ وفق ما يتيح له ظروفه وإمكاناته في عصره؛ لأن الاستخلاف هو الوظيفة

الوجودية للإنسان، كما يؤكد ذلك القرآن صراحة في آيات عديدة يأتي في مقدمتها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁽¹⁾.

فالخلافة بمفهومها الحضاري الذي يعني: تحقيق العبودية لله تعالى، والسيادة في الأرض، وإدارتها، وبنائها، وإعمارها على وفق إرادة الله تعالى من خلال الانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية.. هي الوظيفة الوجودية للإنسان في هذا العالم والتي سيتقرر على ضوئها مآل الإنسان ومصيره.

فالخلافة على هذا الأساس، تتضمن الابتلاء الشامل المتنوع لإرادة الإنسان وحرية واختياره، كما يبين القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾⁽²⁾.

ونظراً لأهمية هذه الوظيفة الوجودية للإنسان في هذا العالم، وتوقف مصيره الأخروي على الدور الذي يؤديه من خلالها، جاءت الدعوة الإسلامية لتدله على ما به يستوعب رسالته في الحياة، ويتحرك في هذا الوعي بكفاءة واقتدار.. وهذا ما سنحاول توضيحه بعد ذلك.

2- العناية بالمصير النهائي للوجود الإنساني:

الوجود الإنساني في المنظور الإسلامي وجود ممتد لا ينتهي بانقضاء أجل الإنسان في الدنيا، بل يعتبر ذلك إيذاناً ببداية مرحلة جديدة في حياته، ستفضي به بعد حين إلى المصير النهائي في الجنة أو النار كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾⁽³⁾.

فقد أعطى الإسلام هذه القضية عناية كبيرة سواء على مستوى الحجم أو النوع، حيث أفاض القرآن بالخصوص في التذكير به، والتحذير من الغفلة عنه، واسترسل في وصف الجنة والنار وأحوال الناس فيها بشكل ملفت للانتباه.

(1) البقرة: 30.

(2) الأنعام: 165.

(3) الشورى: 7.

ولهذا نلاحظ عدة ملاحظات:

أ - كثافة الكلام الإلهي عن اليوم الآخر، واقتران اليوم الآخر بالإيمان بالله، مما جعل الحديث عن مصير الوجود الإنساني يأتي في الدرجة الثانية مباشرة بعد الإيمان بالله.

ب- التأكيد الإلهي على ضآلة وضع الدنيا بالنسبة للآخرة، حيث حفلت النصوص القرآنية بمقارنات كثيرة بينت أهمية الآخرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

ج- كثرة الأسماء التي صبغها الله على هذه المرحلة الأخيرة من حياة الإنسان؛ في سياق تأكيد العناية البالغة بها.

وهناك اعتباران مهمان يؤكدان هذه العناية به وهما:

الأول: طبيعة الإنسان ذاته، بما جبلت عليه من حب التكاثر، والميل إلى التفاخر بالأموال والأولاد والجاه، وشدة الجزع، وكثرة الغفلة والنسيان، وسهولة الاستدراج ... كما تؤكد ذلك نصوص عديدة في القرآن والسنة.

الثاني: طبيعة الدنيا نفسها، المليئة بما يجذب الإنسان إليها، ويقعد به عن معالي الأمور، إذا هو سكن إليها وانساق وراءها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾⁽²⁾.

كل هذه الاعتبارات جعلت الدعوة الإسلامية تولي عناية خاصة لقضية مآل وجود الإنسان ومصيره، استنقازاً للإنسان من مخاطر الغفلة والانسحاق وراء رغائب نفسه الأمارة بالسوء التي لا نهاية لها، لكي يعيش الإنسان التوازن المطلوب في حياته لصالح المصير المرسوم إلهياً ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽³⁾.

(1) العنكبوت: 64.

(2) الكهف: 7.

(3) القصص: 77.

3- العناية بوراثة الجنة كغاية نهائية للوجود الإنساني:

الجنة هي المحور الرئيسي الذي يتحرك عليه الإنسان، والقطب الذي تتجه نحوه كل مساعيه في هذا العالم، وهو ما جاءت الدعوة الإسلامية تبينه للناس وتدعوهم إلى العناية به، وتوجه نشاطهم في هذا العالم من أجله.

ولكن الجنة لا تنال بالاسترخاء والتمنيات فقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾⁽¹⁾.

فهذه الآية من آيات الدعوة الموجهة إلى العاملين في سبيل الله، الذين قد تضغط عليهم تحديات الكفر والانحراف، فيتراجعون، أو ينهزمون، أو يضعفون أمامها، أو يسقطون تحت عوامل اليأس.

فالجنة تنال بالمواقف الصعبة التي يواجه فيها المؤمن القوى الطاغية، فالجنة كما ورد في الحديث «محفوفة بالمكاره والصبر»⁽²⁾، مما يجعلها نتيجة للحركة المتنوعة الخطوات، المتعددة الأبعاد، القاسية في آلامها، الشديدة في أحزانها، فلا مجال لكم أيها المسلمون أن تتحدثوا عن دخول الجنة قبل أن تعرفوا الثمن الكبير لها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حَيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ مِثْلَ حَيَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ لَكُمْ رَجْعٌ﴾⁽³⁾ إنها للاتقياء الذين عاشوا التقوى التزاماً في الفكر، ومعاناة في الروح، وصفاء في الشعور، وانضباطاً في الخطوات العملية في حركة المسؤولية في الحياة، مما كانوا يعيشونه من مراقبة الله في السر والعلانية في إحساسهم العميق بحضور الله في كل مجالاتهم في الحياة. فمن أراد الجنة فليرتد ثوب التقوى، ولينهج منهجها، وليلتق بالله في كل آفاه في الحياة.

ولذا يقول السجاد عليه السلام: «وامع عن قلوبهم خطرات المال الفتون،

(1) البقرة: 214.

(2) الكافي: ج 2 ص 89.

(3) مريم: 63.

واجعل الجنة نصب أعينهم، ولتوح منها لأبصارهم ما أعددت فيها من مساكن الخلد، ومنازل الكرامة»⁽¹⁾.

فهو ﷺ ينظر إلى أن المجاهدين قد يعيشون نقاط الضعف البشري التي تجتذب إغراءات الحياة إلى قلوبهم، وتحرك غرائز الحس في شهواتهم، وتوحي بالخاوف والتهاول إلى حياتهم، فتستغرقهم الدنيا بزخارفها، وتفتنهم بأموالها، فيغيبون في داخلها، وينخدعون بالآمال الطويلة، فينسون الجهاد والتزاماته، والرسالات ومسؤولياتها.

فيدعوا لهم بأن يجعل الجنة أمامهم في امتدادات أعينهم الباحثة عن الجمال والنعيم الأوفى، كم قد رآها في مساكنهم الخالدة، ولتوح لهم عندما تنطلق الفتنة بما يذوب كل سحر لهذه الحياة في أعينهم.

فاجعل -يا رب- آفاقهم في آفاق الجنة، وأفكارهم في معناها، وأحلامهم في لذاتها ونعيمها، حتى تمتلئ قلوبهم شوقاً إليها، وتنطلق مشاعرهم في الإحساس بها، ليواجهوا الموقف بقوة التحدي، وثبات المواجهة، وشجاعة الحركة، وبروح الإيمان المتحرك في خط الشهادة، فلا يحدثون أنفسهم بالهزيمة النفسية، والفرار الروحي.

ثانياً: عناية الإسلام بالاستخلاف كهدف استراتيجي للدعوة الإسلامية:

1- مفهوم الاستخلاف وحقيقته:

قال الراغب الأصفهاني: «والخلافة النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف»⁽²⁾.. وكما هو معلوم فإن مفهوم الاستخلاف الذي تحدثت عنه الآيات، ينصرف إلى المعنى الأخير.

فهو تشريف الإنسان الخليفة، من خلال المهمة الجليلة التي أسندت له، وأنيطت به وحده بين سائر مخلوقات الله على كثرتها وتنوعها، وهي إتيانه على الخلافة في الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَىٰ

(1) الصحيفة السجادية: دعاء الثغور.

(2) مفردات القرآن: ص 162.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿١﴾ .

فالإنسان بما وهبه الله من استعدادات تكريمية عظيمة: عقلية، ونفسية،
وجسدية، وخلقية، تأهله ليكون خليفة في الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ
إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (2)؛ وليكون أميناً على الأرض، ومسؤولاً عن
إنجاز مشروع الاستخلاف، بكل ما يتضمنه من: تعمير، وانتفاع، وسيادة،
وتناغم، وانسجام مع سنن الله في خلقه.

فالاستخلاف على هذا الأساس معناه أنّ الله عهد إلى الإنسان وأوكل
إليه عمارة هذه الأرض، والانتفاع بها، بعد أن مكّنه الله منها بالتسخير،
وجعل له سلطاناً عليها. كما تشير إلى ذلك آيات عديدة في هذا المضمون:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (3).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿
وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ وَأَتَاكُمْ
مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴿ (4).

فهذه الآيات نصب في اتجاه واحد، وهو بيان كون الخلافة هي الوظيفة
الوجودية للإنسان في الأرض، والتي من أجلها وجد وبها فضل على كثير
من خلق الله تفضيلاً ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (5).

كما يشهد على ذلك سجود الملائكة لآدم أبي البشر ﷺ، وهو إجراء
رمزي دلّ على الاعتراف بأحقية الجماعة البشرية في التقدم على سائر المخلوقات

(1) الأحزاب: 72.

(2) البقرة: 30.

(3) الأنعام: 165.

(4) إبراهيم: 32 - 34.

(5) الإسراء: 70.

للإشراف على رعاية شؤون هذا العالم وتدبير أمر الإنسان، والسير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية الحقة، التي تحفظ التوازن الكوني، وتضمن استقرار الحياة، وتبهيئ الاستمتاع بما فيها من متع مادية ومعنوية لا حدود لها، لكل من انضبط بقوانين الاستخلاف، والتزم بشروطه في فهمه وسلوكه وعمله ومواقفه، وحركته في الحياة.

2 - العباداة قوام الاستخلاف:

التأمل في نصوص القرآن الكريم، يجد أنّ الإسلام لم يكتفِ بمجرد الإشارة الصريحة إلى كون الإنسان خليفة في الأرض، بل راح يعمق الحديث ويوسعه عن مضمون هذه الخلافة ومحتواها الحقيقي.

ويبدو ذلك جلياً من خلال التركيز الشديد على إبراز دور العباداة وتحديد محتواها، ولفت النظر إلى أنّ العباداة قوام الاستخلاف وعماده، والمحور المركزي الذي تدور عليه أو حوله الحركة الاستخلافية برمتها.

ويكفي أن نتأمل على سبيل المثال بعض النصوص القرآنية المتصلة بدور العباداة في مهمة الاستخلاف لنرى كيف أتمها تشكل قطب الرحى في العملية الاستخلافية ومن ذلك:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾⁽¹⁾. وكما هو معروف فإنّ النفي والاستثناء إذا اجتمعا معاً فيعتبر حينئذ أقوى صور الحصر والقصر، فالآية تقرر حقيقتين كبيرتين:

- 1- نفي أي غاية للوجود الإنساني غير العباداة.
- 2- حصر غاية هذا الوجود كله في عباداة الله وحده.

والمقصود من إيجاد الإنسان: العباداة، بكل ما تتضمنه من التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلقه والسعي المرتب الدؤوب، من أجل إحكام الصلة بالله، وتحقيق أعلى المستويات الممكنة من الاستخلاف.

ولكي تجعل العباداة هي لبّ الخلافة وروحها، توات التوجيهات والتنبهات:

(1) الذاريات: 56.

﴿أَمْ أَعِهْدُ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿۱﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿۲﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿۳﴾﴾.

ويحدثنا التاريخ الإسلامي في هذا الصدد عن واقعة تعكس عظمة الرسول محمد ﷺ، فقد ضاقت قريش ذرعاً بدعوة الرسول ﷺ إلى عبادة الله ونبذ الأصنام وترك الشرك، فجاءوا إلى أبي طالب وقالوا له: قل لابن أخيك يترك آلهتنا ونحن ندعه وآلهته.

فعرض أبو طالب ذلك عليه.

فأجابه ﷺ: أي عم أولاً أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها.

فقال أبو طالب: وإلى مَ تدعوهم؟

قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم العرب ويملكون بها العجم.

فقال أبو جهل: ما هي وأبيك؟ لنعطيكها وعشراً أمثالها.

فقال: تقولون لا إله إلا الله.

فنفروا منه، وقالوا: سلنا غير هذا.

فقال ﷺ: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غير هذا.

فغضبوا وقاموا من عنده، وهم يقولون: والله لنشتمتك وإلهك الذي يأمرك بهذا⁽³⁾.

(1) يس: 60 - 61.

(2) النحل: 36.

(3) تاريخ الطبري: ج 1 ص 544.

3- الأبعاد الكبرى لمشروع الاستخلاف:

تقف حضارة الإسلام على أربعة أبعاد، لها وظيفة مزدوجة للمشروع الاستخلافي:

أ - الترقى المعرفي: ولعل مما يبرز بقوة ووضوح أهمية المسألة المعرفية في الدعوة الإسلامية الآيات الأولى التي أعلنت عن ميلاد هذه الدعوة، والتي جاءت تعلن عن بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الإنسانية، قوامها المعرفة والتي تضع حداً للخرافات واتباع الظن، وتهميش وظيفة العقل، وتعطيل الحواس،.. ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽¹⁾.

قال علي عليه السلام: «فما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة».

ويقول أيضاً: «المتعبد على غير فقه كحمار الطاحونة، يدور ولا يبرح»⁽²⁾.

ب- الترقى الروحي: من خلال الوقوف على سنن الله في الخليفة، والاهتداء إلى نواميس التسخير، وكشف الإنسان نفسه في الآفاق والأنفس.

ج- الترقى الأخلاقي: ويعتبر هذا البعد انعكاساً طبيعياً مباشراً لمدى استيعاب الإنسان للبعدين السابقين.

وهي أخلاقية الالتزام، وأخلاقية المفهوم المقترن بالموقف، والموقف المتجسد بالعمل، والفعل الممثل للفكرة.. كما يقول علي عليه السلام: «أفنع من نفسي بأن يقال لي أمير المؤمنين: ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش»⁽³⁾.

وقوله عليه السلام: «إني لأرفع نفسي عن أن أنهى الناس عما لست أنتهي عنه، أو أمرهم بما لا أسبقهم إليه بعلمي، وأرضى منهم بما لا يرضى ربي»⁽⁴⁾.

(1) العلق: 1 - 5.

(2) غرر الحكم: رقم 9.

(3) نهج البلاغة: كتاب 45.

(4) غرر الحكم: رقم 2077.

د- الترقى العمراني: وهو التأثير الإيجابي المتصاعد، الذي يحدته الجهد الإنساني في الطبيعة المحيطة به، بواسطة أعمال قوانين التسخير فيها، بغية ترقية حياته المادية بشكل فعال يتيح له الفرصة للاستمتاع بما أودعه الله تعالى في الكون من أسرار ونعم لا حصر لها.

ولا يخفى فإنّ عمارة الأرض هي الساحة التي تلتقي فيها كل أبعاد المشروع الاستخلافي في كتلة متكاملة.. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (1).

أما على مستوى ميراث الأرض: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُؤْتِرِ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (2).

وأما على مستوى التمكين للدين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (3).

4 - منهج الاستخلاف:

تبين لنا من المباحث السابقة أنّ الاستخلاف هو الهدف الاستراتيجي للوجود الإنساني على الأرض. وأنّ العبادة هي قوام الاستخلاف وعموده، بها يحقق الإنسان خلافته في الأرض، عندما يضمن لنشاطه وحركته الإيمان الصحيح العميق، والعمل الصالح الفعال.

ولكي يؤدي الإنسان مهمته الاستخلافية، عبادة لله وسيادة على الأرض، زوده الله تعالى بمؤهلات مادية وروحية تمكّنه من فهم رسالته، ووعي ذاته، وأداء دوره كعبد لله من جهة، وسيد في الأرض من جهة أخرى.

وعلى هذا فإنّ الأبعاد الكبرى لمشروع الاستخلاف، والذي أنيطت

(1) النور: 55.

(2) القصص: 5 - 6.

(3) الصف: 9.

مهمة إنجازها بالإنسان، هي: العمل على تحقيق الترقى المعرفى، والروحي، والأخلاقي، والعمرائى، بصفة دائمة ومستمرة.

وهنا ينبغى أن ننبه إلى قضية مهمة: لما كان الإنسان كائناً فانياً يخشى انقضاء سيرته بموته، لم يكن أمامه إلا أن يحقق نوعاً من الخلود الجماعى بالتكاثر والتوالد، كذلك ينبغى أن ينجز مهمة الاستخلاف، بنفس هذه القوة. ولذا نبه القرآن وبشكل حاسم على ضرورة الأخذ بالمنهج وعدم التساهل فيه:

﴿فَأَمَّا يَا نَبِيَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۖ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۖ﴾⁽¹⁾.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۖ﴾⁽²⁾.

ما هي الخصائص الكبرى للدعوة الإسلامية؟

من الملاحظ أن الأنبياء السابقين عليهم السلام جاءت معجزاتهم منفصلة عن المنهج، إلا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن معجزته عين منهجه، ولذا فإن معجزات الرسل كلها منقولة إلينا، عدا معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم فإنها باقية وتتطور مع تطور مدركات البشر.

وهذه الخصائص هي:

أولاً: النزعة العلمية:

لقد قلنا سابقاً إن الترقى المعرفى يشكل محور حركة الاستخلاف، ولا ينبغى التدليل على أن المسألة العلمية من صميم مهمة الدعوة الإسلامية، باعتبارها وصية الله للإنسان، من أجل أن تنسجم حياته، ويتوافق سيره مع حركة الكون، ويتناسق نشاطه مع مهمته الاستخلافية.

(1) طه: 123 - 124.

(2) الأنعام: 153.

ولذا كان تركيز الدعوة على أسس علمية متينة من خصائصها: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾⁽¹⁾. وخلاصة الفكرة أن الدعوة الإسلامية تريد للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أن تتحرك على أساس العلم، الذي يستمد وسائله من حركة الحواس وحركة العقل في مجال المعرفة، في واقع الفرد والمجتمع، وفي واقع الحياة العامة والخاصة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾⁽²⁾. وما كان هذا التبيين إلا لأن الله أنزله للناس كافة، من أجل أن يتحول إلى فكر في عقولهم، وإلى عاطفة في قلوبهم، وإلى إحساس في مشاعرهم، وإلى واقع في حياتهم العامة والخاصة، مما يفرض على الطليعة الحاملة له أن تقوم بمهمة إبلاغه للناس ودعوتهم إليه وتوجيههم إلى مفاهيمه، لأن الهدف المنفتح على واقع الفكر لا يمكن أن يحصل إلا بأن ينتشر الحق في وعي الناس كلهم، باعتبار أن الوعي هو الخطوة الأولى للحركة.

ثانياً: الصبغة التوحيدية:

إنّ توحيد الله عز وجل هو جوهر الدعوة الإسلامية، وصبغتها الخاصة التي تمنحها طابعها المتميز، وتعطيها هويتها المستقلة. ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾⁽³⁾.

كل ذلك كان تصحيحاً للمواقف الشكلية التي تورط فيها اليهود والنصارى، في ما يتصل بإثبات عبوديتهم لله، التي وقفوا بها عند حدود الإجراءات الظاهرية من مثل المعمودية عند النصارى، الذين كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم -بيننا أول شيء يعمل في الوليد المسلم قراءة الأذان في أذنيه- زاعمين أنّ التعميد بهذه الصورة يكسب المعمد صفة النصرانية.

(1) الإسراء: 36.

(2) آل عمران: 187.

(3) البقرة: 138.

وقد أورد القرآن صوراً من هذه التشنجات التي كان اليهود والنصارى ينطلقون من ادعاء احتكار العناية الإلهية، ومن ثم حق الوصايا على الآخرين من دون اليهود والنصارى:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾⁽¹⁾.

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾⁽²⁾.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾⁽³⁾.

بل نلاحظ أنّ كل فريق منها انطلق ليؤكد صحة دينه في مقابل الإسلام، فأوضح لهم القرآن بشكل حاسم أنّ الانتساب إلى الإيمان والدين الحق ليس بهذه الطريقة الشكلية الضيقة، بل باتّباع الملة الحنيفية الإبراهيمية الجامعة للاستقامة والهدى ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾⁽⁴⁾.

فقد أنزل الله على إبراهيم رسالته التوحيدية التي تعبر عن توحيد الله في كل شيء في العقيدة والشريعة والعبادة والحياة العملية السلوكية، فقد قال الباقر عليه السلام: « ما أبقت الحنيفية شيئاً، حتى أنّ منها قص الشارب، وقلم الأظفار، والختان »⁽⁵⁾.

ثالثاً: الطبيعة الشمولية:

إذا كانت الصبغة التوحيدية تحدد أن لا يعبد الإنسان إلا الله سبحانه، وأن يعبد به شرع له، وأن يكفر بما عداه ... وإذا كان الدين الذي اختاره الله منهاجاً لتحقيق العبودية هو الإسلام، الذي كلف به جميع خلقه، وأرسل

(1) المائدة: 18.

(2) البقرة: 111.

(3) البقرة: 113.

(4) البقرة: 135.

(5) بحار الأنوار: ج 63 ص 33.

به رسله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾⁽¹⁾، وهذا ما نراه في دعوة الأنبياء:

﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أم كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾⁽²⁾.

﴿ وَائْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾⁽³⁾.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾⁽⁴⁾.

إذا كان الأمر كذلك، أصبح الإسلام كما كان عبر التاريخ هو منهاج الله للحياة الإنسانية، لا يقبل غيره: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾⁽⁵⁾.

ما هي مظاهر الشمولية في القرآن؟

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾⁽⁶⁾.

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾⁽⁷⁾.

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾⁽⁸⁾.

(1) آل عمران: 19.

(2) البقرة: 131.

(3) يونس: 71.

(4) يوسف: 101.

(5) آل عمران: 85.

(6) الإسراء: 9.

(7) النحل: 89.

(8) الأنعام: 38.

ونظراً إلى أنّ هذا الكتاب استوعب الحياة الإنسانية استيعاباً شاملاً وعمقاً وواقعاً، ماضياً كان أو حاضراً أو مستقبلاً، اعتقاداً كان أو فكراً أو سلوكاً أو عملاً، فقد جاء في الكتاب التأكيد على ضرورة الالتزام والحذر من كل ما يصادفه؛ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁾.

فإذا ربطنا هذا بالآيات السابقة، التي تحدثت عن كون الإسلام هو الذي لا يقبل الله سواه منهاجاً لعبادته وخلافته، وعلمنا أنّ هذا الدين قد تم وكمل، أيقنا أنّ شموليته غدت من لوازم خاتمته وهيمنته على الدين كله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاخْضَعُوا لَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾⁽²⁾.

رابعاً: النزعة الواقعية:

نرى أنّ النزعة الواقعية في الدعوة الإسلامية تغدو أمراً حتمياً؛ لسبب بسيط وهو أنّ الوجود الكوني كله، بمفرداته وعناصره وقوانينه من صنع الله وتدبيره وحده، والإسلام هو وحيه إلى خلقه، وهديه إلى الناس كافة.

وعليه فإنّ النزعة الواقعية للدعوة تستهدف: الارتقاء بالحياة الإنسانية معرفياً وروحياً وسلوكياً وعمرانياً وحضارياً؛ لتتطابق مع سنن الله الكونية، وتتجلى في ما يلي:

1- إنّ النموذج المرجعي، الذي رسمه الإسلام لإنجاز مهمة الاستخلاف، جاء متسقاً تمام الاتساق مع طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها، بما فيها من غرائز وطبائع، تشكل في مجموعها: جملة الاستعدادات الفطرية التي تؤهل الإنسان لتحمل مسؤوليته عن خياراته ومواقفه، وهو ما أشار إليه القرآن صراحة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

(1) الأنعام: 153.

(2) المائدة: 48.

(3) الروم: 30.

2- عناية الإسلام بواقع الإنسان المعاش، وراعيته في عملية التغيير والارتقاء بالأوضاع القائمة إلى المستوى المطلوب الممكن.

ما هي مظاهر الواقعية في القرآن؟

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾⁽¹⁾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾⁽²⁾.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾⁽³⁾.

خامساً: التوجه العالمي:

إنّ الدعوة الإسلامية رسالة عامة للبشر جمعاء، تتجاوز بمضامينها الجديدة الآفاق المحدودة، التي كانت تدور حولها الأديان المرحلية السابقة، المحدودة في الزمان والمكان، حيث إنّ كل رسول يبعث إلى قومه خاصة كما جاء ذكره في القرآن الكريم:

في نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾⁽⁴⁾.

في هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾⁽⁵⁾.

في صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾⁽⁶⁾.

في شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾⁽⁷⁾.

في موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بَايَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾⁽⁸⁾.

في عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾⁽⁹⁾.

(1) البقرة: 286.

(2) البقرة: 185.

(3) الحج: 78.

(4) المؤمنون: 23.

(5) الأعراف: 65.

(6) الأعراف: 73.

(7) الأعراف: 85.

(8) الأعراف: 103.

(9) آل عمران: 49.

ما هي مظاهر العالمية في القرآن؟

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾⁽¹⁾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾⁽²⁾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾⁽³⁾.

فالتوجه العالمي للدعوة يظهر بوضوح في الخطاب القرآني على مستوى الشكل والمضمون معاً، حيث يلاحظ بقوة كيف تجاوز عتبة أو نطاق الشخصية والقومية والطبقية والجغرافية... إلى آفاق العالمية الرحبة، فكثير استعمال مثل هذه النداءات الموحية: (يا أيها الناس - يا أيها الذين آمنوا - قل يا عبادي - يا أهل الكتاب - يا أيها الذين هادوا - ...) وهي قوالب تعبيرية ذات دلالة عميقة، نقلت الدعوة من إطارها القومي الضيق المحدود إلى نطاقها الإنساني العام، الذي يبرز جلياً على صعيد المضامين الإنسانية الجديدة التي طرحتها على مستوى التصور العقدي، وبناء العلاقات الاجتماعية.

أهمية هذه الخصائص:

1- العلم (الثقافة) من منظور الدعوة الإسلامية، ميزان أساسي للتفاضل كالتقوى، أو أكثر على أساس أن العلماء أكثر خشية لله ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾⁽⁴⁾.

فالدعوة الإسلامية بتأكيد الحاسم على علمية ومعرفية الموقف العقدي والفكري والسلوكي والعمل للإنسان، تحدث نقلة نوعية فاصلة في التاريخ الإنساني، على طريق التوافق والانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية، وتضع حداً للخرافة والوهم وكل المقاييس الزائفة.

2- لقد حسمت الدعوة وبشكل جذري في اعتبار الكون مخلوقاً لله

(1) الفرقان: 1.

(2) الأنبياء: 107.

(3) سبأ: 28.

(4) الزمر: 9.

تعالى، ورتبت على ذلك فكرة توحيد الله، وإسقاط هذه الصفة عن كل ما سواه من مخلوقاته، التي كثيراً ما يوجه الإنسان جزءاً من اهتماماته العقديّة والعباديّة لها.

وبالتالي تمنح الدعوة قدرة هائلة على التأثير في الواقع، حينما تحرر طاقات الإنسان، وتدفع به إلى ساحة الحياة طليق النفس، لا يرجو ولا يخشى إلا الله.

3- أكدت الإحاطة العامة للدعوة الإسلامية بالحياة الإنسانية، واستيعابها العميق لشؤونها العقديّة والفكرية والنفسية والاجتماعية، التي تستغرق كل طموحات الإنسان وهمومه، فرداً ومجتمعاً وحضارة.

ووضعت حداً لمأساة تجزئة الحياة الإنسانية وشطرها، باعتبارها النظرة الكلية المتكاملة للواقع الإنساني في بعده: الفطري والمعاش، ورفضها النهائي للنظرة الجزئية لأحكام الشريعة ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾⁽¹⁾.

4- لقد جاءت الدعوة بتعاليم متطابقة مع السنن الإلهية ومنسجمة مع فطرة الإنسان وغير متجاهلة لواقعه، بل تراعيه وتحركه بحكمة نحو آفاق جديدة، أكثر ملاءمة وانسجاماً مع طبيعته ورسالته واستعداداته.

5- حددت بوضوح نطاق الدعوة الإسلامية المكاني والزماني، وبينت أنّ زمن الرسائل والشرائع المحدودة والمرحلية قد انتهى، وجاء الإسلام ليتحرك على نطاق عالمي شامل، يتجاوز المصالح القبلية والطبقية والعنصرية والمذهبية، لينظم شؤون الإنسان بغض النظر عن وضعه الاجتماعي والسياسي السابق، ويمهد الطريق أمام الناس لحياة جديدة أساس التفاضل فيها الاستقامة وصالح الأعمال.

ما هي أهداف الدعوة في المرحلة المكية؟

هذا الموضوع مهم جداً في كونه سيساعدنا إلى حد بعيد في تقييم الجهد الكبير الذي بدله النبي ﷺ، لأنّ الحكم على نتائج أي عمل من

(1) البقرة: 85.

الأعمال يكون تبعاً للأهداف التي كان يسعى لتحقيقها.

ولا يمكننا أن نتناول الحديث عن هذه الأهداف بمعزل عن الأهداف الاستراتيجية الشاملة للدعوة بصفة عامة؛ لأنّ الفترة المكية مرحلة حركية تأسيسية من مراحل الدعوة التي تكامل عبرها إنجاز المشروع الإسلامي في أرض الواقع نظرياً وعملياً، في حياته ﷺ.

فأهداف الدعوة في مكة هي أهداف الدعوة الإسلامية العامة، ولكنها تكيّفت مع المرحلة والبيئة في إطار نظام أو منهج الأولويات الذي أملتته طبيعة: (الدعوة نفسها - وضع البيئة التي بدأ فيها تنزيل المشروع على الواقع - وإمكانات الدعوة أو الحركة).. فهذه العوامل الموضوعية لها دخل كبير في تكييف منهجية العمل، وضبط أولوياته، وبلورة مواقفه. وهذا ما سوف نقف عليه عند حديثنا عن التحديات التي واجهت الدعوة ومنهج مواجهتها.

ومن خلال التتبع لأحداث السيرة عموماً، وأحداث المرحلة المكية خصوصاً، يتبين أنّ أهداف هذه الفترة التأسيسية تمحورت حول الأهداف التالية: (بناء المنظومة العقدية - بناء المنظومة الفكرية - بناء المنظومة الاجتماعية - إعداد أرضية بناء المنظومة السياسية «بناء الدولة»).

أولاً: بناء المنظومة العقدية:

1- أهمية المنظومة العقدية في الحياة الإنسانية:

النظرة العامة إلى الوجود التي يأخذ بها الإنسان ويعتقد بحقائقها، ويتخذ منها عقيدة له وفلسفة لحياته، هي الأصل الذي تنبثق منه جميع نظراته الفكرية واتجاهاته السلوكية، وهي المحرك الخفي لأفكاره وسلوكه، وهي أساس اختلاف الحضارات والثقافات.

وهو ما ركز عليه القرآن في نظرنه الواقعية العميقة لمسألة التغيير، حيث نبّه أنّ مركز الثقل في أي عمل تاريخي موفق، هو تغيير النفس، انطلاقاً من ضبط قناعتها مع السنن التي فطر الله الخلق عليها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١﴾ .

وأول ما يغير في النفس ويضبط هو معتقدها وتصورها عن الله والكون والحياة، قبل أي أمر آخر، فهو أولوية الأولويات، والمضغة التي إن صلحت صلح البناء وإن فسدت اختل البناء كله.

فالإصلاح العقدي هو الأرضية الصلبة التي تشاد عليها صروح الرقي الفكري والروحي والأخلاقي والعمرائي، وتنطلق منها مسيرة الإنسان نحو التوافق النفسي، والانسجام الاجتماعي في الحياة.

فإذا وقع أي خلل في هذه الأرضية، ظهرت آثاره في النفس والفكر والسلوك والعلاقات، وأصابت المجتمع بالفتور والاضطراب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾⁽²⁾. ويعد الاختلال في المنظومة العقدية أولى بذور الانحراف وأخطرها على الإطلاق، في حين يعد تناغم هذه المنظومة في النفس الإنسانية وواقع الحياة من أقوى عوامل الاستقرار والتماسك في المجتمع وأهمها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾⁽³⁾.

وهو ما تحقق لقوم يونس عليه السلام حيث قال تعالى فيهم: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾⁽⁴⁾. أي إلى حين مجيء أجلهم الذي أجله الله لهم كرامة لإيمانهم.

2 - الإصلاح العقدي منطلق جميع الرسائل:

الإصلاح العقدي هو مقدمة المشاريع الإصلاحية، التي جاءت بها الرسائل السماوية جميعاً.. فكان كل واحد منهم يدعو قومه لنبذ الشرك، والإيمان بالله وعبادته وحده: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

(1) الرعد: 11.

(2) الجن: 17.

(3) الأعراف: 96.

(4) يونس: 98.

وَاجْتَبَيْتُمَا الطَّاعُونَ ﴿١﴾ . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿٢﴾ .

3 - الإصلاح العقدي محور ارتكاز الدعوة في الفترة المكية:

إنَّ الفترة المكية باعتبارها مرحلة تأسيسية للدعوة، أعطيت فيها أولوية خاصة للبعد العقدي، باعتباره المرتكز القاعدي لعملية التغيير المنشودة في النفوس والذهنيات والعلاقات والمواقف، وأنظمة الحياة.

فلو حظ تركيز شديد على إقرار أصول العقيدة في الله واليوم الآخر، وصدق ما جاء به الرسول ﷺ بالخصوص، حيث يكفي نصوص الوحي للوقوف على هذه الحقيقة الكبرى التي استغرقت من القرآن المكي جزأه الأعظم؛ لترسيخها في النفوس بكل الوسائل.

ولهذا نلاحظ القرآن يلجأ إلى الاستدلال على صدق قضاياه إلى آيات الله في الآفاق والأنفس لينتشل من الإنسان ما تسرب إليه من معتقدات خرافية باطلة - وهل هناك أعظم من قتل الأب ابنته - .. وكذلك يطوف بالإنسان في أعماق التجربة البشرية في اقترابها وابتعادها عن هدي الله الذي وعد به الإنسانية في بداية حياتها الاستخلافية على الأرض.

ولذلك عندما نقرأ نهج البلاغة نرى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قام على تأسيس القضايا العقدية بصورة جادة وواعية منطلقاً من معين القرآن ورسوله الكريم، فمثلاً: يقول القرآن واصفاً وجود الله عز وجل ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ ﴿٣﴾ . ولكن وجوده تعالى ليس كوجود الهواء أو التراب أو الماء أو الإنسان بل هو موجود بين جميع هذه الموجودات، غير أنّ فرق هذا الوجود عن تلك هو أنّ هذا لا تدرکه الأبصار بخلافها فإنها بالأبصار مدركة.

ثم يأتي أمير المؤمنين عليه السلام يبين هذا الموضوع الحيوي في أكثر من عبارة:

(1) النحل: 36.

(2) الأنبياء: 25.

(3) الحديد: 4.

« داخل في الأشياء لا بالممازجة، وخارج عن الأشياء لا بالمباينة »⁽¹⁾.

« ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج »⁽²⁾.

« مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ »⁽³⁾.

كَلِّ ذَلِكَ يوقفنا على أهمية البحث عن العقيدة والدين، لأنَّ الإيمان بذلك يفرض على المعتقد الكثير من الضوابط والحدود، ويمنعهم من بعض الممارسات.. فالمعتقدات والآراء العقديّة الأساسيّة تمثل القاعدة والأساس لكل نظام، وتؤثر بصورة شعورية أو لا شعورية أثرها في سلوك معتقديها وتصرفاتهم.

ولذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾⁽⁴⁾. هذا هو الإسلام في كلمة مختصرة تحدد المنطلق والأفق وخط السير، فالتوحيد هو المنطلق الذي يصل الإنسان بأفاق الله الذي ابتداء الوجود بكلمته، والاعتراف بالله وبوحدانيته هو الذي يحدد للإنسان وجهة السير فلا شريعة إلا شريعة الله، ولا سياسة إلا السياسة التي تنسجم مع العناوين التي يرضاها الله، ولا اقتصاد إلا في حدود الحلال والحرام، ولا علاقات شخصية بالآخرين إلا إذا كانت في طريق الله.

ثانياً: بناء المنظومة الفكرية:

إلى جانب الاهتمام الخاص ببناء المنظومة العقديّة، وإرساء الأسس القاعدية اللازمة لأي عمل حضاري منشود، اهتم الوحي كذلك بالمسألة الفكرية، ومنحها عناية كبرى منذ البداية، حيث شكلت هدفاً أساسياً من أهداف الدعوة في الفترة المكية خاصة، باعتبارها مرحلة تأسيسية حاسمة.

(1) نهج البلاغة: خطبة 186.

(2) نهج البلاغة: خطبة 186.

(3) نهج البلاغة: خطبة 1.

(4) فصلت: 30.

ونتطرق إلى ثلاثة محاور رئيسية:

1 - أهمية المسألة الفكرية في المنظومة الاجتماعية:

من خلال حركة التاريخ، نجد أنّ البعد العقدي يقوم بدور أساسي في توجيه هذه الحركة، وتحديد فعاليتها في الواقع باعتبار أنّ العقيدة نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياة الإنسان ونشاطه؛ لتعطيه فعالية عالية، وتمنح المجتمع حيوية كبيرة، تمكنه من المساهمة في إدارة عملية التدافع الحضاري، ومجابهة مضاعفاتها وأعبائها بما يحفظ توازنه ويصون وجوده.

والسؤال المهم: هذه العقيدة الحية الباعثة على الحياة والقوة، كيف يصل إليها المجتمع؟ وكيف يوجهها بفعالية لخدمة أهدافه في الحياة؟

ولعل من الإجابات المهمة هو ما ذكره العلامة الغزالي: «وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر إذن هو المبدأ أو المفتاح للخيرات كلّها»⁽¹⁾.

من هنا تبرز أهمية المسألة الفكرية ودورها الحيوي في المنظومة الاجتماعية، لأنّ حيوية الفكر ونظلماته الاجتهادية، ورغبته في استكشاف أسرار الحياة، وتمرده المتواصل على الجمود والتقليد، هو الذي يجعل العقيدة حية في النفس.

على عكس الخمول الفكري، وشيوع النزعات التقليدية التي تقضي على روح الاجتهاد والإبداع، وتسم الحياة بالرتابة، وتسلب العقيدة فعاليتها وإشعاعها ووهجها، وتفقد المجتمع القدرة على التدافع الحضاري، وتوصله إلى حالة من الضعف والعجز.

إذن سلامة المنظومة الفكرية لدى الأفراد والأمة من أقوى أسباب الاهتداء إلى معرفة الحقائق الكونية، التي تقود إلى اليقين بالله: ﴿سُنُّرِيهِمْ

(1) موسوعة مصطلحات الإمام الغزالي: ص 564، إحياء علوم الدين: ج 4 ص 452.

آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿١﴾

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢﴾﴾

2- البعد الفكري في المشروع التغييري للدعوة:

بما أن الإسلام هو مشروع الغد؛ لتحقيق مستويات راقية من الاستخلاف، فقد أولى عناية شديدة بالمسألة الفكرية، من خلال احتفائه الكبير بالعقل، الذي جعله مناط التكليف، بل وجعله أساس تكريم الإنسان وتفضيله على كثير من مخلوقات الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٣).

ولذلك رفض الإسلام كل المصادر غير العلمية، سواء ما تعلق منها بالقيم والمفاهيم والأفكار ذاتها، أم تعلق بطرائق التفكير وتحصيل هذه المعرفة. ودعا إلى تأسيس كل ذلك على المعرفة الصحيحة، المطابقة للحقائق الكونية، والسنن النفسية والاجتماعية، التي أودعها الله في الآفاق والأنفس والكتاب.. كل ذلك تماشياً مع التوجيه القرآني الصارم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٤).

وهذه الوسائل المشروعة للمعرفة الحسية والعقلية. وخلاصة الفكرة أن الدعوة الإسلامية تريد للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أن تتحرك على أساس العلم، الذي يستمد وسائله من حركة الحواس وحركة العقل في مجال المعرفة، في واقع الفرد والمجتمع، وفي واقع الحياة العامة والخاصة.

(1) فصلت: 53.

(2) آل عمران: 190 - 191.

(3) فصلت: 53.

(4) الإسراء: 36.

3- محورية الإصلاح الفكري في الفترة المكية:

لقد كثف الرسول ﷺ في هذه المرحلة الاهتمام بالمنظومة الفكرية بشكل كبير، كما يبدو ذلك جلياً في آيات القرآن المكية الذي حفل بالدعوة المباشرة والضمنية إلى التحرر من أثقال التقاليد، والجمود على الموروثات بدون بصيرة، والتحريض على إعمال الفكر في كل شيء، فنلاحظ:

- بدء من الإنسان نفسه، كآية كبرى من آيات الله.
- والكون من حوله كساحة لا نهائية لآيات الله الدالة على عجيب صنعه.
- والتجربة التاريخية للإنسان، بما فيها من الاستقامة والانحراف، والصعود والهبوط.
- والمصير الإنساني في عالم الغيب وما سيؤول إليه كل إنسان في الجنة أو النار.

كل ذلك كان دعوة للناس إلى التأمل في الآفاق، والأنفس، والتاريخ، وعالم الغيب. والتفكير الجدي في دلالاتها، بأساليب تهدف كلها إلى تحريك الأذهان والعقول، لتجاوز المألوفات الرتيبة، وإدراك الحقائق التي تقود إلى اليقين بالله.

لقد قاد القرآن الكريم حملة منهجية منظمة وكثيفة على الفكر الخرافي، والجمود العقلي، للانتقال بالإنسانية إلى مرحلة جديدة في مسيرتها الحضارية، يأخذ فيها التفكير العلمي الموضوعي مكانته في توجيه مواقف الإنسان، وضبط حركة الحياة، بعيداً عن التقاليد العرفية العتيقة التي تعطل طاقاته الفكرية والحسية عن الانطلاق في الاتجاه الصحيح، ومعرفة الله وعبادته، وهو ما ندّد به القرآن بقوة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾⁽¹⁾.

(1) الأعراف: 179.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾⁽¹⁾. لأنَّ الأسماع والأبصار آلات لالتقاط العلم والخبرة، والعقل هو الذي يعي ما فيها من عبرة وفائدة، فإذا كان العقل معطلاً ومحجوراً عليه بالخرافة والجمود... لم يستفد الإنسان مما ترسله حواسه.

من هنا: انقضى زمن الإقناع بالمعجزات الحسية وبدأت مع الرسالة الخاتمة فترة جديدة تتأسس فيها الحياة الإنسانية على العقل والفكر والنظر والعلم، وهو ما اضطلعت به الدعوة في المرحلة المكية خاصة، حيث تمحور جزء كبير من اهتماماتها حول بناء المنظومة الفكرية على مستوى المضمون أو منهجية التفكير.

ثالثاً: إرساء بناء المنظومة الاجتماعية:

لا يخفى ما للمنظومة الاجتماعية من أهمية كبرى في الحياة الإنسانية، على اعتبار أنَّ الإنسان مدني بطبعه لا بدَّ له من الاجتماع الذي به يحفظ وجوده ويبقى نوعه.

ونذكر هنا نقطتين لتوضيح ذلك:

1 - مكانة المسألة الاجتماعية في المشروع الإسلامي:

الدعوة الإسلامية كرسالة خاتمة، جاءت كمشروع تغييري شامل لإصلاح الأوضاع الإنسانية، وتمكين كل فرد أو أمة، تنضبط بها فهماً وممارسة، من تحقيق مستوى راقٍ من الاستخلاف كما قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾⁽²⁾.

(1) الحج: 46.

(2) النور: 55.

هذه الدعوة الشاملة الكاملة، أعطت أهمية كبيرة للمسألة الاجتماعية، بعد المسألتين العقدية والفكرية وكان هذا اتساقاً مع الهدف من الوجود الإنساني، وهو إنجاز مهمة الاستخلاف في الأرض بواسطة تحقيق العبودية التامة لله تعالى، التي تعني تسخير كل طاقات الإنسان في طاعة الله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾.

وقد سبق لنا القول أنّ الاستخلاف لا يتم إلا باجتهاد الإنسان في عمارة الأرض وتسخير نعم الله للمزيد من الترقّي المعرفي والروحي والسلوكي والعمرائي، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾⁽²⁾.

ولا شك أنّ هذا الإعمال للأرض هو لبّ المسألة الاجتماعية التي جاءت الدعوة الإسلامية لتساعد الإنسان على بنائها على أسس أكثر توافقاً مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، ووفاء بحاجات العباد الروحية والمعيشية.

وقد أكد القرآن بشكل صريح على البعد العلمي للإيمان، حيث يلاحظ الربط المستمر بين الإيمان والعمل الصالح، والرفض البات للانفصام بينهما، الذي يشنع به القرآن ويسميه نفاقاً وفسوقاً...

2- إرساء الأسس المبدئية لبناء المنظومة الاجتماعية من مرتكزات الدعوة في الفترة المكية:

وهذه الأسس أو الأصول المبدئية التي سببني عليها النظام الاجتماعي، وتحكم العلاقات الاجتماعية: الحرية - المساواة - العدالة - المسؤولية.

أ - (الحرية) أصلت قيمة الحرية الإنسانية، وأعلت من شأنها بتركيز شديد على: التوحيد، ونفي الشرك، وتخليص الإنسان من الخرافات، والخوف من غير الله، وكل ما من شأنه أن يصادر حقه في التفكير والمعتقد والقول والعمل الذي لا يمس بدوره حرية الآخرين الفردية والجماعية.

(1) الأنعام: 162.

(2) هود: 61.

ب- (المسؤولية) أصلت المسؤولية الفردية عما يصدر من الإنسان، ونفت كل الخرافات والمظالم التاريخية التي كانت شائعة في الكثير من المجتمعات الإنسانية القديمة في ما يتعلق بمسؤولية الإنسان عن أعمال الغير.. فقد قرر القرآن بوضوح تام التبعية الفردية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾⁽¹⁾، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾⁽²⁾، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾⁽³⁾.

ج- (المساواة) أقرت المساواة الإنسانية، متجاوزة بذلك كل الموازين والأعراف الجائرة، التي تزن الناس وتصنفهم بألوانهم وأعراقهم وعصبياتهم وأموالهم.. فالبشر كلهم من آدم، وآدم من تراب ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾⁽⁴⁾.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن علي بن الحسين صلوات الله عليهما تزوج سرية، أمة كانت للحسن بن علي عليه السلام، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فكتب إليه في ذلك كتاباً: إنك صرت بعلي الإمام.

فكتب إليه علي بن الحسين عليه السلام: إن الله رفع بالإسلام الخسيصة، وأثم به الناقصة، وأكرم به اللؤم على مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية، إن رسول الله صلى الله عليه وآله أنكح عبده ونكح أمته»⁽⁵⁾.

وقد سئل علي بن الحسين عليه السلام عن العصبية فقال: «العصبية التي يأثم صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»⁽⁶⁾.

د - (العدالة) ركزت على إقرار مبدأ العدالة لتحقيق الكرامة الإنسانية، وتوفير الأمن وحماية الحريات، وتحقيق دعائم المساواة في المجتمع

(1) الأنعام: 164.

(2) النجم: 39.

(3) الزلزلة: 7 - 8.

(4) الأنعام: 98.

(5) عوالم العلوم: ص 150.

(6) الكافي: ج 2 ص 308.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽¹⁾.

رابعاً: الإعداد لبناء الدولة:

الإسلام جاء لكي يعبر عن وجوده في عالمنا من خلال دوائر ثلاث يتداخل بعضها في بعض، وتتسع صوب الخارج لكي تشمل مزيداً من المساحات: دائرة الإنسان، والدولة، فالحضارة.

فكان من أهداف الدعوة في الفترة المكية العمل على توفير شروط وإمكانات بناء الدولة التي تخدم الدعوة وتحميها، وهو ما نراه بوضوح في السيرة النبوية، إذ عمل الرسول ﷺ بكل قواه على استيعاب المجتمع المكي وجعله نواة لدولة الإسلام تتولى نشر الإسلام والذود عنه، فلما تعذر عليه ذلك اتجه إلى الطائف باحثاً عن النصر والتأييد، ثم بعد ذلك إلى خارج الدائرة القرشية، حيث تم له إيجاد أرضية جديدة لتحقيق مشروع الدولة.

ويمكن أن نجمل النظرية الإسلامية بما يلي:

1- شهد المجتمع الإنساني في مرحلته الأولى حالة من البدائية والبساطة بحيث كان الحس الفطري، والتقاليد الطبيعية كافية لتسيير الحياة اليومية بشكل رتيب. وهذا ما عثر عنه الإمام الصادق عليه السلام في رواية رواها يعقوب بن شعيب بقوله: «كان هذا قبل نوح أمة واحدة فبد الله فأرسل الرسل قبل نوح، قلت: أعلى هدى كانوا أم على ضلالة؟ قال: بل كانوا ضلالاً كانوا لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين»⁽²⁾.

ففي تلك المرحلة كان الناس أمة واحدة - حسب التعبير القرآني - لم تكن ثمة خلافات سياسية، وخلافات فكرية عقدية، وإذا كان ولا بد من حدوث خلافات شخصية فإنها لم تكن بمستوى يمزق وحدة الأمة، أو

(1) الحديد: 25.

(2) البرهان في تفسير القرآن: ج 1 ص 461.

يقلق أمنها وسلامتها.

2- وحسب التطور الإنساني شهد المجتمع تعقيدات جديدة، لم تكن في المرحلة البدائية الساذجة وظهرت حينئذ خلافات بدأت تتعمق كلما تقدم الإنسان خطوة إلى الأمام في عملية الترابطات الاجتماعية، واستثمار الطبيعة، والاستفادة من طاقاته الفكرية والعقلية.

3- وفي مرحلة نضج الإنسان الفكري والسياسي شهد المجتمع الإنساني ظاهرة النبوة. وكانت هذه الظاهرة مقترنة بدخول المجتمع الإنساني مرحلة الخلافات والصراعات السياسية.

وقد سعى الأنبياء عليهم السلام بجد لحل المشاكل المستجدة بعد أن أصبح من غير الممكن الاستمرار في حالة البدائية، والاعتماد على العادات والتقاليد، والمشاعر الفطرية، في معالجة المشاكل.

وقد أجمل لنا القرآن هذه المراحل الثلاث التي مرت بها البشرية:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽¹⁾.

ويعتبر الشهيد الصدر تت أول من ألفت إلى مساهمة الأنبياء في وضع الحجر الأساس لظاهرة الدولة، فقد قال: «إنَّ الناس كانوا أمة واحدة في مرحلة تسودها الفطرة، ويوحد بينها تصورات بدائية للحياة، وهموم محدودة، وحاجات بسيطة. ثم نمت من خلال الممارسة الاجتماعية للحياة المواهب والقابليات وبرزت الإمكانيات المتفاوتة واتسعت آفاق النظر وتنوعت التطلعات، وتعددت الحاجات فنشأ الاختلاف، وبدأ التناقض بين القوي والضعيف، وأصبحت الحياة الاجتماعية بحاجة إلى موازين تحدّد القيم، وتجسد العدل، وتضمن استمرار وحدة الناس في إطار سليم ... وفي هذه المرحلة ظهرت فكرة الدولة على يد الأنبياء، وقام

(1) البقرة: 213.

الأنبياء بدورهم في بناء الدولة السليمة ووضع الله تعالى للدولة أسسها وقواعدها.

والحقيقة أنّ البرهان قائم لإثبات هذا الفرض. ذلك أنّ النبوات كانت مقارنة لدخول المجتمع في مرحلة التعقيد والاختلاف ولم يكتب الأنبياء حين بعثوا بالدعوة إلى التوحيد، بل قدموا للمجتمع الإنساني دستوراً متكاملأً متمثلاً بالشرائع التي أتوا بها، ومارسوا العمل من أجل تحقيق المجتمع الدستوري تحت قيادتهم وتوجيههم، ومن هنا تعرضوا للقتل والتشريد والمعارضة. وبالتالي هم أول من وضع الحجر الأساس للدولة وسار من حولهم رجال الإصلاح في مختلف العصور.

وقد يشهد لهذا من بعيد أو من قريب الحديث الوارد عن الرسول ﷺ: «الخير كله في السيف، وتحت ظل السيف، ولا يقيم الناس إلا السيف»⁽¹⁾ ومن هنا تكون الدولة ضرورة، لأنها الجهاز القادر على تولي هذه المهمة.

ومن كلام لعلي عليه السلام في الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم إلا لله» قال: «كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيَبْلُغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَيَجْمَعُ بِهِ الْفِيءُ، وَيُقَاتِلُ بِهِ الْعَدُوَّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ»⁽²⁾.

وقريب من هذا المعنى قوله عليه السلام: «فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَدْلَاهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ»⁽³⁾.

(1) الكافي: ج 5 ص 2، وتهذيب الأحكام: ج 6 ص 122.

(2) نهج البلاغة: الخطبة 40.

(3) نهج البلاغة: الخطبة 216.

سؤال: ما هي مشكلات الدعوة في المرحلة التأسيسية الأولى
ومنهج مواجهتها من قبل الرسول ﷺ؟

جواب: تتحدد مشكلات الدعوة في عدة أطر:

أولاً: الإطار الزمني والمكاني للمرحلة:

تستغرق هذه المرحلة مدة ثلاث سنوات من بداية التكليف الرسالي
بالدعوة الذي ابتداء في سنة 610م.

وأما الإطار المكاني للدعوة في هذه المرحلة، فقد اقتصر على الدائرة
المكية أو القرشية العامة، حيث كان الرسول ﷺ مركزاً جهده على المجتمع
المكي ومحيطه القريب، لأسباب سترد الإشارة إليها لاحقاً.

وتحديد الإطار المكاني للدعوة بالمجتمع المكي ومحيطه القريب، لا يعني
أن الدعوة لم تخرج من هذه الدائرة في هذه المرحلة، بل تعني أن التركيز
الأكبر كان في هذه المساحة. لأن هناك من أسلم وهو بعيد الموطن، كأبي ذر
الغفاري الذي بلغه خبر الدعوة الإسلامية، فبعث أخاه يستطلع له الأخبار
ويستوثق منها⁽¹⁾.

فالدعوة في هذه المرحلة، لم تكن سرية مطلقة، بل كانت معلومة لدى
الناس في المجتمع المكي، وخبرها منتشر، ويعود الفضل في عدم احتدام
المجابهة بينها وبين المجتمع القرشي إلى السياسات الحكيمة التي انتهجها
الرسول ﷺ، وهو ما جعل آثارها تظهر في الواقع دون أن تثير الناس
وتستفز نفوسهم ضدها.

كما أن قریشاً لم تكن لتبني على معرفة خبر محمد ﷺ شيئاً أو تعيره
اهتماماً. فقد كانت ظاهرة الحنيفية موجودة في المجتمع المكي: فزيد بن
عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وأمّية بن أبي الصلت، وبعض رجال بني
هاشم.. ولا تهتم مكة بمثل هذه الأحداث وهؤلاء الناس، طالما أنهم لا

(1) السيرة النبوية، لابن كثير: ج 1 ص 447.

يتعرضون لعقائدها وأصنامها.

بل يمكن القول: إنّ قريشاً في فترة ما كانت تهتم بالحنيفيين أكثر مما اهتمت بالمسلمين في بداية هذه المرحلة؛ وذلك لأنّ الحنفاء كانوا يعلنون شكهم بأصنام قريش وأوثان العرب بينما لم يعلن المسلمون بعدُ موقفهم تجاهها.

وذكرت الروايات نماذج من هذه المواقف:

- موقف أحد التجار الذي كان في زيارة للعباس في بيته فرأى رجلاً وامرأة وطفلاً يتقدمون فيصلون بصورة تخالف ما كانت تعهده قريش من الصلاة. فسأل التاجر العباس عنهم فقال له: هذا ابن أخي - ويشير إلى علي -، وهذا ابن أخي - ويشير إلى الرسول - وهذه زوجته. وإنّ هذا يزعم أنّ الله يكلمه من السماء، والله ما أعلم على ظهر الأرض أحد على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة⁽¹⁾.

- موقف أبي طالب مع ابنه علي عليه السلام حيث يراه يصلي بجانب رسول الله، فسأل ولده عن ذلك فأجابه.. ثم قال له: أما إنّه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه⁽²⁾.

ثانياً: أهداف الدعوة في هذه المرحلة:

رأينا في البحث السابق أنّ الأهداف تتمحور حول: بناء المنظومة العقدية - بناء المنظومة الفكرية - إرساء بناء المنظومة الاجتماعية - الإعداد لبناء الدولة الخادمة للدعوة.

ولا يتم ذلك إلا في إنجاز مستوى استخلافي راقٍ، معرفياً وروحياً وسلوكياً وعمرائياً، في سياق العمل المخلص الصائب للتحقيق بالعبودية الشاملة لله تعالى.

(1) بحار الأنوار: ج 16 ص 12.

(2) بحار الأنوار: ج 38 ص 207، 251.

وهذا معناه أنّ الدعوة الإسلامية جاءت تستهدف إحداث تحول ضخم في الحياة الإنسانية على الإطلاق، وتريد أن تشكل نقلة جديدة على طريق الارتقاء بالإنسانية من الطفولة إلى النضج والرشد واكتمال ملكاتها الفهمية، واستواء خبراتها، التي تمكنها من تجاوز الخرافة وتيه الاعتقاد إلى التفكير العلمي الموضوعي.

وبعبارة أخرى: تريد الدعوة أن تنقل البشرية من الظلمات إلى النور، كما عبر عن ذلك القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً، وهذا هو الذي ركز عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁾.

من هنا كان الرسول ﷺ يدرك جيداً أنّ العمل الحضاري الضخم الذي قدر له أن يقود هذا الإنجاز، في حاجة إلى طليعة جهادية تضطلع معه بحمل أعباء الدعوة من أجل التمكين له في الأرض.

وهو ﷺ يعرف أنّ أحوال المجتمعات راسخة قوية لا يزحزحها ولا يهدم بناءها إلا المطالبة القوية، والاستناد إلى ركن شديد، كما قال النبي لوط عليه السلام حينما أحس بالضعف أمام ضغط قومه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾⁽²⁾. أي: لو أنّ لي أنصاراً وأعواناً وعشيرة مانعة قوية تقف معي في مواجعتكم ودفعتكم ومغالبتكم.

وهذه سنة طبيعية يحدثنا القرآن في شأنها، وهذه السنة هي التي حالت بين كفار ثمود وصالح «فدفعتهم الملائكة بالحجارة فهلكوا، فأتى أصحابهم فأروهم هلكي، فقالوا لصالح أنت قتلتهم، فأرادوا قتله فمنعهم عشيرته»⁽³⁾.

(1) الأعراف: 157.

(2) هود: 80.

(3) بحار الأنوار: ج 11 ص 381.

وهي التي حالت بين كفر مدين وشعيب، حيث قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً يَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزِينَ﴾ (1). حيث كان الكفار يقفون موقف الاحترام، مع كونهم انسجموا مع موقف الكفار، ولم يتبعوا شعيباً في ما ذهب إليه من دعوة. فهم ينظرون إلى أنه ليس لشعيب نفسه أية منعة أو عزة أو كرامة.

ومن هنا نلاحظ أن شعيباً ﷺ لا يعبأ بمواقفهم ولا يتراجع عن موقفه ورسالته، بل يتابع العمل على تصحيح مفاهيمهم الخاطئة والمنحرفة؛ ليعرفهم أن الدعوة لا تأبه إلا بصلافة الموقف، ومثانة المركز، وقوة الشخصية، ولا تعتوره التهاويل الكاذبة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (2). لكي لا تتحول الدعوة إلى منظور عشائري وقومي فقط، وإن كان للعشيرة ثقلها وموقعها.

ولذا كان من الطبيعي أن تكون الدعوة في المرحلة الأولى في صفوف الأقربين. وخاصة عندما تأخذ طابع المواجهة العلنية؛ لأن هذه المواجهة تعرّض المبلغ للخطر. فلا بدّ من حماية، وعشيرة المبلغ هم أكثر الناس استعداداً لحمايته.

ولذا يقول أمير المؤمنين - وهو المنظر الاجتماعي الرائع - «أبيها الناس، إنّه لا يستغني الرجل - وإن كان ذا مال - عن عشيرته، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيلة من ورأيه وألمهم لشعبيته، وأعطفهم عليه عند نازله إن نزلت به... ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما يقبض منة عنهم يد واحدة، ويقبض منهم عنه أيد كثيرة؛ ومن تلى حاشيته يستد من قومه المؤدّة» (3).

ولذا جاء الأمر الإلهي صريحاً ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (4)،

(1) هود: 21.

(2) هود: 92.

(3) نهج البلاغة: الخطبة 23.

(4) الشعراء: 214.

كقاعدة أولى لإلذار الأخرين، لأنّ الناس قد يتحدثون معه عن عشيرته بأثمهم الأولى باتباعهم خط الدعوة في ما يجب أن يلتقوا به من مفاهيمها وتعاليمها، فإذا آمنوا به وصدقوه كانوا عوناً له على رسالته بالتفافهم حوله ونصرتهم له.

ولقد وجدنا بذور الدعوة الأولى داخل بيت النبي ﷺ، الطليعة الجهادية المؤمنة. فكان أول الناس تصديقاً به هم: خديجة، وعلي، وأبو طالب، وجعفر، ومولاه زيد بن حارثة، وبناته، ولو استعرضنا توزيع من آمن بدعوته ﷺ لوجدنا أنّ بني هاشم كانوا أكثر عدداً من غيرهم.

ويحدثنا التاريخ الإسلامي، فيما يتعلق بنصرة هذه الطليعة للرسول، موقفاً رائعاً لأبي طالب: إنّ قريشاً لما عرفت أنّ أبا طالب أبي خذلان رسول الله ﷺ، وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأشعره وأجمله، فخذه فلك عقله ونصرته واتخذة ولدأ فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسقّه أحلامهم، فنقتله، فإنّها رجل كرجل.

فقال: والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبداً!!

فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك⁽¹⁾.

ومن المواقف المشهودة: في الليلة التي أسري بالرسول ﷺ افتقده أبو طالب فخاف أن تكون قريشاً قد اغتالته أو قتلتها، فجمع سبعين رجلاً من بني عبد المطلب معهم الشُّفار، وأمرهم أن يجلس كل رجل منهم إلى

(1) تاريخ الطبري: ج 1 ص 545.

جانب رجل من قريش، وقال لهم: إن رأيتموني ومحمداً معي فأمسكوا حتى أتاكم، وإلا فليقتل كل رجل منكم جليسه ولا تنظروني⁽¹⁾.

ولذا يركز اليعقوبي على أن أساس قضية الهجرة إلى الحبشة كانت من منطلق أن الرسول ﷺ لما رأى « ما فيه أصحابه من الجهد والعذاب، وما هو فيه من الأمن بمنع أبي طالب عمه إياه، قال لهم: ارحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة إلى النجاشي، فإنه يحسن الجوار »⁽²⁾.

بل إنَّ أبا سلمة المخزومي لما دخل في جوار أبي طالب، مشى إليه رجل من بني مخزوم فقالوا: يا أبا طالب لقد منعت منا ابن أخيك محمداً فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنَّه استجار بي وهو ابن أختي وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أختي⁽³⁾.

لقد وهب أبو طالب نفسه فداءً لدعوة الرسول الأكرم وأشرب عشقاً في الرسالة وفي رسولها، ولذا قال رسول الله يوم موته: «اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد جزعاً»⁽⁴⁾.

فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى قال الرسول ﷺ: « ما نالت مني قريش شيئاً حتى مات أبو طالب »⁽⁵⁾.

ثالثاً: المشكلات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة:

لا بد من الإشارة السريعة إلى قلة بل ندرة المعلومات عن هذه المرحلة، حيث يلاحظ الباحث في كتب السيرة مرورها العابر على هذه المرحلة، الأمر الذي صعب كثيراً مهمة المحاولات التي أراد أصحابها تسجيل وقائع السيرة من جهة القرآن، خاصة إذا ما لاحظنا كذلك الاختلاف القائم

(1) تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 26.

(2) تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 29.

(3) السيرة النبوية، لابن هشام: ج 2 ص 8.

(4) موسوعة التاريخ الإسلامي: ج 1 ص 638.

(5) موسوعة التاريخ الإسلامي: ج 1 ص 638.

حول الترتيب الزمني لنزول الآيات بصفة عامة.

فليس لدينا أي سجل كامل لأسباب النزول وتاريخه المضبوط، وحتى الآيات التي نعرف أسباب نزولها، وتاريخه تختلف فيها الآراء وتتعدد فيها الأقوال، ولا مجال لغير الظن والترجيح. ولو كان بين أيدينا ذلك السجل الدقيق لهياً لنا فرصة لا تقدر لتتبع مراحل الدعوة الإسلامية وطرائقها في كل مرحلة، ولكشف لنا عن العوامل النفسية والعقلية فيها، فوق العوامل التاريخية والمحلية.. ولكن هذا كله مع الأسف الشديد لا سبيل إليه الآن بغير الحدس والتخمين.

ومن خلال تتبع وقائع هذه المرحلة يمكن تحديد المشكلات الأساسية التي واجهت الدعوة في مشكلتين أساسيتين هما:

- 1- مشكلة بناء النواة الجهادية الأولى للدعوة.
- 2- مشكلة حماية هذه النواة الجهادية والمحافظة عليها.

مشكلة بناء النواة الجهادية الأولى للدعوة:

لأجل بناء النواة الجهادية الأولى، كان على رسول الله ﷺ أن ينتبه لعقباتها، ويأخذها بعين الاعتبار؛ وقد تجاوزها ﷺ من خلال ثلاث جهات:

الأولى: أن يحل مشكلة الانطلاق في الدعوة، وهي مشكلة ليست يسيرة في مجتمع يعاني من خلل عظيم في منظومته العقديّة والفكرية والاجتماعية، بالنسبة إلى ما جاءت به الدعوة الإسلامية من قيم ومفاهيم وتصورات جديدة.

الثانية: أدرك الرسول الأكرم ﷺ منذ البداية، أنّ مفاجأة قريش بالدعوة والدخول معها في حوار علني مباشر حول أوضاعها العقديّة والفكرية والاجتماعية لن يزيد الأمر إلا تعقيداً وصعوبة.

إذ كيف يدعو قريشاً إلى الحق، وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم؟ وأي طريقة يسلك لإقناعهم بالحق وأنّ ما هم فيه باطل، وأنّ ما جاءهم به هو الحق، وكيف وهذا الحق يبطل عقائدهم، ويهدم تقاليدهم.

الثالثة: كان على الرسول أن يدقق في خطواته وهو يتحرك لبناء هذه

القاعدة الأولى للدعوة، بحيث لا يلتفت إليه أحد ولا يعاب به، ولا يعير أي اهتمام لما يقوم به من عمل. وكل ذلك يطرح تساؤلات عملية كثيرة، نستدعي تعميق البحث وتكثيف الجهد لضمان انطلاقة سليمة موفقة للدعوة.

- من هم الأشخاص المؤهلون الذي ينبغي التركيز عليهم في بداية الأمر؟

- كيف تتم مواجعتهم بالأمر؟

- كيف يتم أمر متابعتهم وتكوينهم؟

- كيف يتم التوفيق بين ممارسة بعض شعائر دينهم والحرص على عدم مفاجأة المجتمع واستفزازه؟

- كيف لهؤلاء أن ينخرطوا في ممارسة الدعوة، دون الإضرار بمسيرة العمل وبأنفسهم؟ ...

مشكلة حماية هذه النواة الجهادية والمحافظة عليها:

هذا هو التحدي الكبير الذي يواجه كل الدعوات والحركات ويهددها بالإضعاف والانحراف، إن لم تؤخذ التدابير اللازمة للحيلولة دون ذلك، فالدعوة الإسلامية تستهدف إحداث تحوّل شامل وعميق في حياة البشرية من الظلمات إلى النور، كانت حاجة ملحة إلى حماية نواة القاعدة الجهادية الأولى والمحافظة عليها قدر الإمكان.

وكانت هذه المشكلة تطرح تبعات جسيمة على رسول الله ﷺ كقائد للدعوة من واجبه العمل على توفير الشروط والضمانات اللازمة لرعاية الرعيل الأول من أتباعه، والنأي بهم عن دواعي الضعف والفتنة، حتى يستكملوا بعض شروط المناعة والقوة التي تؤهلهم لمواجهة التحديات والصمود أمامها.

رابعاً: منهج النبي ﷺ في مواجهة هذه المشكلات:

لا يختلف اثنان أنّ خطواته ﷺ كانت مضبوطة ومنسقة ومدروسة، لا مكان فيها للعفوية والارتجال وسوء التقدير، لأنّها كانت تصدر كلها عن

منهج واضح محدد في أبعاده الفكرية والعملية.

فالدارس لوقائع السيرة النبوية في هذه المرحلة وسائر مراحل الدعوة، يلاحظ مدى صرامة انضباط النبي ﷺ بالمنهج في العمل.

على سبيل المثال، لم يندفع الرسول ﷺ إلى الإنذار وقد تلقى الأمر من ربه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾⁽¹⁾ حيث انطلقت هذه السورة في نداء صارخ متحرك للبدء بالإنذار، فشمّر عن ساعد الجد، وانطلق بعزم وحزم دون توان، وقمّ بإنفاذ أمر الله إلى العباد حتى لا تفوتهم الفرصة، ولتبتعد عن نفسك الاسترخاء والاستسلام للراحة.

مع هذا النداء الصارخ لم يندفع ﷺ إلى العمل دون خطة أو منهج، بل حوّل الأمر إلى خطة عمل محددة الأهداف والوسائل الإجرائية، على ضوء تقديره لموقف البيئة المحيطة بالدعوة.

وخاصة أنّ القرآن أفاض في الحديث عن مجتمع مكة، ووصفها بأوصاف شتى، منها:

﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽²⁾، وهي قريش الذين كانوا يعيشون مع العرب المحيطين بهم في فراغ من الرسل، فقد ابتعد عنهم عهد الرسالات، وتحجرت العقلية الجاهلية الحاملة للشرك والوثنية في داخل شخصياتهم، مما جعلهم يعيشون بعيداً عن آفاق اليقظة في رحاب الرسالات.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتُرْنَا بِبِلْسَانِكَ لَتُنَبِّئَنَّهُ بِالْمُتَّقِينَ وَتُنذِرُهُ قَوْمًا لَّدَا﴾⁽³⁾. لتحذر قوماً درجوا على الجدل والنزاع والخصومة والإعراض عن الحق والمكابرة فيه.

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنَا هُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾⁽⁴⁾.

(1) المدثر: 1.

(2) يس: 6 - 7.

(3) مريم: 97.

(4) السجدة: 3.

فقد بعد عهدهم بالرسول، وأحاطت بهم الجهالة من كل جانب، وحفت بهم عناصر الضلالة، الأمر الذي جعل الكثير من العادات والتقاليد المنحرفة تتكرس في حياتهم، وتمارس دور الموجه لمواقفهم واتجاهاتهم.

وسنشرع الآن في رسم صورة لعالم منهج النبي ﷺ في مواجهة هذه المشكلة من خلال التركيز على ثلاث مشكلات أساسية:

- مشكلة البداية ومواجهتها.
- مشكلة تمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع كله ومواجهتها.
- مشكلة الاستيعاب التربوي لأتباعه ومواجهتها.

1 - مشكلة البداية ومواجهتها:

إن بداية الانطلاق في الدعوة مشكلة . ذلك لاعتبارات عديدة منها:

أ - طبيعة البيئة القبلية المعقدة القائمة على الصراع بين الأسر والزعامات، بحيث يصعب على الناس وخاصة أهل النفوذ والوجاهة، هضم أمر الانقياد لمن هو دونهم في المكانة الاجتماعية والسن، وهو ما نلاحظه بوضوح في بعض الاعتراضات التي صدرت عن زعماء قريش في ما بعد، وسجلها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾⁽¹⁾، بالرغم من مكانة النبي ﷺ في قومه، وما عرف عنه من سمو الخلق واستقامة السيرة قبل البعثة.. فالصدارة الاجتماعية من المنظور الجاهلي، ينبغي أن تكون لأهل الجاه والثراء، لا لغيرهم من ضعفاء الناس وصغارهم، وهو ما كان الرسول ﷺ على وعي به وبمخاطره.

ب- طبيعة الدعوة الإسلامية ذاتها، المناقضة بصفة جذرية لأصول ومرتكزات الفكر والحياة الجاهليين والعمل والعلاقات، حيث وصفهم الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِّنَ الْعَرَبِ

(1) الزخرف: 31.

يَقْرَأُ كِتَابًا»⁽¹⁾.

ويقول أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيحُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمِّ تَشْرُبُونَ الْكُدْرَ، وَتَأْكُلُونَ الْحَشَبَ وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَضْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»⁽²⁾.

كما يشكل رهاناً في غاية الخطورة، لأنه يحفز المجتمع ويهيئه لرد الفعل السلبي من الدعوة.

فالدعوة في الفترة في حاجة أكيدة إلى نماذج نوعية تكون أكثر قابلية للانضباط، والاستعداد للعطاء لبناء قاعدة الانطلاق الحقيقي بالمشروع الإسلامي.

وكان أول إجراء حكيم قام به النبي ﷺ في هذا السياق، لضمان بداية سليمة موفقة للدعوة، هو اعتماد أسلوب الاتصال الفردي الانتقائي، القائم على المعرفة الشخصية لقابليات الأفراد من جهة، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة والانخراط في موكبها من جهة أخرى، حتى لا يتسرب إليها من ليس في مستواها. وهو ما ابتدأه بأهل بيته وبمن يثق بهم.

وقد أحجم الرسول ﷺ في بداية الأمر عن ابتداء رؤساء قومه بالدعوة، خوفاً من إثارتهم على الدعوة، لمعرفة ﷺ بتقاليد البيئة وطباع أهل النفوذ فيها وقدرتهم على تزييف وعي الرأي العام.. فقد تمكن ﷺ من خلال هذه الخطوات الموفقة من فسح المجال للدعوة لكي تسري في أعماق المجتمع وتتمكن منه دون أن يلتفت قادته وأفراده إلى الآثار المستقبلية العميقة التي ستلحق به.

يقول علي عليه السلام في ذلك: «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ وَتَمَامِ نُبُوءَتِهِ، مَاخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ، مَشْهُورَةً بِسَائِهِ كَرِيماً مِيلَادُهُ».

(1) نهج البلاغة: الخطبة 104.

(2) نهج البلاغة: الخطبة 26.

وَأَهْلَ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ كَلِيلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتَّةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهِهِ لِهَيْبَتِهِ، أَوْ مُلْحَدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ»⁽¹⁾.

2- مشكلة تمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع كله ومواجهتها:

كان على الرسول ﷺ بعد أن تمكن من مواجهة مشكلة البداية أن يواجه مشكلة أخرى لا تقل عنها أهمية، بل هي جزء من عملية البداية السليمة الموفقة، ألا وهي مشكلة تمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع كله أو أغلبه، من الناحيتين المكانية والاجتماعية، حتى لا تنحصر في مكان محدود أو فئة اجتماعية معينة، لأن ذلك من شأنه أن يحجم الدعوة ويورطها في صراعات صراع القبائل إن كانت نواتها الأولى من قبيلة واحدة، أو يؤدي إلى صراع الطبقات إن كانت هذه النواة من فئة اجتماعية معينة، كفئة العبيد أو الشباب أو الفقراء.. خاصة وأن الدعوة الإسلامية كما رأينا سابقاً دعوة عالمية.

فالإسلام جاء ببدل جديد ينزع نحو الكونية، ليرتقي بالإنسان من حضيض القبلية والفكر القبلي، إلى قمم العقيدة والأمة، التي تلتقي فيها القبائل والشعوب والأجيال على صعيد واحد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾⁽²⁾.

فكان على الرسول أن ينسجم سيره مع توجهات الرسالة وطموحاتها الإنسانية من جهة، وأن يجنب الدعوة محاذير الانحسار والتمحور الجغرافي أو الفئوي من جهة أخرى.

وإذا ما استقرأنا من خلال ما تيسر لنا من معلومات غير وافية لرسم صورة عامة عن القضية، وذلك من خلال استعراض قائمة الرعيل الأول من المسلمين، ومحاولة فرزها على ضوء الأصول الجغرافية، والانتهايات الاجتماعية والجنس والسن. حتى نتبين مدى نجاح الدعوة في تجاوز مشكلة التمحور

(1) نهج البلاغة: الخطبة 1.

(2) الحجرات: 13.

المكاني والفئوي المحدودين، إلى مجتمع العقيدة والفكر المفتوح نلاحظ:

أ - التمثيل الجغرافي: أي مدى نجاح الدعوة في إيجاد موقع قدم لها في القبائل المختلفة، فنلاحظ من التحق بالإسلام في هذه الفترة: (هاشم 13 - مخزوم 7 - نيم 4 - عدي 8 - زهرة 6 - سلمة 1 - سهم 2 - جمح 5 - أسد 1 - عامر 2 - بطون وقبائل مختلفة 12).

ب- التمثيل الاجتماعي: أي تجاوز الدعوة في انتشارها دائرة التمحور في فئة معينة من فئات المجتمع، كالعييد أو الشباب أو غيرهم.. وهو ما يحاول بعض المستشرقين غمز الدعوة به باعتبارها -حسب زعمهم- دعوة مستضعفين، ويكفي استعراض أسماء هؤلاء ليتضح مباشرة مدى تنوع الوضع الاجتماعي لهم: (31 فرداً من وجهاء قريش وأبنائهم - 14 من مواليهم وحلفائهم - 12 امرأة موزعة على أكثر من سبعة بطون - 3 أفراد من قبائل أخرى).

استطاعت الدعوة أن تستوعب فئات مختلفة ومتعددة، وأن تكون رصيماً احتياطياً في غاية الأهمية بالنسبة للمراحل المقبلة. وهذا ما اعترف به أحد المستشرقين بقوله: «الإسلام كان في الأساس حركة شباب، إذ أنّ معظم الذين نعرف أعمارهم لم يتجاوزوا الأربعين.. ولم يكن الإسلام من جهة ثانية حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطوا رحالهم في مكة، ولم يستمد الإسلام قوته من رجال الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي، بل من أولئك الذين كانوا في الوسط»⁽¹⁾.

3- مشكلة الاستيعاب التربوي لأتباعه ومواجهتها:

لا شك أنّ الأمر لا يتوقف عند مجرد النجاح في ضمان بداية سليمة موفقة للعمل، وإحراز نتائج إيجابية على مستوى توغله في كافة نواحي المجتمع، وتأثيره في فئاته المختلفة، بل يتجاوز هذه العتبة إلى ما هو أهم وأخطر من مجرد البداية الموفقة، ليواجه صلب المشكلة، وهي تربية هذه الفئات المنضوية تحت لواء الدعوة وإعدادها بشكل جيد.

(1) محمد في مكة، منتغومري: ص 148 - 160.

إن أكثر ما تعاني منه الحركات الإسلامية من مشكلات وانقسامات، ومن تساقط للأفراد خلال السير والعمل، ومن بروز ظواهر مرضية في هذا الجانب أو ذاك، سببه الأساسي والأصيل عدم نجاحها في الاستيعاب التربوي، وإخفاقها في تكوين الشخصية الإسلامية، وإيجاد الفرد المسلم وفق المواصفات الإلهية.

ويتعاضم هذا الخطر في حالات؛ كالتي واجهتها الدعوة الإسلامية في مرحلتها التأسيسية الأولى خاصة، حيث كان عليها أن تستوعب أتباعها تربوياً دون إثارة المجتمع وتحفيزه ضدها.

فكيف واجه الرسول ﷺ هذه المشكلة الحساسة؟

وكيف تعامل مع مخزون الميراث الجاهلي الذي كان يجمله هؤلاء القادمون من أعماق المجتمع الجاهلي ليعبروا إلى المجتمع الإسلامي نوعاً آخر من البشر، في وعيه لذاته، ووعيه للعالم المحيط به، ووعيه لرسالته في الحياة..؟

وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلة ندرة المعلومات التي تكشف لنا عن التدابير العملية التي اعتمدها الرسول ﷺ لضمان متابعتة لأتباعه..

- كيف كان ﷺ يلتقي أصحابه؟

- وكيف كان يبلغهم ما يأتيه من الوحي؟

- كيف كان يتابع إعادة صياغة نفوسهم وبناء وعيهم بذواتهم وواقعهم ورسالتهم الجديدة في الحياة؟

كل هذا لا نملك عنه معلومات دقيقة، ومع ذلك فإنه من غير المعقول أو المقبول أن تصل الدعوة إلى ما وصلت إليه من صياغة جديدة لحياة الرعيل الأول من أبنائها دون جهد كبير، وعمل منهجي مدروس، قائم على المتابعة والتوجيه المستمرين، ذلك لأن العجينة البشرية عجينة عصية تحتاج إلى متابعة دائمة، وليس يكفي أن تضعها في قالبها المضبوط مرة فتنضبط إلى الأبد وتستقر! بل هناك عشرات من الدوافع المواراة في تلك النفس، دائمة البروز هنا وهناك، ودائمة التخطي لحدود القلب

المضبوط من هنا وهناك، ولا بد في كل مرة من التوجيه لإعادة ضبطها داخل القلب.

وبالعودة إلى أهداف الدعوة في الفترة المكية عموماً، وتأمل بواكير ما نزل من الوحي، يتضح لنا أنّ محاولة الاستيعاب التربوي لنواة القاعدة الجهادية الأولى، تدور بشكل أساسي على ثلاثة أبعاد:

1- البعد المعرفي: الذي يستهدف شحذ الفعالية الفكرية للفرد المسلم، وتحريره من قيود الخرافة والجمود والرتابة، وتزويده برؤية منهجية قائمة على البرهان والدليل والحجة، بعيداً عن التقليد والهوى والظنون. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾⁽¹⁾. وخلاصة الفكرة أنّ الدعوة الإسلامية تريد للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أن تتحرك على أساس العلم، الذي يستمد وسائله من حركة الحواس وحركة العقل في مجال المعرفة، في واقع الفرد والمجتمع، وفي واقع الحياة العامة والخاصة.

2- البعد الروحي: الذي يستهدف شحذ الفعالية الروحية للفرد المسلم، بربط صلته بالله وحده ربطاً محكماً، ونزع الوثنية الجاثمة على عقولهم وفي أذهانهم، كما دلّ على ذلك أول ما نزل من الوحي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾⁽²⁾. وهو أول ما جاء من قواعد الإسلام وقد افتتح الله به أول الوحي.

3- البعد السلوكي: الذي يستهدف تقويم سلوك الإنسان، وضبط تصرفاته ومواقفه، بما ينسجم مع مضمون الرسالة التي يحملها، والدور الذي قدر له أن يؤديه في واقع الحياة الإنسانية.

فالدعوة هنا ركزت على إخراج الإنسان المسلم من أخلاق القبيلة إلى أخلاق العقيدة والأمة، وما يستلزمه من طهارة الظاهر والباطن، والتحقق بصفات الكمال الإنساني، كما يؤكد ذلك في قوله: ﴿وَيَبِّبْكَ فَطَهَّرْ ۖ وَالرُّجْزَ

(1) الإسراء: 36.

(2) العلق: 1.

فَاهْجُرْ ❁ وَلَا تَمْتُنْ تَسْتَكْبِرُ ❁ وَلِرَبِّكَ فَاضِرٌ ﴿١﴾ .. وهي دعوة إلى التسامي نحو مقامات السلوك الحضاري الرفيع في شكله ومضمونه، وهجر أخلاق الجاهلية وعوائدها، والارتفاع إلى مستوى المسؤولية الرسالية في أداء الواجب، بما يتطلبه من احتساب وصبر وحلم وعفو وإحسان، ودأب على الجِد في تبليغ الدعوة، والعمل على تجسيد أطروحتها في نموذج اجتماعي متميز.

فما هي المحاضن الأولى للدعوة والتي ساعدت في عملية الاستيعاب التربوي:

1- بيت رسول الله ﷺ الذي كان مدرسة يتلقى فيها الناس حقيقة الإسلام.. ففي هذا البيت آمنت خديجة وآمن علي وزيد وكثير من الصحابة.

لقد لقي عمار بن ياسر صهيب الرومي أمام بيت رسول الله فسأله أين تريد؟

فقال صهيب: أريد أن أدخل إلى بيت محمد فأسمع كلامه، وما يدعو إليه.

فاتفقا على الدخول معاً، فلما جلسا بين يديه عرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما القرآن، فأسلما، ثم مكثا عنده يومها ذلك، حتى إذا أمسيا خرجا مستخفيين⁽²⁾.

وجاء في إسلام أبي ذر أنه انطلق وراء علي عليه السلام يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه⁽³⁾.

فجلساته ﷺ كانت لا تخلو من:

- قراءة القرآن ودارسته.

- إنباء الحاضرين بحق الإسلام عليهم في أموالهم وأنفسهم وأوقاتهم.

(1) المدثر: 4 - 7.

(2) الاستيعاب: ج 2 ص 283.

(3) صحيح البخاري: ج 3 ص 1401 ح 3648، وصحيح مسلم: ج 4 ص 1924 ح 2474.

- تحسيسهم ببعض ما أعد الله من الكرامة والفضل لهم.

- تزويدهم بالوعي الحركي اللازم كما يتضح ذلك في تصرفه مع عمار وصهيب اللذين مكثا عنده يوماً كاملاً ولم يخرجوا إلا ليلاً، وكما فعل مع أبي ذر.

2- بيوت بعض الصحابة: فكان لا بد لهم من متابعة تدارس القرآن، وبناء وعيهم الرسالي، ومواكبة سير الدعوة، وقيام الليل الذي افترضه الله على المؤمنين الأوائل قبل أن يأتي التخفيف.

3- شعاب مكة: حيث كان الصحابة إذا أرادوا الصلاة يذهبون إلى الشعاب مستخفين من قومهم، وكذلك كان يفعل رسول الله الذي غالباً ما يرافقه علي عليه السلام، ولا شك أن اللقاءات المتكررة تكون قد جمعتهم عليه السلام ببعض أصحابه ليأخذوا منه بعض التوجيهات اللازمة التي تعزز وعيهم، وتدعم إقبالهم على الله، وارتباطهم بدينه، وانفصالهم عن موارث الجاهلية.

لا شك أن اللقاء الدائم هو الذي يحقق الرابط بين أفراد الجماعة، ويوفر لهم جو الأخذ والعطاء، وينمي ثقتهم بأنفسهم، ويشحذ عزائمهم، ويمدهم بطاقة الثبات الصمود.

سؤال: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁽¹⁾ فكيف نفهم معطيات التغيير على ضوء هذه الآية الكريمة؟

جواب: لكي نفهم معطيات هذه الآية الكريمة نطرح عدة تساؤلات:

أولاً: من أين يبدأ التغيير؟

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. فهذه الآية حوت أموراً مهمة في منهج التغيير لأي مجتمع.. وبوقفة متأنية

(1) الرعد: 11.

معها نلاحظ ما يلي:

1- سنة التغيير المشار إليها في الآية - كشأن السنن الاجتماعية جميعها - سنة عامة تسري على كل المجتمعات مسلمها وكافرها ولفظ ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ الوارد في الآية يفيد ذلك.

2- في الآية تغيران: تغير الله وتغير القوم؛ فتغير الله هو تغير ما بالقوم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، وتغير القوم هو تغير ما بأنفسهم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. والتغير الذي ينبغي أن يحدث أولاً هو التغير الذي جعله الله مهمة القوم وواجبهم بإقدار الله لهم على ذلك، وإن حدث أي تهاون في الخلط بين التغيرين وإدخال التغير الذي يُحدثه الله بالتغير الذي يقوم به القوم أو العكس يُفقد الآية فعاليتها وتضيع فائدة السنة الموجودة فيها.

والرجاء بأن يحدث الله التغير الذي يخصه قبل أن يقوم القوم (المجتمع) بالتغير الذي خصه الله به يكون - هذا النظر - مخالفاً لنص الآية وبالتالي إبطاءً لمكانة الإنسان وأمانته ومسئولته، ولما منحه الله من مقام الخلافة على أرضه، لأن هذا التحديد في مجالات التغير وهذا الترتيب فيما ينبغي أن يحصل أولاً وما يحدث تالياً هو الذي يضع البشر أمام مسؤولية حوادث التاريخ.

3- مجال التغير الأول - تغير الله - هو ما بالقوم ويشمل كل ما يتعلق بالقوم من قوة وضعف، ونجاح وفشل، وعز وذلة، وتطور وتخلف، وهداية وغواية ونحوه.

4- مجال التغير الثاني - تغير القوم - هو ما بالنفس ويشمل الأفكار والتصورات: كيف نرى ونفهم ونفسر الأشياء؟ كيف نربط بينها؟ كيف نجتمع الأجزاء لنصل إلى الصورة الكبيرة؟.. إن مجال التغير الثاني هو القيم والمبادئ والأفكار، لا صدى القيم والأساليب والتقنيات. فكثير من الناس يخطئون حين يجعلون مجال ما يريدون تغييره - هو الأساليب والتقنيات ونظرة الناس والمجتمع لهم (صدى القيم) دون أن يركزوا على حقيقة ما يحتاج للتغيير عندهم من تصورات وقيم.

إنّ الذي يريد أن يغير صورته الاجتماعية - نظرة المجتمع له - دون أن يغير حقيقة نفسه ليس أفضل حالاً ممن نظر إلى صورة وجهه في المرآة فوجده متسخاً فعمل على إزالة الأوساخ من المرآة وليس من وجهه.

إنّ الحقيقة الواضحة التي ذكرتها الآية من أنّ تغيير الواقع يبدأ بتغيير ما بالنفس من تصورات لاهية عابثة، لا تولد عملاً، إلى مبادئ متحركة فاعلة، ثمر عملاً يحدث تغييراً هي الحقيقة التي أيدها تاريخ المسلمين عبر العصور، إذ لا يعرف التاريخ عصراً امتلات فيه نفوس المسلمين بحب الله ورسوله، وعاشوا القرآن واقعاً ملموساً إلا وأحدث الله تغييره في الواقع من حولهم إلى واقع عزة وقوة ونماء وازدهار.

إنّما السنّة الكونية والقانون الأزلي في هذه الحياة الذي كتبه الله على الناس، فأى تحول في ظاهر الشخصية يسبقه تحول داخلي في أعماق النفس، وكى نصل إلى تغيير تصرفاتنا وسلوكياتنا وطريقتنا في التعامل مع الحياة لا بدّ أن نصنع تحولات جذرية في أعماقنا وقد قيل: «إنّ أضخم معارك الحياة تلك التي تدور في أعماق النفس». ألم يقل الرسول الأكرم ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر وبقي علينا الجهاد الأكبر».

ثانياً: متى نمتلك التغيير في حياتنا ؟

نمتلكه إذا توفرت في أنفسنا المحركات التالية: الرغبة + المعرفة + الممارسة + الاستمرارية = تحول وتغيير.

- الرغبة: تعني إرادة الفعل وهي ضرورية، وبغيرها لن نستطيع حمل أنفسنا على إحداث تغيير ما، لأنّها الحافز والروح المحركة لأنفسنا.

- المعرفة: تعني (ماذا أفعل؟ ولماذا؟) وهي ترشدنا إلى ما ينبغي عمله لنصل إلى كيفية إحداث التغيير الذي نريده.

- الممارسة: هي القيام بالفعل وتنفيذه. فكثير منا يعرف ماذا عليه أن يفعل، غير أنّ القليلين هم الذين يحققون ما يعرفون ويضعونه موضع التنفيذ. فالمعرفة ليست كل شيء، بل لا بد من تحويلها إلى واقع فعلي نمارسه في حياتنا.

- الاستمرارية: تعني أن تكون التحولات دائمة ومستمرة، فالتغيير الذي نحدثه للحظات أو أيام ثم ما نلبث أن نشعر بالخذلان والإحباط، فنترك ما بدأناه لا يسمى تغييراً ولن تتحول به حياتنا نحو الأفضل.

ثالثاً: هل صناعة التغيير سهلة؟؟

يرى المختصون أنّ صناعة التغيير ليست بالأمر السهل في بدايتها لكن ما إن نضع أمام أعيننا الأمور السابقة الذكر إلا ويسهل القيام بها بمشيئة الله تعالى.

ولكن هناك ما يسمى (مقاومة التغيير) وهو أمر سيرز بمجرد أن نقرر إحداث تغيير ما في حياتنا ومرد هذه المقاومة عدة حواجز لو استطعنا مواجهتها وتخطيها لوجدنا حجم الانطلاقة اللامحدودة في أي جانب نريده من جوانب حياتنا ومن هذه الحواجز:

1- القناعات السلبية: من أقوى الحواجز التي تقف في طريق تغيير القناعات السلبية التي نحملها في داخلنا، والتي تأخذ صورة التأكيد واليقين بعدم الإمكانية من إحداث أي تقدم أو تغيير فينا، أو فيمن حولنا كأن نقول: لماذا نحاول ما دمنا لن نواصل أو نستمر؟ أو نقول: نحن آخر من يتغير!!

كثير منا يسلم بمثل هذا الكلام ويؤمن به. وما نؤمن به حول أنفسنا وقدراتها يشكل إما قوة دافعة إلى الأمام أو أغلالاً تشدنا إلى الخلف.. وقد قيل: «خلف كل ما نفكر فيه، يكمن كل ما نؤمن به».

فإن كان ما نؤمن به عن أنفسنا سلبياً فلن نتقدم خطوة في صناعة التغيير؛ لأنّ ظلال الشك وعدم الثقة ستكتنف أفعالنا مما يورث العجز وعدم القدرة على التقدم والتحول.

وإذا أردنا أن نملك صناعة التحولات فعلينا إلغاء هذه القناعات السلبية عن أنفسنا بل عمن حولنا أيضاً، واستبدالها بقناعات إيجابية تمنحنا القوة والثقة بعد الاستعانة بالله عز وجل.

2- الإسقاطات: إنّ إسقاط كل عجز فينا على من حولنا من الناس

والظروف أحد الحواجز التي تعترض قابليتنا للتغيير. فلغة الإسقاط
موجودة في عالم التغيير وصناعته، وأثر الآخرين علينا سواء كان سلبياً أو
إيجابياً لا يلغي مسؤوليتنا في تشكيل التغيير الذي نريده لأنفسنا، والذي لن
يتم في ليلة وضحاها، بل لا بد من المرور بمراحل من النضج الداخلي
الذي يمكننا من التعامل مع المؤثرات الخارجية بوعي واختيار.

وها هو الرسول ﷺ يقول لعمه عندما طلب منه الرضوخ لمطالب
المشركين: « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أَدع
هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » إنه الاختيار في أعلى صورته.

3- جذب الماضي: هناك تشبث منا بأفعال وممارسات قد اعتدنا عليها
في حياتنا اليومية تسمى عادات. وبعض هذه العادات يصعب تغييرها،
وقد يخشى كثير من الناس استبدالها بعادات أخرى جديدة لذا نجدهم
يرفضون تغييرها لا سيما إذا كانت راسخة منذ زمن بعيد. فالعادات
القديمة لا تتكيف بسهولة مع التغييرات الجديدة، ولإحداث التكيف
نحتاج إلى طاقة وإرادة كبيرة في التغلب على قوى الممانعة في تغيير كثير من
عاداتنا في الطعام والنوم والتسويق والتعامل مع الآخرين.

ولعل التعامل بنجاح مع تحديات العادات السلوكية أو حتى
الشعورية منها يطلق طاقات غير محدودة داخلنا ترفعنا إلى مستويات أعلى
من القدرة على التحكم في إطار التفكير القديم، وهو الذي يغذي
استمرارية تلك العادات واستبدالها بإطار تفكير سليم يضمن للجديد
القبول وقد قيل: « لا يمكن حل المشكلات بنفس الطريقة التي أوجدتها ».

ثم قطع العلائق بالقدرة على الوفاء بالوعود واحترام الالتزامات الجديدة
مع النفس بصرف النظر عن المشاعر والميول التي تدعو إلى غير ذلك، ويلعب
الانتصار اليومي دوره في التدرج والتحرر من رق العادة السلبية التي لا نريدها.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: « أحب الأعمال إلى الله عز وجل ما داوم
عليه العبد وإن قل »⁽¹⁾، وقد قيل: الأمور العظيمة تتحقق بوسائل بسيطة.

(1) بحار الأنوار: ج 71 ص 214.

رابعاً: أسرار صناعة التغيير الذاتي:

- 1- التخطيط للتغيير: يعني كتابة الهدف الواضح وما يترتب عليه من التزامات تظل أمام أعيننا باستمرار.
- 2- الوعي الداخلي: يعني إدراك الدوافع التي تقف وراء السلوكيات والأفعال التي تعيق تقدمنا نحو الهدف.
- 3- التكثيف الحسي لما نريد: بتشكيل صورة حسية جذابة ترمز للهدف وتذكرنا به دائماً سواء في مخيلتنا أو من حولنا.
- 4- إرشاد الضمير: من خلال فهم الصواب والخطأ في كل خطوة تقودنا نحو التغيير، فالغاية لا تبرر الوسيلة.
- 5- الإرادة المستقلة: تكون بشحن العزيمة ورفع مستوى الإرادة والقدرة على الفعل لتأخذ زمام المبادرة الحقيقية للتحرك للأمام.
- 6- التوفيق الإلهي: طلب التوفيق من الله واليسير لما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة.

سؤال: ألا تعتقدون -شيخنا- أن مسألة الإجماع -التي تعتبر مصدراً من مصادر التشريع في الإسلام- سلاح مخيف للكثير من العلماء الذين ربما توصلوا لقراءة جديدة لنص من النصوص والذي قد يؤدي إلى مخالفة الكثير من جهابذة العلم ممن ساروا على ذلك الإجماع؟

جواب: الإجماع من البحوث المهمة في علم أصول الفقه، استأثر بعناية خاصة من أعلام هذا الفن، ونال من الحظوة ما لم يظفر بمثله كثير من البحوث الأصولية التي ربما تكون أغزر مادة وأكثر فائدة. ولنا أن نتساءل: ما هو الدافع لأهمية هذا الموضوع وخصوصيته؟

ربما كان الدافع أمرين:

الأول: تعلق أمر الخلافة - عند السنة - بموضوع الإجماع.

الثاني: اتهام الشيعة بالابتعاد عن الإجماع، يقول الأمدي: «اتفق أكثر المسلمين على أن الإجماع حجة يجب العمل به خلافاً للشيعة والخوارج

والنظام»⁽¹⁾. فالشيعة إذن موضع اتهام في كل ما يعود للإجماع، شأنها عندهم شأن الخوارج.

ولهذا لو رجعنا إلى تاريخ حدوث الإجماع لوجدنا أنها أثرت بعد خلافة أبي بكر، ولهذا يقول الشيخ المظفر: «إذن كيف اتخذ الأصوليون إجماع المسلمين بالخصوص حجة وما الدليل لهم على ذلك؟ وللجواب عن هذا السؤال علينا أن نرجع القهقري إلى أول إجماع اتخذ دليلاً في تاريخ المسلمين إنّه الإجماع المدعى على بيعة أبي بكر خليفة للمسلمين، فإنّه إذ وقعت البيعة له، والمفروض أنّه لا سند لها من طريق النص القرآني والسنة النبوية، اضطروا إلى تصحيح شرعيتها من طريق الإجماع.. فقالوا:

أولاً: إنّ المسلمين من أهل المدينة أو أهل الحل والعقد منهم أجمعوا على بيعته.

وثانياً: إنّ الإمامة من الفروع لا من الأصول.

وثالثاً: إنّ الإجماع حجة في مقابل الكتاب والسنة، أي إنّه دليل ثالث غير الكتاب والسنة»⁽²⁾.

وأنت عندما تريد أن تقف على معنى الإجماع عند علمائنا الإمامية تجدهم يعرفونه: «الاتفاق الكاشف عن رأي المعصوم»، بمعنى اتفاق جميع علماء الأمة، أو علماء الإمامية، والذين منهم إمام العصر عليه السلام، إما مطلقاً أو في عصر، على أمر ما، وهذا هو المراد من الإجماع عند أكثر قدماء علمائنا ونذكر منهم:

1 - الشيخ المفيد:

قال في تذكرة الأصول: «وليس في إجماع الأمة حجة من حيث كان إجماعاً، ولكن من حيث كان فيها الإمام المعصوم. فإذا ثبت أنها كلها على قول، فلا شبهة في أنّ ذلك القول هو قول المعصوم، إذ لو لم يكن كذلك

(1) منتهى السؤال: ص 50.

(2) أصول الفقه: ج 2 ص 87.

كان الخبر عنها بأنها مجمعة باطل»⁽¹⁾.

وقال أيضاً: «إجماع الأمة حجة، لتضمنه قول الحجة»⁽²⁾.

2 - السيد المرتضى:

قال في جواب المسائل التبتانيات - بعد ذكر كلام طويل -: «فإذا كانت أقوال العلماء في كل مذهب مضبوطة، والإمام لا يكون إلا سيد العلماء وأوحدهم، فلا بد من دخوله في جملتهم»⁽³⁾.

وقال: «قولنا: الإجماع: أما يكون واقعاً على الأمة، أو على المؤمنين، أو على العلماء، فيما يراعى فيه إجماعهم، وعلى كل الأقسام لا بد أن يكون قول الإمام المعصوم داخلاً فيه، لأنه من الأمة، ومن أجل المؤمنين، وأفضل العلماء»⁽⁴⁾.

وقال في المسائل الرسية: «فإذا قيل لنا: فلعل الإمام - لأنكم لا تعرفونه بعينه - يخالف علماء الإمامية فيما اتفقوا عليه. قلنا: لو خالفهم لما علمنا ضرورة اتفاق علماء الإمامية الذين هو واحد منهم على هذه المذاهب المخصوصة، وهل الإمام إلا أحد علماء الإمامية؟»⁽⁵⁾.

وقال في المسائل الموصلية الثالثة: «وهنا طريق آخر يوصل به إلى العلم بالحق والصحيح في أحكام الشريعة عند فقد ظهور الإمام وتميز شخصه، وهو إجماع الفرقة المحقة، إذ قول الإمام - وإن كان غير متميز الشخص - داخل في أقوالها غير خارج عنها، فإذا اجتمعوا على مذهب من المذاهب، علمنا أنه هو الحق الواضح والحجة القاطعة، لأن قول الإمام، الذي هو الحجة، في جملة أقوالها، وكان الإمام قائله»⁽⁶⁾.

(1) التذكرة بأصول الفقه: ص 45.

(2) أوائل المقالات: ص 121.

(3) رسائل الشريف المرتضى: ج 1 ص 15، وكشف القناع: ص 97 - 98.

(4) الذريعة إلى أصول الشريعة: ج 2 ص 605، وكشف القناع: ص 97 - 98.

(5) رسائل الشريف المرتضى: ج 2 ص 368، وكشف القناع: ص 105.

(6) رسائل الشريف المرتضى: ج 1 ص 205.

وقال في المسائل التبتانيات: «إذا كان الإمام أحد العلماء بل سيدهم، فقولته في جملة أقوال العلماء، فإذا علمنا في قول من الأقوال انه مذهب لكل عالم من الإمامية، فلا بد من أن يكون الإمام داخلاً في هذه الجملة، كما لا بد من أن يكون كل عالم إمامي - وإن لم يكن إماماً - داخلاً في الجملة»⁽¹⁾.

3 - السيد الشريف الرسي:

وهو صاحب المسائل الرسية التي سأها للسيد المرتضى، قال فيها سأله من السيد: «إذا كان طريق معظم الأحكام الشرعية إجماع علماء الفرقة المحقة، لكون الإمام المعصوم الذي لا يجوز عليه الخطأ واحداً من علمائهم..»⁽²⁾.

4 - الشيخ الطوسي:

قال: «فمتى اجتمعت الأمة على قول، فلا بد من كونه حجة لدخول الإمام المعصوم في جملتها. ومتى قيل: جاز أن يكون قول الإمام منفرداً عن إجماعهم. قلنا: متى فرضنا انفراد الإمام عن الإجماع، فإن ذلك لا يكون إجماعاً»⁽³⁾.

وقال: «فإن قيل: إذا كان الإجماع عندهم إنما يكون حجة لكون المعصوم فيه، فمن أين تعلمون أن قوله داخل في جملة أقوال الأمة؟ وبهذا جاز أن يكون قوله منفرداً عنهم، فلا تثقون بالإجماع. قلنا: المعصوم إذا كان من جملة علماء الأمة، فلا بد من أن يكون قوله موجوداً في جملة أقوال العلماء. - إلى أن قال -: فإذا اعتبرنا أقوال الأمة، ووجدنا بعض العلماء يخالف فيه، فإن كنا نعرفه ونعرف مولده ومنشأه، لم نعتد بقوله، لعلمنا بأنه ليس بإمام، وإن شككنا في نسبه، لم تكن المسألة إجماعاً»⁽⁴⁾.

(1) رسائل الشريف المرتضى: ج 1 ص 18، وكشف القناع: ص 97.

(2) رسائل الشريف المرتضى: ج 2 ص 366، وكشف القناع: ص 104.

(3) عدة الأصول: ج 2 ص 232، وكشف القناع: ص 93.

(4) الغيبة: ص 20 - 21.

5 - السيد ابن زهرة الحلبي:

قال في الغنية: «فإن قيل: كيف يمكنكم القطع على أن قول الإمام الغائب في جملة أقوال الإمامية مع عدم تميزه وعدم معرفته مع استتاره وغيبته؟ قلنا: قد بينا فيما مضى أن إمام الزمان عندنا موجود العين فينا، وبين أظهرنا، نلقاه ويلقانا، وإن كنا لا نعرفه بعينه ولا نميزه عن غيره، ومعنى قولنا إنه غائب: أنه مجهول العين، غير متميز الشخص، ولا نريد بذكر الغيبة أنه بحيث لا يرى شخصه ولا يسمع كلامه، وما منزلته عندنا في حالة الغيبة إلا منزلة كل من لا نعرفه بنسبه من جملة الإمامية. وإذا كنا نعرف إجماع المسلمين على المذهب الواحد ونقطع عليه، وأكثرهم لا نعرفه ولا نلقاه ولا نشاهده»⁽¹⁾.

6 - الشيخ سديد الدين محمود الحمصي:

قال في التعليق العراقي: «إن الحجة هو الإجماع المشتمل على قول المعصوم في الجملة من غير احتياج إلى العلم بتعيينه... - إلى أن قال -: الاستدلال بالإجماع لا يصح إلا إذا عُلم قطعاً إجماع جميع علماء الإمامية على الحكم من غير استثناء أحد منهم، إلا من كان معلوم النسب وكان غير الإمام، فلا يضر خروجه»⁽²⁾.

7 - الشيخ محمد بن إدريس الحلبي:

قال: «وجه كون الإجماع حجة عندنا، دخول قول المعصوم عن الخطأ في الحكم بين القائلين بذلك، فإذا علمنا في جماعة قائلين بقول، أن المعصوم ليس هو في جملتهم، لانقطع على صحة قولهم إلا بدليل غير قولهم. وإذا تعين المخالف من أصحابنا باسمه ونسبه، لم يؤثر خلافه في دلالة الإجماع - إلى أن قال -: وبما ذكرناه يستدل المحصل من أصحابنا على المسألة بالإجماع، وإن كان فيها خلاف من بعض أصحابنا المعروفين بالأسامي والأنساب»⁽³⁾.

(1) الغنية (ضمن الجوامع الفقهية): ص 478، وكشف القناع: ص 91

(2) كشاف القناع: ص 93 - 94.

(3) السرائر: ج 2 ص 529، وكشف القناع: ص 94.

8 - الشيخ أبو الصلاح الحلبي:

قال: «إجماع العلماء من الإمامية يقتضي دخول الحجة المعصوم في جملتهم، لكونه واحداً منهم دون من عداهم»⁽¹⁾.

وقال: «وليس لأحد أن يقول: استدلالكم هذا مبني على الإجماع وأنتم لا تجعلونه حجة، لأننا بحمد الله لا نخالف في كون الإجماع حجة، وإثما نمنع من خالفنا من إثبات حجيته من الطرق التي يدعيها، والخلاف في ذلك المذهب لا يقتضي إنكاره، فكيف يظن بنا ذلك مع العلم بإثباتنا في كل عصر من جملة الفرق الإسلامية... - إلى أن قال -: فإن اعتبارنا دخول المعصوم في الإجماع كاعتبارهم دخول كل عالم في كل إجماع»⁽²⁾.

9 - الشيخ قطب الدين الراوندي:

قال: «في إجماع هذه الطائفة حجة قاطعة ودلالة موجبة للعلم بكون المعصوم الذي لا يجوز عليه الخطأ فيه»⁽³⁾.

وقال: «إثما قلنا أن إجماعهم حجة، لأن في إجماعهم قول الإمام»⁽⁴⁾.

10 - الشهيد الأول:

قال: «وجدوا - أي الإجماع - لا مع تعيين المعصوم، فإنه يعلم به دخوله. والطريق إلى معرفة دخوله: أن يعلم إطباق الإمامية على مسألة معينة»⁽⁵⁾.

إلى غير ذلك من كلمات العلماء..

ويستفاد من هذا كله: أن الإجماع - بما هو إجماع - لا عبرة به ولا

(1) الكافي في الفقه: ص 507.

(2) تقريب المعارف: ص 118.

(3) فقه القرآن: ج 1 ص 4.

(4) فقه القرآن: ج 2 ص 93.

(5) ذكرى الشيعة: ج 1 ص 49، زكشاف القناع: ص 95.

مشروعية له في الرأي الإمامي، إذ الحجة ليست قائمة فيه، وإتبا هي في رأي المعصوم الذي كشف عنه الإجماع.

ولهذا يقول المحقق الحلي في المعتبر: «وأما الإجماع فعندنا هو حجة بانضمام رأي المعصوم، فلو خلا المائة من فقهاءنا عن قوله عليه السلام لما كان حجة، ولو حصل في اثنين لكان قولهما حجة لا باعتبار اتفاقهما، بل باعتبار قوله عليه السلام. فلا تغتر إذن بمن يتحكم فيدعي الإجماع باتفاق الخمسة أو العشرة من الأصحاب مع جهالة قول الباقيين، إلا مع العلم القطعي بدخول الإمام في الجملة»⁽¹⁾.

إذن الإجماع ليس بدليل مستقل، وإتبا هو وسيلة كاشفة عن قول المعصوم عندما يعلم للإجماع مدرك أو مستند.

فإذا كان الأمر هكذا عند الإمامية فكيف أدرجوه في عداد الأدلة الفقهية، أي في عداد مصادر التشريع الإسلامي، بما يوهم أنه دليل مستقل!!

ولكشف هذه المفارقة لا بد من استعراض تاريخ نشوء الإجماع في الوسط العلمي الإسلامي، ومن ثم تطوره في مجال الدرس الأصولي، وهذا بشأنه مما يلقي الضوء المساعد على كشف المفارقة.

ولعل أقدم نص إسلامي يعرب عن زمان ومناسبة انبثاق الإجماع عند المسلمين واتخاذ دليلاً شرعياً هو ما جاء في رسالة الإمام الصادق عليه السلام إلى الشيعة المروية في شأن السقيفة والخلافة:

«وَقَدْ عَاهَدَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالُوا: نَحْنُ بَعْدَ مَا قَبِضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ يَسَعُنَا أَنْ نَأْخُذَ بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُ النَّاسِ بَعْدَ مَا قَبِضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْدَ عَهْدِهِ الَّذِي عَاهَدَهُ إِلَيْنَا وَأَمَرَنَا بِهِ، مُخَالِفًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَمَا أَحَدٌ أَجْرَأَ عَلَى اللَّهِ وَلَا أَيْبَنَ ضَلَالَةً مِنْ، أَخَذَ بِذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَسَعُهُ»⁽²⁾.

(1) معالم الأصول: ص 405، وكشف القناع: ص 96.

(2) الكافي: ج 8 ص 7.

فالإمام عليه السلام يشير بهذا الإجماع الذي ادعي لتصحيح خلافة أبي بكر، ذلك أنه بعد أن بويغ أبو بكر بالخلافة، ولا سند عند الصحابة الذين دعوا إلى بيعته يدعم هذه البيعة من ناحية شرعية حيث لا نص في القرآن الكريم ولا نص في السنة الشريفة يثبت صحة هذه البيعة، اضطروا بغية إضفاء الشرعية عليها إلى ادعاء الإجماع عليها.

ولترسيخ الإجماع دليلاً وحجة لكي تبقى البيعة المشار إليها قائمة على سند شرعي، أدخلوه في حيز الدراسات الأصولية والتمسوا الأدلة لإثبات حجيته، وجعلوه من مصادر التشريع، فقالوا: هي الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

ولذا يقول الشيخ المظفر: «أما الإمامية فقد جعلوه أيضاً أحد الأدلة على الحكم الشرعي ولكن من ناحية شكلية واسمية فقط مجازة للنهج الدراسي في أصول الفقه عند السنيين أي إنهم لا يعتبرونه دليلاً مستقلاً في مقابل الكتاب والسنة بل إننا يعتبرونه إذا كان كاشفاً عن السنة أي عن قول المعصوم فالحجبة والعصمة ليستا للإجماع بل الحجة في الحقيقة هو قول المعصوم الذي يكشف عنه الإجماع عند ما تكون له أهلية هذا الكشف»⁽¹⁾.

فأرى الأئمة عليه السلام نعرفه من كلماتهم وهي على قسمين:

- 1- قسم يُعرّف الإجماع العام من حيث هو إجماع الأمة.
- 2- وقسم يُعرّف الإجماع من حيث هو إجماع المجتهدين المائلين في كل عصر، وهو ما يكون موضع حاجة للمجتهدين والمكلفين في كل وقت.

فمن القسم الأول المحاورة التي جرت بين الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وبين هارون الرشيد، حيث قال له الرشيد في آخر مجلسه: بحق آبائك لما اختصرت كلمات جامعة لما تجاريناها.

فقال عليه السلام: نعم.

وأتي بدواة وقرطاس فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم جميع أمور الأديان أربعة: أمر لا اختلاف فيه، وهو إجماع الأمة على الضرورة التي

(1) أصول الفقه: ج 2 ص 87.

يضطرون إليها، والأخبار المجمع عليها، وهي الغاية المعروض عليها كل شبهة، والمستنبط منها كل حادثة وهو إجماع الأمة...»⁽¹⁾.

ومن هذا القسم الأول كلمة الإمام الهادي عليه السلام في وصف الإجماع العام الحاصل من الأمة، وهي من جملة رسالة بليغة أرسلها إلى بعض أشياعه وأتباعه، نقل منها قوله:

«اعلموا رحمكم الله أننا نظرنا في الآثار وكثرة ما جاءت به الأخبار فوجدناها عند جميع من ينتحل الإسلام ممن يعقل عن الله جل وعز لا تخلو من معنيين: إما حق فيتبع، وإما باطل فيجتنب.

وقد اجتمعت الأمة قاطبة لا اختلاف بينهم أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مقرون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيبون مهتدون، وذلك بقول رسول الله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»⁽²⁾ فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلها حق، هذا إذا لم يخالف بعضها بعضاً، والقرآن حق لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه، وأنكر الخبر طائفة من الأمة لزمهم الإقرار به ضرورة حين اجتمعت في الأصل على تصديق الكتاب، فإن هي جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملة.

فأول خبر يعرف تحقيقه من الكتاب وتصديقه والتماس شهادته عليه خبر ورد عن رسول الله ﷺ ووجد بموافقة الكتاب وتصديقه، بحيث لا تخالفه أقاويلهم، حيث قال عليه السلام: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن تضلوا ما تمسكتم بهما، وأنها لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»⁽³⁾، فلما وجدنا

(1) تحف العقول: ص 407.

(2) رويت في كتب السنة هكذا: «لن يجمع الله أمتي على ضلالة أبداً» أو قريب منها؛ المستدرک علی الصحیحین: ج 1 ص 200، وسنن الترمذی: ج 4 ص 466 ح 2167، ومجمع الزوائد: ج 1 ص 177 و ج 5 ص 218.

(3) ورد قريباً من هذا اللفظ؛ المستدرک علی الصحیحین: ج 3 ص 118 ح 4576 ح 4576، وسنن الدارمی: ج 2 ص 524 ح 3316، ومجمع الزوائد: ج 9 ص 163، وسنن البيهقي: ج 7 ص 30 ح 13017، وسنن النسائي: ج 5 ص 45 ح 8148، والمعجم الأوسط: ج 3 ص 374 ح 3439، ومسنن الإمام أحمد: ج 3 ص 14 ح 11119.

شواهد هذا الحديث في كتاب الله نصاً مثل قوله جل وعز: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾⁽¹⁾.

وروت العامة في ذلك أخباراً لأمر المؤمنين ﷺ أنه تصدق بخاتمه وهو راع فشكر الله ذلك له وأنزل الآية فيه فوجدنا رسول الله ﷺ قد أتى بقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه»⁽²⁾، وبقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»⁽³⁾، ووجدناه يقول: «علي يقضي ديني وينجز مواعيدي وهو خليفتي عليكم من بعدي»⁽⁴⁾.

فالخبر الأول الذي استنبطت منه هذه الأخبار خبر صحيح مجمع عليه لا اختلاف فيه عندهم، وهو أيضاً موافق للكتاب، فلما شهد الكتاب بتصديق الخبر، وهذه الشواهد الأخرى، لزم على الأمة الإقرار بها ضرورة إذ كانت هذه الأخبار شواهداً من القرآن ناطقة ووافقت القرآن والقرآن وافقها»⁽⁵⁾.

وإذا كان الإمام موسى الكاظم ﷺ قد أجمل في قوله: «الأخبار المجمع عليها»، ولم تساعده ظروفه الخاصة يومئذ أن يمثل لهذا الإجماع العام فقد فصله حفيده الإمام الهادي ﷺ أحسن تفصيل، ومثل لهم بالحديث المشهور «إني مخلف فيكم الثقلين...».

ويفهم من بيان الإمام ﷺ أمران:

(1) المائة: 55.

(2) مجمع الزوائد: ج 7 ص 17، والمعجم الأوسط: ج 6 ص 218.

(3) صحيح مسلم: ج 4 ص 1870 ح 2404، وصحيح البخاري: ج 3 ص 1359 ح 3503،

وصحيح ابن حبان: ج 15 ص 369 ح 6926، والمستدرک علی الصحیحین: ج 2 ص

367 ح 3294، وسنن الترمذي: ج 5 ص 638 ح 3724، وسنن ابن ماجه: ج 1 ص 42

ح 115، ومسند الإمام أحمد: ج 1 ص 170 ح 1463.

(4) مجمع الزوائد: ج 9 ص 113.

(5) تحف العقول: ص 458 - 459.

1- تضر مخالفة بعض الأمة لبعضها إذ أنّ الإجماع لا يحصل إلا إذا كان من الأمة قاطبة.

2- إذا أنكرت طائفة خبراً شهد القرآن بتصديقه لزم الجميع الإقرار به ما دامت قد اجتمعت في الأصل على تصديق الكتاب، فإن جحدت هذه الطائفة الخبر لزم الخروج من الأمة لأنّ الاجتماع هدى وحق والخروج عن كلمة الأمة ضلال.

ومن القسم الثاني - وهو تعريف الإجماع بجماعة المجتهدين - مقبولة عمر بن حنظلة، وهي مفصلة نذكر منها ما يخص رأي الإمام الصادق عليه السلام في الإجماع.

يقول عمر بن حنظلة - بعد أن نقل رأي الصادق عليه السلام فيمن يرجعون إليه في مسائل دينهم ممن نظر في حلالهم وحرامهم، وعرف أحكامهم - ...

« قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ كُلُّ رَجُلٍ اخْتَارَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِنَا فَرَضِيًّا أَنْ يَكُونَا النَّاطِرَيْنِ فِي حَقِّهِمَا وَاخْتَلَفَا فِيمَا حَكَمَا وَكِلَاهُمَا اخْتَلَفَا فِي حَدِيثِكُمْ؟

قَالَ: الْحُكْمُ مَا حَكَمَ بِهِ أَغْدَهُمَا وَأَفْقَهُمَا وَأَصْدَقُهُمَا فِي الْحَدِيثِ وَأَوْرَعُهُمَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَا يَخْتَكُمُ بِهِ الْآخَرُ.

قَالَ: قُلْتُ: فَإِنَّهُمَا عَدْلَانِ مَرْضِيَّانِ عِنْدَ أَصْحَابِنَا لَا يُفْضَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ؟

قَالَ: فَقَالَ: يُنْظَرُ إِلَى مَا كَانَ مِنْ رَوَايَتِهِمْ عَنَّا فِي ذَلِكَ الَّذِي حَكَمَا بِهِ الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ مِنْ أَصْحَابِكَ فَيُؤْخَذُ بِهِ مِنْ حُكْمِنَا وَ يَثْرُكُ الشَّادُّ الَّذِي لَيْسَ بِمَشْهُورٍ عِنْدَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّ الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ لَا رَيْبَ فِيهِ،⁽¹⁾.

ويفهم من كلامه عليه السلام أمران:

1- يلحظ الإجماع عند الأصحاب فإذا أجمعوا على شيء كان المجمع عليه في رأي الإمام الصادق عليه السلام لا ريب فيه.. وإتباع روعي إجماعهم بدون أن

(1) الكافي: ج 1 ص 68.

يلحظ رأي الآخرين؛ لأنّ الحكم المجمع عليه ملحوظ في كثير من الموارد أن يكون مستنده روايات الأئمة عليهم السلام والحكم بدون شك يدور مدارها.

فالجمع - مثلاً - بين العمة و بنت أخيها، أو بين الخالة و بنت أختها غير جائز في المذاهب الأربعة مطلقاً، بينما يجيز الفقه الجعفري النكاح إذا أجازت العمة والخالة الجمع.. ولا شك أنّ إجماعهم لم يلحظ فيه رأي الإمامية وإلا لما قام عندهم هذا الإجماع على الحرمة.

2- لم يعتن الإمام الصادق عليه السلام برأي من لم يتبع رأي المشهور، واعتبر وجوده كالعدم لأنه شذ برأيه عن الأصحاب.

سؤال: هل ترون أنّ الأجواء الحوزوية مهينة لإعطاء أحد العلماء المختصين المساحة الكافية من حرية الرأي عند توصله لرأي جديد يتعارض وإجماع سابق أقره من سبقوه من العلماء؟

جواب: من المظاهر الثابتة في الحوزات العلمية وجود اتجاهين مشخصين في أوساطها:

الأول: تقليدي يعيش همومه المحدودة في إطار البحث العلمي وحلقات الدرس، ويقف موقفاً متحفظاً من أية محاولة تجديدية وإصلاحية، ويرفض التدخل في الشؤون السياسية والاجتماعية التي يرى أنها بعيدة عن اهتماماته الحوزوية الخاصة.

والثاني: حركي يعيش هموم الأمة الإسلامية ويجهاد من أجل النهوض بواقعها إلى المستوى المطلوب في مقابل التحديات التي تتعرض لها من قبل أعداء الإسلام، ويرى أنّ مسؤوليته الشرعية تتحرك على كل المساحة الاجتماعية ولا تنحصر في البحث العلمي فحسب، بل إنّ العلوم الدينية هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها في خدمة قضايا الإسلام وأهدافه الكبرى. ومن أجل تحقيق هذه المهام الكبيرة لا بد من إحداث الإصلاح والتجديد في الواقع الحوزوي ليكون بمستوى متطلبات العصر وبالتالي يمكن تحقيق النهضة الحضارية في الواقع الإسلامي. وعلى هذا الخط كانت مشاريع الإصلاح التي ظهرت في الوسط الشيعي في فترات مختلفة.

وعلى هذين الاتجاهين توزع علماء ومراجع الدين عبر الزمن وفق معادلة حساسة تتسم بالتحفظ الشديد من قبل الطرفين. والغريب في هذه المعادلة أنها كانت تزداد حدة كلما تطورت الحياة واقترب الزمن من الحاضر. وتفسيرنا لهذه الظاهرة أنّ تطور حركة الزمن تفرز بصورة طبيعية تحديات جديدة، تستدعي اتخاذ مواقف تنسجم مع طبيعة الظروف، الأمر الذي يدفع رموز الاتجاه الحركي إلى القيام بمشاريع إصلاحية تهدف إلى النهوض بالواقع الإسلامي إلى المستويات التي تمكن الأمة من مواجهة التحديات بقوة وصلابة. وعادة لا تحظى هذه المشاريع الإصلاحية بقبول التقليديين، فيقفون منها مواقف معارضة تختلف حدتها باختلاف الأجواء.

ومن أمثلة النوع الأول:

1 - الشيخ الآخوند الخراساني:

كان الشيخ الخراساني مرجعاً كبيراً في بدايات القرن العشرين، وكان منافساً لمرجعية السيد كاظم اليزدي، فقد كانت لهما الزعامة الدينية بالدرجة الأساسية، وربما كان السيد اليزدي مقدماً على الشيخ الخراساني، لكنه لم يكن صاحب مشروع إصلاحي فكان مثل غيره من التقليديين.

أما الشيخ الخراساني فقد كان الإصلاح جزءاً من حياته، وهماً من همومه، فلقد كان يسارع إلى الموقف الذي يدفع بالأمة إلى مستقبل أفضل من الناحية السياسية، وهو ما تمثل في قيادته للحركة الدستورية في إيران. وكان يتعامل من موقع الزعامة الحقيقية للأمة، وليس مجرد كونه مرجعاً دينياً تتحدد مهامه في التدريس والفتيا، بل كان يرى أنّ المهمة الحقيقية لمرجع الدين هي الرعاية العامة للأمة في كل قضاياها وشؤونها، وهو المسؤول عن حاضرها ومستقبلها.

كان الفكر الإصلاحي للآخوند الخراساني، يتميز بالوعي السياسي الشامل، ولعل ظروف المرحلة التي عاشها هي التي تطلبت منه ذلك، فعندما احتلت القوات الروسية، إيران عام 1911م، تصدى الآخوند الخراساني بكل قوة لهذا الانتهاك العدواني لبلاد المسلمين، وأصدر فتاواه وتعليماته وبياناته

التي تميزت بالوعي السياسي الدقيق لمواجهة العدوان الروسي.

فقد كتب إلى القنصل الروسي في طهران يهدده بأن على روسيا الانسحاب من إيران دون قيد أو شرط، وأنه في حالة عدم موافقة حكومته على الانسحاب، فإنه سيعلمن حكم الجهاد المقدس لكافة المسلمين في الأرض، وأن علماء الدين سيذبلون آخر قطرة من الدم دفاعاً عن بلاد المسلمين. وقد أثارت هذه الرسالة مخاوف الحكومة القيصرية في روسيا، وحاولت تهدئة موقف الآخوند، لكنه ظل على موقفه، بل أنه أخذ يسير في اتجاه العمل الثوري بصورة واضحة، فقد كتب إلى علماء الدين في تبريز يأمرهم بوجوب تعلم فنون القتال والتدريب على استعمال السلاح. وتعامل مع الأزمة بعقلية سياسية بعيدة الأفق، فقد أصدر فتواه بحرمة شراء البضائع الروسية، وقد شعرت الحكومة الروسية بجذوية المخاطر، وقوة الموقف الذي يصنعه الآخوند، فطلبت من قنصلها في بغداد أن يفاوضه من أجل أن يخفف من مواقفه الصارمة، لكنه رفض اللقاء بالقنصل، وأخبر موفده بأنه لا يملك الوقت الكافي لمقابلة القنصل، وإذا أراد شيئاً فليكتبه برسالة⁽¹⁾.

لقد استطاع الآخوند أن يقود حركة الأحداث بكفاءة عالية، وتمكن من تعبئة الجماهير من أجل التوجه إلى قتال القوات الروسية في إيران، وقد حدث في يوم تحرك قوات المجاهدين أن توفي الآخوند بشكل مفاجئ، وقد أثارت الشكوك والالتهامات حول وفاته بأنها لم تكن طبيعية، وأن من المحتمل جداً أن تكون مدبرة من قبل روسيا أو بريطانيا.

وقد كتب تلميذه الإصلاحى السيد هبة الدين الشهرستاني في مجلة العلم التي كان يصدرها عن وفاة الشيخ الخراساني يقول:

«كنا ليلة ارتحاله في محضره مع لفيف من أهل العلم حينما صلى العشاءين جماعة، وهو في داره إلى ثلاث ساعات من الليل، وهو لا يشكو ألماً ولا سقماً، بل مشتغلاً بتصفية المحاسبات وأداء الأمانات وموادعة الأحبة والوصية لصحبه وأولاده، فإنها كانت آخر ليلة من لبثه في النجف، أو في الدنيا بالحقيقة. فإنه طاب ثراه كان عازماً على الرحيل في عصر يومه

(1) انظر: تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، لعبد الحليم الرهيمي.

الآتي مع كافة العلماء والطلبة وغيرهم للسفر إلى إيران حفظاً لثغورها من هجمات عساكر الروس والإنكليز.

وعندما ذهب ربيع الليل تفرق الناس عنه إلى دورهم... لكنه لم يزر عينيه الكرى، وأخذه شبه الضعف في منتصف الليل، فقالوا: مرنا نحل أوزار المسير ونؤخر السفر إلى يوم آخر. فقال: كلا إنني راحل غداً إن شاء الله إلى مسجد السهلة، فسيروا إليها غداً ولو أشرفت على الموت لثلا يستوهن عزم المجاهدين. وصلّى الصبح فريضة ونافلة، ثم اشتكى من حدوث انقباض في قلبه، وأنّ أنة رقيقة ومدد كالمغى عليه وتوفي وفاة هنيئة⁽¹⁾.

كان الآخوند الخراساني حريصاً كل الحرص على مشروع الجهاد، وقد كان إصراره على المسير، هو الذي جعل الحركة مستمرة. حيث تعامل العلماء معها على أنها خطوة لا يمكن التراجع عنها.

إنّ تفاعل علماء الدين مع المشروع الجهادي، وتأكيدهم على المسير إلى إيران لمحاربة القوات المعتدية، أثار المخاوف الحقيقية عند الحكومة الروسية، فسارعت إلى إعلان قرار الانسحاب من الأراضي الإيرانية، وأبلغت هذا القرار رسمياً إلى الحكومة الإيرانية. وعلى أثر هذا التطور السريع، أنهى علماء الدين التعبئة الجهادية، بعد أن حققت أهدافها.

2 - السيد هبة الدين الشهرستاني:

كان تلميذاً للشيخ الآخوند، كان مندجماً بنهجه إلى درجة كبيرة. وسار على نفس توجهاته الإصلاحية في المجال السياسي. فلم يكن السيد الشهرستاني يرى بأساً من التدخل في العمل السياسي بكل قوة، والمشاركة في الحكومة كجزء منها، وهي نظرة لم تكن مستساغة في الجو الحوزوي في تلك الفترة.

فلقد شارك السيد هبة الدين الشهرستاني، وزيراً في الحكومة العراقية الملكية، وهو المجتهد الشيعي الوحيد الذي شارك في الحكومة وتسلم

(1) المصدر السابق.

منصباً وزارياً. وكانت له مواقف المعارضة لسياسة الدولة فهو لم يكن من الوزراء الذين يسكتهم المنصب عن إبداء الرأي، بل جعل من المنصب الوزاري منطلقاً لتسجيل الموقف الرافض.

ولم تقتصر إصلاحية السيد الشهرستاني، على الجانب السياسي، وحده، بل كانت له مشاريعه الإصلاحية ذات الطابع الجماهيري التثقيفي، فقد كان يقيم المهرجانات الجماهيرية الكبيرة في بعض المناسبات الإسلامية، كما أسس مكتبة الجواد العامة في الصحن الكاظمي الشريف، وأصدر مجموعة من الكتب ذات الطابع العلمي الحديث. كما أصدر مجلة العلم ولعلها من أوائل المجلات الثقافية التي صدرت في العراق في تلك الفترة.

إنّ السيد هبة الدين الشهرستاني، وإن لم يصل إلى المرجعية، لكنه كان من المجتهدين البارزين، وكان من طلائع المصلحين في الفترة التي عاشها، وهو امتداد لمدرسة الآخوند الخراساني الإصلاحية في المجال السياسي، وقد أضاف عليها تطورات أخرى في المجال الاجتماعي والثقافي، وهذه هي ميزة المصلحين المجددين، فهم لا يقفون عند الحدود السابقة، بل يسعون إلى التوسع تبعاً لحاجات الأمة المتجددة بحسب تطور الأوضاع والظروف السياسية والثقافية والاجتماعية.

ومن أقواله الإصلاحية ما كتبه في مجلة (العلم) بعنوان (علمائنا والتجاهر بالحق) جاء فيها ما نصه: «وأما في القرون الأخيرة فالسيطرة أضحت للرأي العام على رأي الأعلام. فصار العالم والفقير يتكلم من خوفه بين الطلاب غير ما يتلطف به بين العوام وبالعكس، ويختار في كتبه الاستدلالية غير ما يقفي به في الرسائل العملية، ويستعمل في بيان الفتوى فنوناً من السياسة والمجاملة خوفاً من هياج العوام. حتى أنه بلغنا عن فقيه سأله أحد السوقيين، عن يهودي بكى على الحسين عليه السلام فوقع دمعه على ثوبي، هل نجس الثوب أم لا؟. فأجاب المسكين خوفاً منه: إنّ جواب هذه المسألة عند الزهراء عليها السلام. وسأل سوقي آخر فقيهاً عن شج رأسه للحسين عليه السلام فأجابه كذلك، إلى غير ذلك. لكن هذه الحالة تهدد الدين بانقراض معالمه، وازمحلل أصوله، لأنّ جهال الأمم، يميلون من قلة علمهم، ونقص استعدادهم، وضعف طبعمهم، إلى الخرافات وبدع الأقوام

والمنكرات. فإذا سكت العلماء ولم يزجروهم أو ساعدوهم على مشتبهاتهم، غلبت زوائد الدين على أصوله، وبدعه على حقائقه، حتى يمسي ذلك الدين شريعة وثنية همجية تهزأ بها الأمم»⁽¹⁾.

3 - السيد محسن الأمين:

كان السيد محسن الأمين يمتلك شخصية إصلاحية في المجالات الاجتماعية والتبليغية والسياسية، لكنّ الإصلاح الخاص المتعلق بمسألة الشعائر الحسينية والمنبر الحسيني هي التي غطت على مشاريعه الإصلاحية الأخرى. وقد تكون ردة الفعل المضادة التي تعرض لها، هي التي جعلته يركز على هذا الجانب، ويصر على إحداث الإصلاح رغم كل العقبات والتحديات. فالمصلح لا يكون مصلحاً إذا انسحب من الساحة عند أول مواجهة مضادة، بل إنّ المصلح هو الذي يسير في مشروعه إلى نهاية الطريق وهذا ما كان من سيرة السيد الأمين في هذا المجال.

أصدر السيد الأمين كتاباً بعنوان (التنزيه لأعمال الشبيه) شجب فيها الممارسات التي اعتاد عليها الناس في شهر محرم من قبيل اللطم المبرح على الصدور والضرب بالسلاسل، وجرح الرأس بالسيف، وغير ذلك من الممارسات التي كانت تجري في كل منطقة من مناطق الشيعة، وقد توارثتها الأجيال حتى أصبحت جزء من تقاليدهم الثابتة.

أثار الكتاب ضجة كبيرة، فلم يألف الناس معارضة لهذا الجانب من حياتهم، فرمى الأمين بالزندقة، وأشاع عنه مخالفوه براءة عترة الرسول ﷺ منه!، ووصل الأمر أن قال أحد الشعراء معرضاً بالأمين، وقد كان مقيماً بدمشق، ومتهماً إياه بالزندقة:

يا راكباً أما مررت بجلوق فابصق بوجه (أمينها) المتزندق
وقال شاعر آخر:

ذريّة الزهراء إنّ عدّت يوماً ليطري الناس فيها الثنا

(1) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، لعلي الوردي: ص 232.

فإنها قد أسقطتُ مُحسناً
وقد تصدى للسيد الأمين بعض كبار العلماء والمجتهدين في معارضته
في هذا المنهج الإصلاحى، وفي المقابل وقف إلى جانبه آخرون، كان في
طليعتهم السيد أبو الحسن الأصفهاني الذي أصدر فتواه بحرمة ضرب
الرؤوس بالسيوف وغيرها من الممارسات.

وهنا وقف المرجع الدينى السيد أبو الحسن الأصفهاني إلى جانب
الأمين، وأصدر في رسالته العملية، الطبعة الأولى، هذه الفتوى: «إن
استعمال السيوف والسلاسل والطبول والأبواق، وما يجري اليوم من أمثالها
في مواكب العزاء بيوم عاشوراء، باسم الحزن على الحسين، إنما هو محرم
وغير شرعى».

يقول المرحوم الأستاذ جعفر الخليلي وقد عاصر تلك الأحداث:

«ومن دافع عن السيد محسن خارج النجف كان السيد مهدي القزويني في
البصرة، وكان السيد هبة الدين الشهرستاني في بغداد الذي ساعدنا نحن الذين
تولينا الكتابة والدفاع عن السيد محسن مساعدة فعالة، على أن دفاع هؤلاء لم يكن
مستغرباً حينذاك بقدر ما كان يستغرب دفاع الشيخ علي القمي، ودفاع الشيخ
جعفر البديري لبعدهما عن روح التجديد. وقد أثار هذان الأخيران في ذمهما عن
السيد محسن دهشة جميع الأوساط واستغرابهم»⁽¹⁾.

إن تفاعل الشيخين علي القمي وجعفر البديري وهما من التقليديين
ودفاعهما عن السيد الأمين، يعطينا فكرة أكثر وضوحاً عن الشخصيات
المستجيبة للمشروع الإصلاحى. وهي أن طبيعة المشروع لها أهميتها في
تحديد الاستجابة، فقد رأى هذان الشيخان وربما غيرهما أن موقف السيد
الأمين يتطابق مع المصلحة الإسلامية، وأنه يسير في الاتجاه المطلوب، فوقفا
إلى جانبه انطلاقاً من فهمهما للموقف المطلوب اتخاذه في مثل هذه الحالات،
مع أن اتخاذاً مثل هذا الموقف له تبعات سلبية على الصعيد الاجتماعى، لكن
القناعة كانت أهم من كل ذلك.

(1) هكذا عرفتهم: ج 1 ص 210.

كان رائداً من رواد الإصلاح التعليمي في الحوزة، وكان له اليد الطولى في فكرة إنشاء (جمعية منتدى النشر) والتي تعقد جلساتها سراً، وكان كاتب الجلسات هو الشيخ محمد رضا المظفر، والذي دوّن بعض مذكراته عن تلك الاجتماعات وهدفها، فقال: «تألفت ابتداء من عام 1343هـ عدة جماعات أشبه بجمعيات سرية أو مجالس تمهيدية للتفكير في طريق الإصلاح واكتساب الشعور العام، وأتذكر جيداً أنّي اشتركت في إحداها وكنت كاتبها، وأعضاؤها كلهم من الشباب الديني ذلك اليوم، وجماعات أخرى هناك منها التي اتصلنا بها وهم أكبر منا طبقة، اشترك أكثرهم بعد ذلك في (منتدى النشر) ومحورها الثلاثة المعروفون بالصفوة أو أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع: الشيخ محمد جواد الحجامي، والشيخ محمد حسين المظفر، والسيد علي بحر العلوم.

ولا أزال أحتفظ بمحاضر جلسات جماعتي الأولى تلك، وبمذكراتي الخاصة عنها وعن غيرها، وهي على بساطتها تمثل لي مقدار التكتّم والخوف الذي كان يساورنا. كان عملنا وتفكيرنا مقتصرأ على تفقد المفكرين من أصحابنا الذين يحسون بالداء مثلنا، وبالرغم من مواصلة الجلسات والتفكير طيلة عام واحد لم نستطع أن نخرج صوتنا من غرفتنا إلا بعض الشيء، ولم نستطع أن نضم إلينا أكثر من عشرة أعضاء.

وفي عام 1349هـ عندما هاجمت النجف كتب عدائية حسست الشعور العام، اتخذ جماعة منا وسيلة للنهضة بتأسيس جمعية للنشر والتأليف، وكان ينوي بعض القائمين بالحركة الذين اتصلت بهم استغلال هذه الجمعية إذا تمت لإصلاح الدراسة الدينية.

وقد تمكن القائمون بالنهضة أن يشركوا معهم أشهر رجالات النجف وعلمائها ومفكرها حتى انتخبوا هيئة عاملة تتألف من سبعة من الأشخاص وهيئة عليا من ثلاثة مجتهدين وباقتراح هذه الهيئة العليا نهض العلامة الأكبر المرحوم الشيخ محمد جواد البلاغي لتأليف تفسير مختصر للقرآن العظيم ليكون باكورة الأعمال أسماه بـ(آلاء الرحمن) عاجلته المنية قبل إكمالها وخرج منه جزءان وطبعاً، فكان هذا كل نتيجة هذه الحركة.

وهذا هو الدور الثاني للفكرة، ولم تخل النجف بين هذين الدورين وبعدهما من أحاديث وآراء واجتماعات، بل ومحاولات كالفقايح لم تظهر إلا لتختفي، كما يقولون، ولا ينكر أيضاً أثرها في توجيه الأفكار وتهيئة الشعور العام.

وجاء الدور الثالث من قبل ست سنوات - أي من حين تدوين المذكرات - وهو أبعدا مدى وأعظمها أثراً وذلك حركة (الكلية) كما يسمونها، لأنها هزت النوادي النجفية هزة عنيفة اشترك فيها الصغير والكبير والعالم والجاهل وقد بلغ الموقعون على ورقة شروط العمل المائتين وهم رجال العلم بالنجف وأهل الكلمة فيه. ولكن يظهر أنّ هذه الكثرة في ابتداء العمل وقبل انتظامه مما ساعد على توقف الحركة، فلم تصمد أمام العاصفة الهوجاء، وقد أعطتنا التجارب أنّ الأعمال الكبيرة يجب، لأجل نجاحها، أن تقوم بها جماعة محدودة تدير دفعة العمل بتعاقد وتكاتف وتضحية، على عكس ما هو مشهور لأنّ الشعور بالمسؤولية يقوي في الفرد إذا قلت الجماعة»⁽¹⁾.

لقد مر الشيخ المظفر بتجارب إصلاحية لكنها لم تحقق النجاح المطلوب، غير أنّ هذه التجارب أعطته أفقاً إصلاحياً أكبر من السابق، ومكنته من معرفة سبل النجاح والفشل وهذا أمر له أهميته الكبرى في ميدان العمل. فتراه يحول الفشل إلى منطلق عمل جديد وفي الميدان الحوزوي نفسه، وتلك قمة القوة والشجاعة والوضوح في الرؤية، والمبدئية في العمل.

لقد استفاد الشيخ من تجربته السابقة التي كانت تضم عدداً كبيراً من الشخصيات، ورأى أنّ الكثرة العددية لا تساهم في نجاح المشروع، فانطلق في مشروع إصلاحية بعدد قليل، حيث أسس مدارس منتدى النشر التي شقت طريقها وسط الصعاب بقوة وإصرار، وتخرج منها عدد كبير من الشخصيات اللامعة فيما بعد.

وأعقب هذا المشروع تأسيس الشيخ لكلية الفقه في النجف الأشرف

(1) الحوزة العلمية، أحمد البهادلي: ص 312 - 316، نقلاً عن: مشروع إصلاح الحوزة عند الشيخ المظفر، للأصفي.

وهي خطوة كبيرة ورائدة في الحوزة العلمية، واستمرت الكلية لسنوات طويلة خاضعة لإشراف علماء الدين في النجف، حتى مجيء البعثين إلى الحكم حيث سيطروا على الكلية وجعلوها خاضعة لإدارتهم.

إنّ هذه التجربة الخاصة بالشيخ المظفر تبين لنا أنّ شخصيته كانت شخصية إصلاحية، وأنّ المشروع الإصلاحي جزء من تكوينه الشخصي، فهو لا يستطيع أن يسكت على الواقع المتخلف، ويبدل كل جهوده من أجل القيام بعمل يخدم الحوزة، ويجعلها بمستوى التطور العام الذي تمر به الساحة.

ونختم حديثنا عن الشيخ المظفر بفقرة رائعة من مذكراته توضح نظره الإصلاحية العميقة حيث يقول في حديثه عن جامعة النجف مقارنة بالتطور العام: «... فإنّ هذه النواقص كفقدان نظم التربية والتدريس في الامتحانات والمواد العلمية والأوقات والشهادات، كانت تهدد المفكرين منا بشلل الحركة العلمية في مستقبل الجامعة القريب أو البعيد، يوم أن اصطدمت سفينة هذه الجامعة القديمة بتيار هذا العصر الجديد فهزتها في بحر متلاطم بالميلول»⁽¹⁾.

كان الشيخ المظفر إضافة إلى توجهاته الإصلاحية العميقة، كاتباً متميزاً، تميزت كتبه باللجنة الإصلاحية، فكتابه (عقائد الإمامية) الذي لا يزال يعتبر أهم كتاب في بيان عقائد الشيعة الأمامية وقد كتبه بطريقة واضحة وبأسلوب علمي جميل، وكذلك كتابه (السقيفة) الذي يمثل رغم صغر حجمه مناقشة علمية لحادثة السقيفة والخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، والكتاب يبحث أخطر مسألة وأكثرها حساسية بين المسلمين الشيعة والسنة بأسلوب هادئ محامد كان الغرض منه عرض الحقيقة كما هي.

أما كتابه (المنطق) فيعد إنجازاً علمياً هاماً في مناهج الحوزات العلمية، إذ أصبح هذا الكتاب بديلاً عن الكتب القديمة في المنطق يدرس في كافة الحوزات العلمية.

(1) الحوزة العلمية، أحمد البهادلي: ص 312 - 316، نقلاً عن: مشروع إصلاح الحوزة عند الشيخ المظفر، للأصفي.

كما ألف كتابه القيم (أصول الفقه) الذي كتبه ليكون منهجاً دراسياً لطلاب كلية الفقه، وهو يعد الحلقة المفقودة بين كتاب معالم الأصول وكتاب الكفاية للشيخ الآخوند وقد فرض هذا الكتاب وجوده في مناهج الدراسة الحوزوية.

إن أهم إنجاز حققه الشيخ المظفر أنه استطاع أن يفرض تدريس الكتب الجديدة في الحوزة العلمية التي كانت ترفض تدريس أي كتاب آخر غير كتبها القديمة، وبذلك فتح المجال أمام العلماء فيما بعد ليطرحوا نتاجاتهم العلمية المختصة بالتدريس في الحوزة، مثل كتاب (دروس في علم الأصول) للشهيد الصدر.

4 - الشهيد مرتضى المطهري:

لقى الشهيد مرتضى مطهري محاضرة جريئة حول آفة (الإصابة بالعوام)، وتناول الشيخ مطهري بقدر كبير من التقريع آثار سلطة العوام على عمل العلماء، فقال بما نصه: «إن منظومتنا الدينية على أثر إصابتها بهذه الآفة، لا تستطيع أن تكون طليعة فتتحرك أمام القافلة، وأن تهدي القافلة بالمعنى الصحيح للهداية، وإثما مضطرة إلى التحرك وراء القافلة. إن من سمات العامة أنهم لا يفارقون القديم الذي اعتادوا عليه، بل يتمسكون به دون تمييز بين حق وباطل، إنهم يعتبرون كل جديد بدعة واتباعاً للأهواء. لا يعرفون قوانين الطبيعة ومقتضيات الفطرة، لذلك فإنهم يخافون كل جديد من هذا المنظور، ويحافظون على الوضع القديم دائماً».

ويزيد قائلاً: «مجتمعنا الديني المصاب بآفة العامة لا مندوحة له عندما يريد أن يتحدث في مسألة اجتماعية من الخوض في مسائل سطحية ثانوية، مبتعداً عن الجذور العميقة التي يتعامل معها بطريقة تدل، مع الأسف، على تأخره، وعلى نقضه الإسلام، مما يكون سلاحاً بيد أعداء الإسلام».

ثم ينقد تلك الظواهر السائدة في الحوزات العلمية التي يعبر عنها بالمجتمع الديني فيقول: «ليس أمام مجتمعنا الديني سوى السكوت في موضع الكلام، والسكون في موضع الحركة، والنفي في موضع الإثبات، لأن ذلك ينسجم مع طبيعة العامة».

ويقول أيضاً: «إن حكومة العامة هي منشأ رواج الرياء، والمجاملة، والتظاهر، وكتمان الحقائق، والاهتمام بالمظاهر، وشيوع الألقاب والمقامات، والتطلع إلى المراكز العليا في مجتمعنا الديني مما لا نظير له في العالم. إن حكومة العوام هي التي تدمي قلوب أحرارنا وطلاب الإصلاح فينا».

وبزيد الشيخ المطهري قائلاً: «لقد ارتأى المرحوم آية الله الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي، مؤسس الحوزة العلمية في قم، أن يطلب من عدد من الطلبة تعلم اللغات الأجنبية وبعض العلوم كمقدمات، لكي يستطيعوا عرض الإسلام على الطبقات المثقفة الجديدة، وفي البلدان الأجنبية، ولكن ما انتشر هذا الخبر حتى جاءت جماعات من العامة وأشباه العامة من طهران إلى قم، وقالوا إن هذه الأموال التي يدفعها الناس باسم سهم الإمام، لا يقصد بها أن تصرف لتعلم الطلبة لغة الكفار، وإثمهم سوف يفعلون كذا وكذا، إذا نفذ الاقتراح. فلما رأى المرحوم أن ذلك سيكون سبباً لانحياز الحوزة العلمية من أساسها، ألغى الفكرة مؤقتاً. وبعد ذلك بسنوات في عهد زعامة المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني، عقد عدد كبير من علماء النجف الأشرف وفضلاتها المبرزين، وبعضهم اليوم من مراجع التقليد اجتماعاً تبادلو فيه وجهات النظر، واتفقوا على إعادة النظر في برنامج الدروس التي يدرسها الطلاب، آخذين حاجات المسلمين الآتية بنظر الاعتبار، وبالأخص تلك المسائل التي هي جزء من أصول عقائد المسلمين فيدخلونها في البرنامج لتدريس الطلاب، وكان الهدف إخراج الحوزة العلمية في النجف من نطاق الاقتصار على الفقه والرسائل العلمية. ورفعت هذه النتائج إلى المرحوم لإقرارها، غير أنه - وقد سبق له أن تلقى درسه مما جرى مع المرحوم آية الله الحائري - أرسل يقول: مادمت حياً لا يحد لأحد أن يغير من تركيب هذه الحوزة. وأضاف: إن سهم الإمام، الذي يوزع على الطلاب، يجب أن يكون من أهل الفقه والأصول دون غيرهما».

ويخلص المطهري إلى القول: «لماذا خرجت حوزتنا العلمية من شكل جامعة دينية إلى شكل كلية فقهية؟ لماذا عندما يبرز علماءنا وفضلأؤنا ويشتهرون يخفون ما عندهم من العلوم، غير الفقه والأصول، وينكرونها؟ لماذا يكثر العاطلون والمتفولون في هذا الوسط المقدس، بحيث أن الزعيم الديني إذا أراد، أن يسقي نبتة ورد، يضطر إلى سقي الأشواك والنباتات

الطفيلية الكثيرة؟ لماذا يطغى السكوت والسكون والتماوت في محيطنا الديني، على المنطق والحركة والحياة؟ لماذا ضعفت فيما بيننا حرية الفكر والعقيدة؟ لماذا لا ينظم منهاج تدريس طلاب العلوم الدينية تنظيمياً يتفق ومتطلبات العصر؟ لماذا نرى طلاب العلوم الدينية بدلاً من أن يكونوا سباقين في الطليعة والهادين لمسيرة المجتمع، يعرجون خلف القافلة؟ لماذا؟!⁽¹⁾.

ويتجلى موقف المطهري أيضاً في رؤيته الإصلاحية في تنقية المنبر والشعائر الحسينية. وهي من المحاولات الجادة التي طرحها الشهيد مطهري عبر سلسلة من المحاضرات ثم صدرت في كتاب من ثلاثة أجزاء تحت عنوان: الملحمة الحسينية.

لقد ركز المطهري على مسألة التحريف التاريخي لوقائع الثورة، وعلى مسألة المضمون العقائدي لحركة الإمام الحسين عليه السلام، ودعا إلى ضرورة العودة إلى المصادر التاريخية المعتبرة، وإلى دراسة الثورة وفق وجهة النظر الإسلامية الأصيلة، وكانت محاولته تتسم بالشجاعة والصراحة، حيث شخّص مظاهر التحريف وحدد مفرداتها ومن ثم أعطى الموقف الرسالي المطلوب من الجميع في هذه القضية الهامة في حياة المسلمين، يقول:

«إننا وللأسف الشديد حرفنا حادثة عاشوراء ألف مرة ومرة أثناء عرضنا لها ونقل وقائعها، حرفناها لفظياً أي في الشكل والظاهر أثناء عرض أصل الحادثة، مقدمات الحادثة، متن الحادثة والحواشي المتعلقة بها. كما تناول التحريف تفسير الحادثة وتحليلها. أي أنّ الحادثة مع الأسف قد تعرضت للتحريف اللفظي كما تعرضت للتحريف المعنوي»⁽²⁾.

وأشاد الشهيد مطهري بكتاب الشيخ ميرزا حسين النوري (اللؤلؤ والمرجان) ونقل منه العديد من المقاطع بشأن تشويه واقعة كربلاء، يقول المطهري: «لقد ذكر هذا الرجل الكبير في كتابه نماذج من الأكاذيب المعروفة التي ألصقها الكثيرون بحادثة كربلاء، وهي تماثل أغلب ما أقوله،

(1) محاضرات في الدين والاجتهاد: ص 54 - 58.

(2) الملحمة الحسينية: ج 1 ص 12.

بل كله، وهذا ما كان يشكو منه المرحوم الحاج النوري، حتى أن هذا الرجل الكبير يصرح بقوله: (من الواجب أن نقيم المآتم على الحسين عليه السلام، أما المآتم التي تقام عليه اليوم فهي جديدة ولم تكن هكذا فيما مضى، وذلك بسبب كل تلك الأكاذيب التي ألصقت بحادثة كربلاء دون أن يفضحها أحد. إننا يجب أن نبكي الحسين عليه السلام ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التاريخي، بل بسبب الأكاذيب التي ألصقت بالواقعة). كما وردت في مقدمة الكتاب - اللؤلؤ والمرجان - إشارة إلى منبع الأكاذيب حيث نقراً قوله: «كتب لي أحد العلماء من الهند يشكو من كثرة الأكاذيب التي يروج لها قراء التعزية الحسينية في تلك البلاد وقد رجاني أن أعمل شيئاً بهذا الخصوص كأن أكتب كتاباً يساهم في منع استمرار الخطباء من الكذب على المنابر الحسينية». ثم يكتب الحاج النوري رضوان الله عليه مضيفاً: (إنّ هذا العالم الهندي يتصور أن قراء التعزية الحسينية يبدأون بنشر الأكاذيب بعد أن يصلوا إلى الهند، ولا يدري أنّ المياه ملوثة من رأس النبع، وأنّ مصدر المآتم الكاذبة هي كربلاء والنجف وإيران، أي مراكز التشيع الأساسية نفسها»⁽¹⁾.

5 - السيد محمد باقر الصدر:

ويتجلى موقف الشهيد الإمام الصدر، وما عاناه في شأن تجديد الحوزة، وما كتبه عن سنوات المحنة، ليقف الإنسان على الأجواء المحتقنة والتي رائدها الشك ضد كل تجديد.

لقد كانت الحركة الإسلامية منذ انطلاقتها أوأخر الخمسينات تعيش همّ الإسلام وإمكانات. تحكيمه في الحياة، وهو هدف لم يكن يهتم به التقليديون، بل أنهم كانوا يعارضون مثل هذه التوجهات الرسالية وسرعان ما يطلقون عليها تمهم الجاهزة. لكن وضوح الأهداف والأسس التي وضعها الشهيد الصدر للحركة، جعلها تواصل نشاطها بثقة وقوة.

إنّ وجود الشهيد والثلة الواعية من العلماء على رأس الحركة الإسلامية

(1) الملحة الحسينية: ج 1 ص 13 - 14.

خلق حالة لم تكن موجودة من قبل، وهي التلاحم التاريخي بين المرجعية وبين الأمة.

إنّ هذا التلاحم مكن التحرك الإسلامي من الانطلاق والعمل بقوة، ووفر له الشرعية في الأسلوب والممارسة فيما يحتاجه من غطاء في ظروف العمل السياسي المعقد.

والغريب أنّ الحركة الإسلامية ومرجعية الإمام الصدر واجهتا معاً حرباً من جبهتين: إحداهما: تمثلت بالخط التقليدي في الحوزات العلمية. والثانية: السلطة البعثية في العراق.

ومن المؤسف أن يلتقي الاثنان في هدف واحد ألا وهو ضرب التحرك الإسلامي ومرجعية الشهيد الصدر. والمؤلم أنّ بعض المنتسبين للحوزة العلمية كان لا يتورع في إفشاء سر العلاقة بين الحركة الإسلامية والسيد الصدر، مع ما يترتب على ذلك من مخاطر أمنية تعرض حياة الرساليين وفي مقدمتهم السيد الصدر وإخوانه العلماء الحركيين لخطر الاعتقال والإعدام.

وفي تلك الظروف الحساسة واجه الشهيد الصدر حملة مفتعلة تحاول الانتقاص منه ومن مرجعيته، وتعرض تلامذته إلى مضايقات عديدة من قبل التقليديين الذين كانوا يسيطرون على الرأي العام في الحوزة.

وعندما ساهم الشهيد في تأسيس جماعة العلماء في النجف الأشرف وكان هو محور حركتها، رغم عدم انتسابه لها بصورة رسمية بحكم العمر، تعرض إلى حملة قاسية عانى منها الكثير، وكان هو الذي يكتب في مجلة الأضواء الافتتاحية المعروفة تحت اسم (رسالتنا).

ويذهب البعض إلى أنّ الحملة كانت مشتركة بين السلطة الحاكمة وبين بعض رجال الحوزة كما يظهر ذلك في مجموعة من الرسائل التي بعثها الشهيد إلى السيد محمد باقر الحكيم نختار منها الفقرات التالية، وفيها يعبر الشهيد عن الألم الذي يعتصر قلبه من هؤلاء وأولئك:

كتب السيد الشهيد في صفر 1380هـ ما نصه: «لقد كان بعدك أنباء

وهنيئة، وكلام وضجيج، وحملات متعددة جندت كلها ضد صاحبك - أي السيد الصدر نفسه - بغية تحطيمه. ابتدأت تلك الحملات في أوساط الجماعة التوجيهية المشرفة على الأضواء، أو بالأحرى لدى بعضهم ومن يدور في فلكتهم، فأخذوا يتكلمون وينتقدون، ثم تضاعفت الحملة وإذا بجماعة تنبري من أمثال حسين الصافي - ولا أدري ما إذا كانت هناك علاقة سببية وارتباط بين الحملتين أو لا - تنبري هذه الجماعة، فتذكر عني وعن جماعة ممن تعرفهم شيئاً كثيراً من التهم ومن الأمور العجيبة».

وكتب أيضاً يقول: «كما أنّ هناك زحمة من الإشكالات والاعتراضات لدى جملة من الناس أو (الأخوندية) في النجف على النشرة وخاصة (رسالتنا) باعتبار أنّها كيف تنسب إلى جماعة العلماء مع أنّها لم توضع من قبلهم، ولم يطلعوا عليها سلفاً، وأنّ في ذلك هدراً لكرامة العلماء».

وكتب أيضاً عن تلك الحملة التي تعرض لها يقول: «لا أستطيع أن أذكر تفصيلات الأسماء في مسألة جماعة العلماء وحملتها على الأضواء، ولكن أكتفي بالقول بأنّ بعض الجماعة كان نشيطاً في زيارة أعضاء جماعة العلماء لإثارتهم على الأضواء وعلى (رسالتنا) حتى أنّ الشيخ الهمداني الطيب القلب قد شوّهت فكرته. وهذا الذي حصل بالنسبة للشيخ الهمداني حصل بالنسبة إلى جملة من الطلبة مع الاختلاف في بعض الجهات».

وفي جانب آخر كتب يقول عن حملة أخرى يبدو أنّها أعقبت تلك الحملة: «وقد هدأت والحمد لله حملة جماعة العلماء عليها - أي جملة الأضواء - بعد أن تم إشعارهم بأنهم المشرفون عليها، غير أنّ حملة هائلة على ما أسمع يشنها جملة من الطلبة ومن يسمى بأهل العلم أو يحسب عليهم، وهي حملة مخيفة وقد أدت على ما قيل إلى تشويه سمعة الأضواء في نظر بعض أكابر الحوزة، حتى كان جملة ممن يسميهم المجتمع الآخوندية، مقدسين أو وجهاء لا يتورعون عن إلصاق التهم بالأضواء وكل من يكتب فيها».

إنّ هذه الكلمات الحارة التي يكتبها الإمام الشهيد الصدر عن فترة من فترات العمل الإسلامي في حياته المباركة، تكشف عن الألم الذي كان يحتزّه في قلبه الكبير وهو يشاهد أجواء التخلف تحاول أن تقف في طريق

الوعي الإسلامي. وكم مرة تمنى الموت رغم صبره الطويل وقلبه الكبير الذي يتحمل الهموم والآلام، لكن شدة المحن التي يتعرض لها من التقليديين كانت تجعله يفضل الموت على الحياة.

لقد أسس الشهيد حزب الدعوة الإسلامية لأنه أدرك بالعمق الذي يتمتع به وبالنظرة الشمولية الصائبة لحركة الأحداث في الساحة، أنّ العمل الحزبي يمثل الأسلوب القادر على مواجهة الانحراف الكبير في الساحة العراقية والساحات الإسلامية، وأنّ الحزب هو الذراع الذي تمكّن المرجعية من تحقيق أهدافها وسط الأمة. وانطلاقاً من هذه الرؤية الواضحة قام بتأسيس حزب الدعوة الإسلامية، وكتب بنفسه الأسس الفكرية للحزب ورسم الخطوط الأساسية لعمله وأطلق عليه اسم (الدعوة)؛ كل ذلك من أجل خدمة القضية الإسلامية ومدرسة أهل البيت عليهم السلام والحوزة العلمية والمرجعية الدينية.

لكن رغم كل ذلك فإنّه تعرض إلى حملة شرسة من قبل الأوساط الحوزوية التقليدية، وكان هؤلاء يشهرون بحزبيته وكأنها عمل مخالف للشريعة الإسلامية، رغم أنّ إفشاء مثل هذه الأمور يعرض حياته وحياة علماء الدين والرساليين المنضوين في حزب الدعوة إلى مخاطر الإعدام والاعتقال، ومع ذلك لم يتورع أولئك الناس من حملتهم التشهيرية لأنّ الهدف عندهم هو إسقاط السيد الصدر وتدمير مرجعيته الفتية.

يقول الشيخ محمد رضا النعماني في كتابه: «وحتى تأسيس حزب الدعوة الإسلامية الذي جعله البعض حرباً لطعنه، أو تشويه سمعته بين أبناء الأمة، ما كان إلا من أجل حماية كيان الإسلام والأمة الإسلامية، ومن الغريب أنّ البعض كان يسمح لأبنائه بالانتماء إلى حزب البعث الصليبي، ويحارب السيد الشهيد لتأسيسه حزب الدعوة الإسلامية. كان البعض ينتقد العلماء أثناء فترة الاحتلال الإنجليزي للعراق فيقول: إنهم حرّموا على أبنائنا دخول المدارس الإنجليزية في العراق، ولم يفتحوا لهم مدارس إسلامية، واليوم أسس لهم العلماء حزباً إسلامياً ليحصنهم من الانتماء إلى حزب البعث أو الحزب الشيوعي ومن الإلحاد عموماً، فإذا بهم كالبنيان المرصوص ضده. ولو أنّهم وقفوا عند حدود معقولة وناقشوا الأمر بروح

موضوعية وتعقلوا مدى صحة هذا الأسلوب أو ذاك، لكان أمراً سائغاً ومنطقياً، أما أن يعتبروا ذلك انحرافاً ويجعلوه حربة يحملونها بيد، وتحملها السلطة باليد الأخرى، فتسفك بها الدماء وتهتك بها الأعراض وتستحل الحرمات، فهو أمر بمكان من الخطورة جعل قلب الشهيد الصدر يتفجر دماً وروحه تفيض حزناً وألماً.

إنّ الجهل الذي يملا قلوبهم، أو قل الحقد الذي أعماههم وأضلهم كان ينجيل لهم أنّ المسألة محدودة بالشهيد الصدر فقط، ولن تتعداه إلى سواه، فإذا كان اتهامه بالحزب خير وسيلة للقضاء عليه فليكن هو الأسلوب المتبع.

وكان عليه السلام حينها تبلغه الاتهامات والافتراءات التي توجه إليه من قبل بعض الأطراف في الحوزة يقول: إنّ السلطة ما استهدفتني من بين المراجع الآخرين إلا بسبب ظروف وأوضاعي الخاصة، وإلا فإنّ هدفها أكبر وأشمل، إنّها استهدفت الوجود العام كله، المرجعيات كلها، والحوزات كلها بغض النظر عن فكرة الاتهامات الحزبية وما ذريعة الحزب إلا أداة لتضليل الناس.

والغريب أنّ هؤلاء الذين كانوا يشكلون جبهة متراصة لحرب السيد الشهيد والقضاء عليه، والذين يعتبرون أنفسهم في طليعة المؤمنين الموالين لأهل البيت لم يرتدعوا حتى بعد أن امتدت يد العفالة إلى شعائر الإمام الحسين عليه السلام، وقتل زواره وإبادتهم في كربلاء وفي الطريق إليها في انتفاضة صفر البطولية، لقد سكتوا جميعاً ولم يتخذوا إلا موقف المتفرج والدماء تسفك والأشلاء تطحن في أقبية مديريات الأمن حقداً وانتقاماً على أهل البيت وأنصارهم، وهم في كل صباح ومساء يلعنون قتلة الحسين عليه السلام ومن شابعهم إلى قيام يوم الدين، فما أغرب هذه المفارقة وما أبشعها⁽¹⁾.

هكذا كانت المواقف تصمم في بيوت التقليديين، وهكذا كانوا لا يتورعون من القيام بأي عمل من شأنه أن يضعف السيد الشهيد ويعزله عن جماهيره وقواعده التي آمنت به وشكلت ظاهرة متميزة في الحياة الاجتماعية في العراق خلال فترة قصيرة من الزمن.

(1) الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار: ص 175 - 176.

ويجب التأكيد هنا أنّ الشهيد الصدر رغم ما يراه من مواقف مضادة من قبل التقليديين، إلا أنه لم ينجر وراء ردود الفعل ولم يمارس أي موقف مضاد ضد المرجعيات التقليدية وضد المشهرين الذين يتسترون بها، بل إنه وانطلاقاً من حسه الرسالي وفهمه للدور الإسلامي المطلوب كان يدعم المرجعيات الدينية ويتصدى بقوة ومبدئية لأي محاولة تحاول النيل منها وإضعافها؛ لأنه يجد في ذلك توهيناً للخط العلماني وإضعافاً للوجود الإسلامي بأسره.

ويصور الشيخ النعماني في كلام آخر موقف المرجعية التقليدية من مرجعية السيد الشهيد فيقول: «إنّ أحد العلماء جاء إلى بيت السيد الشهيد، وكان يتكلم بانفعال وعصبية ويحاسب السيد الشهيد على تصديه للمرجعية وطبعه للفتاوى الواضحة، وقد سجل رحمته نتائج تلك المحادثات من خلال رسالة بعثها إلى أحد تلامذته - وهو السيد كاظم الخائري - وهذا مقطع منها:

«عزيزي أبا جواد في الفترة الأخيرة جاء إلى الزيارة السيد... وهو شخص لنا علاقات ورفاقة طويلة الأمد معه، وقد اجتمع بي ودارت أحاديث مفصلة خلال خمسة مجالس في محاولة لتصفية العلاقات وتوثيقها بين الجهة (وهو اصطلاح يعني به مرجعيته) ومرجعية السيد...

إنّ السيد... كان يعترض ويقول كيف تتصدى للمرجعية في عهد السيد، وقد شرحت له كل الظروف وكل سلبيات مرجعية السيد تجاهنا والتي فرضت الاضطرار إلى موقف من هذا القبيل. وبعد أخذ ورد طويلين قلت له: ماذا تريدون؟! قالوا: نريد أن نذكر بأنّ مرجعيتك طويلة. قلت: نعم أنا ألتزم بذلك. قالوا: نريد أن تؤكد لمحبيك أنّ طبع الرسالة للمقلدين شيء ومزاحمة المرجعية العليا وإيجاد التفاضل في الأعلمية والتعديل عن التقليد شيء آخر. قلت: وهذا أيضاً إتّي أراه منذ البداية والآن سوف أجدد التأكيد على أصحابي في هذا المجال...»⁽¹⁾.

كانت الأجواء التقليدية لا تتحمل أن يتصدى فقيه يتمتع بالرؤية

(1) الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار: ص 177.

الحركية الشمولية كالسيد الصدر لمهام المرجعية، لأنها ترى في ذلك تهديداً لها ولمصالحها، ولذلك يطلب رجالها من الشهيد الصدر صراحة أن لا يسمح بأن يتحول المقلدون من (المرجعية العليا) إلى مرجعيته، وأن يعلن أنّ مرجعيته هي في امتداد تلك المرجعية وليست منافسة لها. وهي مطالب غريبة في الحسابات المنطقية ولكن هكذا كان التقليديون يريدون للأمور أن تجري.

ورغم أنّ الشهيد الصدر وافق على مطالبهم ونفذها بصدق وإخلاص وأوعز إلى تلامذته بالالتزام بها، إلا أنّ المرجعية التقليدية لم توقف حملتها المعادية ضده، فقد استمرت محاولات التسقيط من قبل التقليديين، واستمرت حملات التشكيك والاتهام ضد الشهيد الصدر، كما تصاعدت محاولات عزله عن الجماهير بشتى الوسائل والطرق.

وقد استطاعت تلك الفئات أن تحقق النتائج التي تريدها في فترة من الفترات، وذلك عندما تصاعدت هذه الحملة إلى جانب الحملة الأخرى التي شنتها السلطة الظالمة على الحركة الإسلامية وعلى السيد الشهيد بصورة شرسة امتلات فيها المعتقلات بأبناء الصدر المجاهد. ففي تلك الفترة انحسر نشاط السيد الصدر على الصعيد المرجعي وتقلص عدد تلامذته بشكل ملحوظ. لكن تلك الفترة لم تطل فقد كانت الجماهير قد استوعبت فكر قائدها وتشبعت بروحيته الرسالية وتفهمت دورها التاريخي المطلوب، فعادت للالتفاف حوله والانضواء تحت رايته ونادت به قائداً، ومرجعاً، وزعيماً لحركتها الإسلامية الرامية إلى تحكيم أسس الإسلام الأصيل في الحياة، مهما كانت الظروف صعبة وشاقة.

والكلام في هذا المجال يطول ويطول⁽¹⁾.

(1) اعتمدنا في ما يتعلق بالإصلاح المرجعي على كتاب المرجعية الدينية من الذات إلى المؤسسة؛ للسيد حسين الشامي.

سؤال: هناك مشكلة كبيرة في مجتمعنا تواجه شبابنا وشاباتنا لاسيما لدى المراهق منهما، وهي مشكلة وقت الفراغ، خصوصاً عندما تطل عليهم الإجازة المدرسية، فمثلاً تلك الفتاة التي وصلت لمرحلة معينة في الدراسة ولم تستطع المواصلة لظروف معينة! تجلس في البيت لتمارس روتيناً معيناً مملأً، وذلك الشاب الذي كرس وقته للنوم وملاقة أصدقائه على اختلاف توجههم وفكرهم، وقد يوصلهما للتفكير في أمور غير شرعية نتيجة الفراغ القاتل!

ما هو تعليقكم على هذه المشكلة؟ وكيف نستطيع أن نحمي هؤلاء الشباب والشابات من هذا الداء العضال؟ وما هي الفوائد الرئيسية لتنظيم وقت الفراغ؟ وما هي الطريقة الناجعة للملئ وقت الفراغ فيما يعود عليهم بالنفع والخير؟

جواب: باختصار أقول:

الفراغ غول مخيف يفترس الإنسان العاطل، وهو من أقوى الأسلحة ضد الشباب. والمجتمعات التي لا تستثمر شبابها إنما هي مجتمعات تنتحر انتحاراً بطيئاً.

ونحن كمجتمعات عربية نعيش هذا الضياع ابتداء من قوانيننا البيروقراطية، والتي يضيع معها الكثير من الوقت، وإلى طابور الحجاز الذي تنتظر فيه مقدار ساعة من أجل أن تشتري ثلاثة أرغفة.

إننا لنعجب كل العجب من تلك الدول التي تعيش عالية على ما تنتجه العقول الشرقية والغربية في شتى مجالات الحياة - نعجب إذ ترك شبابها نهياً للفراغ والضياع.

إذا لم يكن عند المسؤولين والوزراء والتربويين فرصة لمعالجة هذا المدمر العاتي فلنبدأ بأضعف الإيمان:

لماذا لا نقيم معسكرات عمل للشباب على جميع الجبهات، وعلى كل

المستويات، وكأته استنفار عام، وتعبئة شاملة؟

لماذا لا نقيم للشباب معسكرات للتدريب الجسدي في فترات إجازاتهم لتنمي فيهم روح البطولة، ولتكون بمثابة متنفس نظيف لطاقتهم المذخورة في كيانهم؟

لماذا لا تقوم الأجهزة المسئولة عن الشباب في كل بلد مسلم بإقامة المعسكرات الإسلامية، وإقامة النوادي (النظيفة) التي تستمد لوائحها ونظامها من خلق الإسلام وسلوكه؟

إنه الإهمال وسوء التخطيط الذي أصبح سمة لعامة مجتمعاتنا في هذا العصر.

ونحن نعلم كيف كان موقع الشباب في صدر الإسلام، وكيف أن رسول الله ﷺ لم يترك شبابه وقوداً هشاً لنار الفراغ المحرقة.

فلا عجب إذا رأينا رجلاً كمونتجمري وات يقول: «إن الإسلام كان في الأساس حركة شباب».

نعم، كان حركة شباب، وبسواعدهم ارتفع البناء شامخاً.

أصبحت مسألة وقت الفراغ هذه لها أبعاداً سياسية، فهناك ضبط وربط تمارسه الأنظمة في هذه المساحة، وهناك وقت فراغ مشروع مثل كل ما سبق، وآخر غير مشروع إذا كان يؤدي إلى: مشروع واع.

إن وقت الفراغ يقسم الناس ويحدد الهوية، فالذي يقضي وقت فراغه في عطلة نهاية الأسبوع في حانة والذي يقضيه في المسجد القريب هل يمكن أن نضمهما معاً في إطار مواطنة واحدة؟!

أم أنّ كلاهما ينظر لجاره باعتباره: الآخر/ العدو/ الغريب!

ويصبح عندئذ الذي يذهب للكنيسة - رغم اختلاف الدين - أقرب لمرنات المسجد من زائر الحانات والحوانيت الذي كتب في حانة الدين في البطاقة أنه من نفس العقيدة؟!

إنّ الطبقيّة والأيدولوجية وغيرهما من المفاهيم قد تصلح للتحليل السياسي والاجتماعي، وتشرح وتفسر مسيرة التاريخ.. والآن لدينا وحدة تحليلية جديدة وكاشفة هي: وقت الفراغ.

إذن: قل لي كيف تقضي وقت فراغك؛ أقل لك من أنت.

وببساطة: إنّ عالم اليوم هو عالم الفراغ كما يصف (كينيث روبرتز) ذلك في كتابه المعروف عن الفراغ، وأصبحت هناك علاقة بين ممارسة النشاطات الترويجية أو نشاطات الوقت الحر وبين القيم التي تتأسس عليها، وتترسخ هذه العلاقة أكثر كلما كان المجتمع أكثر اقتراباً من الصناعة والتكنولوجيا الحديثة، بينما تكاد تنعدم تماماً في البلدان المتخلفة، حيث المجتمعات فيها لا تفرق بين وقت الفراغ ووقت العمل لبساطة الأساليب المعتمدة في العيش، ومنها المجتمعات الزراعية والرعيّة والبدوية، وقد تترتب نتائج مستقبلية على طريقة تعامل المجتمعات الحديثة مع الوقت الحر، بحيث يحصل التغيير الاجتماعي الذي يوجه المجتمع إيجابياً من خلال تعامله مع عنصر الزمن، أو يركسها بحيث لا تعود قادرة على النهوض ثانية، وهناك أمثلة عديدة في هذا المجال منها، صورة المجتمع السوفيّاتي السابق، الذي كان لا يهرب من عبء العمل وضغوطه فحسب بل ومن حالة القهر السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فظهرت طوابير من المعتمهين والمدهنيين شكلت سمة واضحة لبعض المجتمعات التي تعيش ضمن هذه البقعة الجغرافية الكبيرة وربما يكون ذلك أحد أسباب الانهيار الكبير الذي حصل في بنية السياسية والاجتماع السوفيّاتي وبالتالي إلغاء كيانه الموحد من على خارطة العالم.

أما عالم الرأسمالية اليوم فهو أكثر عرضة للسقوط الاجتماعي عدا الأنواع الأخرى من السقوط، إذا ما قسناه ببنية المجتمعات الاشتراكية السابقة، وتبقى كلمات منظري المجتمع الرأسمالي حبراً على ورق، فهذا المجتمع يعيش أزمة دائمة ومأزقاً يكاد يكون مقفلاً حتى أتهم - أي هؤلاء المنظرين - سلّموا بأنّ الفراغ هو النظام الأساسي في المجتمع المعاصر وأنّه هو الذي يشكل أسلوب الحياة ككل والاتجاهات التي تطورها كما يقول دي مازدييه في كتاب (الفراغ).

ولا شك فإن هذه النتيجة خطيرة جداً إذا ما عرفنا أن المجتمع الأمريكي مثلاً - يحدد وقته الحر بنشاطات غير قادرة على تطور مجتمعه ثقافياً أو سياسياً، وعلى العكس من ذلك المجتمع الياباني الذي قفز خطوات كبيرة في سبيل إنماء ثقافته وتطورها عبر وسائل خففت من وقت الفراغ الحر، وطورت أساليب العمل بإدخال بعض الوسائل التي يجهلها المجتمع الغربي، كالفترات الرياضية ضمن ساعات العمل مثلاً والتي تتيح للعامل قابلية الاستمرار على عمله دون الإجهاد والتعب وإعاقه قدراته الجسمية والروحية⁽¹⁾.

ولا بأس أن نلحق ما جاء في تحقيق صحفي يحمل عنواناً: «كيف يقضي الطلبة أوقات فراغهم في العطلة الصيفية»:

«إن مشكلة الفراغ الذي يعاني منه الشباب في المجتمعات الحديثة مشكلة لها آثارها السلبية على الفرد والمجتمع ويظهر هذا الفراغ بشكل واضح في فصل الصيف وخاصة لدى طلاب المدارس بعد نهاية كل عام دراسي وحول هذا الموضوع التقت (الوطن): بعدد من الشباب في مختلف الأعمار للتعرف على آرائهم حول هذه المشكلة وما هي الحلول التي تناسب ميولهم وأفكارهم حيث كان لقاءنا الأول مع سالم الراشدي طالب جامعي الذي قال: إن وقت الفراغ مشكلة يجب وضع لها حلول أو التغلب عليها قدر الإمكان مشيراً إلى استغلال وقت فراغ بالقراءة وبتقسيم الوقت بحيث لا يجد وقت يحس فيه بالملل وخاصة في فصل الصيف مؤكداً على أن يستغل الفرد وقت فراغه بما ينفع الناس ويخدم مجتمعه من خلال المشاركة في المناشط الصيفية التي في المنطقة التي يقطن فيها ويستطيع من خلال هذه المناشط أن يُنمي مواهبه.

والتقينا مع الطالب عاصم بن حميد الحديدي الذي أكد أنّ وقت الفراغ مشكلة تواجه الكثير من الشباب وخاصة في العطلة الصيفية وحول كيفية استغلاله لوقت الفراغ قال: التحقت بالمعهد العماني لتعليم الخط والتدريب الإداري وذلك لأستفيد من وقتي واصقل مهاراتي واكسب

(1) انظر: الفراغ ومشكلات استشاره؛ إحسان محمد الحسن.

معارف جديدة وبعض اللغات الأجنبية مثل اللغة الإنكليزية وأضاف:
كنت أعاني من مشكلة في عدم فهم اللغة الإنكليزية حيث سببت لي هذه
المشكلة الكثير من المتاعب في المدرسة ولكن الحمد لله بعد التحاقني
بالمعهد تحسن مستواي في اللغة الإنكليزية فأنا الآن ادرس للسنة الثانية في
هذا المعهد.

وقال: إنه يجب على الطلبة أن يستثمروا وقت الفراغ فيما يفيدهم
ويعود عليهم بالنفع كالالتحاق بالمعاهد وغيرها وأضاف: زميله عبدالله
البراشدي طالب بالصف الثاني الثانوي والذي قال: إني فكرت أني أقضي
إجازتي في شيء مفيد يعود عليّ بالنفع والفائدة ولذلك قررت على مواصلة
الدراسة الصيفية.

وقد أشار عليّ والدي بالالتحاق بأحد بالمعاهد لدراسة اللغة
الإنكليزية وفعلاً التحقت بالمعهد وأنا الآن أقضي وقتي بشكل ممتع ومفيد
في نفس الوقت ولا يوجد لدي وقت فراغ مشيراً إلى أنه يجب على الطلبة
والشباب بوجه خاص استغلال أوقات فراغهم بما يعود عليهم بالنفع
وأضاف عبدالله البراشدي: أن استغلال الإجازة الصيفية في التعليم يعتبر
أفضل السبل لمن أراد أن يستغل وقته ويقضي على وقت فراغه...».

ومن هنا لا بدّ أن نأخذ ما يفعله الفراغ في أجسام شبابنا وعقولهم
وتطلعاتهم مأخذ الجد، وأن نقرب إلى وعيهم أهمية هذا الوقت وكيفية
استثماره، ولذا يوجه الرسول ﷺ النظر إلى أنّ الوقت من النعم التي لا يشعر
بها الإنسان فيقول: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ »⁽¹⁾.

وعنه ﷺ: « خلتان كثير من الناس فيهما مفتون: الصحة والفراغ »⁽²⁾.

ويقول ﷺ: « إنّ الله يبغض الصحيح الفارغ، لا في شغل الدنيا ولا في
شغل الآخرة »⁽³⁾.

(1) صحيح البخاري: ج 5 ص 2357 ح 6049، وسنن الترمذي: ج 4 ص 550 ح 2304.

(2) الكافي: ج 8 ص 152.

(3) شرح نهج البلاغة: ج 17 ص 146.

ولذا تلاحظ أثناء قراءتك للمبدعين أن أكثر إبداعاتهم ونتائجهم كان في فترة الفراغ تلك.

ويصور الله تعالى مشاهد الحسرة التي تقطع نياط قلوب الغافلين عند الموت فيقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿۱﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿۱﴾.

﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿۲﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿۲﴾.

ولأن هذه الأعمار كانت خراباً وشفراً من كل عمل نافع من الأعمال الصالحة. فإن أصحابها يتوهمون أن عشرات السنين التي مكثوا فيها على الأرض ما هي إلا ساعة، أو عشية وضحاها أو يوم أو بعض يوم.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿۳﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿۴﴾.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿۵﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿۵﴾.

فوقت الإنسان هو عمره، وهو أعلى من الذهب، لأن الذهب يذهب ويعود والعمر إذا ذهب فإنه لا يعود:

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منك انتقضت به جزءاً
فتصبح في نقص وتمسي بمثله وما لك معمول تحس به رزءاً

(1) المؤمنون: 100.

(2) المنافقون: 10 - 11.

(3) الروم: 55.

(4) النازعات: 46.

(5) المؤمنون: 112 - 113.

وليته إذا مضى لا يخلف آثاراً ولا تبعات، ولكن يسأل عنه كل إنسان في ساحات القيامة قال عليه السلام: « ما نزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه »⁽¹⁾.

سؤال: تعلمون -شيخنا العزيز- ما تسببه بعض المحطات الفضائية وبعض المواقع الإباحية أو السامة فكرياً وعقائدياً، وكذلك بعض الأوضاع العامة في البلاد الإسلامية من فساد وانحلال أخلاقي في المجتمع والذي نعايشه يومياً على الأغلب. فهل تتوقعون من (المنبر) وهو موسمي ومحدود أن يقاوم ويصلح ما أفسدته هذه القنوات الفاسدة بشئ عناوينها، رغم أن المنبر سلاح يفترض أن يكون قوياً لمحاربة مفاسد المجتمع. وما هي نظرتكم لمستقبل المنبر؟ فهل ترون أنه يؤدي دوره بفاعلية؟ أم أن هناك خللاً في جهة معينة تحتاج إلى غريلة؟

جواب: إن سلامة الإنسان بسلامة خطوط العلاقة والارتباط الذي تربطه بالآخرين، وكلما كانت العلاقة أسلم كان حال الإنسان أفضل وأسلم، ولذلك فإن لشبكة العلاقات التي تربط الفرد بالآخرين أهمية كبيرة في سلامة الإنسان واستقامته وسعادته، حتى إننا نستطيع أن نقوم الإنسان بعلاقاته وصلاته وارتباطاته.

فإذا كانت علاقات الإنسان بالآخرين قائمة على أساس العدل والإنصاف والتعاون والإيثار والمحبة، كان الإنسان صاحب هذه العلاقات سعيداً مستقيماً في حياته، وإذا كانت علاقته بالآخرين قائمة على أساس الاستئثار والعدوان والخداع والمكر، كان الإنسان قلقاً معذباً بهذه العلاقة.

كما يصح العكس أيضاً، فكلما يكون الإنسان صالحاً تكون علاقاته بالآخرين صالحة وقائمة على أسس صحيحة وأخلاقية، وكلما يكون

(1) مجمع الزوائد: ج 10 ص 346، والمعجم الكبير: ج 20 ص 60.

الإنسان منطوياً على نية السوء فإنّ علاقته بالآخرين أيضاً تتصف بالخبث والمكر والسوء والعدوان.

إذن بين الإنسان وعلاقته بالآخرين علاقة متبادلة يؤثر كل منهما بالآخر فيشقى الإنسان بسوء العلاقة، كما تسوء علاقة الإنسان بالآخرين بشقائه وخبثه.

ولذلك يهتم الإسلام اهتماماً بليغاً بأمر نسيج العلاقات الذي يربط الإنسان بالآخرين، ويسعى لترتيب هذا النسيج، بكل ما يمكن في حياة الإنسان وعلاقته من متانة وقوة ومودة ومحبة وتفاهم.

قد يقول بعض الناس إنّ الآخرين يكفروننا ويضللوننا ويفسقوننا، فلا بدّ أن نقابل ذلك بالمثل: تكفيراً بتكفير، وتضليلاً بتضليل، وتفسيقاً بتفسيق، وحقداً في مقابل حقد، حتى أنّ بعض المسلمين، من هذا الجانب أو ذاك، أصبحوا يقولون كما كان اليهود يقولون عن المشركين: ﴿هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾⁽¹⁾.

فلقد وصل الحد بنا في التعصب في الواقع الإسلامي إلى أن يقول المسلم عن المسلمين الآخرين إنّ الكافرين أهدى منهم، في حين أنّ المسلم مهما بلغ من الانحراف فلا يمكن أن يكون الكافر أفضل منه لأنّ القضية هي قضية الإسلام والإيمان وهي الأساس في ذلك.

إنّما كلمات أخذت مساراً آخر، أرجو أن يتحمل مجداً في الصغير ما أعانته في هذا المحيط العاتي.

أما بالنسبة إلى ما سألت حول المنبر، فأنت قد وضعت ملحاً على جرح مفتوق لم يندمل بعد.

لقد اختصر الشهيد المطهري كلامه حول المنبر، فقال: «لقد استشهد الحسين عليه السلام مرتين، مرة في كربلاء على أيدي الجناة، والثانية على أيدي بعض خطباء المنبر الحسيني من خلال ما يطرح من أكاذيب وتحريفات للواقع».

(1) النساء: 51.

إذن ما هو رأيك بما تبقى؟!

وربما لا يعلم الكثير أنّ للمنبر الحسيني شرطين أساسيين، وهو ما قاله الإمام زين العابدين عليه السلام في مجلس يزيد بن معاوية: «إني أريد أن أصعد هذه الأعواد لأقول ما لله فيه رضا، ولهُؤلاء الناس صلاح»⁽¹⁾، فإذا توفر هذان الشرطان فإنّ المنبر له فاعليته وتأثيره، وإذا فقد ذلك فإنّ هذا المنبر ليس منبراً حسيّناً، بل هو منبر آخر، ولتسمه كيفما شئت.

فحال المنبر حال الصلاة وبقية العبادات فإنّه إن استفاد الإنسان من هذه الأشياء بأن أمرته بمعروف ونهته عن منكر ونوّرت فكره فيها ونعمت، وإن كان لم يستفد شيئاً فالعهددة على الإنسان ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾⁽²⁾.

لقد سمعت الكثير من الخطباء يساومون على خطابتهم كمن يساوم المشتري البضاعة من البائع، وسمعت الكثير من الخطباء يقول: «اشتهر ودب سلاحك».

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف تتوقع من منبر موسمي ومحدود أن يقاوم ويصلح ما أفسدته هذه القنوات الفاسدة بشتى عناوينها، ومن يرتقيه لا يملك القوة الكافية - من ثقافة ووعي وفكر - لمحاربة مفاسد المجتمع.

فوعي الخطيب ينطلق من:

أولاً: أن نؤمن بحقيقة إنسانية ثقافية وهي أنّه ليس هناك أحد يملك الحقيقة المطلقة، فكل واحد منا يملك الحقيقة من وجهة نظره، ولكل منا ثقافته، وخلفيته العلمية في المدرسة التي ينتمي إليها.

فقد اعتبر الإسلام الخلاف الفكري وسيلة مناسبة للحوار ﴿اذْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽³⁾.

(1) بحار الأنوار: ج 45 ص 137.

(2) القيامة: 14.

(3) النحل: 125.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽¹⁾.

فعلينا أن نتحاور فيما اختلفنا فيه، وأن يعتبر كل واحد منا أنه إذا كان من حقه أن يختلف مع الآخرين فلماذا لا يكون من حق الآخرين أن يختلفوا معه؟

إن المتخلفين هم الذين يفرضون أنفسهم على الآخرين من دون أن يجربوا إقناعهم، والقرآن الكريم أطلق الفكرة في ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽²⁾.

ثانياً: الموضوعية: وهي أن تدرس القضية مع الآخرين من خلال عناصرها، فربما هناك فكرة لا توافق عليها أكثرية المجتمع، ولكن ليس معنى هذا أن الفكرة خطأ، وليس معناها أن هذا الرجل سيهدم المجتمع، فعندما جاء الأنبياء ﷺ كان النبي ﷺ يقف منفرداً وكانت الأمة كلها تقف ضده إلا ثلة قليلة، والله تعالى يقول في أكثر من موضع: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنّ هناك بعض الناس يوحون لك أنّ كل الناس ضد هذه الفكرة، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، وإنّما هم الذين ترتفع أصواتهم، أما الذين لا صوت لهم ولا أحد يعرف رأيهم أو الأكثرية الصامتة، فقد يكون لهم رأي آخر، فأن يكون الناس على فكرة فليس معناه أن هذه الفكرة هي الحق، لأنّ الأكثرية لا تمثل الحق، بل قد يكون الحق مع الأقلية، والتاريخ هو تاريخ المصلحين، وإذا كانت النظرة هي أنّ الحق مع الأكثرية، فإنّ أكثرية الناس كانت مع يزيد، والقلة في ظاهرها مع الحسين ﷺ، وقد ترجم هذا أحد من التقاهم الإمام الحسين ﷺ عندما سأله عن أحوال الناس في الكوفة بقوله: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية»⁽³⁾.

إنّ الموضوعية لا تعني أننا عندما نناقش فكرة يجب أن نراعي كم هم الذين يتبعونها؟ وكم هم الذين يرفضونها؟

(1) العنكبوت: 46.

(2) البقرة: 111.

(3) أنساب الأشراف: ج 3 ص 413.

بل ما هي العناصر الموجودة في داخل هذه الفكرة؟ وهل هي عناصر تؤيد الفكرة أو تعارضها؟

ثالثاً: لا بد لنا أن نعرف أننا عندما نعرض الأفكار التي عندنا فإنها ليست جزءاً من تكويننا، فهذه الأفكار التي نحملها إما أن تكون أفكاراً ورثناها أو أفكاراً أنتجناها، فهي ليست جزءاً من ذاتنا، فإذا أراد شخص أن يقنعني أنّ فكري خطأ فربما يكون ما ورثته خطأ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (1).

وإذا قال لي أخطأت، فلماذا أغضب؟

فالفكرة ليست جزءاً من ذاتي، فهناك فرق بين أن تكون متعصباً وبين أن تكون مفكراً، فلا يمكن أن تكون مفكراً ومثقفاً وتكون متعصباً في نفس الوقت، لأنّ العصبية انغلاق، فيما نجد أنّ الفكر انفتاح.

ثم علينا أن نعرف أننا نريد الحقيقة والله تعالى أعطى للنبي ﷺ منهجاً يخاطب به الناس عندما كانوا يقولون عنه أنه مجنون ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ خَوْفًا وَبُغْضًا﴾ (2)، انفصلوا عن الجوّ المحموم وكل واحد أو كل اثنين يفكرون بمعزل عن الجوّ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (3).

فعندما نختلف فإنّ معنى هذا أننا نستطيع أن نتفاهم أكثر في القضايا التي نختلف فيها.

ولا شك أنّ اجتماع الناس في عاشوراء يلقي على صاحب المنبر مسؤولية كبيرة، إذ ليس كعاشوراء فرصة يستطيع من خلالها أن يعمق الوعي الإسلامي، وينقد الأوضاع اللا أخلاقية وينفتح على القضايا العامة، ويقارن بين المأساة التي كان قد عاشها أهل البيت ﷺ والمأساة التي تتحرك في الواقع مثل المآسي التي تعيش في أكثر من بلد إسلامي وفي

(1) الزخرف: 22.

(2) سبأ: 46.

(3) سبأ: 46.

مقدمتها القضية الفلسطينية، والقضية العراقية.

عند ذلك يشعر الإنسان وهو يستمع إلى مأساة الحسين عليه السلام أنّه لا يريد أن يتمثل المأساة في الماضي، لأنك عندما تربط بين مآسي الحاضر وبين مأساة الإمام الحسين عليه السلام في خط معين فإنك تستطيع أن تتمثل تلك المأساة في هذه المأساة.

إنّ مأساة الحسين هي مأساة معرفية قبل أن تكون تصفية جسدية، وهو الذي نبه عليها الحسين عليه السلام في قضيته المتمثلة بالوعي الإسلامي وبالالتزام بمبادئ أن تعيش على أساس العزة «ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلة وهيئات منا الذلة»، هذه الشعارات الثورية بإمكاننا أن نوجهها لكل إنسان يظلم أو يتجبر.

سؤال: ما هو مفهوم الإصلاح الديني في قضية كربلاء؟

جواب: إنّ مفهوم الإصلاح الديني لا يعني بالضرورة إنتاج مذهب جديد أو إبداع منظومة من المفاهيم الدينية، بل إنّ مفهوم الإصلاح يتسع ليشمل حتى القضاء على مدرسة فكرية قد ارتدت اللباس الديني وهي لا تمت إلى الدين بصلة.

أولاً: مفهوم الإصلاح الديني:

وعندما نتحدث عن عملية إصلاح ديني فمعنى ذلك تحقق عناصر تلك العملية في الدائرة الدينية، وهذه العناصر هي:

1- المقاييس الإصلاحية: وتتمثل في الدين نفسه بصورته النقية وبمصادره الأساسية (القرآن والسنة) حيث يصبح النص الديني مرجعاً يرجع إليه من أجل إصلاح كل تلك المفاهيم التي نسبت إلى الدين وهي غريبة عنه ودخيلة عليه.

2- القيادة الإصلاحية: بحيث:

أ - تعي تلك المقاييس بشكل دقيق.

ب- وتدرك ضوابط العملية الإسلامية.

ج- وتعرف أهداف العمل الإصلاحي.

د- مستعدة لأن تدفع ثمن الإصلاح مهما غلت تضحياته؛ قناعة منها بضرورته رغم ما ينطوي عليه مشروع الإصلاح الديني من مخاطر.

3- مبررات العمل الإصلاحي: وهو حصول انحراف ما في الدائرة الدينية الذي له أشكال متعددة من قبيل:

أ - أن تنحرف مسيرة دينية بأكملها فتحتاج إلى عمل يعيدها إلى طريقها الصحيح.

ب- أو أن ينشأ مذهب فكري أو مدرسة فكرية في الإطار الديني، أي أن تأخذ من الدين تبريراً معرفياً لها لتضفي على مفاهيمها ومعتقداتها لباساً دينياً مع كونها تخالف النص الديني.

وينبغي أن نلتفت إلى قضية جداً مهمة وهي أنه عندما نريد أن نقرأ تجربة معينة من تجارب الإصلاح الديني يجب أن لا نأسر فكرنا بين جدران تلك التجربة بمعنى أن لا نمتلك القدرة على استخلاص مفاهيمها، بل يجب أن نكون دقيقين جداً من ناحية التفريق بين العوامل والسنن التي حكمت الواقع التاريخي.

ولا شك أنّ الإصلاح هو هدف أساسي من أهداف الأنبياء عليهم السلام، ولذا كانت دعوتهم عليهم السلام تشدد على عملية الإصلاح وعلى النهي عن الإفساد والسعي للقضاء عليه بكافة أشكاله وصوره، وإن أكثر معاناة الأنبياء والأوصياء والأئمة عليهم السلام إنما كانت بسبب مشاريعهم الإصلاحية.

ولا نستطيع في عجلة من الوقت أن نتحدث عن دور الإصلاح ومظاهره عند كل نبي أو رسول أو إمام والذي يهمنا هو (الإصلاح الديني في تجربة الثورة الحسينية).

ثانياً: الإصلاح الديني في تجربة الثورة الحسينية:

ما هو الهدف من الثورة الحسينية؟

1- بعضهم ذهب إلى أنّ الهدف هو إيقاظ الأمة، كما ذهب إليه الشهيد الصدر، وحكاه عنه أستاذنا السيد كاظم الحائري.

2- وبعضهم ذهب إلى أنّ الهدف هو الوصول إلى الحكم.

3- الهدف هو نزع المشروعية السياسية والدينية عن السلطة الأموية، حيث كانت هذه السلطة تقدم صورة مشوهة عن الإسلام، كما تسعى لاستغلال الدين من أجل تبرير أفعالها. لذا عمدت إلى شراء بعض الشخصيات العلمية ممن يباع ويشترى وستخرت وسائلها الإعلامية من أجل تحسين صورتها وتلميع مظهرها..

فضلاً عن أنّ السلطة الأموية قد عملت على تكوين مدرسة فكرية لتعطي لعملها السياسي مشروعته الدينية باعتبار أنّ المشروعية السياسية في تلك الفترة كانت تأتي من خلال المشروعية الدينية.

وبالتالي كان من الضروري القيام بعمل استثنائي ووقوع حدث كبير - كشهادة الإمام الحسين عليه السلام - يؤدي بشكل مباشر إلى تحطيم تلك السلطة معنوياً ودينياً وشعبياً وتؤدي تداعياته إلى إضعافها تمهيداً لسقوطها ولو بعد حين من الزمن.

ثالثاً: اسباب النهضة الحسينية:

عندما نأتي لدراسة الحوافز الأساسية لقيام الحسين عليه السلام بثورته المباركة لا بدّ حينئذ أن نقف على المدرسة الفكرية لهذه السلطة.

بادئ ذي بدء لا بد أن نعلم بأنّ السلطة الأموية حاولت الاستفادة من علوم عديدة لتكون بمثابة أدوات معرفية لها لكنّها تركت آثارها بشكل خاص في علوم الحديث والتفسير والكلام.

وبعبارة دقيقة: إدراكاً من السلطة للعلاقة الوثيقة بين الديني المعرفي

والسياسي، سواء من ناحية المشروعية السياسية، أو من ناحية موقف المجتمع الإسلامي من السلطة نفسها؛ فإن مصالحها السياسية تقتضي أن تجعل من المعرفة الدينية أداة أساسية تستخدمها لخدمة مشروعها السلطوي وقد تمثل هذا الاستخدام من جهتين:

أ - ضرب المدرسة الثقافية للخصم (أهل البيت).

ب- إنشاء مدرستهم الثقافية التي سيكون دورها تقديم المادة المعرفية التي تضمن ولاء الأمة للسلطة وتحرم الخروج عليها ومقاومتها.

1- تحطيم المدرسة المعرفية والفكرية لأهل البيت عليهم السلام:

ومن أمثله:

أ - اختلاق الأحاديث لدم علي عليه السلام.

ب- شتم الإمام علي عليه السلام وسبه.

ج- لعن الإمام علي عليه السلام.

2 - المدرسة الفكرية للسلطة الأموية:

أولاً: حرمة الخروج على الحاكم الظالم:

إنّ السلطة الأموية كان يعنيها كثيراً أن يترسخ هذا المفهوم في الوعي الديني للمجتمع الإسلامي، لأنه يعود بفائدة مباشرة وكبيرة على تلك السلطة إذ إنّه يخدر المجتمع ويكبل يديه ليمنعه من الإصلاح والعمل لتغيير الواقع الفاسد والمنحرف.

ولذلك نجد عبارات من قبيل: الخروج على الإمام ومعصيته، وشق عصا المسلمين، ومفارقة الجماعة.. قد أصبحت هذه المبررات محل عناية فائقة من قبل رموز السلطة في محاججاتهم السياسية مع المعارضة وقوى الإصلاح.

ولهذا كانت بعض الأحاديث محل عناية من الجهاز الثقافي للسلطة من قبيل:

« يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع؛ قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا»⁽¹⁾.

وعن حذيفة عنه عليه السلام: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس؛ قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع»⁽²⁾.

إن حشد هذا المفهوم كانت له تداعيات خطيرة على مستوى تشكيل الوعي (الديني - السياسي) للمجتمع الإسلامي ومن هذه التداعيات:

- أ - حرمة الخروج على الحاكم الظالم.
- ب - وجوب طاعة الحاكم الظالم.
- ج - حرمة نقض البيعة للحاكم الظالم.
- د - حرمة الخروج على الجماعة وشق عصا المسلمين. وهذا ما قاله معاوية صريحاً لعبدالله بن عمر عندما سأله عن سبب تنصيب يزيد خليفة: «إني أحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم»⁽³⁾.

ثانياً: رفع المكانة المعنوية والعلمية لرموز مدرسة الخلافة:

في الوقت الذي سعت السلطة الأموية لتحطيم المكانة العلمية والمعنوية لأهل البيت عليهم السلام فإنها سعت في المقابل إلى رفع المكانة العلمية والمعنوية لرموز مدرسة الخلافة.

كتب معاوية إلى عماله: «انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم، وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إلي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه

(1) صحيح مسلم: ج 3 ص 1481 ح 1854.

(2) صحيح مسلم: ج 3 ص 1476 ح 1847.

(3) الإمامة والسياسة: ص 210.

وعشيرته،⁽¹⁾.

ففعّلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعث إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع ويفيضة في العرب منهم والموالي؛ فكثرت ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدينا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه. فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله: «إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة؛ فإنّ هذا أحب إلي، وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله»⁽²⁾.

ثالثاً: نظرية عدالة الصحابة:

لقد أراد معاوية تعويم مفهوم الصحابي وإعطائه بعداً دينياً وتقديمه بهالة من القدسية ليمتلك قدرته على التأثير في نفوس المسلمين ووعيهم، لقد أراد أن يعطي سلطة دينية لهذا المفهوم؛ لأنه لم يكن يمتلك سوى هذا السلاح من المشروعية الدينية.

ومن خلال النص السابق نعلم أنّ معاوية بن أبي سفيان أراد أن يشهر فضائل الصحابي وأن لا يترك رواية تتحدث عن فضل الإمام علي عليه السلام ومكانته إلا ويريد في مقابلها رواية تتحدث عن فضيلة الصحابي ومكانته؛ لأنه في تعبيره أدحض لحجة علي وشيعته.

رابعاً: الجبر:

وتعتمد على التلاعب في أسس الدين وعقائده ومفاهيمه الصحيحة، ومن أخطر ما روجوه بين الأمة وأكدوا على إشاعته هو فكرة الجبر الإلهي

(1) شرح نهج البلاغة: ج 11 ص 44.

(2) شرح نهج البلاغة: ج 11 ص 44.

يهدف التمكّن من السلطة والسيطرة التامة على مصير الناس.

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي: «أظهر معاوية أنّ ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه ويوهم أنّه مصيب فيه، وأنّ الله جعله إماماً وولاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني أمية»⁽¹⁾.

ولقد كان معاوية يعلن أثناء ولايته في عهد عثمان أنّ المال مال الله لا مال المسلمين ليحتجّن هذه الأموال ويحتجزها لنفسه كما كان يستند في إقامة ملكه إلى أيديولوجية مستمدة من نظرية التفويض الإلهي والحق الديني للملوك، وكان في ذلك تشويه للسياسة الشرعية للمسلمين من حيث أراد أن يستغل الدين من أجل الملك ويخضع العقائد لأهواء الحاكم⁽²⁾.

إنّ المشكلة الكبيرة التي كانت تواجه معاوية هي قضية تنصيب ولده يزيد خليفة على المسلمين، لذا كان على معاوية أن يحجّر في بعض مفاهيم الدين من أجل أن يبرر تولية ابنه.

ينقل إلينا التاريخ أنّ معاوية قد قصد المدينة المنورة من أجل تهيئة الظروف المناسبة لولاية يزيد وأخذ البيعة له، وقد التقى في سبيل ذلك بأمّ المؤمنين عائشة فكان مما قاله لها: «إنّ أمر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أمرهم»⁽³⁾.

وقد استخدم هذا الأسلوب أيضاً مع عبد الله بن عمر فقال: «إنّ أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم»⁽⁴⁾.

ولكم أن تتصوروا كم ستجر وراء هذه الفكرة الخبيثة من المآسي؛ حيث فتحت للسلطة الباب على مصراعيه من أجل ارتكاب أفظع وأشنع الجرائم طالما أنّ الخطاب التبريري حاضر من أجل أن يرفع عن السلطة ورموزها كافة أشكال المسؤولية، باعتبار أنّ ما حصل إنّما هو من قضاء الله.

(1) المغني، كتاب المخلوق: ص 4.

(2) اقرأ: العدالة الاجتماعية، لسيد قطب.

(3) الملل والنحل، سبحاني: ج 1 ص 240.

(4) م.ن.

وهذه السياسية التبريرية كانت حاضرة في ذلك الحوار الذي دار بين يزيد والإمام زين العابدين عليه السلام.

ينقل المفيد: أنه لما أدخل علي بن الحسين عليه السلام وعيال الحسين على يزيد «قال له يزيد: يا بن حسين، أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت. فقال علي بن الحسين: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾⁽¹⁾،⁽²⁾.

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام قد واجه المنطق نفسه من عامل يزيد عبيد الله بن زياد أثناء أسره في الكوفة.

«فقد عرض عليه علي بن الحسين عليه السلام فقال له: مَنْ أَنْتَ؟

فقال: «أنا علي بن الحسين».

فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

فقال له علي عليه السلام: «قد كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس».

فقال له ابن زياد: بل الله قتله.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾⁽³⁾،⁽⁴⁾.

ويذكر الشيخ المفيد أيضاً أنه: «لما وصل رأس الحسين عليه السلام.. جلس ابن زياد للناس في قصر الإمارة وأذن للناس إذناً عاماً وأمر بإحضار الرأس فوضع بين يديه وجعل ينظر إليه ويتبسم وفي يده قضيب يضرب به ثناياه وكان إلى جانبه زيد بن أرقم صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو شيخ كبير فلما رآه يضرب بالقضيب ثناياه قال له: ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله

(1) الحديد: 22.

(2) الإرشاد: ج 2 ص 120.

(3) الزمر: 42.

(4) الإرشاد: ج 2 ص 116.

الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ عليهما ما لا أحصيه كثرة تقبلهما؛ ثم انتحب باكياً، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك أتبكي لفتح الله والله لو لا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك، فنهض زيد بن أرقم من بين يديه وصار إلى منزله»⁽¹⁾.

ويبدو هذا المنطق واضحاً في حوار ابن زياد مع السيدة زينب عليها السلام إذ توجه إليها قائلاً: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذب أحدوئتكم.

فقالت زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بنيه محمد ﷺ وطهرنا من الرجس تطهيراً وإنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله.

فقال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟.

قالت: كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتختصمون عنده⁽²⁾.

أما عمر بن سعد فإنه لما اعترض عليه عبدالله بن مطيع العدوي قائلاً: اخترت همدان والري على قتل ابن عمك؛ فإنه أجاب بقوله: كانت أمور قضيت من السماء⁽³⁾.

يقول الدكتور أحمد محمود صبحي: «إن معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب ولكن بأيدولوجية تمس العقيدة في الصميم، ولقد كان يعلن في الناس أنّ الخلافة بينه وبين علي قد احتكما فيها إلى الله فقضى الله له على علي... وهكذا كاد يستقر في أذهان المسلمين أنّ كل ما يأمر به الخليفة حتى لو كانت طاعة الله في خلافه قضاء من الله قد قدر على العباد»⁽⁴⁾.

خامساً: الإرجاء:

وهو مفهوم يلغي أهمية العمل ولا يقيم له وزناً، لأنّ الإيمان إنّما هو

(1) الإرشاد: ج 2 ص 114 - 115.

(2) الإرشاد: ج 2 ص 115.

(3) طبقات ابن سعد: ج 5 ص 113.

(4) نظرية الإمامة لدى الشيعة: ص 349.

معرفة بالقلب وتصديق باللسان والمعصية لا تضر الإيمان.

وقد حصل حوار بين السيدة عائشة وبين معاوية بن أبي سفيان إذ تقول له: يا معاوية! قتلت حجراً وأصحابه، وفعلت الذي فعلت، أما خشيت أن أخبأ لك رجلاً فيقتلك!

قال: لا، إني في بيت أمان؛ سمعت رسول الله يقول: «الإيمان قيد الفتك» لا يفتك مؤمن يا أم المؤمنين، كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتك؟

قالت: صالح.

قال: فدعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا عز وجل⁽¹⁾.

ولذا قال ابن أبي الحديد: «أول من قال بالإرجاء المحض معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، كانا يزعمان أنه لا يضر مع الإيمان معصية»⁽²⁾.

سادساً: الأخذ بثقافة أهل الكتاب والترويج لها:

حيث فسح المجال لتميم الداري الراهب النصراني وكعب أحبار اليهود بإفشاء الأحاديث الإسرائيلية بين المسلمين، فالأول خرج بعد مقتل عثمان إلى معاوية وعاش في كنفه، والثاني خرج قبل ظهور القلاقل ضد عثمان وعاش في كنف معاوية أيضاً.

بعد كل هذا ألم تكن المأساة الحسينية تدخل في عمقها المعرفي بصورة واسعة، وأن ثورة الحسين انتفاضة معرفية على التلاعب الفكري الذي قام به معاوية ومن قبله من مهدوا له هذا الطريق.

إذن ليس الحسين يستصرخ ثقافتنا وفكرنا وحوارنا وجهادنا ضد جميع ألوان المعرفة الانتكاسية والانزمامية؟!!

(1) البداية والنهاية: ج 6 ص 226، وبغية الطلب في تاريخ حلب: ج 5 ص 2129.

(2) شرح نهج البلاغة: ج 6 ص 325.

سؤال: حول المآتم الحسيني النسائي:

1- كيف تقيّمون عطاء المآتم النسائي من حيث الإيجابيات
المنبثقة عنه ومن حيث السلبيات إن وجدت؟

2- هل يحتاج المآتم النسائي إلى حركة تجديد وتغيير؟ وإذا
كانت الإجابة: نعم، فكيف يمكن التعامل مع بعض قدامى القارئات
(الملايات) واللاقي اتخذن من القصص والروايات التي ما أنزل الله بها
من سلطان موضوعاً للمجالس الحسينية؟

3- كيف يمكن إبراز الطاقات والكوادر النسائية الفاعلة والمؤمنة
من أجل إحداث شيء من التغيير الإيجابي في المآتم النسائي؟ وما هي
نصيحتكم للمرأة الملتزمة المنقفة تجاه المآتم النسائي؟

4- سماحة الشيخ هل تود إضافة شيء عن تطوير المآتم النسائي؟

جواب:

أولاً: أما ما يتعلق بالتقييم:

لا أستطيع أن أنفي بعض الإيجابيات التي قامت بها المآتم النسائية
التقليدية، فقد كانت قناة من القنوات التي يستفاد منها تربوياً، فكانت
تبث الوعي الديني والأخلاقي بصورة عامة، إضافة إلى كونها أماكن
للتعرف على بعض تاريخ أهل البيت عليهم السلام وبالخصوص القضية الحسينية.

نعم، يطغى على هذه المآتم أمّتها بعيدة كل البعد عن تناول أو معالجة
المشكلات الاجتماعية والدينية، إضافة إلى هشاشة ما يطرح فيها في جوانب
العقيدة والدين، بل بعضها يحمل أفكاراً غريبة وغير صحيحة، وذلك
بسبب أنّ القائات على الخطابة النسائية لا تقتصر إلا على مجرد اللغة
العاطفية البعيدة عن الاستفادة والتطبيق والاستلهام، وعلى روايات كتبت
في مجاميع قديمة، نُجّرت ونستعاد الآن دونها ملاحظة صحتها واعتبارها،
ومدى انسجامها مع مستوى القضية التي استشهد الإمام الحسين عليه السلام من

أجلها، ومع مستوى مبادئ أهل البيت عليهم السلام.

ولكي لا نعمط حق الأخوات الناشطات في مجال الخطابة والتبليغ نقول:

في خلال السنوات الخمس الماضية استطاع المآتم النسائي أن يقطع شوطاً جيداً - بالنظر إلى حجم التراكمات السابقة - في مجال المحاضرات التي تقدمها بعض الأخوات المؤمنات، حيث بدأً بتغيير جذري في طريقة التعزية المتبعة، ولوحظ التحول من الجانب العاطفي البحت إلى مزاجية الجانب المعرفي والعاطفي معاً. فبدلاً من نهج التعزية الفارغة من المحتوى والمضمون الذي كان يتبع في المآتم النسائي أصبح الآن ينتهج أو يخطط نحو الرقي بهذه المآتم.

ولا شك أنّ المضي في خرق الموروث سيساعد في تعزيز طاقات وقدرات المرأة الخطابية، وأن يرقى بمستوى الأخوات المحاضرات أنفسهن وذلك من خلال تمكنهن من ممارسة الجانب الخطابي وتعزيز الإمكانات العملية والمعرفية لديهن.

ثانياً: وأما من جهة الحاجة للتغيير:

قبل كل شيء المنبر جزء لا يتجزأ من إحياء الفكر الديني، والذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾⁽¹⁾ فبأي أسلوب نحوي الفكر الديني في أممتنا؟!!!

لا يمكننا أن نحوي فكرنا الديني إلا من خلال إصلاح فكرنا الديني، وهذا يترتب عليه طريقة تفكيرنا في الدين هل هو خطأ أو لا؟

لقد ذكر الكليني في الكافي حديثاً مشهوراً: «إذا ظهرت البدع في أمّتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»⁽²⁾.

أي: إذا ظهر ما ليس من الدين ويرتدي لباس الدين، بحيث يحسبه

(1) الأنفال: 24.

(2) الكافي: ج 1 ص 504.

الناس من صلب الدين، فعلى العلماء أن يكشفوا ذلك.

إنّ هذا الحديث الشريف يبين وظيفة إحياء الدين التي هي من واجبات طبقة العلماء والمبلغين، يحققونها عن طريق مكافحة البدع والتحريف.

والمنبر يعتبر وسيلة من الوسائل لقول كلمة الحق وإنكار المنكر على ضوء أطروحات الدين، وأعلى أطروحات الفكر الديني الأطروحة الحسينية التي هي العنوان العام للمآتم، وعلى ضوء هذه الأطروحة نقر ما تقره الأطروحة ونشجب ما تشجبه الأطروحة، ونفعل مبادئ الحسين عليه السلام وأهل البيت بصورة عامة، ونلاحظ مدى قربنا أو بعدنا من هذه المبادئ على المستوى التطبيقي.

وعليه فهل نبخل على طريقتنا - في المآتم النسائية وغيرها - بجزء من التغيير!!

أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نغير ما اعتدنا عليه إلا بخروج جيل جديد من الشابات الخطيبات، يعملن على تطوير برامج المنبر، وأقول: «تطوير المنبر»، لأننا لا نستطيع أن نغير ما اعتدنا عليه إلا باتخاذ أسلوب التطوير، لكي لا يفهم التغيير على أنه دعوة لكل موروث، فكما استفاد - في وقت سابق - جيل الجدات والأمهات، فهناك صياغة أخرى لجيل الشابات.

وربما ينشأ الخوف من التطوير أو التغيير، أنه قضاء على الأصالة، وكأنّ مفهوم الأصالة هو كل موروثي أو تراثي، وهذا من الأخطاء الاجتماعية التي تعمقت فينا.

فكما تغير المآتم الرجالي وتطور، فلا بد من تطوير المآتم النسائي، وسيأتي هذا اليوم عاجلاً أو آجلاً، وخاصة أنّ الكثير من الأخوات - إن لم نقل غالبية الشابات - يلجأن إلى المآتم الرجالي لاعتبار وجود عناصر التشويق والفائدة أكثر مما هو موجود في مآتم النساء.

ثالثاً: أما كيفية إبراز الطاقات والكوادر النسائية الفاعلة:

قبل كل شيء، عالم النساء - عندنا - مغلق، ولا يمكن التعامل معه إلا من خلال جدران مصفّحة، بسبب عاداتنا الموروثة، ولذا أرى أنّ جانب

إبراز الطاقة الفكرية والعلمية تحتاج إلى جهد مضاعف ومكثف، فخلو الساحة من عدد كافٍ من الحوزويات، والمبلغات، والمثقفات يخلق فراغاً فكرياً نسائياً مستقلاً، إضافة إلى ما تتمتع به بعض الدراسات من نقص في خبرات التواصل المعرفي، وأضف عليها طبيعة اختيارات المرأة للمواضيع المطروحة، والتي تتسم دائماً بالمعالجات الوجدانية، أضف إلى ذلك أيضاً طبيعة قراءة المرأة واختيارها للكتب ذات النطاق الفكري المحدود... كل ذلك يجعل من إبراز الطاقة والكوادر بطيئاً جداً.

فإذا ما استحكمت العادات، وأصبحت شرعاً ثانياً، بحيث لا يستطيع أحد من تجاوزها، فلا بأس من طرح برنامج للتبليغ وذلك من خلال:

1- إنشاء برنامج للتبليغ بحيث يدرس فيه ما تحتاجه الخطيبات من عناصر متعددة تهيئهن لهذا الدور.

2- تعليمهن كيفية انتخاب المواضيع البناءة والهادفة.

3- تعويدهن على قراءة جوانب الحياة المختلفة: السياسة، الاقتصاد، الاجتماع،... كل ذلك يقربهن بعالمهن المعاصر، وسيؤثر ذلك في واقعية مواضيعهن التي ستلقيهن، ويكون متناغماً مع حاجاتهن ومطالبهن.

4- استشارة أهل الخبرة من الرجال فيما يتعلق بترتيب الموضوع وحول المواضيع الضرورية التي ينبغي أن تُحَصَّر وينبغي أن تلقى.

تقول إحدى الناشطات: «لا يكفي الوعي الديني البحت لأنَّ نجاح الثورة الحسينية كان متوقفاً على وعي سياسي محنك بالإضافة إلى الوعي الديني البحت، وإلا فإنَّ مفهوم الوعي الديني يشمل الوعي السياسي، فالوعي الديني يعني الوعي بكل ما يمس الدين وما يمت إليه بصلة وكل شيء في الحياة له صلة بشكل أو بآخر بالدين الحنيف ابتداءً بالجانب السياسي إلى الجانب الاقتصادي والاجتماعي والجانب الصحي والعملية».

أعتقد أنَّ هذا يوفر لنا بعض ما نصبو إليه من التغيير التدريجي حتى تنهض المرأة بثقل أكبر في مواجهة واقعها وما يتطلبه دينها منها في إحياء برامجها.

فإذا تمكنت المرأة من تحطّي بعض العقبات التي تفرضها الأعراف البدائية والتقاليد المفترض تطويعها لتناسب الحدّاتة الحاضرة، وإذا استطاعت وضع ما يلزم للقضاء على السلبيات وعلاج الأمراض فلا اعتقد بأنّها ستجد دليلاً أفضل وأسلم من المآثم النسائي في توعية الأمة.

رابعاً: وما ينبغي إضافته بالنسبة لتطوير المآثم النسائي:

إننا بحاجة إلى الاستفادة من المرأة، فالمرأة هي شطرنّا الآخر، بل هي الشطر الأهم، لأنّ كل رجل عظيم لا يتكامل إلا بالمرأة، ولأنّها بالنسبة للأمة مدرسة، واهتمام الإسلام الكبير بالمرأة يكشف عن موقع خاص وعن فعالية خاصة قد لا تتأتى إلا من طريق المرأة، وهذا يشير إلى أنّ هذه الطاقة يجب أن يستفاد منها ويجب أن تفعّل ويجب أن تستثمر، والمآثم النسائي من أفضل الطرق والقنوات لتفعيل طاقة المرأة المؤمنة المثقفة.

ونصيحتي إلى النساء أن يعشن الإيجابية والجديّة، ويفكرن في المرحلة المعاشة، ويفكرن في مصلحة الأمة، ويسلكن الطرق الصحيحة لتحقيق هذه المصلحة، والمآثم في طليعة هذه الطرق.

عموماً على المرأة أن تفكر بأنّها مسؤولة، وبأنّ مثل هذا النشاط المآثم سواء بالإلقاء أو الحضور أو التعاون بأي شكل من الأشكال ليس نافلة وإنما هو مسألة من موقع التكليف الشرعي، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽¹⁾.

ونصيحتي لكل عامل في هذا النشاط الخطير هو التمسك بأخلاقيات المنبر، فكل عمل من الأعمال أو نشاط من الأنشطة إذا لم يتوقّف فيه العنصر الأخلاقي فهو مجرد عن الروح وخصوصاً النشاط الديني فإنّ من أزم الأشياء له الأخلاق الذي هو روح الدين، ومن أهم أخلاقيات المنبر:

1- أن يستهدف عمل المنبر وجه الله تعالى قبل وبعد كل شيء فإنّه

(1) التوبة: 71.

إن حاد عن هذا الهدف وكان هدفه كسب مكانة أو مال أو ما شاكلهما - وكلها أهداف محدودة وزائلة - تحول المنبر إلى دكان لعرض بضاعة ولا ترتفع به عن هذا المستوى وتعجل بنهايته فإن ما رُبط بالزائل زائل، أما إذا استهدف وجه الله تعالى في ترسيخ العقائد والأحكام والأخلاق فقد سلك الطريق القويم وضمن للمنبر أن لا يزول.

2- الارتباط بالصالح العام والارتفاع إلى هذا المستوى بعيداً عن التحول إلى مدية بيد فئة أو فرد ضد فئة أو فرد آخر بدوافع شخصية فلا يرتفع لما أريد له، ولا يلتبس الأمر عليكم فيحسب أي أريد أن أجرد المنبر من وضع الإصبع على بعض الأمراض أو معالجة مواطن الخلل في جسم الأمة، كلابل أريد أن يكون التقويم مرتفعاً عن الهدف الشخصي ويصب في الصالح العام.

وأنقل لكم ما كتبه رائد المنبر الحسيني العلامة الدكتور الشيخ أحمد الوائلي في رسالة موجهة إلى خطباء المنبر الحسيني:

1- لم يعد المنبر عملاً خاصاً يمارسه الفرد من منطلقاته الخاصة ووفق مبادراته وتوجهاته وإنما صار المنبر مؤسسة لها ضوابطها وأركانها وأخلاقياتها وكل خطيب هو عضو بها وتلزمه هذه العضوية بكل ما يحقق الانتماء السليم والانصاف بضوابطها وخواصها وكل تقصير في هذا الجانب يجرمه من شرف هذه العضوية فهو هنا شخص يحمل طابع المؤسسة وليس فرداً يتصرف ضمن مزاجه الخاص. وإذا لم يكن لهذه المؤسسة أداة تنفيذية لإبعاده عن هذه العضوية إذا أخل بشروطها فإن الذي يبعده عامل غيبي لسناه ورأبناه غيوراً على ساحة آل محمد من أن يدخلها من لا يستحق أن ينتمي لهذا الميدان.

2- انطلاقاً من قاعدة العُثم بالغرم ونحن نعلم أنّ ما نغنمه من المنبر من أجر مادي ومعنوي في عشرة أيام قد لا يحصل عليه من يحمل أعلى شهادة جامعية خلال سنة من تدريسه وجهده الفكري أفلا يحملنا ذلك على مضاعفة جهدنا لتحقيق قدر أكبر من العلم والمعرفة والمهارة نقابل به ما حصلنا عليه من مكانة وأموال، إنّ الزمان صار يركض في دروب المعرفة فينبغي أن نلحق بغباره إن لم نلحق به لاسيما والدنيا أصبحت غنية

بوسائل العلم والمعرفة والحصول عليها سهل يسير .

إنّ المستوى الاجتماعي السائد إذا كان يقبلنا بشكل من الأشكال وإن لم نكن مقبولين في المقاييس الثقافية فلا ينبغي أن يحملنا ذلك على الركون إلى الدعة بل ينبغي أن يظلّ رائدنا تقديم ثمرات الجهد المتجدد والمناسب في حجمه لما حصلنا عليه من المنبر وفي مضمونه لما نأمل أن يصعد بالمنبر إلى مستوى الطموح. لعل الكثير بل والأغلب منا ولج ميدان الخطابة في زمن لم يكن يخطر فيه على البال أن يتطلع إلى منافذ يدخل فيها الآفاق الثقافية عند الأمم الأخرى بوسائل من أهمها معرفة لغات الأمم. واللغة هي المنفذ المباشر للدخول إلى حضارات الأمم الأخرى وفي ذلك مكسب أي مكسب من الإفادة من العطاء الفكري عندهم والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أين وجدها كما أنّ اللغة يمكن أن نتخذ منها أداة لإيصال فكرنا وحضارتنا للآخرين وبذلك قد نصحّح لهم أفكاراً خاطئة أخذوها عنا من كتابات خصومنا أو ربما يكونوا قد فهموها بشكل مغلوط عن طريق الترجمة الغير سليمة فكم وكم قد أخذت عنا صور مغلوطة عن طريق النقل عنا وتعمد الإساءة لنا مما هو كثير ومعروف.

إنّ الله وحده يعلم كم أشعر بالنقص وكم أتضاءل إذا جلست بجانب من يحسنون اللغات الأجنبية التي تضع أيديهم على كنوز المعرفة وتدجمهم اجتماعياً بشعوب أخرى، ولأنا جئنا في زمن لم يتيسر فيه لنا من وسائل المعرفة ما هو ميسر الآن لطلاب المعرفة فلا ينبغي أن تفوت ناشئة المنبر هذه الفرص الثمينة والكنوز المعرفية الميسرة التي تضعهم في مستويات عالمية من الاتصال المعرفي وترفع من قدرهم في مجالات التقييم وتنعكس عليهم مادياً ومعنوياً هذا بالإضافة إلى التوفر على معرفة ما جد من كنوز فكرية أصبحت في متناول اليد وأصبح المنبر مهياً لقبولها بل ويرى فيها منهاجاً لا بد أن يحدث ليطلع مضمون المنبر باللائق والمناسب.

3- إنّنا مدعوون إلى حمل الآخرين على تغيير وجهة نظرهم عنا وحملهم على تغيير نمط المعاملة لنا وذلك بأن يكون كل واحد منا طالب علم زائداً صفة الخطيب فإنّ لذلك مردوداً كبيراً على نفسية الخطيب أولاً وعلى النظر إليه ثانياً وآليات ذلك الجهد والمثابرة والانصاف بالخلق القرآني - الذي رسمه

أهل البيت لشيعتهم عندما أرادوهم أن يكونوا زيناً لهم لا شيئاً عليهم.

4- وأخيراً لا بدّ من لفت نظر من يدخل إلى هذه المؤسسة إلى أنّ الدرب طويل والجهد شاق والفرص غير مضمونة فعليه أن يتدرع بالصبر ولا يتصور أنّه يختصر المسافات فإنّ الزمن دخيل في النضوج والأصالة. إنّ الغذاء الجاهز الذي يقدم للكائن الحي قد يوفر عليه الجهد وقد يجعله سميناً ولكنه يفقده طعمه ونكهته كما يسلبه الشعور بلذة المعاناة بعكس ما لو قدر له أن يتغذى طبيعياً فإنّه سيكون له طعمه الخاص ونكهته المميزة وإن طال عليه في ذلك الزمن أنّ استيعاب أكبر قدر من المعلومات في وقت ليس بالطويل قد يكون ممكناً ولكن استيعاب المهارة وخواص الفن التي ينبغي أن يتم تصريف المعلومات وفقاً لها لا تحصل بزمن قصير فإنّ هناك أخطاء فنية قد لا ينتبه لها الخطيب إلا بعد عشرات السنين، ودرب التعلم والاستفادة من التجارب سيظل مفتوحاً مهما تقدم الإنسان في مسيرته ويؤيد ذلك السلسلة المتتالية من تاريخ خطبائنا والذين إذا أردنا أن نعد اللامعين منهم فسنعهد بضعة أشخاص لا غير وهؤلاء الأشخاص هم الذين بذلوا الجهد ونضجوا نضوجاً طبيعياً لم يتعمدوا فيه الاستعجال على حساب الأصالة ولا الهملجة على حساب المسير المتزن فرحمهم الله وشكر سعيهم.

وفي الختام يا أيها البراعم الواعدة كما أرجو يا من استهوهم درب المنبر لسبب أو آخر لا تجعلوا هدفكم المال قبل خدمة مبادئكم ولا البريق قبل النضوج والإجادة ولا إرضاء الجماهير ولو نزلتم، ولكن للصعود بهم ولو أتعبكم ذلك، وثقوا أنّكم بعين الله عز وجل وعلى مرمى الأبصار من آل محمد يرون عملكم ويمنحونكم بركاتهم إن كان ذلك من أهدافكم. والله أسأل أن يتولانا جميعاً برحمته ويمدنا من عطائه الكريم وفضله العميم بما يوصلنا لأن نكون من خدم آل محمد إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

سؤال: ما هي الرؤية الشرعية لإقامة المشاهد التمثيلية الدينية أو التربوية أو الاجتماعية في المساجد، وهل يترتب على ذلك مساس بقدسية المسجد؟ لا سيما إذا قام بعض الممثلين من المؤمنين بتمثيل شخصية شيطانية أو فاسدة كشارب الخمر مثلاً. والهدف من إقامة مثل هذه التمثيليات توعية المجتمع وإبعاده عن المحرمات والانحرافات والمفاسد الأخلاقية؟ وهل تؤيدون إقامة مثل هذه التمثيليات؟ وإذا كنتم تؤيدون فما هي توصياتكم ومقترحاتكم إن أقيمت؟

جواب: لكي نقف على ما يراد من المسجد، وما هو مكانته الفعلية والعملية لا بد أن نتطرق إلى المسجد وموقعه في إحياء الفكر الديني:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَسْ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (1).

إن قصة المسجد، ليست في هذه الأحجار الجامدة التي تمثل سقفه وحيطانه، وليست في هذه الأشكال المزخرفة التي توحى بعظمة الفن وروعة الإبداع، بل هي في الإنسان الذي يعمر المسجد بالعبادة المنطلقة من الفكر الإيماني، والشعور الروحي، والممارسة الخيرة، حيث يتحول المسجد إلى ساحة للانطلاق الإنساني من أجل بناء الحياة على قواعد الحق والقوة والعدل، من خلال ما يثيره من عمق الروحية الواقعية التي تصنع الإنسان المسؤول الفاعل، الذي يعطي الحياة من نفسه وطاقاته أكثر مما يأخذ منها، لأنه لا يجد فيها الفرصة السانحة للعبث واللغو وممارسة الشهوات، بل يجد فيها الموقع المتقدم الذي يمارس فيه مسؤوليته كعبادة خالصة بين يدي الله.

وهذا هو الذي يحقق للإنسان حرته وعمق، ويعطي للمسجد أجواء الحرية التي يتنفسها المصلّون والمتعبدون ليخرجوا إلى الحياة من خلال المسجد بفكر حر، وإرادة حرة، وموقف يجسد الحرية كمنهج حياة، وكحركة واقع.

(1) التوبة: 18.

أولاً: المسجد ومكانته:

للمسجد في الإسلام مكانة سامية ترتبط بوظيفته التي تنهض بالفرد والمجتمع. وسوف نعرض لتعريف المسجد ثم لأهميته.

المسجد في اللغة: المسجد بالكسر اسم لمكان السجود.

والمسجد في الشرع: يطلق على المكان المعد للصلوات.

فهو كل مكان يتعبد فيه فهو مسجد لقوله ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»⁽¹⁾.

والجامع: نعت للمسجد لأنه مكان اجتماع الناس، وإذا كانت تقام فيه الجُمُوع أطلق عليه (المسجد الجامع).

ويقال أنّ الخليفة عمر بن الخطاب هو أول من استخدم هذه الكلمة حينما أصدر تعليماته إلى الولاة في الحواضر الإسلامية لبناء المساجد الجامعة التي تقام فيها صلوات الجمعة⁽²⁾.

لكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أنّ الناس هي التي استخدمت هذا المصطلح بادئ الأمر، وأطلقت على المساجد التي تقام فيها صلوات الجمعة اسم المسجد الجامع أو الجامع. ولما توسع نطاق الحكم الإسلامي وازداد عدد المسلمين، ازداد أيضاً عدد المساجد في البلاد الإسلامية، كما كثر عدد الألفاظ التي تطلق على أماكن العبادة، بحيث بات يطلق بمضي الزمان على كل مسجد يصلّى فيه المسجد الجامع أو الجامع⁽³⁾.

وإذا ما أطلق المسجد في العرف فإنه يعتبر المكان الخاص لعبادة المسلمين، غير أنّ القرآن الكريم أطلق الكلمة على معابد أهل الكتاب أيضاً:

﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾⁽⁴⁾.

(1) من لا يحضره الفقيه: ج 1 ص 240.

(2) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: ج 2 ص 149.

(3) تاريخ المساجد الأثرية، حسن عبد الوهاب: ص 8.

(4) الكهف: 21.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا...﴾ (1).

وقد وردت كلمة المسجد في القرآن الكريم 28 مرة؛ 22 منها بصورة مفردة، و 6 مرات على صورة الجمع، وتشير هذه الآيات إلى أهمية المسجد ومكانته الرفيعة في الإسلام، وبعض أحكامه، والأحكام الخاصة أيضاً بالمسجد الحرام، كما تشير إلى المسجد الأقصى ومسجد أصحاب الكهف.

وثمة آيات أخر في كتاب الله المجيد تحوم حول المسجد وأهميته، رغم أنها لم تستخدم هذا اللفظ صريحاً، ولكن مفهومها وإجماع المفسرين يؤكد ذلك.

والمسجد هو أحب البقاع إلى الله تعالى؛ فهو قلعة الإيوان وحصن الفضيلة، وهو بيت الأتقياء ومكان اجتماع المسلمين يومياً، وهو مركز مؤتمراتهم ومحل تشاورهم وتناصحهم، والمنتدى الذي فيه يتعارفون ويتآلفون ويتعاونون.

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ لجبرئيل: يا جبرئيل، أي البقاع أحب إلى الله عز وجل؟ قال: المساجد، وأحب أهلها إلى الله أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً منها» (2).

وعن النبي ﷺ: «المساجد مجالس الأنبياء» (3).

وعنه ﷺ: «المساجد بيوت المتقين» (4).

لذا كان المسجد أول شيء يهتم به النبي ﷺ حين قدم المدينة حيث أرسل إلى ملا من بني النجار يثامنهم على حائط لهم يريد أن يجعله مسجداً، فكان بناء المسجد أول المهام التي بادر رسول الله إلى إنجازها منذ الهجرة المباركة، فبنى لله مسجداً قبل أن يبني لنفسه بيتاً؛ وذلك لأهمية

(1) الإسراء: 1.

(2) جامع أحاديث الشيعة: ج 4 ص 497 ح 6660.

(3) م.س: ح 6668.

(4) م.س: 6688.

المسجد في بناء الشخصية المسلمة وتنشئتها.

ولأهمية المسجد في الإسلام رغب الدين الحنيف في بناء المساجد وعمارتها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَسْ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾⁽¹⁾. فرغب النبي ﷺ في بنائه ووعده بالثواب العظيم والأجر الجزيل على ذلك: «من بنى لله مسجداً كمفحص القطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»⁽²⁾.

كما جعل الله المشي إلى المسجد مصحوباً بالثواب، قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من مشى إلى المسجد لم يضع رجلاً على رطب ولا يابس إلا سبّحت له الأرض إلى الأرضين السابعة»⁽³⁾.

وقال عليه السلام: «بشر المشائين إلى المساجد في ظلم الليل بنور ساطع يوم القيامة»⁽⁴⁾.

وفي صحيح البخاري عن الرسول ﷺ قال: «إنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم نزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه»⁽⁵⁾.

كما أنّ الله يعد له في الجنة نزلاً ففي الحديث: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح»⁽⁶⁾.

كما أنّ السكينة والرحمة ونزول الملائكة وذكر الله للمؤمنين، كل ذلك مرتبط بالاجتماع في بيوت الله ومدارسة كتابه. قال رسول الله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا

(1) التوبة: 18.

(2) جامع أحاديث الشيعة: ح 6745.

(3) م.س: ح 6719.

(4) مستدرک الوسائل: ج 3 ص 364.

(5) صحيح البخاري: ج 1 ص 232 ح 620.

(6) صحيح مسلم: ج 1 ص 463 ح 669، وصحيح البخاري: ج 1 ص 235 ح 631.

نزلت عليهم سكينه وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»⁽¹⁾.

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «من اختلف إلى المساجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو يسمع كلمة تدل على هدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يترك ذنباً خشية أو حياء»⁽²⁾.

كما جعل الإسلام من المسجد بيتاً للامن وسبباً للجواز على الصراط يوم القيامة.

ولأهمية المسجد جعله الله تعالى أشرف بقاع الأرض وأضافها إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾⁽³⁾.

كذلك جعل الله تعالى ارتياد المساجد أمانة على الإيذان الكامل الذي يستحق الثواب الجزيل، فعن عبد الله بن أبي يعفور قال: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِمَا تُعْرَفُ عَدَالَةُ الرَّجُلِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تُقْبَلَ شَهَادَتُهُ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ؟

قال: «أَنْ تَعْرِفُوهُ بِالسُّرِّ وَالْعَفَافِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ، وَيُعْرَفُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ الَّتِي أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا النَّارَ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَالزُّنَا وَالرِّبَا وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَالْفِرَارِ مِنَ الرَّحْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالذِّدَالِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ وَالسَّائِرِ لِجَمِيعِ عُيُوبِهِ حَتَّى يَحْزُمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَفْتِيضَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ عَثَرَاتِهِ وَغَيْبَتِهِ، وَيَجِبَ عَلَيْهِمْ تَوَلِيَّتُهُ وَإِظْهَارُ عَدَالَتِهِ فِي النَّاسِ التَّعَاهُدُ لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ إِذَا وَاطَبَ عَلَيْهِنَّ وَحَافَظَ مَوَاقِيَتَهُنَّ؛ بِإِخْضَارِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ لَا يَتَخَلَّفَ عَنْ جَمَاعَتِهِمْ فِي مُصْلَاهُمْ إِلَّا مِنْ عِلَّةٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ سِتْرٌ وَكَفَّارَةٌ لِلذُّنُوبِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى أَحَدٍ بِالصَّلَاحِ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَلَا صَلاَحَ لَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ الْحُكْمَ جَرَى فِيهِ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ ﷺ بِالْحَرْقِ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا

(1) مستدرک الوسائل: ج 3 ص 363 ح 3788.

(2) وسائل الشيعة: ج 3 ص 480.

(3) الجن: 18.

يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مِنْ عِلَّةٍ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا غَيْبَةَ إِلَّا لِمَنْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ وَرَغِبَ عَنْ جَمَاعَتِنَا وَمَنْ رَغِبَ عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ غَيْبَتُهُ وَسَقَطَتْ بَيْنَهُمْ عِدَالَتُهُ وَوَجِبَ هِجْرَانُهُ وَإِذَا رُفِعَ إِلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْذَرُهُ وَحَدَّرَهُ فَإِنْ حَضَرَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِلَّا أَحْرَقَ عَلَيْهِ بَيْتُهُ وَمَنْ لَزِمَ جَمَاعَتَهُمْ حَرَمَتْ عَلَيْهِمْ غَيْبَتُهُ وَتَبَتَّ عِدَالَتُهُ بَيْنَهُمْ»⁽¹⁾.

وجاء من طرق أهل السنة: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»⁽²⁾.

وفي هذا الإطار نهى الإسلام عن إغلاق المساجد لمنع ذكر الله فيها من صلاة واعتكاف وتعلم.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيًا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽³⁾.

فقد اعتبر بعض المفسرين نزول هذه الآية مرتبطاً بحادثة الحديبية، حينما رفض المشركون دخول النبي ﷺ وأصحابه إلى مكة. وقال آخرون بيت المقدس حين دخول تيطس الروماني بيت المقدس سنة 70م حتى صارت المدينة تلاً من التراب، وهدمه هيكل سليمان عليه السلام، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة⁽⁴⁾.

وأياً كان، فإنّ ظاهر الآية لا يدل على حادثة محددة، ولا توجد أية قرائن لمثل هذه الآراء، فالآية تبين حقيقة كلية تشمل الأحداث الماضية كخراب بيت المقدس، والحاضرة - زمان نزول الآية - كحدث الحديبية، والتالية - كتخريب المساجد على يد الصليبيين القرامطة -، وعليه يفهم من الآية أنّ أهل الشرك والنفاق عدّوا هذه المراكز خطراً حقيقياً لأنّها

(1) تهذيب الأحكام: ج 6 ص 241.

(2) سنن ابن ماجه: ج 1 ص 263 ح 802.

(3) البقرة: 114.

(4) تفسير المنار: ج 1 ص 431.

كانت على مر التاريخ قواعد للوحدة والعبودية وحصوناً للجهاد ضد الفساد والطاغوت، ولهذا سعى أعداء الله دائماً وبشهادة التاريخ إلى التقليل من شأن المساجد وتحجيم أهميتها بمختلف المخططات والدسائس.

وعلى هذا الأساس اعتبر القرآن الكريم الدفاع عن حرمة المساجد وقداستها أحد أهم دلالات تشريع الجهاد: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (1).

ولأجل هذه الأهمية أيضاً أمر الإسلام بتنظيف المساجد من الأقدار، ومن كل ما يؤذي المسلمين ورغب في ذلك كثيراً. ففي الحديث عن النبي ﷺ: «من قَمَّ مسجداً كتب الله له عتق رقبة، ومن أخرج منه ما يقذى عيناً كتب الله عز وجل له كفلين من رحمته» (2).

وجاء في صحيح البخاري أن امرأة سوداء كانت تلتقط القمامة من المسجد ففقدتها النبي ﷺ فسأل عنها بعد أيام، فقيل له: إنها ماتت فقال: أفلا كنتم أذنتموني فأتى قبرها فصلّى عليها (3).

ومن الملامح المهمة للمسجد أنه يربي المسلم على الذوق السليم:

روى أبو بصير عن الإمام الصادق عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: «من أكل شيئاً من المؤذيات بريحها فلا يقربن المسجد» (4).

وقال علي عليه السلام: «نهى النبي ﷺ عن التنجّع في المساجد» (5).

وقال عليه السلام: «من رد ريقه تعظيماً لحق المسجد جعل الله ذلك قوة في بدنه، وكتب له بها حسنة وحط عنه بها سيئة» (6).

(1) الحج: 40.

(2) وسائل الشيعة: أبواب أحكام المساجد ب 32 ح 2.

(3) صحيح البخاري: ج 1 ص 175 ح 446.

(4) وسائل الشيعة: أبواب أحكام المساجد ب 22 ح 6.

(5) جامع أحاديث الشيعة: ج 4 ص 557 ح 6837.

(6) جامع أحاديث الشيعة: ج 4 ص 559 ح 6845.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ: «ومن أكل
ثوماً أو بصلاً فليعتزل مسجدنا»⁽¹⁾.

وقال علي عليه السلام: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارته دفنها»⁽²⁾.

وقال النبي ﷺ: «البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»⁽³⁾.

الأمر الذي يتضمن ضرورة العناية بالمساجد حفاظاً على قدسيّتها،
ومراعاة لشعور الآخرين، ولهذا المنزلة للمسجد كان النبي ﷺ أول ما
يقدم من سفر يبدأ بالمسجد فيصلي فيه.

ثانياً: أسس الدعوة الإسلامية في المسجد وأساليبها:

لقد جعل الله المسجد مباركاً، والبركة هي الخير الكثير الذي فيه
المنافع والمصالح للناس، ما يعني أنّ المسجد لا يقتصر دوره على العبادة،
بل يتسع لكل منافع الناس، سواء كانت علمية أو اجتماعية أو سياسية أو
اقتصادية أو غير ذلك من الأمور المتصلة بحياة الناس العامة.

وفي ضوء ذلك كان المسجد يلعب دوراً ريادياً في الإسلام حيث كان
يشكل الملتقى الروحي للناس، فيعبدون الله فيه ويتعلمون العلوم النافعة
لهم في دينهم ودنياهم، ويجتمعون فيه للتداول في أمورهم الداخلية
والخارجية، فكانت تنطلق من منابر التوجيهات والتخطيطات المتعلقة
بتنظيم حياتهم كما تنطلق منها صيحات الجهاد.

وسارت حياة المسلمين في مساجدهم على هذا الخط، بحيث جسدت
المفهوم الإسلامي للعبادة التي تنفتح على الله سبحانه، لينفتح الناس من
خلال ذلك على الحياة من مواقعها المضيئة المتحركة في سبيل الخير.

ولكن هذا الدور ما لبث أن تراجع في عصور التخلف اللاحقة التي

(1) صحيح البخاري: ج 1 ص 292 ح 817.

(2) جامع أحاديث الشيعة: ج 4 ص 561 ح 6853.

(3) صحيح ابن حبان: ج 4 ص 516، ومسند الإمام أحمد: ج 3 ص 173 ح 12798.

جمدت عقول المسلمين وأفكارهم فتجمد كل شيء حولهم، ونالت المساجد حصة من هذا التجميد، فإذا بهم حكاماً وشعوباً، ينكرون على العالمين والمصلحين أن يتحدثوا في المساجد بغير الشؤون الدينية الخاصة التي تتحدث عن الجنة والنار والعبادات والأخلاقيات التجريدية...

فإذا انطلقوا بالحديث إلى ما أمر الله به من مقاومة الظلم والانحراف في شؤون الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد، اتهموهم بأنهم يستغلون بيوت الله لغير الأغراض التي وضعها، تماماً كما هي المعابد لدى اليهود والنصارى كما يزعمون؛ وأثاروا الثائرة عليهم، بأنهم يعملون على إدخال السياسة للمسجد وتسييس الدين، زعماً منهم بأن الدين لا يلتقي بالسياسة، في الوقت الذي نرى أن الله سبحانه ونعالى يصرح في أكثر من آية، بأن الله أنزل كتبه وأرسل رسله من أجل أن يقوم الناس بالقسط.

وتقوم أسس الدعوة الإسلامية في المسجد على:

1- الإيمان بالله: ويعني هذا الأساس عقد الصلة الدائمة بين الداعي إلى الله وخالقه الذي بيده الأمر كله، وأن يستحضر الله عز وجل في كل ما يقوم به من أفعال، وما يردده من أقوال.

والصلة بالله عز وجل هي ملاك الأمر كله، فهي المبدأ والمنتهى في الدعوة الإسلامية، يقول تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾⁽¹⁾. فهو الذي يخطط ويدبر ويأمر وينهى ويوجه المؤمنين نحو ما يصلحهم.

فالدعوة معناها هي نشر تربية إيمانية شاملة لكل الجوانب الشخصية الإنسانية الروحية والبدنية والنفسية والاجتماعية والعقلية.

2- العلم: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَآمَنُوا بِهِ فَتُحِبَّ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽²⁾.

(1) آل عمران: 154.

(2) الحج: 54.

والعلم هنا بمفهومه الشامل الذي يشمل كل ما خلق الله فيشمل العلم بالإنسان وبالكون بما فيه من ظواهر مختلفة، وقد ربط الله عز وجل العلم بالهدف الكبير من التربية الإسلامية وهو عبادة الله وخشيته: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾⁽¹⁾. ومعلوم أنّ الإسلام حث الإنسان على استعمال عقله إلى أقصى ما يستطيع، وشبه الذين عطلوا عقولهم بأنهم: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾⁽²⁾.

3- ربط القول بالفعل: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿۱﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾⁽³⁾. ويهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بالتطبيق العلمي للمبادئ، ولذا يرتبط الإيمان في كثير من الآيات القرآنية بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾⁽⁴⁾.

ويهتم الإسلام بتربية الاتجاهات الخيرة في الإنسان ويعتبر العمل الصالح فتحاً جديداً في حياة الإنسان جديراً بأن يبدل الله سيئاته حسنات ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽⁵⁾.

4- تنمية الأخلاق الربانية التي أتى بها الإسلام ودعا إليها الرسل والأنبياء السابقون، وقد بين رسول الله ﷺ أهمية هذا الأساس في الحديث المشهور: «إِنَّمَا بَعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»⁽⁶⁾. ومدحه خالقه سبحانه أدق مدح: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁽⁷⁾.

وقد دعانا الله عز وجل إلى التأسى برسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي

(1) فاطر: 28.

(2) الأعراف: 179.

(3) الصف: 1 - 2.

(4) الكهف: 107.

(5) الفرقان: 70.

(6) سنن البيهقي: ج 10 ص 191، والتمهيد لابن عبد البر: ج 16 ص 254.

(7) القلم: 4.

رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١﴾.

5- الحرص على الفرد والجماعة، والإسلام يعترف باجتماعية الإنسان، وأن الله خلقه ليعيش في جماعة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (2)، لذا كان اهتمام الإسلام بالتربية الاجتماعية، وتنمية روح المبادرة في المسلم حتى لا تضيع المسؤولية والمصلحة الجماعية.

ومجتمع المسلمين يزخر بكثير من المؤسسات الاجتماعية وفي مقدمتها المساجد التي تربي المسلم تربية روحية وخلقية وعلمية وبدنية، وشعائر العبادة العملية في الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج، ما هي إلا وسائل عملية يقوم بها المسلم بصفته عضواً في جماعة.

ويشمل الاهتمام بالمجتمع في الدعوة الإسلامية، أن يهتم الدعاة ببناء الاتجاهات الإيجابية في المجتمع والعادات الاجتماعية الحسنة التي تسعد الفرد، وتشد من تماسك الأسرة وتكافل المجتمع، ومن هذه الاتجاهات والعادات الاجتماعية، تنمية الأخوة الإيمانية، وحب الإنسانية والوحدة الاجتماعية، وتنمية القيم الأخلاقية الرفيعة كالشورى والمساواة والتعاون والتكافل الاجتماعي والإصلاح بين الناس والعدالة الاجتماعية.

هذه أهم أسس الدعوة الإسلامية التي تكون ما يمكن أن نسميه إطار الدعوة الإسلامية وفلسفتها، ومن الضروري بصورة مجمل أن نقف سيراً عند ثقافة المبلِّغ، وأهم العلوم التي يجب أن يلم بها، ويعتمد عليها في الدعوة، ثم بعض أساليب الدعوة وبخاصة أن هذين الجانبين من أضعف الجوانب في حقل الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر.

ما هي ثقافة المبلِّغ والداعية؟

ثقافة المبلِّغ أو ما يمكن أن نسميه الاهتمام العلمي والثقافي للداعية ذلك الاهتمام الذي يعتمد على:

(1) الأحزاب: 21.

(2) الحجرات: 13.

1- سعة الأفق.

2- انفتاح العقل والحواس لفهم كل جديد في هذا العصر وبخاصة الجديد الذي يؤثر مباشرة في أفكار الناس وأوضاعهم الثقافية والاجتماعية كالكمبيوتر والإنترنت وغيرها من مبتكرات العصر، فضلاً عن الفلسفات والاتجاهات السياسية والاجتماعية التي تغزو الناس خفية وصراحة داخل الوسائل الإعلامية المتعددة.

3- التسلح بما جاء في القرآن الكريم: فعلى المبلّغ الذي يريد أن يعيش مع القرآن، ليستمد منه نوراً لعقله وزاداً لقلبه وروحه، ثم يمد الآخرين بعد ذلك من فيض ما اكتسبه من القرآن، أن يجمع الآيات القرآنية في الموضوع الواحد، ويصنفها ويقسمها لبيان الأهداف والمعالم التي يعرضها على الناس ويفيدهم منها.

وعليه أن يهتم بالقصص القرآني، والقصص وسيلة من أهم وسائل التربية التي تفجر في المستمع طاقات نفسية دفيئة أبرزها الإيمان، وعلى المبلّغ أن يهتم بالنماذج القرآنية في القصص التي تصور لنا الشخصية الإنسانية في أحوال ومجالات متعددة، كل منها إذا أحسن المبلّغ عرضه على المسلمين قادم إلى الاطمئنان والاعتناء.

وقد سئل الكاظم عليه السلام: «أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه أو تقولون فيه؟»

قال عليه السلام: بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام،⁽¹⁾.

ومع القرآن الكريم يجب على المبلّغ أيضاً أن يحسن الاستدلال بالقرآن وآياته على ما يريد تقريره وتأكيداه من أحكام وتعاليم، كما يجب عليه الحذر من سوء التأويل لآيات الكتاب وحملها على معان تخرجها عما أراد الله بها، وهذا نوع من التحريف ذم الله عليه أهل الكتاب.

ومن أسباب هذا النوع من التحريف أو الانحراف: إخضاع

(1) الكافي: ج 1 ص 62.

النصوص للواقع الزمني، ثم تبين مذهب أو اتجاه اجتماعي أو سياسي واتخاذ النصوص بعد ذلك دليلاً له، وتجزئة النصوص وتفكيكها وعدم ربط بعضها ببعض، واتباع التشابهات وترك المحكمات وهذا دأب الزائفين والمنحرفين عن نهج القرآن من قبل ومن بعد.

4- التسلح بما جاء في الأحاديث الشريفة المعتبرة:

فعلى المبلّغ أن يحذر من الروايات الموضوعية والضعيفة، أو غير المقبولة عند أهل الفن، سواء فيها ما كان مرفوعاً إلى النبي ﷺ، أو ما كان مرفوعاً إلى أهل بيته عليه السلام. كما عليه أن يحذر من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة، وهي أقوال صحيحة النسبة إلى قائلها من جهة الرواية، ولكنها سقيمة أو مردودة من جهة الدلالة.

وهذه الأحاديث هي سنة نبوية معصومية، وهي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، وهي الشارحة للقرآن والمبينة له والمفصلة لما أجمل، فهي التفسير النظري والتطبيقي العملي لكتاب الله. قال الله تعالى يخاطب رسوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (1).

وتمثل هذه السنة: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه وسيرته، فهي السجل الحافل لحياتنا، ولا يستغني داعية يريد أن يدرس ويفهم الإسلام ويحاضر أو يخطب، عن الرجوع إليها والاعتدال عليها، وأول ما يجب على المبلّغ أن يهتم بسيرة الرسول ﷺ، وسيرة الرسول هي الإسلام مجسماً في حياة بشر، وهي القرآن حياً يسعى على قدمين، فهو النموذج الحي للفضائل والأخلاق التي دعا إليها القرآن.

وبطبيعة الحال لا تنفصل هذه السيرة العطرة عن سيرة المعصومين من أهل بيته الذين جعلهم الله عز وجل ورسوله الكريم نبراساً لنا في هذه الحياة.

ويقوم المبلّغ بجمع مادة الأحاديث في الموضوع الواحد ويصنفها ويقسمها على أجزاء الموضوع وعناصره، ويحذر من وضع الأحاديث في

(1) النحل: 44.

غير موضعها، ويتجنب عرض الأحاديث المشككة على جمهرة الناس لغير ضرورة تقتضيها، وعليه أن يجذر من رواية الأحاديث الموضوعية والواهية.

5- من الضروري للداعية أن يعرف أهم الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والآداب، وأن يرجع في ذلك إلى كتب الفقه.

وليحذر المبلِّغ من المبالغة في تعليل العبادات بأمور دنيوية، لأنَّ العبادات مرادة لذاتها⁽¹⁾، فالغاية من خلق الإنسان هي العبادة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁽²⁾، ولا بأس بتقريب الحكم الملموسة لبعض العبادات اجتماعية كانت، أو تربوية، أو نفسية، وغيرها.

6- أما عن الوسائل والأساليب التي يعتمد عليها المبلِّغ فمنها:

أ - التربية بالحوار القرآني والنبوي ومن أهم أشكاله: الحوار الخطابي أو التعبيري، وهو على أقسام: حوار خطابي تذكيري، وحوار خطابي تشبيهي، وحوار خطابي عاطفي، والحوار الإقناعي.

وللحوار دور كبير في تربية العواطف المؤمنة، ومن أهم أساليب الدعاة الحوار القصصي، وهو لا يأتي في صورة القصة أو المسرحية التي

(1) وهذا راجع إلى وقوفنا على الغاية من الأفعال والتكاليف، فليس من الحكمة القيام بعمل يفقد الغاية والهدف، أو يكون الهدف منه غامضاً؛ أما توفره على هدف متعدد المراحل فيعتبر عملاً عقلياً ومتعارفاً عليه، وتمثل الأحكام والتكاليف التعاليم الضرورية لسلوك هذا المسار وتحقيق هذه الأهداف، وقد فصل الباري تعالى كافة الأحكام الشرعية تبعاً للأغراض والمصالح الخاصة التي تصب في مجملها لصالح الإنسان بالذات، وفيها أخذت مصالح البشر بنظر الاعتبار؛ وهذه الأغراض غالباً ما تكون يسيرة الفهم بالنسبة للإنسان وليس ثمة دليل يقوم على نهي الإنسان من معرفة الحكمة من الأحكام وفلسفتها. ولا بد من اجتناب عملية اصطناع الحكمة بالنسبة للأحكام الشرعية بعيداً عن الدليل والسند، وأن لا نطوق علل الشرائع بحدود فهمنا وإدراكنا؛ فلعل هنالك أهدافاً سامية ومعطيات زاخرة وكامنة ترتب على حكم ما يُفلح الإنسان بالوصول إليها من خلال رشده الفكري وسعة علمه وعبر تحليه بالمعرفة العميقة والشاملة في الدين.

(2) الذاريات: 56.

نعرفها اليوم، وإثماً يأتي كجزء من أسلوب القصة أو عناصرها في القرآن.

ب- من وسائل الدعوة القصص، ومن أهداف القصص القرآني بيان قدرة الله تعالى بياناً يثير انفعالات الدهشة والخوف من الله تعالى لتربية عاطفة الانقياد والخشوع لله تعالى.

وإلى جانب القصص القرآني يوجد القصص النبوي، ويكشف القصص النبوي عن أهمية إخلاص العمل الصالح والتوسل به إلى الله تعالى للخروج من ضائقة وتفريج أزمة.

ج- من الوسائل التربوية للداعية ضرب الأمثال والقُدوة والتربية بالعظة والعبرة، ويحفل القرآن الكريم بالأمثلة الواضحة لهذه الوسائل التربوية.

ومن الواضح أنّ المبلّغ لا يلتزم وسيلة واحدة في كل المواقف، وإثماً تتغير الوسيلة بتغير الموضوع أو الموقف، وقد يستخدم أكثر من وسيلة في خطبة الجمعة مثلاً.

وفي دعوة الأيمن يلجأ الدعاة غالباً إلى القصص والأخبار العاطفية المثيرة التي تثير الشجن وتحرك كوامن النفس، ويبدو المتلقي غارقاً في مشاعر دافئة يسيطر عليها الإعجاب الشديد بالمبلّغ والافتناع بما يقول بل والتعصب الشديد له.

أما عندما يخاطب المبلّغ المثقفين فإنّ طريقه إلى إقناعهم بما يعرضه عليهم يفرض عليه الاعتماد على الأدلة والبراهين والتحليلات السليمة لما يعرضه عليهم.

ثالثاً: الأدوار التربوية والاجتماعية للمسجد:

لما كانت التربية الإسلامية تعنى ببناء الشخصية المسلمة في إطار المجتمع المسلم بناءً متكاملًا، فإنّ المسجد يسهم في تحقيق هذا الهدف من خلال مناشطه المختلفة التربوية والاجتماعية. ويرجع ذلك إلى أنّ الإسلام دين اجتماعي يسعى إلى إيجاد المجتمع الصالح وتكوين الفرد الصالح، بل إنّ صلاح المجتمع لازم لصلاح الفرد لزوم التربة الخصبة لإنبات البذرة. فلا يتصور الإسلام الفرد المسلم إنساناً منعزلاً في خلوة أو راهباً في

صومعة، بل يتصوره دائماً في جماعة حتى في عبادته لربه. ومن هنا هدفت المساجد في الإسلام إلى تحقيق هذه الصورة الاجتماعية القوية وإقامة المجتمع المتناسك الذي تربطه في المقام الأول روابط العقيدة.

لذا كان المسجد على عهد الرسول ﷺ مكاناً للعبادة والاعتكاف والتعليم والتوجيه، ومكاناً لتشاور المسلمين وتناصحهم، وفيه يعقد القضاء، وكان مقراً للقيادة وعقد ألية الجيوش المجاهدة في سبيل الله، وتطبيب المرضى، فضلاً عن أنه كما كانت توثق به عقود الزواج، كان مركزاً للتثقيف، ومكاناً لاستقبال الوفود والسفراء، إضافة إلى أنه كان يمثل داراً للإعلام، كما كان داراً للإغاثة والرعاية الاجتماعية.

وسوف نعرض فيما يلي هذه الأدوار بشيء من التفصيل:

1- الرسالة الروحية للمسجد:

كما أنه من خلال المسجد يقوم الكيان الروحي للأمة، فهو الأساس لوجودها المادي. يقول تعالى: ﴿لَسَجِدٌ أُنَسَّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ (1).

فالمسجد يهذب نفس المسلم ويرقى بمشاعره ويبعث لديه السكينة والطمأنينة، كما أنه يصل المسلم بربه ويظهر نفسه من الأنانية وحب الذات، وذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (2)، والصلاة وقراءة القرآن تمنحان صاحبهما فيوضات ربانية ورحمات إلهية لا تنقطع، وتباعد بين الإنسان والفواحش والمنكرات. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (3).

والمسجد يربط المسلم بربه ويتم فيه ذكر الله وطاعته. يقول تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ

(1) التوبة: 108.

(2) العنكبوت: 45.

(3) العنكبوت: 45.

الرَّكَاتِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿١﴾، حيث تؤدي في المسجد الصلوات الخمس في جماعة، وكذلك صلاة الجمعة والجنائز وغيرها.

وفي المسجد يكون الاعتكاف، ومعناه عكوف القلب على الله تعالى طاعة له. وكان رسول الله ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، وكان يأمر بنخاء فيضرب له في المسجد يخلو فيه بربه عز وجل. فالاعتكاف إحدى الوظائف الدينية للمسجد.

وفي المسجد يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من خلال خطبة الجمعة والدروس والعظات التي تلقى فيه، وهذه الرسالة للمسجد لم تحرم المرأة من الصلاة هنا، كما جاء في الصحيح عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كَنَّ النساء يصلين مع النبي ﷺ، وكَنَّ يؤمرن أن لا يرفعن رؤوسهن قبل الرجال لضيق الأزُر»⁽²⁾.

وجاء في صحيح البخاري: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»⁽³⁾.

وفي صحيح مسلم: «لا تمنعوا نساءكم المساجد»⁽⁴⁾.

2- الرسالة التعليمية للمسجد:

إنَّ الحديث عن الدور العظيم للمسجد في التربية والتعليم ونشر العلم والمعرفة بين المسلمين ماضياً وحاضراً، لا يعد انتقاصاً من دور الجامعات ومعاهد التعليم. كما لا يعد دعوة إلى قصر التعليم على التعليم المسجدي الذي كان سائداً في بعض المساجد، وإتيا الهدف هو الكشف عن

(1) النور: 36 - 37.

(2) وسائل الشيعة: ج 8 ص 343 ح 10855.

(3) صحيح البخاري: ج 1 ص 305 ح 858، ومسنَد أحمد: ج 2 ص 16 ح 4655، وصحيح ابن حبان: ج 5 ص 587 ح 2209، وسنن الدارمي: ج 1 ص 330 ح 1279، وسنن أبي داود: ج 1 ص 155 ح 566.

(4) صحيح مسلم: ج 1 ص 327 ح 442، وصحيح ابن خزيمة: ج 3 ص 90 ح 1678، والمستدرک علی الصحیحین: ج 1 ص 327 ح 755، وسنن البيهقي: ج 3 ص 131 ح 5142.

الدور الحقيقي للمسجد في الإسلام في ميدان التربية، فضلاً عن تفعيل هذا الدور وإمكانية الاستفادة منه في وقتنا المعاصر.

كما تجدر الإشارة إلى أن المسجد روح قبل كل شيء، ومتى وجدت هذه الروح في الجامعات والمعاهد والمدارس وفي العالم الإسلامي، كانت قادرة على أداء دورها في إحداث النهضة وبث اليقظة ومحاربة الانحراف الديني والخلقي والسياسي والتربوي وغيرها من الانحرافات في أوساط المسلمين. وعندما يصبح معلمو المدارس ومدبروها المشرفون عليها على درجة عليا من الخلق والاستقامة والكفاءة، فإنهم سوف يؤدون رسالة المسجد على أفضل وجه مهما كان نوع العلوم التي تدرس بالمساجد سواء كانت علوم الدين أو الدنيا.

فالعلم هو أساس العملية التربوية في الإسلام. ولقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لم يعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»⁽¹⁾.

وطلب العلم في الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة، فهو مأمور بأن يتعلم الحلال والحرام؛ ليكون على نور من أمر دينه، وأول ما ينبغي أن يتعلمه كتاب الله وسنة نبيه؛ ليكون على بصيرة، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽²⁾.

وقد حث النبي ﷺ على تعلم القرآن وتعليمه فقال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽³⁾.

وقد أدرك أهل بيته وأصحابه قيمة هذا الأمر، فكانوا يجتمعون في المسجد، حول النبي ﷺ لأخذ العلم من منابعه.

وقد حثهم النبي ﷺ على تدارس كتاب الله في المسجد فقال: «ما

(1) صحيح مسلم: ج 2 ص 1104 ح 1478، ومسند الإمام أحمد: ج 3 ص 328 ح 14555.

(2) يوسف: 108.

(3) مستدرک الوسائل: ج 4 ص 235 ح 4579.

جلس قوم في بيت من بيوت الله يدرسون كتاب الله، ويتعاطونه بينهم إلا كانوا أضياف الله تعالى، وأظلت عليهم الملائكة بأجنحتها ما داموا فيه حتى يخوضوا في حديث غيره»⁽¹⁾.

فكان المسجد معهداً لتعلم القرآن وتعليمه وفهم آياته وأحكامه، كما كان معهداً لدراسة الأحاديث النبوية والتفقه فيها. وقد ظل المسجد إلى عهد قريب هو المدرسة لكل العلوم يجلس به العلماء والفقهاء والمحدثون ويتحلق من حولهم الطلاب ينهلون من علمهم وفقههم.

ولما تأسست الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، كان المسجد النبوي من أهم دعائمها، وكان هو المؤسسة التعليمية الرسمية الأولى في هذا المجتمع الجديد. وأنّ معظم المسلمين كانوا يتعلمون في هذا المسجد تعاليم الدين، وما أوجبه الظروف المرتبطة بنشأة هذا المجتمع. فأيات القرآن الكريم وفرائض الدين والقوانين المنظمة لهذا المجتمع، وسبل حمايته عسكرياً وسياسياً وتنظيم علاقته بالمجتمعات المحيطة به - حرباً أو مهادنة -، كل ذلك يمثل المحتوى التعليمي لهذه المؤسسة.

ولهذه الأهمية التي يحظى بها التعليم في الإسلام، رغب النبي ﷺ في ارتياد المسجد للتعلم. ففي الحديث قال ﷺ: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلم خيراً أو ليعلم كان له أجر معتمر تام العمرة، ومن راح إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلم خيراً أو ليعلم فله أجر حاج تام الحجة»⁽²⁾.

ومن أبرز ما يؤكد على أنّ المسجد كان مركزاً للتعليم والتوجيه، مجالس العلم التي كانت تعقد في مسجد الرسول ﷺ، ويتزاحم المسلمون عليها، ويتنافسون في القرب منه.

3- المسجد وتعليم المرأة:

لقد خرجت المرأة إلى المسجد لتأخذ بحظها من العلم. حتى أن النساء قلن للنبي ﷺ: «غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك.

(1) مستدرک الوسائل: ج 3 ص 364 ح 3789.

(2) بحار الأنوار: ج 1 ص 185.

فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن، وأمرهن⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه لما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار، تفرق هؤلاء المعلمون - الذين تلقوا علمهم بالمسجد - في شتى الأنحاء والأمصار، وقاموا بحركة تعليمية مباركة. ولم يكن التعليم في هذا الوقت مهنة أو صناعة وإنما تعلمهم لغرض ديني هو القربى إلى الله وابتغاء مرضاته ونشر دعوته.

4- المسجد والمكتبة:

لما كان المسجد مدرسة للمسلم، وكان كثير من المسلمين لا تتوفر لديهم مصادر العلم لا سيما الفقراء والذين لا يجدون سعة لشراء الكتب التي توسع آفاق معرفتهم، فإنه من الضروري أن تكون في كل مسجد مكتبة تمثل مركز إشعاع وتوجيه وتربية. وهذه المكتبة ينبغي أن تكون متنوعة تزود يومياً بالجدید من الكتب والبحوث والمجلات الهادفة ليكون المتردد على تلك المكتبة على صلة بكل جديد في الفكر وما يجري في العالم من تيارات فكرية.

لذا فإنه ينبغي إعداد نشرة ثقافية توجيهية تهيئية بما يجري في المنطقة المحيطة بالمسجد والمشكلات التي تطرأ عليها، على أن يشترك فيها المتخصصون في مجالات مختلفة مع الإمام. وهذه النشرة تعلق بداخل المسجد. كما يغني مكتبة المسجد وجود مكتبة سمعية بصرية، فالكلمة المقروءة والمسموعة حين تنطلق من داخل المسجد يكون لها تأثير في النفوس وتوجيه لكل عمل بناء في حياة البشر. ولعل تزويد المساجد بالمكتبات يمثل زاداً ثقافياً للمسلمين يقيهم شرور الفكر المسموم الذي يعرض عبر الكلمات المكتوبة تارة والمسموعة أخرى.

إن المسجد إذا أسهم في تكوين عقول المسلمين وتنمية ثقافتهم، فإن المجتمع يتجه نحو التنمية الشاملة من خلال شعاع المسجد وتأثيره الذي يتغلغل داخل النفوس المؤمنة.

(1) صحيح البخاري: ج 1 ص 50 ح 101، وصحيح ابن حبان: ج 7 ص 206 ح 2944.

5- المسجد دار إغاثة ورعاية اجتماعية وصحية:

لقد كان النبي ﷺ يقسم الأموال الواردة إليه في المسجد على ذوي الحاجات، فإن لم تكن هناك أموال - وكان الناس في حاجة - دعا الأغنياء إلى البذل والإنفاق، وقام بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين في المسجد أيضاً. فقد حدث أن وفد على رسول الله قوم يشكون الفاقة والحاجة للثياب، فتغير وجه رسول الله حزناً عليهم ثم خطب ﷺ في الناس حاثاً لهم على رعاية الرحم وتقديم الخير، فانهالت التبرعات من الدراهم والدنانير والثياب والبر والتمر حتى تكوم كومان عظيمان من الطعام والثياب، فتهلل وجه النبي ﷺ وأعطى القوم⁽¹⁾.

هذا إضافة إلى توزيع الأموال الواردة إليه في المسجد ﷺ، فلما أتى النبي ﷺ بهال من البحرين فقال: انثروه في المسجد، وكان أكثر مال أتى به النبي ﷺ فخرج رسول الله إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه⁽²⁾.

6- المسجد دار للغريب:

خصص النبي ﷺ في مسجده مكاناً لإيواء الفقراء الذين ليس لهم بيوت، وعرف هذا بمكان أهل الصُّفَّة. وكان عددهم سبعين فرداً، وكان النبي ينفق عليهم من مال الصدقة وتبرعات أهل الفضل. ففي الحديث: لما كثر المهاجرون بالمدينة، ولم يكن لهم دار ولا مأوى، أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد، وساهم أهل الصُّفَّة، وكان يجالسهم ويأنس بهم⁽³⁾. فلقد عرف أهل الخير أنّ الغريب لا بد أن يكون له مكان يأوي إليه فبنوا المضيفة، والرباط بجوار المسجد، ووقفوا عليها ما يضمن لها الاستمرار في أداء هذا الواجب.

7- المسجد دار علاج وتطبيب:

لقد اتخذ النبي ﷺ من المسجد مكاناً لعلاج المرضى، ففي غزوة الخندق لما أصيب سعد بن معاذ ضرب النبي ﷺ له خيمة في المسجد

(1) السنن الكبرى: ج 2 ص 39 ح 2335، ومسنند الإمام أحمد: ج 4 ص 358.

(2) صحيح البخاري: ج 1 ص 162 ح 411.

(3) سنن البيهقي: ج 2 ص 445 ح 4135.

يعالج فيها، وقام بتمريره أهل الخبرة في هذا المجال، وهي رفاة الألفية⁽¹⁾.

وبدل هذا الأمر على أن المسجد لا يشكل عبئاً على المجتمع، وإثماً يتفاعل معه بما يخدمه ويرقى به. ولما كان المريض في أشد الحاجة إلى ما يطمئن فؤاده، ويغرس فيه ضرورة الرضا بما يقسمه الله عليه، والصبر على البلاء ويحقق صلته بالله مما يخفف عنه الألم ويذهب السقم. كل ذلك يؤكد على ضرورة أن يوجد مسجد بكل مستشفى يعين المرضى على أداء فريضة الصلاة، ويدعم الجانب الروحي فيهم.

ويتبين من هذا الأمر أيضاً مشاركة المرأة لجوانب العمل الاجتماعي دون خدش لحياتها أو تفريط في دينها.

قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفاة، في مسجده كانت تداوي الجرحى، وتحتسب نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم في الخندق: اجعلوه في خيمة رفاة حتى أعوده من قريب»⁽²⁾.

فالمرأة رائدة اجتماعية في ظل الإسلام شاركت في التعليم والتطبيب والحرب، ولم نسمع بأن النساء الفضليات في كثير من المجالات قدمن السفور أو التحلل ثمناً لمنصب أو لمظهر اجتماعي، كما نرى البعض اليوم تحت شعار حرية المرأة، وأقول إن المرأة ما وجدت حريتها ولا كرامتها إلا في الإسلام.

8- المسجد دار القضاء:

اتخذ المسجد داراً للقضاء العادل بين المتنازعين، حيث يأمن فيه كل إنسان على نفسه ويطمئن إلى أخذ حقه.

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ﷻ إِذْ

(1) الإصابة في تمييز الصحابة: ج 7 ص 646 رقم 11175، والسيرة النبوية: ج 4 ص 198.

(2) السيرة النبوية: ج 4 ص 198.

دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ
فَاخُذْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١﴾

قال القرطبي: «ليس ما في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد أهم
من هذه الآية، وبها استدل من قال بجواز القضاء في المسجد»⁽²⁾.

فغن علي عليه السلام أنه بلغه أن شريحاً يقضي في بيته، فقال: «يا شريح
اجلس في المسجد فإنه أعدل بين الناس، وإنه وهن بالقاضي أن يجلس في
بيته»⁽³⁾.

وفي روايات أهل السنة جاء في صحيح البخاري أن كعب بن مالك
تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان له عليه في المسجد فارتفعت أصواتها، حتى
سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته فخرج إليهما حتى كشف عن سجف
حجرته، فنأدى: يا كعب، قال: لبيك يا رسول الله، قال: ضع من دينك
هذا، وأوماً إليه أي الشطر. قال: لقد فعلت يا رسول الله، قال: قم
فاقضه»⁽⁴⁾.

9- الرسالة العسكرية للمسجد:

حين هاجر النبي ﷺ شرع في بناء المسجد، وعمل مع أصحابه في
تشيدته، فكان هذا المسجد هو الثكنة العسكرية الأولى في الإسلام. فكان
النبي يحشد أصحابه في المسجد ويحرضهم على الثبات في القتال.

وتنطلق الغزوات والسرايات من المسجد، ويجتمع الصحابة في المسجد
حين يداهمهم خطر. كما أن المنتصرين في الغزوات والسرايا يعودون إلى
المسجد، وتضمند جروح المصابين في المسجد. وكان المسجد أحياناً ساحة
للتدريب العسكري، فقد ذكر التاريخ أن الأحباش كانوا يتدربون في
ساحات المسجد.

(1) ص: 21 - 22.

(2) تفسير القرطبي: ج 15 ص 180.

(3) جامع أحاديث الشيعة: ج 30 ص 76 ح 45346.

(4) صحيح البخاري: ج 1 ص 174 ح 445.

فكل القادة الذين نجحوا في صد المعتدين أو أضافوا فتحاً جديداً على الفتوحات الإسلامية، كانوا ملتزمين بتعاليم الإسلام، وكانوا قدوة لجنودهم في التدين والاستقامة والعمل الصالح.

ولعل في صلاة الجماعة تدريباً عملياً على الضبط والنظام، فلها أهمية بالغة في إيقاظ روح النظام في نفوس المسلمين، فلقد كان المسجد في نشأته أول ميدان حقيقي للتدريب العسكري عند المسلمين، فحري بنا أن نعود إلى المسجد لنجعل منه مكاناً لرفع المعنويات والسمو الروحي، لا يجعله ميداناً للتدريب، فإنّ لهذا مجاله المعروف في هذا العصر، وإثما لإحياء الرسالة الاجتماعية في إطار الضوابط واحترام ما يتواضع عليه المجتمع.

10- المسجد مكان لاستقبال الوفود والسفراء:

عرف المسجد أنه من أنسب الأماكن لاستقبال الوافدين من أبناء الإسلام وأهل الكتاب من أي مكان وفي أي وقت.

ولقد استقبل النبي ﷺ العديد من الوفود في المسجد ومن بينها وفد عبد قيس، وكان من خبرهم أن الرسول ﷺ كان جالساً بين أصحابه يوماً، فقال لهم: «سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق لم يكرهوا على الإسلام، قد أنضوا الركائب، وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد قيس» وتمت مقابلتهم بالنبي ﷺ.

وكان ﷺ يقابل هذه الوفود في المسجد بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، ويميزهم بما يرضيهم ويعلمهم الإيمان والشرائع ليعلموا من وراءهم. وكانت هذه الوفود أعظم صلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي.

11- الدور الإعلامي للمسجد:

كان المسجد يقوم بدور الإعلام، حيث كان السلاطين والملوك والأمراء كلما أصدروا مرسوماً من المراسيم الاقتصادية أو الاجتماعية نقشوه على حجر من الرخام ووضع بصدر المسجد من الداخل أو الخارج

حيث يراه كل الداخلين إليه. وقد اختير المسجد مكاناً للإعلام والإعلان حيث إنه مكان اجتماع الناس للصلاة الجامعة والجماعة. وهذه المراسيم كانت تعالج بعض أوجه القصور الموجودة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية وغيرها.

وتعتبر السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أول من استخدم هذا الأسلوب حينما خطبت في مسجد أبيها في قضية فدك مع الخليفة أبي بكر.

فألقت على مسامع المسلمين خطبتها العصماء معلنة موقفها الصريح من الأحداث الطارئة والحادثة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا سيما في ما يخص الخلافة والإمامة المتمثلة في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

12- المسجد ونظافة البيئة:

لما كان الإسلام يهتم بالبيئة ونظافتها، ووعد بالأجر والثواب لمن عني بها، كانت المساجد أولى البقع بهذه النظافة، الأمر الذي ينعكس على سلوكيات الأفراد خارج المسجد.

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قمَّ (أي كنس) مسجداً كتب الله له عتق رقبة، ومن أخرج منه ما يُقذَى عيناً كتب الله عزَّ وجل له كفلين من رحمته»⁽¹⁾.

وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عرضت عليَّ أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»⁽²⁾.

وقد كرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم امرأة تكريماً عظيماً لأنها كانت تخدم المسجد وتقوم على نظافته، وإخراج التراب منه.

وروي عن عبيد الله بن مرزوق قال: كانت امرأة بالمدينة تقم المسجد، فهاتت فلم يعلم بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمر على قبرها فقال: ما هذا القبر؟!!

(1) وسائل الشيعة: ج 3 ص 507.

(2) سنن الترمذي: ج 5 ص 178 ح 2916.

فقالوا: قبر أم محجن.

قال: التي كانت تقم المسجد؟!

قالوا: نعم.

فصف الناس، فصلى عليها، ثم قال: أي العمل وجدت أفضل؟

قالوا: يا رسول الله! أسمع؟!

قال: ما أنتم بأسمع منها. فذكر أنّها أجابته قم المسجد⁽¹⁾.

فلقد نالت المرأة هذا التكريم من صلاة النبي عليها وصفّ الناس قبرها والدعاء لها بالخير والرحمة، وذلك بفضل خدمة المسجد وتنظيفه.

وفي هذا الإطار يقول الله سبحانه وتعالى مؤكداً على النظافة والتجمل من أجل بيئة نظيفة خالية من التلوث يسعد فيها الفرد والمجتمع على السواء: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾⁽²⁾.

وهكذا ينبغي أن تبقى بيوت الله نظيفة، تفوح منها الروائح الزكية التي تساعد على ارتيادها للصلاة فيها، وللاعتكاف فيها وأداء شعائر الله وفرائضه.

فالمسجد يربي المسلم على النظافة والنظام وغيرها من القيم البيئية التي نحتاج إليها في حياتنا.

13- المسجد بإدارته:

تعتمد فاعلية المسجد في المجتمع على فاعلية إمامه، فالمسجد ليس بقوة المبنى ولا بسعة المكان. فقد يكون المسجد صغيراً جداً ورواده بالآلاف وخدماته ملموسة لأفراد المجتمع، يوجد فيه الإمام داعية مخلصاً

(1) الترغيب والترهيب: ج 1 ص 122 ح 427، ومسند الروياتي: ج 1 ص 80 ح 43.

(2) الأعراف: 31.

واسع المدارك فاهماً لدينه، متفهماً لقضايا مجتمعه، يلتحم بالجمهور، يشاركهم الرأي والفرح والمصيبة، يقوم بدوره طبيياً لمعالجة مرضى القلوب واضطراب النفوس، يعمل بما أوتي من حكمة على إيجاد الأمن والإيمان في المجتمع، كما أنه مصلح اجتماعي يقود الجماهير إلى العلم الاجتماعي بجوانبه المختلفة.

والإمام هو الصورة المشرقة بالأمل، النابضة بالحركة، الأسوة في كل عمل صالح، ورسالته مستقاة من رسالة الأنبياء والمرسلين ومهمته خطيرة. وإذا كان المسجد يقدم للمجتمع العناصر الطيبة، فإنّ الذي يدير عجلة هذا المصنع ويقودها إنّما هو الإمام.

سؤال: إنّ مسألة التقديس أصبحت مسألة متأصلة في الكثير من الناس والتي هيمنت على عقولهم وخطاباتهم ولغتهم الفكرية والثقافية، ولربما كانت طريقاً للانزلاق نحو التبعية العمياء النابعة من اللاوعي، وأصبحت هي المعيار للتعامل مع الآخر متجاهلين القيم الأخلاقية الإسلامية الثابتة.

والاستفهامات تدور حول:

1- ما هو مفهوم التقديس؟ ومَنْ نقَدِّس؟ ومتى نقَدِّس؟ وكيف يكون ذلك؟

2- لماذا نقَدِّس فكراً هنا ورأياً هناك؟ ولماذا نقَدِّس الشخص بدلاً من القيم والمبادئ التي يحملها ونعرضها على الرأي الإسلامي؟

3- من هم الذين يستحقون التقديس، ومن أين يستمدون قدسيّتهم؟

4- لماذا نقَدِّس فقيهاً هنا ونسقط فقيهاً هناك؟ فهل انطلاقتنا فكرية أم غرائزية؟

5- ألا ترون أنّ مجتمعاتنا وحتى بعض الحوزويين اتجهت لتقديس بعض الرموز العلمائية دون أن تدرس هل هؤلاء يمثلون

لتعاليم القرآن الكريم ويمثلون أهل البيت عليهم السلام؛ حيث إنهم بهذا
التقديس (الأعمى) يبتعدون عن لغة الإسلام وروحه التي تثير فينا
ثقافة النقد ومسؤولية الكلمة؟

6- لماذا نحرك ثقافة القداسة عندما يحرك الآخر نقاط ضعفنا
وأخطائنا؟ ولماذا نقيم جدار القداسة عندما يسלט الضوء على زوايا
مظلمة فينا؟

لو تفضل شيخنا الجليل بوضع النقاط على الحروف وإلقاء
الضوء على هذه الأسئلة التي لا شك أن مجتمعاتنا بحاجة لفهمها
وهضمها بحسب وجهة النظر الإسلامية وما نعايشه في مجتمعاتنا
من خلط المفاهيم ببعضها البعض دون أدنى تأمل.

جواب: من خلال ما قرأناه في مداخلات أختنا الفاضلة الأستاذة
الكوثري، يمكننا أن ندخل إلى هذا الموضوع الشائك من خلال النقاط التالية:

أولاً: مفهوم القداسة:

تقدّس في اللغة يعني تطهر، ومنها التقديس أي التطهير، والقدس -
بسكون الدال وضمها - تعني الطهر، ومنها سميت لجنة حظيرة القدس،
وسمي جبريل روح القدس.

قال الشيخ الصدوق: «القدوس: معناه الطاهر، والتقديس: التطهير
والتنزيه. وقوله عز وجل - حكاية عن الملائكة -: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾⁽¹⁾ أي ننسبك إلى الطهارة، ونسبحك ونقدس لك بمعنى
واحد، وحظيرة القدس موضع الطهارة من الأدناس التي تكون في الدنيا
والأوصاب والأوجاع وأشباه ذلك. وقد قيل إنَّ القدوس من أسماء الله عز
وجل في الكتب»⁽²⁾.

(1) البقرة: 30.

(2) التوحيد: ص 210.

وعلينا أن ننبه إلى أن مفهوم الطهارة الإلهية يختلف عن مفهوم الطهارة البشرية.

فالطهارة البشرية لها أكثر من معنى:

منها: الطهارة من الدنس، ومن كل ما يكون سبباً للإصابة بالآفات والأمراض كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ﴾⁽¹⁾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُنَابِكْ فَطَهَّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُزْ﴾⁽²⁾، وقوله جل وعلا: ﴿فَاعْتَرِزُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾⁽³⁾.

ومنها: الطهارة من الآفات القلبية والنفسية كالحقد والحسد والبغض والبخل.. كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾⁽⁵⁾.

ومنها: التخلص من كل عبادة غير عبادة الخالق عز وجل والتخلص من معصيته؛ كما في قوله تعالى على لسان قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾⁽⁶⁾ أي يتطهرون من المعاصي، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽⁷⁾.

ومنها: الطهارة من الجنابة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾⁽⁸⁾.

وأما الطهارة في مفهوم القداسة الإلهية:

فهل يمكن أن تكون بمعنى الطهارة من الدنس، أو الجنابة، أو

(1) الأنفال: 11.

(2) المدثر: 4 - 5.

(3) البقرة: 222.

(4) التوبة: 103.

(5) المائدة: 41.

(6) النمل: 56.

(7) آل عمران: 55.

(8) المائدة: 6.

المعصية... أو غير ذلك من الوجوه المبطلّة للطهارة البشرية؟

بالطبع لا يمكن أن تكون القداسة أو الطهارة الإلهية بهذا المعنى، بل إنها تختلف اختلافاً مطلقاً عن الطهارة البشرية.

ولكي نفهم هذا الاختلاف ينبغي أن ندرك أنّ النجاسة، وخاصة المادية منها، مرتبطة بالبنية المادية للإنسان، فلولا الجسد لما كان هناك بول أو عرق أو دم.

ونظراً لأنّ الإنسان يتكون من روح وجسد فإنه لم يخلُ من كافة وجوه الدنس المرتبطة بتركيبه المادي.

أما بالنسبة للخالق فهو مبرأ من المادة، أي أنّ المادة لا تدخل في تركيبه؛ لأنّها مخلوق من مخلوقاته، و«لكن كان الله ولا شيء معه»⁽¹⁾، و«كان الله ولا شيء غيره»⁽²⁾، و«كان الله عز وجل ولا متكلم»⁽³⁾.

وكونه سبحانه وتعالى مبرأ من المادة، يجعله مبرأ أيضاً - تبعاً لذلك - من جميع وجوه النجاسة والدنس التي تصيب البشر بسبب بنيتهم المادية.

وإذا ما انتقلنا إلى النجاسة أو الدنس المعنوي، كالكفر والشرك والمعصية، نجد أنّها منتفية في حق الله عز وجل؛ لأنّه غير خاضع لتكليف حتى يوصف بهذه الأوصاف.

وأما بالنسبة للآفات القلبية فهي أيضاً منتفية في حقه تعالى؛ لأنّه واحد أحد فرد صمد ليس له شبيه أو مثيل حتى ينظر إليه نظرة الحاسد أو الحاقد.

فإذا كانت الطهارة الإلهية تختلف هذا الاختلاف الجذري عن مفهوم الطهارة البشرية، فماذا تعني القداسة أو الطهارة الإلهية إذن؟

ونجيب على هذا السؤال فنقول: إنّ القداسة الإلهية تعني أنّ الخالق

(1) التوحيد: ص 67 ح 20.

(2) التوحيد: ص 145 ح 12.

(3) التوحيد: ص 139 ح 1.

مبراً من كل عيب أو نقص يتعارض مع كماله المطلق.

ولكن ما هي العيوب أو النقائص التي تتعارض مع الكمال الإلهي؟! ونحن نعلم أنّ الكمال المطلق لله تبارك وتعالى يقتضي كمال صفاته المتعالية، وهذا يعني أنّ جميع صفات الله عز وجل مطلقة وليست نسبية.

خذ على سبيل المثال صفة (القدرة) فهذه الصفة نسبية لدى الإنسان بمعنى أنّه يقدر على أشياء ولا يقدر على أخرى، بينما نجد صفة (القدرة) لدى الخالق مطلقة؛ بمعنى أنّه سبحانه قادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، ولا يقف ضد إرادته حائل.

والقدوس في هذا الصدد تعني أنّه تبارك وتعالى مطهر عن النقص والعجز في الصفات. فجميع صفاته مطلقة؛ أي تبلغ منتهى الكمال في الوصف، فرحمته مطلقة وعلمه مطلق، وحكمته مطلقة وسمعه مطلق، وعزته مطلقة وعدله مطلق، وهكذا شأن جميع صفاته تبارك وتعالى.

وإذا أردنا التوضيح أكثر نقول: إنّ صفات الخالق تنقسم إلى قسمين:

أ - قسم مقابل، وهو الأسماء الحسنى التي يكون عملها في مخلوقات الله عز وجل؛ ومنها المعز المذل، النافع الضار، فالخالق سبحانه يعز من خلقه من يشاء ويذل من يشاء، وينفع من يشاء ويضر من يشاء.

ب - وقسم لا يقبل العكس، أي أسماء ليس لها مقابل، وهذه الأسماء هي أسماء للذات الإلهية المتعالية، فمن أسمائه عز وجل الحي بينما ليس من أسمائه الميت لأنّ الحي من أسماء ذاته، وأسماء الذات لا تقبل العكس. ومثل ذلك أيضاً العزيز فلا يصح أن نقول إنّ من أسمائه الذليل.

وكذلك القدوس يصبّ في هذا الصدد، وتعني المطهر عما يناقض أسماء ذاته المتعالية؛ فهو سبحانه وتعالى الحي المطهر عن الموت، العزيز المطهر عن الذل، القادر المطهر عن العجز، الكريم المطهر عن البخل، العليم المطهر عن الجهل، وهكذا شأن سائر أسماء ذاته الإلهية المتعالية.

وهو سبحانه وتعالى مطهر عن أن يكون له مثل أو شبيه، ونؤكد على

هذه الحقيقة نظراً لأنّ هناك عقائد عبر التاريخ يعتقد معتنقوها أنّ الله خلق الإنسان على صورته ومثاله⁽¹⁾.

وهذا الاعتقاد باطل من جميع الوجوه، لأنه إذا قيل إنّ المماثلة في القالب المادي، قلنا لهم: إنّ الحق عز وجل ليس بادة؛ أي لا تدخل المادة في تكوينه على الإطلاق. وكلنا يعلم أنه مرّ حين من الدهر كان الله تبارك وتعالى ولم يكن معه شيء على الإطلاق، فالمادة مخلوق من مخلوقاته عز وجل، فكيف يدخل المخلوق في تكوين الخالق.

إذن المماثلة الشكلية يرفضها العقل متفقاً مع ما قرره القرآن الكريم.

وإذا قيل إنّ المقصود المماثلة في الصفات.

قلنا لهم: إنّ هذه أيضاً يرفضها العقل.

ولتوضيح ذلك ينبغي أن نعلم أنّ صفات الخالق على قسمين:

أ - مجموعة الصفات الخاصة به والتي لا توجد في أي من مخلوقاته بأي درجة من الدرجات؛ ومن هذه الصفات: الوجدانية والخلق من العدم والإحياء والإماتة والبعث والأزلية والأبدية والقيومية، وأتة سبحانه وتعالى لا تأخذه سنة ولا نوم، وأتة سبحانه فعّال لما يريد، وكونه سبحانه الأول والآخر.

وكل هذه الصفات خاصة به جل وعلا ولا توجد لمخلوقاته مطلقاً.

(1) عن يعقوب السراج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ بعض أصحابنا يزعم أنّ الله صورة مثل صورة الإنسان، وقال آخر إنّه في صورة أمرد جعد ققط. فخر أبو عبد الله ساجداً ثم رفع رأسه فقال: سبحان الله الذي ليس كمثلته شيء، ولا تدركه الأبصار، ولا يحيط به علم، لم يلد لأنّ الولد يشبه أباه، ولم يولد فيشبه من كان قبله، ولم يكن له من خلقه كفواً أحد، تعالى عن صفة من سواه علواً كبيراً. (التوحيد: ص 104 ح 1). وعن الحسين بن خالد قال: قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله إنّ الناس يروون أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ الله خلق آدم على صورته؟! فقال: قاتلهم الله لقد حذفوا أول الحديث؛ إنّ رسول الله ﷺ مرّ برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبح الله وجهك ووجه من يشبهك. فقال ﷺ: يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإنّ الله عز وجل خلق آدم على صورته. (التوحيد: ص 153).

وهذه الصفات لا يمكن أن نتصور فيها المماثلة بين الله عز وجل والإنسان لأنها غير موجودة للإنسان.

ب- الصفات الموجودة لدى الله والإنسان كالسمع والبصر والكلام والقدرة وغيرها من الصفات المشتركة.

ونقول لأنصار المماثلة: إنه حتى بالنسبة لهذه الصفات أيضاً لا يمكن تصور المماثلة بين الله عز وجل والإنسان؛ لأنّ الاشتراك هنا اشتراك لفظي أو مجازي فقط وليس اشتراكاً أو مماثلة حقيقة.

خذ على سبيل المثال صفة القدرة للإنسان تجد أنّ جميع ما توصل إليه الإنسان من مبتكرات قد توصل إليه بقدرته العقلية أو البدنية أو الاثنين معاً، فإذا تساءلنا مَنْ خلق الإنسان وخلق له قدرته العقلية والبدنية معاً؟ فسنجد أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ومنحه القدرة العقلية والبدنية.

إذن انتفت لدينا قدرة الإنسان وصارت مظهراً من مظاهر قدرة الله عز وجل، وانتفت المماثلة تماماً.

فالخالق سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾⁽¹⁾ وهو جل وعلا منزّه ومطهر عن المثل والشبيه والند والسمي والكفؤ والمضاد ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽²⁾.

ثانياً: إشكالية التقديس بين الدين والثقافة:

موضوع الدين والثقافة من المواضيع التي تتعدد وجوه القول والبحث فيها. وبالأساس فإنّ مصطلح (ثقافة) مصطلح سيال، لا يستقر على تعريف محدد جامع مانع. كما أنّ مفهوم الدين - وليس الدين نفسه - مفهوم ملتبس، على الأقلّ لجهة التمييز بين ما هو دين، وبين ما هو فكر ديني.

(1) الشورى: 11.

(2) الحشر: 23.

وإذا كان الفكر الديني هو المعرفة البشرية بالدين، تحتم علينا أن نصنف الفكر الديني في خانة المعطى الثقافي. ولكن هذا التصنيف لا يتم إلا بعد التوافق على أنّ مصطلح الثقافة، مهما تباين تحديداته وتعريفاته، فإنها تُجمع على أنّ النشاط الفكري المعرفي هو عنصر أساسي من عناصر مصطلح الثقافة. وهكذا تغدو الخبرة الدينية هي أيضاً خبرة ثقافية. ولعل هذا هو ما يسوغ استعمال مصطلح (الثقافة الدينية) إلى جانب مصطلحات ثقافية أخرى، كالثقافة العلمية، والثقافة الأدبية، والفنية، والسياسية، إلخ.

إذن كيف نبحت في الخبرة الدينية - وهي خبرة ثقافية - من منظور فلسفي معرفي، أي من منظور ثقافي؟ ألا يغدو البحث حينذاك بحثاً في الثقافة نفسها من منظور ثقافي؟ - بما يعني أنّ الثقافة تسأل عن ذاتها.

لا شك، إذن، أنّ المعرفة الدينية (ومعها - بل ضمنها - الخبرة الدينية)، وإن لم تكن مستندة على الوحي، ومستمدة في عناصرها الأساسية منه ومن الإيمان به، إلا أنّها ليست الوحي نفسه. إنّها، ببساطة، القراءة البشرية للوحي. وبهذا التعريف للمعرفة الدينية يصبح واضحاً الفرق بين الدين والثقافة الدينية، وبين الوحي ومعرفة الوحي. فإذا كان الدين - الوحي - مصدره الله فإنّ المعرفة أو الثقافة الدينية مصدرها البشر.

ونحن لا نورد هذا التمييز بين الدين والثقافة الدينية لنفي صفة التقديس عن الثقافة الدينية، ونثبتها للوحي وحده؛ فهذا أمر بات مفروغاً منه. كما لا يجوز التورط، من جديد، بإسباغ المقدس على ما هو بشري، لأنّ كل ما هو بشري فهو نسبي، أي ناقص ومتحول. ولكننا نورد هذا التمييز بينهما تمهيداً لبحث العلاقة بين الدين والثقافة.

ثالثاً: سلطة التقديس والنص:

الفرق بين الإنسان وبين الأشياء المتحركة الأخرى هو امتلاك الإنسان للفكر الذي يستطيع من خلاله أن يميز ويبدع وينتج ويتفاعل ويتأثر ويتأمل ويرصد؛ وإذا كان لكل إنسان موقعه الخاص به وتجربته الخاصة به فمن الطبيعي أن تختلف الرؤى وتختلف الأفكار وهذه سنة من

سنن الحياة؛ يقول تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾⁽¹⁾.

ويقول تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾⁽²⁾.

من خلال ذلك نرى بأن الاختلاف في الأفكار وفي الرؤى مسألة طبيعية، ولكن هنالك من يريد للبشر أن يصبحوا نسخة واحدة في التفكير وفي التحرك وكأن نهاية السلم الفكري والثقافي والحضاري تنتهي إليه ساعياً إلى تنصيب نفسه وصياً على الفكر أو رسولاً للحقيقة والهداية متحدياً السنن الإلهية - سنة الاختلاف - ﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفُ السِّنِّتِكُمْ وَالْوَاوِينِكُمْ﴾⁽³⁾.

والحديث المروي عن الرسول الأكرم محمد ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة»⁽⁴⁾، وكذلك سنة التدافع في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁽⁵⁾، وهذا الاختلاف في الأفكار من خلاله يعرف الفكر الصحيح من السقيم ويعرف الصالح من الطالح كما في قول الشاعر:

فلولا القبح ما عرف الجمال ولولا النقص ما عرف الكمال
ولذا نلاحظ أن التقديس سلطة تهيمن على الذات الإنسانية، تنفذ في كلية فعالياتها (روح - إحساس - فكر) وماهية هذه السلطة تعترها إشكالية مربكة يجسدها السؤال التالي: هل للقداسة بوصفها سلطة كيان وحقيقة خارج متناول الذات الإنسانية؟ سواء تجلت في ذات فرد أو جماعة، وبعبارة أخرى هل شرط تحقق القداسة هو النشاط والخبرة الإنسانية داخل حدود الزمن أم بالإمكان تصورها منزهة سرمدية في ذاتها؟

(1) هود: 118 - 119.

(2) المائدة: 48.

(3) الروم: 22.

(4) شرح النووي على صحيح مسلم: ج 11 ص 91.

(5) البقرة: 251.

من الواضح أنّ حصاد التجارب البشرية هو الذي يجسد المفاهيم ويعطيها معانيها، وهذا الأمر يشمل القداسة ذاتها ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾⁽¹⁾؛ لأنّ القداسة لو كانت سلطة كيف تكون بمنأى عن مجسديها؟! ولاستمر الأمر بعيداً عن متناول الوعي الإنساني ويصبح المفهوم كأن لم يكن وندخل في رحابة تساؤل آخر كيف نؤمن بما لا نعي؟!!

ومع شديد الأسف هنالك من لا يطبق أن يكون لدينا فكر منفتح على الآخر، وذلك بسبب الأنانية وحب الذات التي يعيشها بعض الناس، وبسبب تحجرهم وتقوقعهم في بؤرة مظلمة ضيقة لا ترى النور، أو في كهف مظلم خالي من نوافذ تطل على الواقع.

وهؤلاء الناس يسعون لمحاصرة فكر الآخر، ولكن هيهات أن يفلحوا في ذلك لأنّ الفكرة عندما تنطلق تشق أستار الحجب وتسير في طريقها متحدية كل القوى مهما كان موقع هذه القوى؛ إنّ هذا التشنج الفكري والجمود والانطواء على الذات يعمل جاهداً على محاصرة الفكر أو إقصائه من الساحة وتكريس الفكر الأحادي، وممارسة الفكر الإكراهي مما يؤدي إلى نشوء حرب المقدسات للتراث الفكري ولبعض الممارسات التي لا تمت إلى التقديس بصلة.

ولذا لا ينبغي أستاذنا الحجة الدكتور عبد الهادي الفضلي دهشته لمسألة محاصرة الفكر وإقصائه من خلال: حرق كتاب، أو تمزيقه... في زمن يدخل الكتاب فيه من أي مكان، وأنّ مثل هذه المقولات لا تخرج إلا إذا كان بين عالم الدين والمثقف مسافة كبيرة لا يراها الأول، بل يظن أنّها غير موجودة.

وهذا ما يسمى بالإرهاب الفكري، وهو من أقسى وأشد أنواع الإرهاب، وقد ولّد هذا النوع من الإرهاب حالة من حالات الرفض والتمرد والابتعاد عن الدين الإسلامي الحنيف لأنّ الذي مارس هذا الإرهاب هو من

(1) هود: 118.

يدعي أنه قيّم ووصي على الشريعة ناسياً أو متناسياً أنه بشر وقابل للخطأ والصواب مما انعكس سلباً على الحالة الإسلامية المعاصرة.

إنّ جوهر المشكلة هنالك في من يرفض الآخر لأنه الآخر، إذ هنالك من يقبل الأنا لأنه الأنا، الأمر الذي يدفعهم إلى التراشق بالفتاوى والاحتراب والاقتيال والطعن بالآخر. ولكن هيهات أن يقوم هذا العمل على وأد الفكر.

فلم يستطع كفار قريش - مثلاً - في محاصرة الرسالة رغم الإرهاب الفكري الذي مارسوه لقتل الرسالة المحمدية، ولقد نقل لنا القرآن الكريم صورة مفصلة عن ذلك الإرهاب الفكري الذي مارسه الكفار والمشركين ضد الأنبياء والرسل بسبب التقديس والتقليد الأعمى للأباء في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾⁽¹⁾، وفي آية أخرى: ﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾⁽²⁾، لقد تصدوا بكل قوة للفكر الجديد وهو الفكر الأكثر هدى والأرشد والأصلح وبمنحهم وضوح في الرؤية لأنه يخالف دين آبائهم وأجدادهم.

وهذا ما نراه جلياً في واقعنا المعاصر؛ فبمجرد أن تختلف مع الآخر تبدأ التصفية الفكرية فضلاً عن الجسدية ولا توجد ثقافة « رأبي صحيح يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصحة » وكأنه يملك الحقيقة المطلقة المنزلة من السماء، وهذا من أحد أسباب التقديس الأعمى للموروث الفكري والثقافي!

وهنا نتساءل: هل كان الرسول الأكرم ﷺ شاكاً بدينه وبرسالته لكي يحدثنا القرآن الكريم على لسان رسوله ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾⁽³⁾، إنه قمة التواصل الإنساني بين الذات والآخر.

إننا نرى اليوم من يجعل لنفسه القدسية فيرفض كل من لا يتفق مع

(1) سبأ: 34.

(2) الزخرف: 24.

(3) سبأ: 24.

فكره، ويستخدم سلاح الفتوى الفتاك لإقصائه أو تصفيته، ويعتقد أنّ الساحة ضيقة لا تتسع للفكر المنفتح، ولكن فاته أنّ الساحة تتسع للجميع ولا يمكن محاصرة الفكرة وكلها حوصِر الفكر فسوف تصل إلى العقول أسرع.

وهناك قصة ينقلها ابن شهر آشوب أنّ الكندي: «أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرد به في منزله، وإنّ بعض تلامذته دخل يوماً على الحسن العسكري، فقال له أبو محمد عليه السلام: أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عما أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟

فقال التلميذ: نحن من تلامذته، كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟

فقال له أبو محمد عليه السلام: أتؤذي إليه ما ألقيه إليك؟

قال: نعم.

قال: فَضُرْ إليه وتلطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله فإذا وقعت الأنسة في ذلك، فقل: قد حضرني مسألة أسألك عنها، فإنه يستدعي ذلك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بالقرآن - أي الذي يوحى لك بهذه الأفكار -، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به غير المعاني التي قد ظننت أنّك قد ذهبت إليها؟ فإنه سيقول: إنه من الجائز، لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك، لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضحاً لغير معانيه⁽¹⁾.

فصار الرجل إلى الكندي، وتلطف إلى أن ألقى إليه هذه المسألة، فقال له: أعد علي، فأعاد عليه، فتفكر في نفسه ورأى أنّ ذلك محتمل في اللغة وسائغ في النظر.. فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتني من أين لك؟

فقال: إنّه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك.

(1) يريد أن ينيه الإمام عليه السلام الفيلسوف الكندي إلى أنّ اللغة العربية مرنة متحرّكة، فقد يفهم بعض الناس الكلام على أنه الحقيقة وهو من المجاز، وقد يفهم أن المراد هو المعنى اللغوي والمقصود هو المعنى الكنائي.

فقال: كلا ما مثلك من اهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنزلة،
فعرفني من أين لك هذا؟

فقال: أمرني به أبو محمد عليه السلام.

فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا الأمر إلا من ذلك
البيت. ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه⁽¹⁾.

ففي القصة حقيقتان مهمتان:

1- في حوارك مع الطرف الآخر عليك أن تدخل قلبه لتستطيع أن
تدخل عقله، وهذا أسلوب من أساليب الحوار في القرآن، وهو أنك إذا أردت
أن تدخل في حوار فكري مع شخص آخر تختلف معه لتقنعه بما أنت فيه، أو
لتناقشه فيما هو فيه، فعليك أولاً أن تفتح قلبه بالكلمة الحلوة والإطالة الحلوة
والأسلوب الحلو، لا أن تكفّر وتزندقه وتجهّله ﴿وَجَادِهُم بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ﴾⁽²⁾ و﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽³⁾.

2- إنّ عظمة أهل البيت عليهم السلام أنهم لا ينكرون على الذين يختلفون
معهم صفاتهم الإيجابية، خلافاً لما هو دائر بيننا، فإذا اختلفنا مع شخص
فلا نتحدث عنه بخير ولو بنسبة واحد بالمائة، فمع أنّ الكندي ألف كتاباً
في تناقض القرآن وهو أمر خطير يمس الكتاب التشريعي الإلهي، لكنّ
الإمام عليه السلام يقول لتلميذه إنه سيقول لك من الجائز، لأنّه رجل مفكر ولأنّه
رجل منسجم مع نفسه، فإذا جئته بفكرة معقولة فإنها سوف تدخل عقله
ولا يتعصّب في رفضها ويتشبّث بقناعاته.

رابعاً: مظاهر التقديس:

وإذا ما تجولنا في العمق نلاحظ أنّ الكلمات الفضفاضة التي دخلت
الثقافة الإسلامية في الحديث عن الأنبياء والأولياء والعلماء، في ألقاب

(1) مناقب آل أبي طالب: ج 3 ص 459.

(2) النحل: 125.

(3) الإسراء: 53.

التعظيم التي قد تتجاوز الحدود المألوفة في العقيدة، ليست قريبة من الجو القرآني، بل كانت نتاج الانفتاح على الحضارات الأخرى الخاضعة في علاقاتها بالرموز الكبيرة لثقافات معينة لا تقترب من الخط الثقافي الإسلامي الذي لا يعطي البشر شيئاً من الألوهية حتى على مستوى الإيحاء، وانطلاقاً من التشديد على الجانب البشري للأنبياء مع الملاحظة المتكررة، وهي أنّ النبوة لا تتنافى مع ذلك، بل ربما تفرضها قضية الانسجام الفكري والروحي والعمل للنبى مع الناس الذين أرسل إليهم.

ومن التأثير السلبى ما يرويه أبو العباس البقباق، قال: «تدارأ ابن أبي يعفور ومعلّى بن خنيس، فقال ابن أبي يعفور: الأوصياء علماء أبرار أنقياء، وقال ابن خنيس: الأوصياء أنبياء... فدخلنا على أبي عبد الله عليه السلام، فلما استقر مجلسهما، فبدأهما أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا عبد الله ابرأ ممن قال: إنا أنبياء»⁽¹⁾.

وربما نشعر - من خلال ذلك - بالحاجة إلى التخفف من إدخال انفعالاتنا ومشاعرنا في الألقاب التي نمناها رموزنا؛ لأنها قد تطغى لتعبر عما لا نلتزمه ولا يتناسب مع خطنا الفكري في عملية التوازن بين الواقع والفكرة.

هذه ملاحظات لا بدّ من إثارتها أمام الموضوع، حتى لا نغرقنا بالألقاب في خطوط عملية ترتفع بالقيادة التي في موقع الحكم والمرجعية عن مستوى النقد، على أساس الخضوع المطلق الذي لا يسمح للإنسان بالتساؤل والاعتراض والمخالفة، باعتبار ذلك خروجاً عما يفرضه الموقع القيادي من التقديس الأعمى.

إنّ التصور الإسلامي للقيادة يقضي بالانفتاح على الصفات الفكرية أو السلوكية التي تعزز الثقة بها من خلال صلابة القاعدة التي تقف عليها، فنحن نلاحظ في بعض الكلمات المأثورة تأكيد ذلك، والتي أبرزها:

«الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل: يا رسول الله، وما دخولهم في الدنيا؟ قال: اتباع السلطان، فإذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم»⁽²⁾.

(1) رجال الكشي: ص 456.

(2) الكافي: ج 1 ص 46.

« من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه »⁽¹⁾.

« ينظران إلى من كان منكم ممن روى حديثنا، وعرف أحكامنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، فارضوا به حكماً، فإنني قد جعلته عليكم حاكماً »⁽²⁾.

« وأما الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله »⁽³⁾.

وغير ذلك مما يدل على أنّ الثقافة الإسلامية، والنظافة الأخلاقية، والمناعة السلوكية، هي الأساس في المسألة القيادية لا العوامل الذاتية، فليست المسألة مسألة شخص يملك ذاتية الموقع، بل هي مسألة شخص يملك عناصر القيادة، الأمر الذي يجعل موقعه القيادي منفتحاً على خط الرسالة، ليكون احترامه احتراماً لها، وتعظيمه تعظيماً لمقامها.

وقد نجد في حديث السيرة النبوية الشريفة، أنّ النبي ﷺ كان يتحدث إلى أصحابه في آخر لحظات حياته، عن تجربته كما لو كانت تقريراً يقدمه لهم للدلالة على سلامتها في الخط القرآني التشريعي؛ ولقد جاء في كتب السيرة أنّه قال في مرضه الذي توفي فيه: «أيها الناس، لا تعلقوا عليّ بواحدة، ما أحللت إلا ما أحل الله، وما حرمت إلا ما حرم الله»⁽⁴⁾.

وذلك إيجاء للناس بأنّ دوره القيادي لم يكن دوراً يتحرك فيه الشخص الذي لا يشعر فيه بالمسؤولية أمام الناس، لأنهم لا يمثلون شيئاً لديه في موقعه المميز، ولا سيما أنّ النبوة ليست مسؤولية بشرية يمنحها الناس للنبي، بل هي مسؤولية تنطلق من التكليف الإلهي له بالرسالة من خلال إنزال الوحي عليه، وحتى البيعة التي يأخذها من المؤمنين به ليست أساساً لشرعيته، بل هي تأكيد لالتزامهم به من الناحية العملية كعهدي في

(1) الاحتجاج: ج 2 ص 458.

(2) الكافي: ج 1 ص 67، والتهديب: ج 6 ص 218.

(3) كمال الدين: ج 2 ص 483، والغيبة: ص 290.

(4) الطبقات الكبرى: ج 2 ص 256.

موقفهم، بالإضافة إلى التزامهم الإيماني، أو هي - كما يقول البعض - التزام بحاكميته بعد الالتزام برسوليته.

إنّ الإيجاء الإسلامي بأنّ حمل المسؤولية القيادية يفرض على القائد أن يقدّم حساب حركته إلى الناس من أجل تأكيد الثقة به وبالقاعدة التي دعاهم إليها، كأسلوب من أساليب احترام الناس في حياتهم العامة في الخط القيادي.

خامساً: أين تقف القداسة في النظرية الإسلامية؟

إنّ النظرية الإسلامية لا ترى للزمان أو المكان أو الأشخاص قداسة ذاتية بعيداً عما هو مصدر القداسة، وإنّما قداسة هذا أو ذلك تنطلق من منبع القداسة ومصدرها، وهو الله القدوس العزيز.

وقد جاءت التوصيات الإسلامية لتؤكد على حضور المسلم في أولويات الحضور، ومن هذه التوصيات:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه، إلى الآخرين من هذا العالم؛ بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً. ثم وضعه بأوعر بقاء الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدرأ، وأضيق بطون الأودية قطراً. بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة. لا يزكو بها خوف، ولا حافر ولا ظلف.. ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يشنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية للملقى رحالهم. تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة. حتى يهزوا مناكبهم ذللاً يهلون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعناً غيراً له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم؛ ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته، ووصلة إلى جنته...»⁽¹⁾.

(1) نهج البلاغة: خطبة 192.

وفي يوم كان الإمام الصادق عليه السلام واقفاً على الصفا، فقال له عباد البصري: حديث يروى عنك.

قال: ما هو؟

قلت: حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنية!

قال: قد قلت ذلك⁽¹⁾.

وقد ورد عن الرسول وأهل بيته عليهم السلام أحاديث كثيرة في عظمة حرمة المؤمن ومن هذه الأحاديث:

نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقال: «مرحباً بالبيت ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله، والله للمؤمن أعظم حرمة منك، لأن الله حرّم منك واحدة ومن المؤمن ثلاثة: ماله ودمه وأن يظن به ظن السوء»⁽²⁾.

«المؤمن أعظم حرمة من الكعبة»⁽³⁾.

«حرمة المؤمن أعظم من هذه البنية»⁽⁴⁾.

«قضاء حاجة المؤمن أفضل من عشر حجج»⁽⁵⁾.

«الماشي في حاجة أخيه كالساعي بين الصفا والمروة»⁽⁶⁾.

إنّ هذا الانفتاح يؤكد في أنفسنا أولوية النهوض والسعي لحل مشاكل إخواننا المسلمين، ويؤكد علماء الاجتماع على أهمية الطقوس في توليد التماسك والوحدة الاجتماعية، وقد قاموا ببحوث تبين أهمية الدين في تكوين التماسك الاجتماعي والسيطرة على سلوك الفرد.

(1) بحار الأنوار: ج 47 ص 85.

(2) بحار الأنوار: ج 64 ص 71.

(3) م.ن.

(4) بحار الأنوار: ج 47 ص 89.

(5) بحار الأنوار: ج 71 ص 285.

(6) بحار الأنوار: ج 75 ص 235.

فالإنسان إنَّما يكون له قيمة وفضيلة بمقدار قربه من الله سبحانه وعمله بالقيم التي أرسى الدين قواعدها، فالأنبياء أشخاص مقدَّسون لكونهم رسل الله وأقرب الخلق إليه في القول، تغمرهم الطافه وتنزل عليهم ملائكته بالوحي من عنده، ما يوجب عصمتهم في القول والفكر والعاطفة والعمل، وأما من عدا الأنبياء والأئمة فإنَّهم مهما بلغوا من القرب من الله، فإنَّ جلالتهم هذه لا تفرض سوى احترامهم لا الخضوع الأعمى أو التقديس لأرائهم وأفكارهم والامتناع عن مناقشتها.

والزمن يكون مقدساً إذا انتسب لله سبحانه وأعطاه القداسة، كالأشهر الحرم التي اكتسبت حرمتها من الله ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾⁽¹⁾.

وشهر رمضان اكتسب قدسية لأنه شهر الله: «الصوم لي وأنا أجزي به»، وفيه أنزل الله كتابه وجعل فيه ليلة القدر.

والمكان أيضاً يكتسب قدسية من الله، فقيمة المسجد مثلاً وقداسته تنبع من كونه بيت الله ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾⁽²⁾.

ومكة المكرمة اكتسبت هي الأخرى قداستها وبركتها من الله سبحانه الذي جعلها كعبة للمصلين: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾. وأرادها أن تكون بلداً آمناً: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَحَابَّةً لِّلنَّاسِ وَآمِنًا﴾⁽⁴⁾، والمدينة المنورة أيضاً تقدست بأنفاس رسول الله ﷺ واختيار الله لها مركزاً لدولة الإسلام الأولى وداراً لهجرة رسوله.

وأخيراً نقول:

إنَّ الاختلاف حتمي طبيعي، والقداسة تنسف الاختلاف ولا تقرُّ به،

(1) التوبة: 36.

(2) النور: 36.

(3) آل عمران: 96.

(4) البقرة: 125.

والإنسان وفق معتقداته أياً كانت مدفوع للاختلاف والقداسة معاً وهذا جوهر محتنا أن نحمل هذا التناقض ونحيا به!!
لكن ليس بالإمكان تقديس الاختلاف!؟

وربما تكون هذه محاولة ما، لاستثناس التناقض والتغلب على شرسته..
ربما تكون محصلة السعي الإنساني في كليتها تسير وتطمح في تشييد قناعة كهذه، ولكن الأمر يتطلب خبرة أعمق وأطول وتوارخ أخرى للسير الإنساني وربما كان لطبيعة الفعل في الجملة القرآنية دور في طموح كهذا، أعني كشف أفق الأمل في استثناس هذا التناقض، أقصد الفعلين (خلق، جعل) في الاستخدام القرآني للإحاطة بهذا الأمر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾⁽¹⁾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁽²⁾، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾⁽³⁾، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁽⁴⁾.

فالمحنة الإنسانية لا تتجلى إذاً في الخلق ولا تكمن فيما هو حتمي ولا قرار للتجربة بشأنه: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾⁽⁵⁾، .. ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾⁽⁶⁾.. لكن المحنة الحقة والتجربة القاسية المورثة للشقاء أو عكسه تكمن في نطاق الفعل (جعل) وهو ما يستطيع الإنسان أن يتصرف بشأنه وبشكل جوهر تجربته الذاتية ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾⁽⁷⁾.. من الملاحظ أن الإنسان لا ينخرط تحت مشيئة المودة والرحمة بل قد ينخرط في النقيض، وكذلك مسألة جعل الناس أمماً أو أمة واحدة، أنه طموح نبوي مشروعته وإمكانية حدوثه وهذا ما يدفع التجربة الإنسانية في التفاعل والحركة

(1) الروم: 21.

(2) الحجرات: 13.

(3) هود: 118.

(4) البقرة: 30.

(5) الروم: 21.

(6) الطارق: 5.

(7) الروم: 21.

مخلفة غبار المحنة أو السلم.. وكذلك قبول رسالة الخلافة في الأرض أو رفضها.

وفي غياب اليقين وأقصد به حالة انعدام الإجابات على التساؤلات الإنسانية بشأن الاحتمالات المسكوت عنها في مسألة الخلق والمصير. في هذه الحالة تنهض مؤسسات عديدة تشمل كافة الأنشطة الإنسانية في التاريخ والسياسة والمجتمع وحتى الدين نفسه لتقدم الأجوبة التي تراها وتدافع عنها بل وتفرضها بشكل قاهر يمثل سلطة يصطدم بها كل فكر لا يقرّ قناعاتها.

سؤال: ما هو دورنا كأفراد في التصدي لهذه الهجمة الشرسة؟

جواب: أن نتمسك بعرى الوحدة الإسلامية التي يناشدها علماءنا، وأن لا نكون معولاً يهدم هذا الصرح الذي سلكه فقهاؤنا عملاً بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾⁽¹⁾، وهذه الهجمة الشرسة بنيناها بأيدينا؛ حيث رضيّا أن نكون طرفاً من أطرافها، وقد حذر الغياري من مغبة نتائجها ولكن للأسف لم يدركوا أبعادها على نفوس المسلمين، إضافة إلى التوقيت السيئ من حيث ملاءمته للوضع الراهن الذي يتعرض فيه المسلمون لهجوم من عدة جهات، وحاجتهم إلى وحدة كبيرة. فهناك عدة تحديات يجب على المسلمين اجتيازها.

وقد نبه عليه أيضاً من علماء السنة أمثال الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي في قناة الجزيرة، حيث معّج التوقيت والأسلوب السيئين. ولذا ناشدنا علماءنا - من خلال الرسائل - عدم الوقوع في مزالق هذا الدرب وخطورة الولوج فيه، وخاصة أنّ الطرف الآخر لا يحمل إلا معول التهويش والتشويش، بينما رأينا أنّ عقلاء أهل السنة يناون بأنفسهم في الوقوع فيه.

ومن الرسائل التي أرسلت للمراجع الكرام هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أرفع هذا الخطاب إلى سدة مراجعنا العظام زادهم الله عزاً، وأطال في أعمارهم الشريفة على رؤوس الأشهاد.

(1) آل عمران: 103.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد.

أتقدم إليكم بهذا الاستفسار الذي بات يؤرق بال المؤمنين فيما يحاك للإسلام والمسلمين، ولمذهب أهل البيت عليهم السلام من مؤامرات بصور مختلفة، وتحت مسميات متعددة، حيث أصبح مذهب أهل البيت عليهم السلام عرضة لمن أراد خدمة لنفسه أو إثارة لفتنة، ونحن، وللأسف الشديد، نلهث وراء كل تلك الرايات بحجة الدعوة لأهل البيت عليهم السلام وكأنّ هذا المذهب الحصين أضحى فقيراً يحتاج إلى من يظهره للعيان تحت عناوين إعلامية أو فضائيات تبحث عن الشهرة والمال.

إنّ الجميع قد سمع وشاهد المهارات التي رصدتها محطة (المستقلة) في شهر رمضان المبارك، حيث طرحت مناظرة مذهبية بين أتباع أهل البيت عليهم السلام وبين مجموعة من السلفيين الحاقدين. وقد كان لهؤلاء السلفيين قدرة فائقة للسخرية بمذهب أهل البيت وعلمائه الكرام، وقد رأينا ذلك بأم أعيننا، كما كان لهذه القناة القدرة الفائقة لتفويت الضغط والرد الحاسم على هؤلاء المنحرفين.

وبعد كل تلك المهارات والمشاحنات، يتردد في الأفق أصداء قرع الطبول لإعادة مثل هذه المناظرات، وتحت نفس الأسماء السلفية السابقة، ولا سيما تلك الشخصيات التي نالت من مذهب أهل البيت عليهم السلام؛ بتكذيبها لمن يناظرها، وبكل الطرق الشيطانية الملتوية، ومما يؤسف له أنّ الإخوة المحترمين من علماء المذاهب السنية الأخرى نأوا بأنفسهم عن هذه المهارات، وأصبح جمهور أتباع أهل البيت عليهم السلام يتحملون تلك المعركة السيئة، وقد يتحمس لها شرائح منا، والسعي من كل ذلك هو حالة الشحنة بين المسلمين حتى أصبح التباغض بينهم أولى علامات النتائج السلبية من تلك المناظرات الفجة، ولا شك أنه سيكون للأعداء المتربصين بالمسلمين وبمقدراتهم شأنًا لا يستهان به في مشروع كهذا، وسيستخدمون كل فنون الإثارة والشغب في وقتها المناسب، وفي مكانها المناسب؛ لينشغل المسلمون عن الاهتمام بأمورهم الإسلامية الملحة في هذا الوقت العصيب ألا وهو وحدة الصف الذي ينهار يوماً فيوم.

وإننا لتتوجه لمقام مراجعنا العظام ملتجئين منهم المدد والعون

والسداد راجين من مقامهم العالي إصدار الفتوى التي ترشدنا إلى الدخول في مثل تلك المناظرات السالفة الذكر؟

سؤال: ما هي باعتقادكم العوائق التي تحول دون إنشاء مثل هذه المؤسسة لإدارة الحقوق الشرعية وتفعيل سبل استغلالها في خدمة المجتمع القطيفي؟

جواب: ربما يكمن السبب في:

1- سياق الذهنية العامة التي يتعايش فيها الوكيل مع الخمس، فيعتبرها فريضة موقوفة على التعامل الذي يتعامل معها في الحوزة: (قبض + أخذ) = براءة ذمة المكلف.

ومن ثم يتصرف الوكيل في السهم المخول إليه التصرف فيه بحسب وكالة المرجع له، ويصرفها على الفقراء والمستحقين وفي الشؤون العامة المقررة.

ولا شك أنّ هذا النوع من (التوقيف) هو ناشئ عن سياسة المرجعية في تعاملها مع الحقوق الشرعية، وإن كانت المرجعية لا تفرض عليه نموذجاً محدداً في كيفية صرف الحقوق، ولكنّ انطباع الوكيل في تعامله مع الخمس لا يأتي من فراغ، فلو كانت المرجعية تفرض عليه برنامجاً عملياً - بحسب طاقته وإمكاناته - لأمكن تطوير برامج الوكيل.

2- عدم وجود مركزية للأخماس في مناطق الشيعة المتجاورة فضلاً عن المنطقة الواحدة، وهذا بطبيعة الحال يفقد الأمل في الوصول إلى وجود مؤسسة تعنى بالحقوق الشرعية، بينما نحن الآن في أمس الحاجة إلى إيجاد هذه المؤسسة في وقت يكثُر فيه الطلبات ويقل فيه الإيرادات.

3- عدم الفهم الواضح لدور الخمس على الصعيد النفسي والاجتماعي للأمة، ولا يمكن للإنسان أن يتفاعل مع قضية من القضايا إلا بعد تلمس فوائدها ومقاصدها، أي أنّ الخلل المعرفي لغة ثانية في عدم الأخذ بمثل هذه المشاريع.

سؤال: سمعنا في الآونة الأخيرة أنّ هناك مجلساً معداً من قبل مجموعة من العلماء الأفاضل على مختلف توجهاتهم - وهو مما يبعث لكل طرف الطمأنينة لذلك - ولعلكم أحد هؤلاء، وذلك للتصدي لتثبيت رؤية الهلال، وهو عمل بلا شك جيد وجديد في الساحة القطيفية. والظاهر أنه اقتصر على هلاي العيدين إن لم يكن هلال عيد الفطر.

والسؤال: لماذا لا تكون هذه المبادرة جارية طيلة أيام السنة خصوصاً وأنّ هناك مناسبات دينية تتوقف على ثبوت الهلال كالوفيات والموايد؟ وإذا كانت موجودة لماذا لا نسمع عنها؟ أين إعلام هذه المجموعة المؤمنة الفاعلة؟ ولماذا لا يكون هناك مسمى لهذا المجلس عبر المنتديات لينشر بياناته حول الهلال كل شهر؟

جواب: موضوع التصدي للهلال يحتاج إلى تفعيل مؤثر من قبل شرائح المجتمع، وتصدي بعض رجال الدين لمثل هذه المواضيع الحيوية قد تحسب على خلاف أهدافها ومنطلقاتها، ولذا فإنّ الأخوة الأعزاء من علماء الدين أخذوا على عاتقهم الجلوس في مكان واحد لاستقصاء المعلومات عن هلال شوال، والذي يكثر فيه توجه شرائح اجتماعية كبيرة لمعرفة عيد الفطر المبارك، ولم يكن داعي الجلوس التصدي لإثبات بل برحمة فعالية الرؤية وأخذ المعلومات عن الهلال من خارج القطيف، ومن ثم ترفع معلوماتها إلى الجهات المختصة لتبث أمرها، مع الأخذ بعين الاعتبار في أنّ اللجنة تلك قد تظمن بثبوت الهلال من دون اطمئنان الجهات المختصة وبالتالي قد يتابعها بعض شرائح المجتمع في اطمئنانها أو لا يتابعها.

سؤال: ما حكم شرب قهوة الشعير؟

جواب:

في اللغة والتاريخ:

جاء في كتاب المطلع: «قال ابن فارس: «الفُقَاعُ: الذي يشرب»، وقال ابن سيده: «الفقاع: شراب يتخذ من الشعير؛ سمي بذلك لما يعلوه من

الزبد»، وفي الكتاب المنسوب إلى الخليل أنه: «سمي فقاعاً لما يعلو على رأسه كالزبد والفقاقيع كالقوارير فوق الماء»، وقال الجوهري: «نفاخت فوق الماء والله تعالى»⁽¹⁾.

وجاء في مواهب الجليل: «... والفقاع شراب يتخذ من القمح والتمر ونحوه،... قال الشيخ زروق في شرح الإرشاد: ... والفقاع ماء جعل فيه الزبيب ونحوه حتى انحل إليه دون إسكار، وفي الجواهر: هي حلال ما لم تدخلها الشدة المطربة، والسوبيا فقاع يميل إلى الحموضة..»⁽²⁾.

فالفقاع إذن شراب متخذ من الشعير، وهو نوعان:

النوع الأول: الفقاع المتخذ من الشعير المخمر؛ بسبب الغليان، وسمي كذلك لأنه عندما يخمر تظهر فقاعات، وقد يؤدي كثرة غليانه إلى حدوث إسكار أو نشوة ما، والظاهر أنه الفقاع المنهي عنه عند أهل البيت عليهم السلام؛ فعن الحسن الوشاء عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «كل مسكر حرام، وكل مُحَمَّر حرام، والفقاع حرام»⁽³⁾.

وجاء في كتاب إكمال الدين للصدوق عن الإمام عليه السلام: «.. أما الفقاع فشربه حرام، ولا بأس بالشلباب»⁽⁴⁾.

والشلباب: لفظة فارسية معناها ماء الشَيْلَم، والشيلم حب صغار مستطيل أحمر، ولا يسكر، ولكنه يمر الطعام امراراً شديداً⁽⁵⁾.

فالظاهر أنّ شرب بعض الفقاع يورث نشوة بدلالة مقابله لحلية الشملب الذي لا يسكر. وكذلك اهتمام السلاطين لشربه فقد شربه الكثير منهم.

النوع الثاني: الفقاع المتخذ من ماء الشعير، من دون غليان، فلا يؤدي شربه إلى حدوث نشوة أو إسكار، وقد شربه الأئمة عليهم السلام فعن محمد

(1) المطلع، للبعلي الحنبلي: ص 374.

(2) مواهب الجليل في مختصر الشيخ خليل: ج 3 ص 232.

(3) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 3.

(4) إكمال الدين: ص 483 ح 4، ووسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 15.

(5) لسان العرب: ج 12 ص 325، مادة: شلم.

بن أبي عمير، عن مرازم، قال : كان يعمل لأبي الحسن عليه السلام الفقاع في منزله، قال ابن أبي عمير: ولم يعمل فقاع يغلي⁽¹⁾.

وقد كان السلاطين يعتنون بشرب الفقاع المسكر..

فقد روى الصدوق بإسناده إلى الفضل بن شاذان قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: « لما حُمِلَ رأس الحسين بن علي عليه السلام إلى الشام، أمر يزيد بن معاوية (لعنه الله) فوضع ونصب عليه مائدة، فأقبل هو وأصحابه يأكلون ويشربون الفقاع، فلما فرغوا أمر بالرأس، فوضع في طشت تحت سريره وبسط عليه رقعة الشطرنج، وجلس يزيد (لعنه الله) يلعب بالشطرنج ويذكر الحسين وأباه وجده (صلوات الله عليهم) ويستهزئ بذكرهم، فمتى قمر صاحبه تناول الفقاع فشربه ثلاث مرات، ثم صب فضلته على ما يلي الطشت من الأرض..»⁽²⁾.

وجاء في الموسوعة المصرية، في وصف قصور الفاطميين، أنهم كانوا يشربون الفقاع ويستعملونها في أوان خاصة به: « وقد كان بخزائن القصر شيء كثير من البلور والتحف الفنية الزجاجية المحكمة الصنع والمموهة بالذهب وغير المموهة، وقد قال أحد المستخدمين في بيت المال أن صندوقاً من الصناديق التي نهبت من القصر ذات يوم كان مملوءاً بأباريق من البلور النفيس بعضها منقوش بزخارف ورسوم جميلة وبعضها غير منقوش، والظاهر أنها كانت لشراب الفقاع (وهو نوع من البيرة كان منتشرأ في القاهرة في العصور الوسطى)».

ولذا حَرَّمَ استعماله في عهد الخليفة العباسي القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر (393 هـ - 422 هـ) فأبطل الفقاع والملوخيا، ونهى عن السمك الذي لا قشر له، وقتل جماعة ممن باع ذلك بعد نهيهِ⁽³⁾.

والظاهر أن البعض يحاول أن يلغي اختمار بواسطة السعتر، فقد جاء

(1) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 39 ح 1.

(2) من لا يحضره الفقيه: ج 4 ص 301 ح 911، ووسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 13.

(3) الكامل في التاريخ: ج 6 ص 150.

في موسوعة الشبكة الإسلامية: «... ومن المحقق عندهم أنّ السعتر يمنع الفقاع عن أن يحتمر اختاراً حمضياً إذا علق منه بعض قبضات في الدن المحتوي عليه».

من أسماء الفقاع:

1 - الإسكرة: يسمى في لغة العرب الإسكرة؛ يقول الشاعر ابن الرومي:

اسقني الإسكرة الصنبرَ في جَعَصَلْقُونِه

واجعل القيحنَ فيها يا خليلي بغصونه

2 - الغبراء: ففي كتاب الأشربة لأحمد بن حنبل بإسناده إلى قيس

بن سعد بن عبادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ الله عز وجل حرم عليّ الخمر والكوبة والقنين، وإياكم والغبراء فإنها ثلث خمر العالم»⁽¹⁾.

وجاء في مجمع الزوائد: «عن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أنّ ناساً من أهل

اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمهم الصلاة والسنن والفرائض، فقالوا: يا رسول الله إنّ لنا شراباً نصنعه من القمح والشعير، فقال صلى الله عليه وسلم: الغبراء؟

قالوا: نعم.

قال: فلا تطعموه.

فلما كان بعد يومين، فلما أرادوا أن ينطلقوا سألوا عنه، فقال: الغبراء!

قالوا: نعم.

قال: فلا تطعموه⁽²⁾.

وجاء في طلبه الطلبة: وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه

لما وجهه إلى اليمن فقال له: «إنهم عن غبراء السكر»، الغبراء: نبيذ

(1) كتاب الأشربة: ص 10.

(2) مجمع الزوائد: ج 5 ص 54 - 55، والسنن الكبرى: ج 8 ص 292، وصحيح ابن حبان: ج 12 ص 190، وموارد الظمان: ج 1 ص 337.

الذرة، قال ذلك في مجمل اللغة، وكذلك في شرح الغريين، وفي الحديث «إياكم والغبراء فإيتها خمر العالم» إته الشراب من الذرة، وهي تصغير الغبراء، وهي تأنيث الأغر؛ وهو الذي لونه لون الغبار، فيحتمل أن يكون غبراء السكر هو شراب يتخذ من النبيع من ماء التمر على هذا اللون، فالغبراء على الإطلاق بغير إضافة إلى السكر هو نبيذ الذرة⁽¹⁾.

3 - البيرة: ويسمى في عصرنا الحاضر (البيرة). فقد جاء في موسوعة الشبكة العربية: «.. سافرت هذه السفينة في 20 من شهر إبريل سنة (1913) م من ميناء سوتمتون بأمريكا وهي تحمل من المواد الغذائية ما يأتي: 28000 كيلو غرام من اللحوم و 35000 بيضة و 12000 كيلو من البطاطس وسبعة آلاف لتر من اللبن و 200 لتر من الكريمة و 5000 كيلو غرام من السكر و 250 برميلاً من الدقيق و 10000 كيلو من الخضر و 12000 زجاجة من المياه المعدنية و 15000 زجاجة من الفقع (البيرة) و 10000 زجاجة من النبيذ.. وكان بها من أدوات الموائد 7000 كوبه للماء و 25000 من الملاعق والشوك و 5000 سكين و 6000 طبق».

وجاء في الموسوعة المصرية، في وصف قصور الفاطميين، أنهم كانوا يشربون الفقع ويستعملونها في أوان خاصة به: «وقد كان بخزائن القصر شيء كثير من البلور والتحف الفنية الزجاجية المحكمة الصنع والمموهة بالذهب وغير المموهة وقد قال أحد المستخدمين في بيت المال أنّ صندوقاً من الصناديق التي نهبت من القصر ذات يوم كان مملوءاً بأباريق من البلور النفيس بعضها منقوش بزخارف ورسوم جميلة وبعضها غير منقوش، والظاهر أنّها كانت لشراب الفقع (وهو نوع من البيرة كان منتشرأ في القاهرة في العصور الوسطى)».

في الحديث:

ذكر الحر العاملي - في الجزء الخامس والعشرين من وسائل الشيعة -
باين مستقلين أساهما: «باب تحريم الفُقَّاع إذا غلى ووجوب اجتنابه»⁽²⁾،

(1) طلبة الطلبة: مادة: غير.

(2) وسائل الشيعة: ج 25 ص 359.

«باب تحريم بيع الفُقَّاع وكل مسكر»⁽¹⁾.

ففي الصحيح عن الوشاء قال: كَتَبْتُ إِلَيْهِ - يَعْنِي الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ -
أَسْأَلُهُ عَنِ الْفُقَّاعِ؟ قَالَ: فَكَتَبَ حَرَامٌ وَهُوَ حَمْرٌ⁽²⁾.

وفي الصحيح عن ابن فضال قال: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْأَلُهُ
عَنِ الْفُقَّاعِ؟ فَقَالَ: هُوَ الْحَمْرُ وَفِيهِ حَدُّ شَارِبِ الْحَمْرِ⁽³⁾.

وعن الحسن الوشاء عن أبي الحسن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «كُلُّ مُسْكِرٍ
حَرَامٌ، وَكُلُّ مُحْمَرٍ حَرَامٌ، وَالْفُقَّاعُ حَرَامٌ»⁽⁴⁾.

وفي الموثق عن عمار بن موسى الساباطي قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْفُقَّاعِ؟ فَقَالَ هُوَ حَمْرٌ⁽⁵⁾.

وعن هشام بن الحكم أنه سأل أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَنِ الْفُقَّاعِ؟ فَقَالَ:
«لَا تَشْرِبُهُ فَإِنَّهُ حَمْرٌ مَجْهُولٌ، وَإِذَا أَصَابَ ثَوْبَكَ فَأَغْسِلْهُ»⁽⁶⁾.

وعن الحسن بن الجهم، وعن ابن فضال جميعاً قالا: سَأَلْنَا أَبَا الْحَسَنِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْفُقَّاعِ؟ فَقَالَ: هُوَ حَمْرٌ مَجْهُولٌ وَفِيهِ حَدُّ شَارِبِ الْحَمْرِ⁽⁷⁾.

وفي صحيح الوشاء قال: كَتَبْتُ إِلَيْهِ - يَعْنِي الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَسْأَلُهُ عَنِ
الْفُقَّاعِ؟ فَكَتَبَ: «حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ شَارِبِ الْحَمْرِ»⁽⁸⁾.

قال: وقال أبو الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ أَنَّ الدَّارَ دَارِي لَقَتَلْتُ بِأَيْعُهُ وَبَلَّذْتُ
شَارِبَهُ»⁽⁹⁾.

(1) وسائل الشيعة: ج 25 ص 365.

- (2) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 1.
- (3) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 2.
- (4) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 3.
- (5) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 4.
- (6) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 8.
- (7) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 27 ح 11.
- (8) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 28 ح 1.
- (9) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 28 ح 1.

قال وقال أبو الحسن الأخير (الهادي) عليه السلام: «حَدُّهُ حَدُّ شَارِبِ الخَمْرِ»⁽¹⁾.

وقال عليه السلام: «هِيَ حَمْرَةٌ اسْتَضَفَرَهَا النَّاسُ»⁽²⁾.

وعن محمد بن أبي عمير، عن مرزم، قال: كان يعمل لأبي الحسن عليه السلام الفقاع في منزله، قال ابن أبي عمير: ولم يعمل فقاع يغلي⁽³⁾.

في الفقه:

جاء في كلمات السيد السيستاني دام ظله:

1- في كتاب (فقه الحضارة): «هل يجلب شرب البيرة المكتوب عليها عبارة: خالية من الكحول؟ لا يجلب إذا كان المراد بالبيرة الفقاع الموجب للنشوة، وهي السكر الخفيف، وأما إذا كان المراد بها ماء الشعير الذي لا يوجب النشوة، فلا بأس به».

«ولما كان الأصل في حرمة الخمر هو الإسكار، فكل الفصائل المسكرة محرمة كالبيرة والبارندي والويسكي وأمثالها، لأن القاعدة: حرمت الخمر لإسكارها، وبقياس منصوص العلة تحرم تلك الأصناف عامة لأمتها مسكرة. قال سماحة السيد مد ظله، الفقاع - وهو البيرة - شراب مخصوص يتخذ من الشعير غالباً، وليس منه ماء الشعير الذي يصفه الأطباء - يحرم شربه بلا إشكال. والأحوط أن يعامل معاملة النجس».

2- في كتاب (المسائل المنتخبة): «شرب الخمر وسائر أنواع المسكرات والمائعات المحرمة الأخرى كالفقاع (البيرة) والعصير العنبي المغلي قبل ذهاب ثلثيه وغير ذلك».

«الفقاع: وهو قسم من الشراب يتخذ من الشعير غالباً ولا يظهر إسكاره - يحرم شربه بلا إشكال والأحوط لزوماً أن يعامل معه معاملة النجس».

(1) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 28 ح 1.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 28 ح 1.

(3) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 39 ح 1.

«يُحْرَمُ الْفَقَّاعُ وَهُوَ شَرَابٌ مَعْرُوفٌ يُوجِبُ النَّشْوَةَ عَادَةً لَا السُّكْرَ وَيُسَمَّى الْيَوْمَ بِالْبِيرَةِ».

3- في كتاب (منهاج الصالحين): «الفقاع: و هو شراب مخصوص متخذ من الشعير غالباً، وليس منه ماء الشعير الذي يصفه الأطباء - يحرم شربه بلا إشكال والأحوط أن يعامل معه معاملة النجس».

«الفقاع حرام، وهو شراب معروف يوجب النشوة عادة لا السكر، وكان يتخذ في الصدر الأول من الشعير في الأغلب، وليس منه ماء الشعير الذي يستعمله الأطباء في معالجاتهم».

4- في كتاب (الفقه للمغترين): «أما البيرة - الفقاع - فهي نجسة على الأحوط، وإن حرم شربها بلا إشكال».

«يُحْرَمُ شَرْبُ الْخَمْرِ، وَالْفَقَّاعُ (البيرة)، وَكُلُّ مَسْكِرٍ، أَوْ مُوجِبٍ لِلنَّشْوَةِ (السُّكْرُ الْخَفِيفِ)، جَامِداً كَانَ أَوْ مَائِعاً. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾».

وسئل السيد الخوئي رحمته: ما المقصود من كلمة الفقاع الواردة في الرسائل العملية، وما الفرق بينه وبين ماء الشعير أو شراب الشعير؟

فأجاب: الفقاع شراب يتخذ للإسكار من الشعير وفيه المسكر ضمناً، وأما ماء الشعير فهو ما يصفه الطبيب لبعض العلاجات غير معمول لحالة السكر، والله العالم.

إطالة علمية:

هنا ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عدم خمرية الفقاع ومسكريته:

ما ورد في الروايات السابقة من أن «الفقاع خمر» فإنّ اعتبار خمرية الفقاع من باب التنزيل، ويراد به كونه محرماً أيضاً كالخمر، ولكن اختبر

هذا التعبير بدلاً عن أن يقال «إنّ الفقاع حرام» لكي يوجد تجاهه نفس الإحساس الموجود تجاه الخمر، لأنّ الخمر من جهة التشديدات المؤكدة حولها قد اكتسبت طابعاً خاصاً من المبعوضيّة والحرمة، واعتبار الفقاع خمرًا يثير في نفس المخاطب نفس الإحساس الموجود تجاه الخمر بالنسبة إليه.

وهذه المسألة تناقش في مباحث أصول الفقه؛ في مبحث الحكومة: والمراد بالحكومة أن يكون أحد الدليلين ناظرًا إلى الدليل الآخر، موسعاً أو مضيقاً له، فمن القسم الأول ما ورد من أنّ «الفقاع خمر استصغره الناس»، فالفقاع، وإن لم يكن خمرًا بمفهومه اللغوي، إلا أنّ الشارع بدليله هذا وسّع مفهوم الخمر إلى ما يشمل الفقاع، وأعطاه جميع أحكام الخمر بحكم عموم التنزيل. وأمثال هذا في الأدلة كثيرة.

ومن القسم الثاني ما ورد في أدلة نفي الضرر، كقولهم **يُنْتِجُ**: «لا ضرر ولا ضرار»، وسمة هذه الأدلة إلى أدلة الأحكام الأولية، سمة المضيق لها إلى ما لا يشمل الأحكام الضرورية، ولسان الكثير من أدلة هذا النوع من الحكومة لسان نفي للموضوع تعبدًا، ونفي الموضوع يستدعي نفي الحكم إذ لا حكم بلا موضوع.

فالفقاع ليس خمرًا حقيقة، ولم يسم باسمها عرفاً ولغة، ولذا نجد فقهاء أهل السنة قد اتفقوا على عدم حرمة ونجاسته، فلو كان الخمر صادقاً عليه حقيقة لما اتفق هذا الاتفاق مع حرمة الخمر بنص الكتاب، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجُسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁾، مضافاً إلى استفادة ذلك من الأخبار وكلمات فقهاء الشيعة.

وقد مرت الروايات عندنا تفيد هذا التنزيل، وأنّ «مَنْ شَرِبَهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ شَارِبِ الْخَمْرِ»⁽²⁾.

(1) المائدة: 90.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 28 ح 1.

وكذلك كلمات فقهاء الشيعة تدور بين أمرين:

الأمر الأول: من صرّح في أنّ مقابلة المسكرات مع الفقاع في كلماتهم - في أبواب النجاسات والاشربة المحرمة والمكاسب المحرمة والحدود - لا لجهة إسكاره، ولا لصدق عنوان الخمر عليه، بل لأنّ الفقاع عنوان مستقل في موضوع الحكم.

ولو لم يكن عنواناً مستقلاً عن المسكرات لخالفوا فقهاء أهل السنة، ولا استدلووا عليه بأية تحريم الخمر السابقة.

وقد استدل فقهاؤنا عليه:

1 - تارة بروايات خاصة من طرق أهل البيت عليهم السلام.

2 - وأخرى بدليل الاحتياط.

ولو أمكن الاستدلال عليه بظاهر الآية ولو بوجه لاستدلوا عليه، سيما الشريف المرتضى ثُمَّ الذي ألف كتابه (الانتصار) لانتصار الحق وإزهاق الباطل، وكذلك الحال مع الشيخ الطوسي ثُمَّ في كتابه (الخلاف)، والسيد ابن زهرة في كتابه (غنية النزوع).

ولذا تمسك الشيخ الطوسي في (النهاية) لإثبات أحكام الخمر له من روايات أهل البيت عليهم السلام فقط.

فكلمات علمائنا مصرحة في عدم كون الفقاع خراً أو مسكراً، وليست حرمة لها، ومن أمثلة أقوالهم:

قال الشيخ الطوسي، بعد ذكر المسكرات: «وحكم الفقاع حكم الخمر على السواء»⁽¹⁾.

وقال سلار الديلمي: «والخمر وسائر المسكرات والفقاع»⁽²⁾.

وقال ابن زهرة: «وكل شراب مسكر نجس، وكل فقاع نجس»⁽³⁾.

(1) النهاية: ص 591.

(2) المراسم: ص 55.

(3) الغنية: ج 1 ص 41.

وكذا سائر الكتب والمصنفات على هذا المنوال قديماً وحديثاً.

الأمر الثاني: أقوال تنص على عدم مسكريته مطلقاً، أو قسم منه، والذي يفهم منها عدم خمريته أيضاً، لبعد تسميته خمراً مع عدم الإسكار.

قال الشريف المرتضى: «وقد روى أصحاب الحديث من طرق معروفة أنّ قوماً من العرب سألوا رسول الله ﷺ عن الشراب المتخذ من القمح، فقال رسول الله ﷺ: هل يسكر؟ قالوا: نعم، فقال: لا تقربوه. ولم يسأل من الشراب المتخذ من الشعير عن الإسكار، بل حرم ذلك على الإطلاق، وحرم الشراب الآخر إذا كان مسكراً»⁽¹⁾.

وقال تثيرت قبل ذلك: «ومما انفردت به الإمامية القول بتحريم الفقاع؛ وأنه جار مجرى الخمر في جميع الأحكام»⁽²⁾. وهو كالنص في أنه بمنزلة الخمر لا نفسها.

وقال ابن حمزة: «وغير المسكر ضربان: فقاع، وغيره، والفقاع حرام نجس»⁽³⁾.

وقال البهبهاني: «إنهم صرحوا بأن حرمة الفقاع ونجاسته يدوران مع الاسم والغليان لا للسكر، فهو حرام ونجس وإن لم يكن مسكراً، لأن رسول الله ﷺ حكم بالحرمة من دون استفعال»⁽⁴⁾.

وقال الطريحي: «الفقاع - كرمّان - شيء يشرب، يتخذ من ماء الشعير فقط، ليس بمسكر، ولكن ورد النهي عنه»⁽⁵⁾.

نعم، ظاهر المحقق الحلي أنه خمر اسماً وإن لم يكن مسكراً⁽⁶⁾، متمسكاً بالتسمية الشرعية وأصالة الحقيقة، ويقول أبي هاشم الواسطي المحكي في

(1) الانتصار: ص 199.

(2) م.ن.

(3) الوسيلة: ص 197.

(4) حاشية المدارك: .

(5) مجمع البحرين: مادة: فقع.

(6) المعبر: ج 1 ص 425.

الانتصار: «الفقاع نبيذ الشعير، فإذا نش فهو خمر»⁽¹⁾.

وهو غير مقبول؛ لأنّ الظاهر أنّ مراده من كونه خمرأ أنه مسكر، لا أنه مسمى بها، ولهذا لم يعول عليه الشريف المرتضى، وإلا لاستدلال على حرمة بظاهر الكتاب.

وبعد علمنا بعدم خمرية الفقاع حقيقة، إذن لا بد من حمل الروايات الحاكمة بأنّه «خمر بعينها» أو «من الخمر» أو «خمر استصغره الناس».. على نحو من التنزيل، فيدور الأمر بين احتمالين:

الأول: إما البناء على التنزيل باعتبار الحكم، بمعنى أنّ الأئمة عليهم السلام لما رأوا ثبوت جميع آثار الخمر له أطلقوها عليه ادعاءً ومجازاً.

الثاني: وإما البناء على التنزيل باعتبار الخاصية، وأنه لما كان عاقبة عاقبة الخمر وفعله فعلها نزلوه منزلتها.

فما الفرق بين الأمرين؟

على القول الأول: يحكم بترتب أحكام الخمرية بمجرد صدق الفقاع وإن لم يكن مسكراً؛ لأنّ التنزيل ليس بلحاظ إسكاره.

وعلى القول الثاني: يترتب الأحكام على قسم المسكر؛ لأنّ التنزيل باعتبار كونه مسكراً.

ولا شبهة في أنّ مقتضى إطلاق الأخبار البناء على الوجه الأول، ولا وجه لرفع اليد عن إطلاقها بلا دليل مقيد، ودعوى الانصراف إلى القسم المسكر ممنوعة، فالأقوى حرمة وترتب سائر الآثار عليه بمجرد صدق الاسم ولو لم يكن مسكراً.

المبحث الثاني: حلية الفقاع في صورة عدم غليانه:

الظاهر هو عدم ترتب الحرمة قبل غليان الفقاع: لصحيحة ابن أبي

(1) الانتصار: ص 199.

عمير، عن مرزوم قال: كان يعمل لأبي الحسن عليه السلام الفقاع في منزله، قال ابن أبي عمير: ولم يعمل فقاع يغلي⁽¹⁾.

والظاهر أنّ ابن أبي عمير كان بصدد أن يدفع التوهم عن عمل الفقاع الحرام للإمام عليه السلام.

وموثقة عثمان بن عيسى قال: كتب عبيد الله بن محمد الرازي إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام: إن رأيت أن تفسر لي الفقاع، فإنه قد اشتبه علينا أمكروه هو بعد غليانه أم قبله؟ فكتب عليه السلام: لا تقرب الفقاع إلا ما لم يضر آنيته، أو كان جديداً، فأعاد الكتاب إليه، كتبت أسأل عن الفقاع ما لم يغلي، فأتاني: أن اشربه ما كان في إناء جديد، أو غير ضارّ، ولم أعرف حد الضراوة والجديد، وسأل أن يفسر ذلك له، وهل يجوز شرب ما يعمل في الغضارة والزجاج والخشب ونحوه من الأواني؟ فكتب عليه السلام: يفعل الفقاع في الزجاج وفي الفخار الجديد إلى قدر ثلاث عملات، ثم لا يعد منه بعد ثلاث عملات إلا في إناء جديد، والخشب مثل ذلك⁽²⁾.

والظاهر منها أنّ النهي عن هذه الظروف لأجل حصول النشيش والغليان له إذا نبذ فيها. ويمكن أن يكون لحصول الإسكار له، لكن هذا مجرد احتمال لا يمكن رفع اليد به عن إطلاق الأدلة.

وصحيحة علي بن يقطين عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: سألته عن شرب الفقاع الذي يعمل في السوق وبيع، ولا أدري كيف عمل، ولا متى عمل، أيحل أن أشربه؟ قال: لا أحبه⁽³⁾.

والظاهر منها وجود قسمين منه: أحدهما حلال، والآخر حرام.

والظاهر من روایتي مرزوم وعثمان بن عيسى: أنّ الحلال من الفقاع ما كان قبل غليانه ونشيشه، والحرام ما يكون بعده، وكذا رواية علي بن يقطين أيضاً؛ لإشعار قوله: «متى عمل» أو ظهوره في شكه في بقاءه إلى

(1) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 39 ح 1.

(2) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 39 ح 2.

(3) وسائل الشيعة: أبواب الأشربة المحرمة ب 39 ح 3.

حال التغير والنشيش، ولا يبعد حمل إطلاق كلمات الأصحاب على ما بعده كما مر في «حاشية المدارك» أنهم صرحوا بأن حرمة الفقاع ونجاسته تدوران مع الاسم والغليان.

بل الظاهر من اللغويين عدم صدقه على ما لم ينش؛ قال الفيروزآبادي: «الفقاع - كرمّان -: هذا الذي يشرب، سمي به لما يرتفع في رأسه من الزبد»⁽¹⁾، ونحوه في كتب اللغة.

المبحث الثالث: اختصاص حكم الفقاع بالمتخذ من الشعير دون غيره:

المتيقن من عنوان الفقاع المحرّم هو ما أخذ من الشعير، وهذا مما لا خلاف فيه، وإنّما وقع الإشكال فيما يؤخذ من سائر الأشياء كالقمح والذرة والزبيب وغيرها.

وقد مر كلام الشيخ الطريحي في أنّ الفقاع ينحصر فيما أخذ من الشعير، وهو الظاهر من الشريف المرتضى⁽²⁾؛ حيث استدل على حرمة الفقاع مطلقاً بعدم استفصال النبي ﷺ فيما يؤخذ من الشعير، دون ما يؤخذ من القمح.

وحكى الشريف المرتضى عن الواسطي «أنّ الفقاع نبيذ الشعير، وإذا نش فهو خمر»⁽³⁾.

ونقل عن الشهيد: «كان قديماً يتخذ من الشعير غالباً، ويحصل حتى يحصل فيه التنشّر، وكأنه الآن يتخذ من الزبيب»⁽⁴⁾.

وعن ابن سيده: «الفقاع: شراب يتخذ من الشعير؛ سمي بذلك لما يعلوه من الزبد».

ويقول الملك المظفر: «الفقاع يتخذ كثيراً من الشعير»⁽⁵⁾.

(1) القاموس المحيط: مادة: فقع.

(2) الانتصار: ص 199.

(3) الانتصار: ص 199.

(4) مفتاح الكرامة: ج 1 ص 142.

(5) المعتمد في الأدوية المفردة: ص 365.

وعن أبي عبيدة: «أنَّ السُّكَّرَكةَ من الذرة»⁽¹⁾.

وعن مخزن الأدوية: «أنَّ الفقاع اسم لنوع من النبيذ مركب طعمه من حلاوة قليلة وحموضة ومرارة، ويصنع من أكثر الحبوب، كالشعير والأرز والدخن والذرة والخبز الحواري والزبيب والتمر والسكر والعسل، وقد يضيفون إليه الفلفل وسنبل الطيب والقرنفل».

والمتحصل من الجميع أنّ ما يؤخذ من الشعير فقاع بلا ريب، وصدقة على ما عدها مشكوك فيه، ومقتضى الأصل الحلية والطهارة بعد كون الشك في المفهوم والوضع، ومجرد إطلاقه في الأزمنة المتأخرة على المأخوذ من غيره لا يفيد.

والمعروف عند أهل السنة حلية شرب الفقاع.

نعم، ورد منع الإمام مالك من شربه، ففي التاج: «منع مالك من شراب الفقاع، وأجازة ابن وهب وأشهب وسحنون، وهو شراب يعمل من الشعير أو من القمح»⁽²⁾.

ولكن جاء في فتح الباري: «قال معن بن عيسى: سألت مالك بن أنس عن الفقاع؟ فقال: إذا لم يسكر فلا بأس به»⁽³⁾.

وجاء في التاريخ الكبير في ترجمة معروف أبو الخطاب: «مولى بني أمية الدمشقي الخياط. قال سليمان عن معروف رأى وائلة يشرب الفقاع»⁽⁴⁾.

وفي كتاب الثقات: «معلي بن سلام بن الخباز أبو عبد الله القرشي من أهل دمشق يروى عن عبد الملك بن مهران المغازلي. حدثنا معروف الخياط قال: رأيت وائلة بن الأسقع وهو يشرب الفقاع حدثنا الحسن بن سفيان

(1) الغريب، لابن سلام: ج 2 ص 176، والنهاية في غريب الحديث: ج 2 ص 383.

(2) التاج والإكليل: ج 3 ص 232.

(3) فتح الباري: ج 10 ص 42.

(4) التاريخ الكبير: ج 7 ص 415.

ثنا معلى بن سلام»⁽¹⁾.

ولهذا جعل رفض شرب الفقاع علامة على التشيع فقد قال الذهبي: «أسعد بن أبي روح رأس الرفض بالشام، القاضي أبو الفضل أسعد بن أحمد بن أبي روح الأطرابلسي، صاحب التصانيف أخذ عن ابن البراج، وسكن صيدا إلى أن أخذتها الفرنج فقتل بها، وكان ذا تعبد وتهجد وصمت، ناظر مغربياً في تحريم الفقاع فقطعه، فقال المغربي المالكي: كلني، قال: ما أنا على مذهبك أي جواز أكل الكلب»⁽²⁾.

وقال ابن حجر: «أسعد بن أبي روح، أبو الفضل الرافضي، قاضي طرابلس. له تصانيف في الرفض، ولي القضاء لابن عمار، وكان متعبداً زاهداً راهباً، هلك قبل العشرين وخمسة. انتهى. وذكره ابن أبي طي فقال: أسعد بن أحمد بن أبي روح عقدت له حلقة الإقراء، وانفرد بالشام وطرابلس وفلسطين بعد بن البداح، وولي القضاء بعده بطرابلس، وكان تلميذ القاضي ابن البداح، وله كتاب عيون الأدلة في معرفة الله، والتبصرة في معرفة المذاهب الشافعية والإمامية، والبيان في خلافة الإمامية، والنعمان والمقتبس في الخلاف مع مالك بن أنس، والنور في عبادة الأيام والشهور، قال بن أبي طي: أظنه قتل عندما ملكت الفرنج حيفاء، فإنه كان تحوّل إليها، واتخذ بها داراً للكتب، جمع فيها أزيد من أربعة آلاف مجلدة، وقيل إنه تحوّل إلى دمشق ومات بها.

وذكره ابن عساكر فقال: كان جليل القدر، يرجع إليه أهل عقيدته، وكان عظيم الصلاة والتهجد، لا ينام إلا بعض الليل، وكان صمته أكثر من كلامه. قلت: لم أر له ذكراً في تاريخ ابن عساكر.

وحكى الراشدي تلميذه قال: جمع ابن عمار بين أبي الفضل وبين بعض الفقهاء المالكية فناظره في تحريم الفقاع وكان فصيحاً فنطق بالحجة فانزعج المالكي...»⁽³⁾.

(1) الثقات: ج 9 ص 183.

(2) سير أعلام النبلاء: ج 19 ص 499.

(3) لسان الميزان: ج 1 ص 386.

وبعد كل هذا فالظاهر أنه لا يجرم تناول الشعير المطبوخ ولا القهوة المتخذة من الشعير إلا إذا أسكرا، أو صدق عليهما أئهما من الفقاع، والفقاع شراب مخصوص متخذ من الشعير غالباً، وليس كل شراب متخذ من الشعير فهو حرام، كما لا يجرم ماء الشعير الطبي، ويكاد الفقهاء يجمعون على أنّ الشعير المغلي لا يجرم خاصة الطبي منه، وقيد بعضهم حرمة ماء الشعير المغلي بالإسكار، والبعض الآخر عرف الفقاع بأنه ماء الشعير المغلي الذي وصل إلى مرحلة التخمير والنشيش مما أوجب له حالة الإسكار، فالخلاصة أنه لا يجرم ماء الشعير والقهوة المتخذة منه إلا مع الإسكار بعد تخمره ونشيشه.

سؤال: ما هو دور علماء الدين في المطالبة بالحقوق لدى الجهات المعنية؟ أسوة بباقي مناطق المملكة؟

جواب: لا تنفك الرسائل والمطالبات فهي تصل إلى الجهات المعنية في الدولة، بل إنّ بعض هذه الجلسات - وخاصة المباشرة منها - تصل إلى وضع المسميات بصراحة تامة، إلا أنّ العقبة الملموسة في منطقتنا تتوجه في:

1- لا توجد الشريحة الكافية التي تؤثر على نفسها حاجات منطقتها وتبذل الوقت لمثل هذه التطلعات كإنشاء مجلس يضم الطليعة من مجتمعنا تأخذ على عاتقها هذا الشأن، فإنّ المناطق الأخرى في المملكة لا تعتمد على المشايخ بقدر ما تعتمد على طلائع المجتمع من وجهاء و مثقفين وتجار.

2- وقد نشأ عن ذلك عدم متابعة الحاجات والمطالب بشكل جدي وأساسي من قبل شرائح المجتمع.

وأمرنا لا يمكن أن تحل وتقدم على طبق من ذهب إذا لم تؤلف لجنة قادرة على مقارعة الحجة بالحجة، ولا تعرف الكلل، ولا تجبن في المواقف الأساسية المصيرية، فكيف نفتح آذاناً أصمّت عن سماعنا طيلة عقود من الزمن إذا لم نشد التغيير في خططنا أولاً والسير حثيثاً في متابعة قضايانا.

سؤال: هل في نظركم أن دور علماء الدين يقتصر على المسائل
الفقهية والمعاملات فقط؟ وأما الجانب السياسي والمطالبة بالحقوق
أمر لا يعنينهم؟ وهي ليست من الأدوار والمهام الموكلة لهم؟

جواب: ما بات عالم الدين - الذي يريد أن يؤثر في مجتمعه - يستطيع
أن يشيخ بوجهه عن المشاركة في شؤون الأمة، وخاصة بعد تقارب مسارب
المعلومات عبر قنوات الاتصالات المختلفة.

ولالإمام الصادق عليه السلام مقولة رائعة يقول فيها: «العالم بزمانه لا تهجم
عليه اللوابس»⁽¹⁾.

ولهذا نتساءل في هذا الصدد: كيف نفسر اقتصار طلبة العلوم على
المواضيع الحوزوية دون الاقتحام للمواضيع الحديثة إلا على نحو الدروس
الاختيارية؟

والجواب يعود بالدرجة الأولى إلى التخصصات، فطالب العلم لا
يتناول إلا العلوم التي درسها وتناولها في الحوزة العلمية: الفقه، الأخلاق،
القرآن،....

والقليل من طلبة العلوم الدينية من أضاف إلى مخزونه معرفة أخرى،
ولذا بدل أن نلزم علماء الدين بالاهتمام بالمعرفة الإنسانية الأخرى - وأراها
ضرورية في هذا العصر - فلا مانع من المشاركة الفاعلة بين العلماء
والمثقفين في هذا الشأن وقد قلت في بداية هذا اللقاء: إن سنن التغيير
ليست حكرًا على الحوزوي أو غير الحوزوي ما دام الجميع ينشد العدل
مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽²⁾ فإن مهمة الأنبياء مهمة حياتية شاملة
تمتد إلى كل جوانب حياة الإنسان ليرتبط الجانب الروحي بالجانب المادي،
في ما توحيه كلمة (القسط) من العدل الذي يجدد لكل ذي حق حقه،
ويربي الناس في هذا الاتجاه، ليكون الإنسان العادل هو الذي يطبق الشريعة

(1) الكافي: ج 1 ص 26.

(2) الحديد: 25.

العادلة، ويبنى الحياة على أساس العدل.

ولا شك أنّ ذلك لا يقوم به إلا أهل الحل والعقد من العلماء والمختصين والمتقنين الذين يدركون منافع البشر وحاجات الإنسان، فإذا انسجمت الخطوط التي بيدها مفاتيح المعرفة الدينية بالمعرفة الإنسانية تحقق للناس ما يصبون إليه.

وأما إذا انقطعت أو اصر الالتقاء حينئذ تحول الدين إلى طقوس وعادات وشعائر خالية من الروح، وابتعدت عن التوازن في الجانب الواقعي العملي في حاجات الإنسان. فينبغي للحوزوي أن يفسح لأخيه غير الحوزوي مكاناً للقاء والحوار فيما يتعلق بخدمة الأمة ف«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»⁽¹⁾.

ولو نظرنا للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة وهو يشير إشارة واضحة إلى عمليات النقل والاتصال الثقافي حيث يقول: «أي بني، إني وإن لم أكن عُمرت عُمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدكم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عُمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صَفْوَ ذلك من كدره، ونَفَعَهُ من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر جليله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله، ...»⁽²⁾.

كل ذلك من خلال وعي علي عليه السلام للقرآن الكريم - إنما أراد بذلك منح ولده الحسن عليه السلام قوة للدفع في مجال التغيير الاجتماعي الذي كان يتوخى استمراره ونموه.

ويرى الشهيد مطهري أنّ السبب في هذه الخصوصية وهذه العظمة ناشئ من الروح العالية للإمام عليه السلام نفسه، فيقول: «إنّ الكلام يمثل الروح،

(1) صحيح مسلم: ج 3 ص 1459 ح 1829، وصحيح البخاري: ج 5 ص 1988 ح 4892، وسنن الترمذي: ج 4 ص 208 ح 1705، وسنن أبي داود: ج 3 ص 130 ح 2928، ومسنن الإمام أحمد: ج 2 ص 5 ح 4495.

(2) نهج البلاغة: كتاب 31.

فكلام أي إنسان يتعلق بتلك الدنيا التي تتمسك بها روح ناطقة، وبالطبع فإنّ الكلام الذي يعود إلى أشكال عديدة من الدنيا، إنها يدل على روح لا تنحصر بدنيا خاصة، ولديها حضور في جميع العوالم والدُّنا».

سؤال: كيف ترون ظهور فئة من علماء الدين (الفاستدين) في المجتمع، ومدى تأثيرهم على مكانة باقي علماء الدين الخيرين؟

جواب: الفساد ظاهرة عامة تحصل في كل المجتمعات، بل إنّ أمير المؤمنين عليه السلام تحدث عن هذه الظاهرة في حديثه مع كميل بن زياد والذي ابتدأ فيه الإمام عليه السلام بقوله: «يا كميل، إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق»⁽¹⁾.

وتحدث الإمام عليه السلام في آخر حديثه عن مأساة العلماء حيث يقول عليه السلام وهو يتنفس الصعداء: «ها، إنّ ههنا لعلماً جمّاً - وأشار إلى صدره - لو أصبت له حَمَلَة، بلى أصبت لقناً غير مأمون عليه، مستعملاً آله الدين للدنيا، ومستظهاً بِنِعْمِ الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه، لأول عارض من شبهة، ألا لا ذا، ولا ذا أو منهوماً باللذّة سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامله»..

ولكنه عليه السلام يريد أن لا يعلمنا اليأس حيث يقول: «اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً؛ لئلا تبطل حجج الله وبياناته، وكم ذا وأين أولئك؟! أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبياناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستدانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش

(1) نهج البلاغة: قصار الحكم 147.

منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمثل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم»..

ومن هنا، فعندما عرض أمير المؤمنين عليه السلام أصناف الناس عرضهم كالتالي:

الأول: «عالم رباني» وهو الإنسان الذي عاش مع الله وفكر بالله، ونظر في خلق الله، وعاش تجربته الإيمانية عبادة وابتهالاً وتأملاً وتدبراً مع الله، حتى أصبح يملك علماً ربانياً يعرف الله من خلاله على أساس كل ما يمكن للإنسان أن يبلغه من علم الله.

الثاني: «متعلم على سبيل نجاة» وهناك فريق آخر ما زال يدرج في حركة المعرفة.. يقرأ ويتأمل ويجرب، لأنّ للمعرفة مصدرها في الفكر، ومصدرها في التجربة، وهو عندما يقرأ ويسمع ويتأمل ويجرب، لا ينطلق في العلم من موقع أناني لتتضخم شخصيته، وليجري الناس خلفه فيهتفوا باسمه وليصفقوا له، ولكن لينجو ابتغاء الوصول إلى الحقيقة، ويتحرك مع الناس في خط النجاة لثلاثي يكون الناجي وحده، لأنّ العالم على طريق النجاة لا يمكن أن يكون أنانياً بحيث يقول: علمي لي وليس لأحد دور فيه، لأنّ العلم كما يعرفه الذين يتعلمون على سبيل نجاة، هو أمانة الله عند العالم. وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه ومن لم يفعل - واعتزل الناس، وجلس في زاويته - فعليه لعنة الله»⁽¹⁾.

الثالث: «همج رعاع» وهم الذين عشعش التخلف في عروقهم، وعاش الجهل في عقولهم، وتحركت الفوضى في أوضاعهم؛ يتحركون من ظلمات إلى ظلمات، وينطلقون على غير هدى في المتاهات.

وصفة هؤلاء (الهمج):

1- «أتباع كل ناعق..» ينتظرون الصوت الذي ينطق ويرتفع، فليس المهم عندهم ما هو مضمون الصوت، ولكنّ المهم عندهم ما هو حجم

(1) علل الشرائع: ج 1 ص 235، ورجال الكشي: ص 493 ح 946، ومسند الربيع: ج 1 ص 365 ح 943.

الصوت في الصراخ الذي يتمثل فيه، وفي ضخامة الموقع الذي ينطلق فيه، وفي طبيعة الشهوات واللذات التي تتحرك فيه.. ومشكلتهم الكبرى هي أنّ عقولهم في آذانهم وليست في رؤوسهم.

2- «يميلون مع كل ريح..» لأنهم لم يثبتوا أقدامهم على المحجة الواضحة، ولم يصلبوا مواقعهم في مواقع الحق، لذلك فلا أرض لهم يقفون عليها، والرياح تأخذهم من كل جانب فإذا كانت الريح شمالية أو يسارية كانوا يساريين، وإذا كانت الريح يمينية كانوا يمينيين، وإذا كانت الريح إسلامية كانوا مع الإسلاميين، وإذا كانت الريح علمانية كانوا مع العلمانيين، وهكذا تراهم يتقلبون مع الرياح ولا يملكون أي تماسك قبالتها ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلاءِ﴾⁽¹⁾.

ج - «يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق» لأنهم يعيشون في مواقع الزلزال والاهتزاز دائماً.
وقانا الله وإياكم هذا الطريق.

سؤال: كيف يمكن للمجتمع أن يصل إلى درجة التفاعل مع هذا التنوع، وعدم فهمه بطريقة تؤدي إلى الخلاف؟

جواب: يعتمد هذا على دور المثقف ولنا وقفة في ذلك:

ينبغي أن نعي أنّ وصف المثقف يطلق اليوم على:

- منتجي الأفكار ومستهلكيها وناشريها..

- وعلى العلماء والفنانين والأدباء..

- وعلى حملة الشهادات الجامعية والسياسيين والإعلاميين..

- ومع تحول عدد كبير من المتعلمين، والذين أصيبوا بالصدمة الحضارية، إلى وكالات ناطقة باسم الآخر ومرّوجة له.

(1) النساء: 143.

مع هذا التحول أصبح المثقف، وللأسف هو الذي يلوك بلسانه
معظم أسماء الأعلام الغربيين وآخر المذاهب في علوم اللسانيات والاجتماع
... و... و...

لكنه على ضوء تحديدنا لمفهوم الثقافة، نرى أنّ المثقف ذلك الإنسان
أو المجتمع المنشد في حركة تكاملية إلى مثله الأعلى الواقعي انشداداً واعياً
ومراداً.

(وبمعنى آخر): هو ذلك العامل المفجر لكل طاقاته واستعداداته في
سبيل صيرورة حقيقته الغائية واقعاً ماثلاً. فحقيقة الإنسان والمجتمع
تتحقق بفعل إرادي واع عبر تاريخه ومدة عمره.

وكما أشار الشهيد المطهري⁽¹⁾ إلى أنّ الإنسان في الأصل مشروع
إنسان وإنسانيته أمامه وفي المستقبل، فأما أن يحققها أو يبقى في مصاف
الحيوانات.. والإنسان وحده من بين موجودات العالم ينبغي عليه أن يعمل
ليحقق إنسانيته، فجزء الإنسان المادي أو صفاته البيولوجية لا تصلح
وحدها، ولا تكفي لإطلاق اسم الإنسان عليه، فإنسانيته شيء آخر ووجود
مكتسب.

وقد شهد التاريخ نماذج لمثقفين طابقوا بين تصورهم الواقعي لحقيقة
الإنسان وبين وجودهم فاستحقوا بجدارة أن يكونوا مثلاً علياً نصبوا
الضائر الحية لتمثلها كالرسول محمد وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه الكرام، إلا
أنّ التاريخ لم يشهد حالة مجتمعية نموذجية طابقت بين رؤيتها للاجتماع
ووجودها الاجتماعي العام، بما في ذلك مجتمع الرسول عليه السلام، لماذا؟

لأنّ تلك الفترة كان لها دور في بلورة الرؤى والتصورات الكونية
المحتاج إليها الحياة الإنسانية والاجتماعية، وهي وإن شهدت بناءً كمالياً
لمجموعة من الأشخاص إلا أنها من الناحية المجتمعية لم تتجاوز مرحلة
التأسيس لأسباب فرضتها طبيعة الأحداث المترافقة مع حركة الدعوة، وزمن
وجود النبي القصير جداً نسبة إلى حركة إعادة بناء اجتماعي تتطلب أجيالاً.

(1) الإنسان الكامل: ص 108.

ومن هنا فإن رسالة المثقف هي إيصال المجتمع وإنسانه إلى كماله الممكن له، وهذه الرسالة أمانة مثقف العصر، وأمانة كل المثقفين الذين عرفهم التاريخ الإنساني من أنبياء ورسل وأوصياء ومصالحين ومفكرين ملتزمين بثقافة التوحيد، وهل كانت حركات الأنبياء والرسل إلا لتحقيق هذا الهدف؟

وأهم مهارات المثقف:

1- التوعية: وهو أن يعمل المثقف على نشر أطروحاته ورؤيته الكونية بين مختلف فئات الناس في المجتمع الواحد... وعلى المثقف أن ينقل وعيه بالواقع وتناقضاته ومشكلاته، إيجابياته وسلبياته إلى وعي الناس، وبدون وعي الواقع ووعي تناقضاته وسلبياته، وبدون وعي إيجابيات وملاءمة ما ينبغي أن يكون، وبدون المقارنة بين هذين الوعيين تبقى الهمم جامدة والرغبات ميتة وحافز الحركة وباعث التغيير مفقوداً ومعدوماً.

والإمام علي عليه السلام يقول في أقسام الناس من حيث قيامها بثقافة التوحيد: «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق»⁽¹⁾. فمهمة المثقف وفق هذا التصنيف هو إيصال العلم إلى الفئة الثالثة لتستضيء بنوره وتهتدي إلى دورها الفاعل في الحياة لا تتدافعها رياح الأفكار الضالة والحركات والدعوات المضلة أو تشدها أهواؤها إلى الأرض فتخلد إليها.

وهنا ينبغي أن ننبه على أنّ جراءة المثقف على إعلان أفكاره وآرائه أي أن يقول بصراحة ما يفكر به بالضبط حتى ولو كان غير سائد ولا مأنوس لعامة الناس، إنّ هذه الجراءة لا تتنافى وكون المثقف عضواً من أعضاء هذا المجتمع. وذلك أنّ من أكبر الأخطار هو تجريد المثقف من وسط المجتمع، كما حصل ذلك في عصر الانحطاط السائد في العصر السلجوقي والغزنوي لأمثال ابن سينا والغزالي، وما يحصل الآن عند بعض الفئات التي ما فتئت تلقي ظلال فتاوى التكفير والتفسيق في وجه كل من يخالف منهجها

(1) نهج البلاغة: قصار الحكم 147.

الاجتهادي بذريعة مخالفتها لضرورات الدين.

2- التخطيط: فأى عمل ناجح مهما صغر شأنه لا يمكن أن يصدر إلا عن رؤية وبعد تعقل وتبصر في كل الملابسات المحيطة به ليتفتق العقل بعدها عن رسم الخطة الأسلم للوصول إلى الهدف وتحقيقه بأقل الجهود الممكنة. فالعالم اليوم قائم على التخطيط ليس فقط لتطوير وضعه بل هو يخطط أيضاً للمنافسة من أجل السيطرة.

3- تفجير الطاقات الإنسانية الكامنة: فخاصية الإبداع والاجتهاد الإنسانيين فيما يعرض للفرد والجماعة من أمور هي أصل، وأساس في حركة وتطور ونماء الاجتماع الإنساني، وعلى المثقف أن يثير العقول والإمكانات الإنسانية لتستخرج قدراتها ولتسبر أغوار الكون والطبيعة وتستكشف خيراتها الدفينة وتسخرها لتكاملها وتطورها وورقيها.

ولالإمام علي عليه السلام إشارة واضحة إلى عمليات النقل والاتصال الثقافي مع ملاحظة ما تتضمن هذه العمليات من توجيه وإشراف هادفين لكفالة نمو المثقف، يقول: «أي بني، إني وإن لم أكن عُمّرت عُمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدتُ كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عُمّرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صَفْوَ ذلك من كدره، ونَفَعَه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر جليله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله، ...»⁽¹⁾.

السؤال: مع الفتح الجديد في عالم الاتصال يسعدنا أن يكون معنا في حوار مفتوح أحد العلماء المعروفين في منطقتنا يسمع تساؤلاتنا واستفساراتنا فنستفيد من علمه ومعارفه و رؤاه وأفكاره التي نحن بحاجة لتفاعلها معنا؛ لنتحرك بها في إنهاض مجتمعتنا وإصلاحه..

سماحة الشيخ أستمحك العذر في طرح بعض الأسئلة راجياً من الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للاستفادة منكم..

(1) نهج البلاغة: الكتاب 31.

سماحة الشيخ، كلنا يعلم أنّ الصراع بيننا وبين الغرب والمتغربين صراع ثقافي وفكري، فالغرب عبر الوسائل المختلفة من الأعلام؛ المرئي، والمسموع، والمكتوب، وعن طريق القوة العسكرية يحاول بشكل منظم ومدروس أن يسلبنا هويتنا الثقافية والدينية ليسهل عليه بعد ذلك السيطرة بشكل أكبر على مقدرات الأمة وخيراتها، وسؤالي يتركز على ثلاث نقاط:

1- هل هناك مشروع ثقافي بمنظومة فكرية متكاملة ومؤصلة، تسعى (سماحتكم) لإيجادها في مجتمعنا لمواجهة هذه التحديات الكبيرة التي يعيشها المجتمع؟

2- وعلى فرض وجود ذلك المشروع وتلك المنظومة، ما هي أهم معالمها؟

3- وما هي آليات وخطوات العمل التي بدأت بها؟

جواب: لا أدعي أنني صاحب مشروع ولكن ربما تكون لي رؤية - ولو بسيطة - في ما نحن نتعاشق معه من أحداث ومستجدات، وهذه التساؤلات - يا أخي - بمجملها تساؤلات مصيرية تحتاج إلى نوع من البسط والتأصيل وكلها تصب في علاقة المثقف بالتغيير ورؤيته لذلك.

وقبل كل شيء نتساءل: هل يوجد غزو ثقافي مؤثر على الساحة؟

عندما يرد في ذهننا مصطلح الغزو الفكري أو الغزو الثقافي يتداعى إلى الذهن أيضاً مصطلح الأفكار والأيدولوجيات المستوردة وكل ما هو مستورد من مؤثرات الخارج وهو نوع خاص من النشاط العقلي الموجه ضد خصم ما لكسب معركة من معارك الحياة، على أننا لو أردنا أن نحلل هذا المصطلح فإننا نلاحظ أنه مصطلح تقريبي، إذ ليس هناك - في الواقع - غزو فكري تام بالمعنى المعروف لكلمة غزو، والذي يتضمن الهجوم الاكتساحي.

نعم، هناك صور يتم من خلالها الغزو الفكري كالاختراق، والتسلل، والانتشار، وهذه الصور تضيق أو تتسع تبعاً لنوعية العلاقة بين البلدان

المختلفة، وخاصة بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة.

وبصرف النظر عن التباين في الدلالات التي تطرحها أشكال التغلغل الفكري والثقافي - وهي أشكال مختلفة مؤكداً - فإن مصطلح الغزو الفكري اكتسب بُعداً الشامل الذي ينطوي على كل تلك الدلالات مما يجعل هذا المصطلح يفي بالمرام لبحث حالات الانتشار الفكري بطريقة استعمارية.

والطريقة الاستعمارية هي مجموع السبل التي تلجأ إلى اتخاذها الدول القوية للسيطرة على الدول الضعيفة والغيرة المتميزة من حيث الموقع والخزائن المعدنية والمميزات الاقتصادية المتنوعة.

ولقد تعرض عالمنا الإسلامي مع بدايات العصر الحديث إلى ثلاثة أنواع من الغارات وهي:

1- الهجوم السياسي والعسكري وما صحبه من سيرة اقتصادية واحتكار تجاري.

2- المبشرون الغربيون الذين جاؤوا بعد الجيوش العسكرية الغازية أو مهدوا لقدمها بنشر دعواتهم.

3- تبني المسلمين نظم التربية والتعليم الغربي تحت ما عرف باتجاه التعليم العصري.

ولا شك أنّ النوعين الأولين يمثل وجوداً مكشوفاً وغير مقبول، بل ومرفوض من قبل الجماهير والأمة المسلمة.

نعم، لقد كانت غارة التستر بشعار التعليم العصري، وما يستتبعه من مدارس حديثة وتربية جديدة، هي أنجح الطرق لعملية الاختراق، والتي لم تتخذ شكل قرار ذاتي حضاري مستقل نابع من إرادة مسلمة حرة.

من هنا.. لا بدّ أن نعي أنّ أسلوب الغزو الفكري أكثر خطورة من الأسلوب العسكري، ذلك لأنّ الاحتلال يؤدي إلى كسب الأرض لا إلى كسب العقول، وبمقدور المغلوب استرداد الأرض ما دام العقل قادراً على

أن يحافظ على حيويته ودوره، بينما في حالة الغزو الفكري تتهدم أعمدة الصمود باحتلال العقل من قبل الغزاة، ويعني ذلك إخماد حركة الكفاح وإقصاء عناصر القوة العقائدية عن ميدان العمل.

والمهم هنا أن ننبه على أن لا نعيش ذهنية المؤامرة الكبرى، فإنّ المؤثر ليس السلاح والطائرات والجيوش، بل المؤثر هو تنامي الأيدلوجيات المواجهة للثقافة الدينية..

بعد هذه المقدمة نقدم بعض التساؤلات:

أولاً: ما هو دور المثقف في المجتمع؟

وقد تكلمنا عن ذلك سابقاً.

ثانياً: ما هي عوامل الجمود في الثقافة؟

أهم عوامل الجمود اللاحقة بالعقل الإنساني:

1- كبت الحريات: فسلب الحرية يعني سلب المسؤولية وبالتالي الالتزام بحيث يتحول الإنسان إلى مجرد آلة يحرّكها الغير ومن بيده السلطة والقوة.

2- التقليد: وهو أمر مذموم في الأديان السماوية لأنه يوقع الإنسان في رؤية الأشياء من دون تبصر وإجالة فكر ونظر.

3- تقديس الأشخاص: وخاصة في القضايا العلمية التي قد تؤدي إلى تعطيل حركة الإبداع والخوف من الوقوع في مخالفتهم.

4- احتكار حق التفكير: أي حصره في جهات محددة، وعدم إشراك الأمة فيما تستطيع الخوض فيه، وتحول مجموعة من المثقفين والمتعلمين إلى طبقة تفكر عن الأمة وتقرر عنها وتفرض عليها أوامرها ونواهيها، دون أن تعني نفسها بمشاركتها الأمر في حدوده الدنيا، أعني إيصال حقها بالوعي إليها.. وهو تعطيل لمبدأ الشورى الذي كان يتعايشه الرسول في مجتمع المدينة.

5- المواجهة الحضارية: إنّ كل ثقافة تطمح إلى استمرارها وانتشارها وسيادتها، لا يمكن أن تتحرك دون أن تلاحظ وجود ثقافات أخرى منافسة وتخطط لكيفية التعاطي معها إيجاباً أو سلباً، استيعاباً أو تلاحقاً، هجوماً أو دفاعاً، ولا سيما وأننا نعيش عصرًا حوّل كوكبنا الكبير إلى قرية صغيرة مع أهم ثورات عرفها الإنسان، ثورة المواصلات والاتصالات التي وضعت الإنسان أمام مفهوم جديد للزمان والمكان، وقربت الشعوب من بعضها.

ثالثاً: هل هناك علاقة بين المثقف وعملية التغيير؟

المثقف على امتداد التاريخ هو الذي يتحول وعيه الخاص إلى وعي عام وحركة مجتمع، شخص التزم قضايا الإنسان والمجتمع وانخرط في غمارها، ولقد أعطى الإسلام الإنسان مكانة مركزية في الوجود، بحيث خلق الكون كله لأجله وزود بالخصائص المهمة التي يقوم عليها عملية التغيير وهي: الوعي، والحرية، والإبداع... وأمر بأن يتخلق بأخلاق الله، أي أن يتخذ من الله مثلاً أعلى، بينما قلصت المادية وجود الإنسان وحبسته في إطار التكامل المحدود في كينونة المادة.

والناس من عملية التغيير على قسمين:

1- إما أن يقف من التغيير موقفاً سلبياً يرفض التفاعل معه وتلبية حاجاته وهو ما يسمى بالثقافة الجامدة.

2- أو يندمج معها ويتفاعل وإياها تبعاً لمقتضيات الضرورات الحياتية والمطالب الاجتماعية وهي ما تدعى بالثقافة الحركية.

ونحن نلاحظ أنّ نص الإمام علي السابق: «فعرفت صَفْوَ ذلك من كدره، ونَفَعَه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر جليله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله...». - كل ذلك من خلال وعي علي عليه السلام للقرآن الكريم - إنّما أراد بذلك منح ولده الحسن عليه السلام قوة للدفع في مجال التغيير الاجتماعي الذي كان يتوخى استمراره ونموه.

ولهذا ما تزال كلمة الإمام الحسين عليه السلام مدوية في التاريخ لمن أراد أن يسير في هذا الدرب الإصلاحية: «إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا ظالماً،

ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف وأنبى عن المنكر.

سؤال: ألا تعتقد أنّ مع أهمية وضرورة الجانب التقليدي في دراسات طلبة العلوم الدينية للمجتمع؛ من فقه وأصول ومنطق وفلسفة وأدب وعقائد؛ يحتاج العلماء إلى النزول من البرج الشاهق الذي يعيشون فيه ويتوصلون من خلاله للاتصال مع المجتمع ثقافياً وفكرياً، وعدم الاقتصار على إعطاء الدروس التقليدية - مع الحاجة الكبرى لها -؛ وذلك بتأسيس مراكز ثقافية ومؤسسات اجتماعية، يديرون فيها أموال الأحماس والزكاة والأوقاف بالشكل المسموح به؟

جواب: ذكرنا في بعض الإجابات أنّ صناعة التغيير في المجتمع ليست حكراً على الحوزوي أو غير الحوزوي ما دام الجميع ينشد العدل.

ومن هنا يلوح في الأفق تساؤلان:

أحدهما: هل الحوزويون في مجتمعنا يمكن أن يقال عنهم مثقفون؟

لا اختلاف بين الحوزوي وبين غيره في تقييمنا للمجتمع الثقافي، فالحوزوي قد يملك تخصصاً ما في العلوم التي تهتم بها الحوزات العلمية، وأما ما مدى تجاوب الحوزوي مع حركة المجتمع فيحتاج الحوزوي حينذاك إلى أن يضم إلى تخصصه قراءاته العميقة التي تؤهله أن يخوض غمار التجربة بوعي وحرية وإبداع.

وإذا ما علمنا أنّ الحوزات العلمية لا تقتصر في مهاتها إلا على اللغة والمنطق والفلسفة القديمة، وبنطاق ضيق، والفقه والأصول فحينئذ ندرك أنّ الحوزة لا يمكن أن تقدم إلينا رواداً لهم تأثيرهم في الأمة إلا النزر القليل فأمثال الشهيد الصدر والشهيد المطهري وأضرابها لا يتكرر في كل جيل.

ومن المبكي، عندما خرج تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي، أن تقابل بعض الأوساط في الحوزة العلمية الإنجاز العظيم للعلامة الطباطبائي

برود فعل سلبية، وربما عدوانية، ووصل الأمر إلى نطاق الكتابات أيضاً، دفعت تلميذ العلامة الطباطبائي الشيخ مسلم ملكوتي أن يتصدى للدفاع عن تفسير أستاذه، فخاض حوارات عديدة مع هؤلاء من دون أن يجد أذناً صاغية لما يقول، وكان يذهب إلى أنّ هؤلاء لم يندفعوا بسوء نيّة لاتخاذ هذا الموقف، وإنما يعود ذلك لسوء الفهم.

ولذلك قال الشهيد المطهري: «إنه لعجيب أن يقضي المرء عمره في أهم العلوم الإسلامية كتفسير القرآن، ثم يكون عرضة لكثير من المصاعب والمشاكل، في رزقه، في حياته، في شخصيته، في احترامه، وفي كل شيء آخر. ولكنه لو صرف عمره في تأليف كتب مثل الكفاية لنال كل شيء. فتكون النتيجة: أنّ هناك آلافاً من الذين يعرفون الكفاية معرفة فائقة، أي: أنهم يعرفون الكفاية، والرد عليها، وردّ الردّ عليها، والردّ على ردّ الردّ عليها، لكن لا نعثر على شخصين يعرفان القرآن معرفة صحيحة، وعندما تسأل أحداً عن تفسير آية قرآنية، يقول لك: يجب العودة إلى التفسير»⁽¹⁾.

وثانيهما: هل المثقف غير الحوزوي قادر على خدمة المجتمع والمشاركة في حل معضلاته ومشاكله؟

على ضوء ما قدمناه من تفسير لواقع المثقف يتضح لدينا أنّ سنن التغيير ليست حكراً على الحوزوي أو غير الحوزوي ما دام الجميع ينشد العدل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽²⁾ فإنّ مهمة الأنبياء مهمة حياتية شاملة تمتد إلى كل جوانب حياة الإنسان ليرتبط الجانب الروحي بالجانب المادي، في ما توحيه كلمة (القسط) من العدل الذي يحدد لكل ذي حق حقه، ويربي الناس في هذا الاتجاه، ليكون الإنسان العادل هو الذي يطبق الشريعة العادلة، ويبني الحياة على أساس العدل.

ولا شك أنّ ذلك لا يقوم به إلا على أهل الحل والعقد من العلماء

(1) إحياء الفكر الديني: ص 47.

(2) الحديد: 25.

والمختصين والمثقفين الذين يدركون منافع البشر وحاجات الإنسان، فإذا انسجمت الخطوط التي بيدها مفاتيح المعرفة الدينية بالمعرفة الإنسانية تحقق للناس ما يصبون إليه. وأما إذا انقطعت أواصر الالتقاء حينئذ تحول الدين إلى طقوس وعادات وشعائر خالية من الروح، وابتعدت عن التوازن في الجانب الواقعي العملي في حاجات الإنسان.

فينبغي للحوزوي أن يفسح لأخيه غير الحوزوي مكاناً للقاء والحوار فيما يتعلق بخدمة الأمة ف«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

سؤال: كيف يرى سماحة الشيخ موضوع القراءة الحديثة للكتب الحديثة والقرآن بما يناسب العصر كما يرى ذلك أركون وبعض الحدائين؟؟

جواب: بما أنّ الشيعة أخذت على نفسها أن تُدخل الحوزة في مفاصل حياتها العامة والخاصة، فلا يبقى محيص على الحوزوي أن يكون ملماً بقدر كافٍ فيما يطرح هنا وهناك من أفكار وأطروحات، ولا شك أن عجلة الأفكار متسارعة ومؤثرة بسبب توفر آلات الاتصالات المعرفية.

ومؤمن إيماناً كاملاً عدم قدرة جميع الحوزويين على هضم ما يطرح من أفكار الحدائين ولذا ينبغي الاهتمام بالتخصص المعرفي في هذا المجال، للأسف هناك من الحوزويين من يحرم قراءة كتب أمثال أركون والجابري وعلي حرب وأضرابهم وهو لم يقرأ سطرأً من كتبهم. هذه هي بعينها الحاكمة المتسلطة والتي يحاول البعض أن يتاجر مع الله فيها.

السؤال السادس والخمسون: هل تعرضت الأحداث التاريخية لواقعة الطف لتحريف المؤرخين ومن في اعتقادك الأصح في رواية هذه الأحداث؟؟

جواب: لا إشكال أنّ روايات الاختلاق قد طالت بعض قضايا كربلاء، ولذا يقول الشيخ محمد آصف محسنی: «وبالجملة أكثر تفاصيل حوادث كربلاء مجهولة، والناس يطلبون ما يبكيهم، وكثير من الوعاظ

محتاجون إلى الجاه والمال، فال أمر القصص إلى ما يُرى»⁽¹⁾.

وتعتبر الملحمة الحسينية للشهيد المطهري مرآة للوقوف على بعض مخازي التحريف في المنبر الحسيني وما يقوم به بعض الخطباء غير الواعين، وللأسف يحاول بعض الكتاب أن يروج لكذب انتساب هذا الكتاب للشهيد المطهري كل ذلك لكي لا يطلع المثقف على ما يكتبه المستنيرون من علمائنا.

وقد طبع في العام المنصرم كتاب «اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر» للشيخ حسين النوري الطبرسي وهو من الكتب الجريئة في هذا الصدد. وقد كان الشهيد المطهري يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في الملحمة الحسينية.

كما يوجد كتاب «مشرعة بحار الأنوار» للشيخ محمد آصف محسني، أحد الفقهاء الأعلام من تلامذة السيد الخوئي رضي الله عنه، تناول الروايات التي أوردها صاحب البحار في شأن الحسين وقضية كربلاء، وإظهار المعبر منها⁽²⁾.

سؤال: هل صحيح أن جبرئيل عليه السلام نزل على الإمام الحسين عليه السلام وأمره بالتوجه للعراق؟؟ علماً بأنني سمعت هذا الكلام من أكثر من خطيب في الليلة الثالثة ولكن عند اطلاعي على بعض الكتب وجدتها مختلفة وأن الحسين عليه السلام رأى جده رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام وهو الذي أمره بالتوجه إلى العراق.

جواب: ما هو معروف أن الحسين عليه السلام رأى جده في عالم الطيف، فقد جاء في البحار⁽³⁾:

«فلما كانت الليلة الثانية، خرج إلى القبر أيضاً وصلى ركعات، فلما فرغ من صلاته جعل يقول: اللهم هذا قبر نبيك محمد، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحبّ المعروف،

(1) مشرعة بحار الأنوار: ج 1 ص 156.

(2) م . م . س: ج 1 ص 144 - 159.

(3) بحار الأنوار: ج 44 ص 328.

وأنكر المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ القبر ومن فيه إلا اخترت لي ما هو لك رضا، ولرسولك رضا.

قال: ثم جعل يبكي عند القبر حتى إذا كان قريباً من الصبح وضع رأسه على القبر فأغفي، فإذا هو برسول الله قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وعن شماله وبين يديه حتى ضم الحسين إلى صدره وقبّل بين عينيه وقال: حبيبي يا حسين كأني أراك عن قريب مرملاً بدمائك، مذبوحاً بأرض كرب وبلاء، من عصابة من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لا تسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، لا أنا لهم الله شفاعتي يوم القيامة، حبيبي يا حسين إنّ أباك وأمك وأخاك قدموا عليّ وهم مشتاقون إليك، وإنّ لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلا بالشهادة».

فربما قرأ الخطيب هذا النص وحلّق في آفاقه وتخيل أنّ من ضمن الملائكة جبرئيل، ثم بعد ذلك وبمرور الوقت بدأ ينسى أو يتناسى الخبر شيئاً فشيئاً حتى أوصلها إلى قضية الحسين عليه السلام مع جبرئيل.

سؤال: ألا ترى سماحتكم أنّه أصبح لزاماً على الخطباء وفي هذه الأيام تحديداً تجنب ما يثير حفيظة البعض ويجدوا فيه مدخلاً لإثارة الشبهات حول مذهب أهل البيت عليهم السلام.

جواب: لا شك أنّ هذه الأمور غذتها أيدي طائفية بغيضة، فبسبب ما يمارس على الشيعة من منع كتبهم وملاحقة أفكارهم ونشر الكتب المسمومة ضدهم، وفتح المجال من قبل بعض المسؤولين من دون أن يكون لهم دور في درء هذه الطائفية.

كل ذلك خلق رد فعل غير مناسب بالنسبة للطرف الآخر، ولذا ينبغي لعلماء المنطقة توجيه النظر إلى الخطباء بعدم جدوى الأطروحات التي تثير المشاكل وترفع من حجم الشبهات والإثارات.

وأرجو أن لا تكون آذاننا مرهفة لكل حس طائفي أو لسان حاقد يريد أن يفت من عزيمة الأمة ولا ينشد تماسكها ووحدتها.

السؤال: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِإِلَهِكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽¹⁾.

أعلم أن الخمس فريضة شرعية، ولكن على من يجب الخمس؟ ومتى؟ وكيف يتم إخراجه؟

وما حكم التخلف عن أداء هذا الحق؟

خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالفتاة العاملة!!

جواب: لعل الكثير من الناس لا يدركون فريضة الخمس كما يجب أن تُدرك، ولذا آثرت على نفسي - هنا - استجابة للأخت الفاضلة أن أبين بشيء من التفصيل المعرفي لهذه الجوانب المهمة للخمس، وبعد ذلك أدخل في الإجابة المباشرة على استفسارات الأخت الفاضلة.

الموضوع المهم الذي يبحث هنا هو: هل لفظة الغنيمة المذكورة في الآية الكريمة يطلق على الغنائم الحربية فقط أو تشمل كل زيادة في المال؟!

أولاً: الآية الشريفة:

الآية الشريفة وإن كانت تبين الخمس في غنائم الحرب فحسب، إلا أنّ إيضاح سائر الموارد منها تكفلت به السنة والأخبار المستفيضة، وصحيح الروايات، ولا ضير أن يشير القرآن إلى قسم من أحكام الخمس بما يناسب مسائل الجهاد، وأن تتناول السنة الشريفة بيان الموارد الأخرى منه. ففي الفقه الإسلامي نظائر كثيرة لهذه المسألة.

فقد صرح القرآن الكريم بالصلوات الخمس اليومية، كما أشير إلى صلاة الطواف التي هي من الصلوات الواجبة أيضاً، ولم ترد آية واحدة

(1) الأنفال: 41.

تذكر صلاة الآيات المتفق وجوبها بين المسلمين كافة، في حين أننا لا نجد قائلًا يقول: لا يجب الإتيان بصلاة الآيات؛ لأنهم لم تذكر في القرآن الكريم.

فلا إشكال في أن يبين القرآن قسمًا واحداً من أقسام الخمس فحسب، ويكمل توضيح الباقي إلى السنة.

ثانياً: تعريف الغنيمة:

المستفاد من كتب اللغة المشهورة أنّ جذرها (الغنيمة والمغنم والغنيم والغنم بالضم) شاملة لكل أنواع الزيادة المالية وغيرها.

ففي القاموس المحيط: «الْمَغْنَمُ وَالغَنِيمُ وَالغَنِيمَةُ وَالغُنْمُ، بالضم: الْفَيْءُ، غَنِمَ، بالكسر، غُنْمًا، بالضم وبالفَتْحِ وبالتَّحْرِيكِ، وَغَنِيمَةً وَغُنْمَانًا، بالضم، وَالْفَوْزُ بِالشَّيْءِ بِلَا مَشَقَّةٍ».

وفي لسان العرب: «الغُنْمُ: الفَوْزُ بالشَّيْءِ من غير مشقَّة، والاعتنام: انتهاز الغُنْمِ، والغُنْمُ والغَنِيمَةُ والمَغْنَمُ: الفَيْءُ يقال: غَنِمَ القومُ غُنْمًا بالضم، وفي الحديث: الرَّهْنُ لمن رَهَنَهُ له غُنْمُهُ وعليه غُرْمُهُ؛ غُنْمُهُ: زيادته ونهاؤه وفاضل قيمته».

وفي تاج العروس: «والغنم: الفوز بالشيء بلا مشقة».

وفي مفردات الراغب الأصفهاني: «أصل الغنيمة من الغنم،... ثم استعملوه في كل مظفور به من العدى وغيره».

ثم إنّ الذين ذكروا أنّ معناها غنائم الحرب لم ينكروا أنّ معناها واسع شامل لكل أنواع الغرامات.

ثالثاً: الاستعمالات العرفية:

ترد الغنيمة في العرف في مقابل الغرامة، ولذا قيل: «من له الغنم فعليه الغرم». فكما أنّ معنى الغرامة واسع وشامل لكل أنواع الغرامات، كذلك معنى الغنيمة واسع وشامل لكل أنواع الغنائم.

ويمكننا أن نثبت شواهد على مثل هذا الاستعمال:

1- عن أنس بن مالك قال: شقَّ على الأنصار النواضح فاجتمعوا عند النبي ﷺ يسألونه أن يكرري لهم نهراً سيحاً.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «مرحباً بالأنصار، والله لا تسألوني اليوم شيئاً إلا أعطيتكموه ولا أسأل الله لكم شيئاً إلا أعطانيه».

فقال بعضهم لبعض: اغتتموها واطلبوا المغفرة⁽¹⁾.

2- عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لمحلوف رسول الله ما أتى على المسلمين شهر خير لهم من رمضان ولا أتى على المنافقين شهر خير لهم من رمضان، وذلك لما يعد المؤمنون فيه من القوة للعبادة وما يعد فيه المنافقون من غفلات الناس وعوراتهم هو غنم، والمؤمن يغتتمه الفاجر»⁽²⁾.

3- قال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناءك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»⁽³⁾.

4- قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«اغتنم المهل»⁽⁴⁾.

«من أخذها لحق وغنم»⁽⁵⁾.

«ولا تكوننّ عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم»⁽⁶⁾.

«فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ولا ادخرت من غنائمها وفراً»⁽⁷⁾.

(1) مسند الإمام أحمد: ج 3 ص 139 ح 12437.

(2) مسند الإمام أحمد: ج 2 ص 330 ح 8350.

(3) المستدرک علی الصحیحین: ج 4 ص 341 ح 7846.

(4) نهج البلاغة: الخطبة 76.

(5) م.س: الخطبة 120.

(6) م.س: الكتاب 53.

(7) نهج البلاغة: الكتاب 45.

«واغتتم من استقرضك في حال غناك»⁽¹⁾.

«إن الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس»⁽²⁾.

رابعاً: كلام المفسرين:

اتفق علماء أهل السنة على أنّ المراد من الغنيمة في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ هي الأموال التي يحصل عليها الناس بالقوة في الحرب، بيد أنّ هذا القيد غير وارد في اللغة لكنه ورد في العرف الشرعي.

ومع ذلك فأكثر المفسرين الذين تناولوا هذه الآية صرحوا بأنّ للغنيمة معنى واسعاً في اللغة يشمل غنائم الحرب وغيرها مما يحصل عليه الإنسان من دون مشقة.

قال القرطبي: «إنّ الغنيمة في اللغة هو الخير الذي يناله الفرد أو الجماعة بالسعي والجد»⁽³⁾.

ويقول الفخر الرازي: «الغنم الفوز بالشيء،... إنّ المعنى الشرعي للغنيمة في اعتقاد فقهاء أهل السنة هو غنائم الحرب»⁽⁴⁾.

وقال الألويسي: «الغنم في الأصل معناه كل ربح ومنفعة»⁽⁵⁾.

وذهب الشيخ محمد رشيد رضا إلى معناها الواسع، ولم يخصصها بغنائم الحرب، بالرغم من اعتقاده بلزوم تقييد المعنى الواسع وتخصيص الآية بغنائم الحرب⁽⁶⁾.

(1) م.س: الكتاب: 41.

(2) م.س: قصار الحكم 331.

(3) تفسير القرطبي: ج 4 ص 280.

(4) التفسير الكبير: ج 15 ص 164.

(5) تفسير روح المعاني: ج 10 ص 2.

(6) تفسير المنار: ج 10 ص 703.

1- إنّ استعمال لفظة (الغنيمة) في خصوص مورد الحرب⁽¹⁾ لا يوجب ذلك أن يهجر معناها اللغوي، وهو مطلق الفائدة والكسب من دون تقييد.

2- الآية الكريمة وإن كانت تنطلق من سياق الآيات الواقعة في أجواء معركة بدر، إلا أنّ المورد لا يخصص الوارد، وأنّ المناسبة لا تخصص الآية. وحينئذ لا مانع من كون مفهوم الآية ذا معنى عام، وأن يكون نزولها هو غنائم الحرب في الوقت ذاته، فهي من مصاديق هذا المفهوم أو الحكم.

3- إنّ للحكم العام ومصادقه الخاص نظائره الكثيرة في القرآن الكريم ومن الشواهد على ذلك:

أ - يقول تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾⁽²⁾. فهذه الآية ذات حكم كلي في وجوب الالتزام بأوامر النبي ﷺ مع أنّ سبب نزولها هو الأموال التي تقع بأيدي المسلمين من دون حرب (الفيء).

ب- يقول تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾⁽³⁾. فهذه الآية مع أنّها متعلقة بالنساء المرضعات، والأمر موجه لآباء الأطفال الرضع أن يعطوا المرضعات أجورهن حسب وسعهم. وكون الآية واردة في أمر خاص لا يمنع عنها عمومية القانون الذي جاءت به وهو عدم التكليف.

4- ورد النص عن أهل البيت عليهم السلام: «الخمس من خمسة أشياء: من الغنائم، والغوص، ومن الكنوز، ومن المعادن، والملاحاة...»⁽⁴⁾. والعبرة أحد الثقلين المأمورين بالتمسك بهما.

(1) الأنفال: 6، الفتح: 15، 19، 20، النساء: 90.

(2) الحشر: 7.

(3) البقرة: 233.

(4) وسائل الشيعة: أبواب ما يجب فيه الخمس ب 2 ح 4، 9، 11.

5- المعروف في المذاهب الإسلامية حرمة إعطاء بني هاشم من الزكاة؛ لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي؛ لأن لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم»⁽¹⁾.

و«بعث نوفل ابن الحارث ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال لهما: انطلقا إلى ابن عمكما لعله يستعين بكما على الصدقات لعلكما تصيبان شيئاً فتزوجان، فلقيا علياً رضي عنه فقال: أين تأخذان؟ فحدثاه حاجتهما فقال لهما: ارجعا. فلما أمسيا، أمرهما أن ينطلقا إلى نبي الله ﷺ، فلما دفعا الباب، استأذن فقال رسول الله ﷺ لعائشة: أرخي عليك سجفك أدخل على ابني عمي. فحدثنا النبي ﷺ بحاجتهما، فقال نبي الله ﷺ: لا يجلب لكما أهل البيت من الصدقات شيء ولا غسالة أيدي الناس، إن لكم في خمس الخمس لما يغنيكم أو يكفيكم»⁽²⁾.

وقال ﷺ: «يا معشر بني هاشم، إن الله تعالى كره لكم غسالة أيدي الناس وأوساخهم وعوضكم منها بنخمس الخمس»⁽³⁾.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «إن الصدقة حرام على محمد وآل محمد»⁽⁴⁾، وروي «أنه رأى في الطريق تمرة فقال: لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها»⁽⁵⁾.

فإذا كان بنو هاشم لا يُعطون من الزكاة والصدقات، وفرض لهم العطاء من الخمس فقط فكيف نوفق بين هذه المسألة وبين تقييد الخمس بغنائم الحرب، ومن المعلوم أنّ غنائم الحرب محدودة فلا يعيش الإنسان حياته في حروب وسلب وغنم ومع عدم وقوع الحروب لا يمكن استيفاء حاجات بني هاشم مع تعدد طبقاتهم من غنائم الحروب فقط.

(1) المعجم الكبير: ج 11 ص 217، وتفسير ابن كثير: ج 2 ص 314.

(2) مجمع الزوائد: ج 2 ص 91.

(3) نصب الراية: ج 3 ص 424.

(4) مسند الإمام أحمد: ج 6 ص 8 ح 23914، وسنن البيهقي: ج 7 ص 32 ح 13023،

ومجمع الزوائد: ج 3 ص 91، والمعجم الكبير: ج 11 ص 379 ح 12059.

(5) صحيح مسلم: ج 2 ص 752 ح 1071، وصحيح البخاري: ج 2 ص 857 ح 2299.

6- لا خلاف بين الفقهاء في تخميس الركاز - حيث ذهب جمهور الفقهاء (المالكية والشافعية والحنابلة) إلى أنّ الركاز هو ما دفنه أهل الجاهلية. ويطلق على كل ما كان مالا على اختلاف أنواعه. إلا أنّ الشافعية خصوا إطلاقه على الذهب والفضة دون غيرهما من الأموال. وأما الركاز عند الحنفية فيطلق على أعم من كون راكمه الخالق أو المخلوق فيشمل على هذا المعادن والكنوز - ولكن بشروط ذكروها؛ لما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العجاء جبار، والبثر جبار، والمعدن جبار، وفي الركاز الخمس» فوجب فيه الخمس كالغنيمة⁽¹⁾. كما ذهبت الحنفية إلى وجوب الخمس في المعدن⁽²⁾.

ما هو دور الخمس على الصعيد النفسي والاجتماعي للأمة؟

أولاً: الخمس في جوانبه العبادية:

1- إنّ الخمس وإن كان في حد ذاته مما تغلب عليه صفة المال، إلا أنه في شريعة الإسلام عبادة من العبادة التي يشترط فيها التوجه القربي إلى الله عز وجل.

فقد ارتبط الخمس في صدر الآية وذيلها - في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُصَّةً وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽³⁾ ب(الله) حيث يتحول الخمس معها إلى معتقد ينبثق منه مفهوم العطاء الخير لله عز وجل ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ حُصَّةً﴾ ...

والعجيب أنّ الآية موجهة إلى المؤمنين، والمجاهد مؤمن، لكنها مع

(1) المجموع، للنووي: ج 6 ص 99، والمدونة الكبرى: ج 1 ص 291، والبسوط، للسرخسي: ج 2 ص 211، وصحيح البخاري: ج 2 ص 545 ح 1428، ومسند الإمام أحمد: ج 2 ص 274 ح 7690.
(2) بداية المجتهد: ج 1 ص 358.
(3) الأنفال: 41.

ذلك تقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أنّ ادعاء الإيمان وحده لا يعدّ دليلاً على الإيمان، بل حتى المشاركة في سوح الجهاد قد لا تكون دليلاً على الإيمان، فقد تكون وراء ذلك أمور أخرى.

2- اندماج رافد الثروة والمال بالرافد العبادي القربي يؤكد نظرة الإسلام الشاملة، وأنه يستوعب شؤون الناس الدينية المرتبطة بالعبودية لله، والدينية المنبثقة في سعادة الإنسان واستقراره في الحياة على صعيد الفرد والجماعة.

ثانياً: الخمس على صعيد الأمة:

1- يؤكد الإسلام من خلال هذا النبع أن لا ينفصل في جانبه الاجتماعي عن جانبه الاعتقادي، والذي يبلور مفاهيمه وفقاً لمبدئه في تنمية مشاعر الإنسان النبيلة ودفعاً أو تقويم الفاسد، وتدعيم الواقع بشكل يتحقق فيه أسلوب السلامة بشكل موضوعي.

2- يثير الخمس في المؤمن الإحساس بالامتثال والطاعة لحكم الله في الأرض فهو إحساس عملي، مما يجعله عنصراً فعالاً لوضع البنية النافعة للأمة.. ففي هذه الصورة الحيوية من خلال معايشة الإنسان لأجواء الآية تعكس له ملامح التكافل الاجتماعي الذي يتوخاه الإسلام، ويحرص على تطبيقه. ف«المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»⁽¹⁾.

3- إنّ تخصيص إدارة الخمس بأيدي حكام الشرع لكونه الممثل الأعلى للسلطة التشريعية والتنفيذية هي أشبه بالميزانية الخاصة التي تتكفل برفع مستوى الأمة في تنفيذ كل ما يمت إلى رخاء الإنسان الفكري والمادي.

فمن محمد بن زيد الطبري قال: «كتب رجل من تجار فارس من بعض موالي أبي الحسن الرضا عليه السلام يسأله الأذن في الخمس، فكتب إليه:

(1) صحيح مسلم: ج 4 ص 1999 ح 2585، وصحيح البخاري: ج 1 ص 182 ح 467،
ومسند الإمام أحمد: ج 4 ص 404.

«بسم الله الرحمن الرحيم، إنّ الله واسع كريم، ضمن على العمل الثواب، وعلى الضيق الهمة، لا يجعل مال إلا من وجه أحله الله، إنّ الخمس عوننا على ديننا وعلى عيالاتنا وعلى أموالنا، وما نبذله ونشتري من أراضنا ممن نخاف سطوته، فلا تزووه عنا، ولا تحرموا أنفسكم دعاءنا ما قدرتم عليه، فإنّ إخراجها مفتاح رزقكم، وتمحيص ذنوبكم، وما تمهدون لأنفسكم ليوم فافتكم، والمسلم من يفى الله بما عهد إليه، وليس المسلم من أجاب باللسان وخالف بالقلب، والسلام»⁽¹⁾.

ثالثاً: الخمس على صعيد النفس:

أكدت الشريعة أنّ الصدقة وإنفاق المال في سبيل الله يطهران النفس من الشح والبخل، وسيطرة حب المال على مشاعر الإنسان، ويزكيه بتوليد مشاعر الموادة، والمشاركة في إقالة العثرات، ودفع حاجة المحتاجين.

وأشار إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾⁽²⁾.

فالخمس وقاية للتخلص من عقدة الشح، ومرض البخل، اللذين يحولان صاحبهما إلى كائن للذهب والفضة من دون أن يحس بما يعانیه أخوه المسلم من حرمان وشقاء.. حيث يتحول هذا الكنز إلى رمز صمني يكنّ له التقديس.

أما بالنسبة في: ما يجب الخمس؟ ومتى؟ وكيف يتم إخراجها؟

يجب الخمس في جميع الأموال التي تتعلق بها ملكية الفرد عدا أمور ضئيلة، سواء اكتسبها بجهد وعمله وكدحه، أو ملكها بلا جهد ولا مشقة.

فمن النوع الأول: ما يملكه الإنسان بإجارة نفسه، أو بالزراعة أو التجارة أو الحرب أو التنقيب والاستخراج.

(1) وسائل الشيعة: أبواب الأنفال ب 3 ح 2.

(2) التوبة: 103.

ومن النوع الثاني: ما يملكه بالهبة أو الوصية أو الميراث غير المتوقع.

كذلك يجب الخمس على الكافر الذمي في الأرض التي يشتريها من المسلم، كحالة استثنائية فرض فيها الخمس على هذا النوع من المعاملات، وعلى المال المختلط بالحرام من أجل تحليله وجواز التصرف فيه، وما يفضل عن المؤونة من أرباح المكاسب.

والذي يهمننا الكلام فيه بالنسبة لكثير من الناس من موظفين وغيرهم في فاضل المؤنة:

وهو الموضوع الأكثر أهمية في الخمس، وذلك نظراً لكثرة الابتلاء به وكثرة فروعه وتشعبها، ويُراد به تخميس ما يزيد ويفضل من الأرباح التي تدخل في ملك المكلّف على مدار العام بعد استثناء ما يصرفه منها في معاشه وحاجاته، بما فيها ما يصرفه من أجل الكسب والإنتاج، وكذا ما يصرفه في سداد ديونه، أو في شأن عبادي كالحج والخمس والكفارات، ونحو ذلك من ألوان الإنفاق المقبول شرعاً.

وتفصيل أحكامه في عناوين:

1 - الأرباح:

نريد بالأرباح ما يدخل في ملك المكلّف من أي سبب محلل كان، ولكنّ الخمس لا يجب في فاضل كل ربح منها، بل ميزت الشريعة بين تلك الأرباح فأوجبت الخمس في بعضها ولم توجهه في بعضها الآخر، أما ما يجب خمس فاضله من الأرباح فهو: فوائد ونتاج الحرف والصناعة والزراعة والتجارة والإجارة وحياسة المباحات، وكذا ما يستفيده مجاناً بدون جهد، كالهبة والهبة والمال الموصى له به، والميراث غير المتوقع، وعوائد الأوقاف، وما يأخذه الفقير من سهم السادة والزكاة والصدقات والكفارات ورد المظالم، أما سهم الإمام فإن أخذه المستحق بعنوان الفقر فزاد بعضه عن حاجته بعدما صار غنياً لم يملك هذا المقدار منه، وحينئذ لا يجب عليه خمسه، وإن أخذه بعنوان آخر غير الفقر، كالسهم الذي يعطى لطالب العلم أو المبلّغ أو المجاهد مثلاً، فإنّ الأخذ يملكه وعليه خمسه إن فضل منه شيء عن مؤنته.

وأما ما لا يجب الخمس فيه فهو أمور:

الأول: في المال الموروث المنتقل للوارث بعد الموت، فلا يشمل ما يتوهمه الناس ميراثاً مما يهبه الأب لأولاده حال حياته، ولا ما يوصي لهم به بعد موته من ثلثه الخاص به، بل الميراث المعفى من الخمس هو خصوص المال الذي ينتقل إلى الوارث بعد الموت مما تركه الميت ليوزع حسب الشريعة من أمواله التي سبق له تملكها في حياته، إلا أن يكون المال قد تعلق به الخمس عند مالكة قبل الموت، فيجب - حينئذ - على الورثة تخميسه قبل توزيعه إبراء لذمة الميت منه.

الثاني: مهر الزواج للمرأة، وكذا عوض الطلاق الخلعي الذي نعطيه المرأة للرجل ليطلقها.

الثالث: ما يجب تخميسه فوراً من الأرباح، وذلك كالمعدن والكنز، فإنه إذا خمسه المكلف وبقي عنده إلى آخر سنة الخمس دون أن يصرفه في مؤنته، لم يجب عليه تخميسه رغم طروء عنوان جديد عليه هو عنوان «فاضل المؤونة».

2 - المؤنة المستثناة من الأرباح أمران:

الأول: مؤنة تحصيل الربح، وهي كل مال يصرفه الإنسان في سبيل الحصول على الربح، كثمن أدوات العمل اللازمة لحرفته وصناعته وزراعته، من آلات وسيارات، ونحوهما، وكذا ما يطرأ عليها من نقص وما تحتاجه من صيانة ووقود وغيرهما، وكذا ما يبذل فيها من أجره النقل والمحاسبة والحراسة ومستودع التخزين ومحل العرض والبيع والضرائب ونحوها، فإن جميع هذه المصاريف تستثنى من الأرباح، سواء صرفت بين حين وآخر خلال سنة الإنتاج أو كان المطلوب دفعها في آخر السنة كمثل الضرائب والصيانة الدورية ونحوهما.

الثاني: مؤنة السنة: وهي كل ما يصرفه في سنته في معاش نفسه وعياله المناسب له، أو ما يصرفه في صدقاته وهداياهم وجوائزهم، أو ما يبذله في ضيافته أو في وفاء الحقوق الواجبة عليه بنذر أو كفارة أو أداء دين أو تعويض عن جنابة أو عما أثلفه عمداً أو خطأ، ويدخل في المؤنة ما يحتاج

إليه من سيارة وخادم وأثاث، ولو كان مما يعد زينة، كالرسوم والأزهار وطيور الزينة ونحوها، بل يدخل فيها ما ينفق لتزويج الأولاد وإسكانهم وتأمين مصالحيهم يعتاشون منها، وكذا يستثنى ما ينفق على الطاعات كاللحج وزيارة الأماكن المقدسة، واجباً كان ذلك أو مستحباً، وأمور أخرى كثيرة تختلف بين عصر وعصر، وبين مجتمع وآخر، والقاعدة فيها: كل مصرف متعارف له، سواء كان الصرف فيه على نحو الوجوب أو الإستحباب أو الكراهة أو الإباحة.

ولكن استثناء هذه المؤنة مشروط بكونها قد صرفت فعلاً، وتحقق البذل من أجلها من الأرباح، فلو تبرع له متبرع بنفقته كلها أو بعضها، أو أنه قتر على نفسه فوفر - مثلاً - ربح ما يصرفه سنوياً وبقي عنده مدخراً، لم يُعَفَ من دفع خمس هذا المبلغ، لأنه وفره من مؤنته أو تبرع به عنه متبرع، بل ما دامت هذه الأرباح لم تصرف فعلاً في حاجاته فهي زائدة عن المؤنة وواجبة التخميس. ومثل ذلك في الحكم ما كان قد أعده من مال للحج أو الزيارة فعدل عنه لعذر أو عصياناً، فإن ذلك المال يعد زائداً ويجب تخميسه إذا بقي إلى آخر السنة دون أن يصرفه في حاجة أخرى من حاجاته.

3 - فائدة اتخاذ رأس السنة في الخمس وكيفية:

قد يتكرر في الرسائل العملية تعبير (رأس السنة) أو (مرور السنة) كثيراً، فصار من الضروري بيان معنى ذلك وفائدته في عملية الخمس:

أولاً: إن المراد بهذا المصطلح هو مرور سنة منذ بداية ظهور الربح من إنتاج المكلف وكسبه، وهو أمر مهم من الناحية العملية في حصر وضبط المداخيل والنفقات، سواء ما كان منه للمؤنة أو للتجارة، من أجل معرفة مدى استكمال عملية الخمس لعناصرها وشروطها، وخاصة في خمس فاضل المؤنة.

هذا رغم أن الخمس - أساساً - يتعلق بالربح بمجرد ظهوره، ولكنه لما كانت مؤنة السنة مستثناة من هذا الربح، فإنه لن يظهر مقدار هذا المال المستثنى إلا بعد استهلاك الإنسان لمؤنته على مدار العام، لينكشف بعده الربح الباقي ومقدار الخمس الواجب دفعه فيه، فلو فرضنا أن إنساناً علم بأنه لن

بصرف شيئاً من هذا الربح في مؤنته فلا يبقى لانتظار نهاية السنة أهمية، وحينئذ فإنّ الأحوط استحباباً له دفع الخمس فوراً وترك تأجيله إلى آخر السنة؛ كما أنّه لو فرض أنّه ربح مالاً كثيراً في أول السنة، فإنّ له أن يعزل منه مقدار مؤنة سنته إذا كانت معروفة عنده تفصيلاً أو إجمالاً ويخمس الباقي.

ثانياً: إنّ لرأس السنة بداية طبيعية غير متوقفة على نية المكلف وإرادته له وتحديدته من قبله، وهي ظهور الربح عند أول عمل إنتاجي يشرع فيه المكلف، فيلحظ نهاية السنة عند حلول ذلك التاريخ من السنة التالية. وللمكلف أن يتدخل بذلك ويمدد يوماً خاصاً لرأس سنته يجعله في الوقت المناسب له، ولكنه لا بد له حينئذ من تخميس أرباحه التي اكتسبها ما بين بداية سنته الطبيعية وما بين التاريخ الجديد الذي حدده، والحكم نفسه يثبت فيها لو رغب بعد ذلك في تغييره مرة ثانية.

هذا، والمكلف مخير في اعتماد أي تقويم شاء، الهجري أو الميلادي أو غيرهما.

سؤال: بدايةً وبمناسبة عشرة عاشوراء أتقدم لكم بخالص العزاء سائلاً العلي القدير أن يلهمنا وإياكم - بمصاب الإمام الحسين عليه السلام - الصبر والسلوان وأن يثبتنا على السير بمنهجه القويم إنّه على كل شيء قدير، ثم أرحب بكم يا سماحة الشيخ في الديوانيات للحوار آملاً لجميع الأعضاء الاستفادة من تواجدكم..

يعلم فضيلتكم أنّ الأعضاء المشاركين في هذا المنتدى المبارك (الديوانيات للحوار) تختلف مستوياتهم الفكرية والثقافية وتوجهاتهم الدينية فضلاً عن أنّ الكثير منهم يُعد من الجيل الناشئ، ومنهم من يهدف إلى السوء - والعياذ بالله - أو النيل من شخصيات معينة بنشر مواضيع تسيء لهم مثلاً... الخ، في ظل هذا الوضع يعتقد الكثير من المشرفين في هذا المنتدى وغيره من المنتديات أنّ مهمتهم تقتصر على حذف المواضيع المخالفة فقط دون الانتباه إلى أنّ مسؤوليتهم عظيمة، ومطلوب منهم توجيه الأعضاء الوجهة

الصحيحة التي ترضي الله سبحانه وتعالى بما يتفق ومذهب أهل البيت عليهم السلام والهدف السامي الذي من أجله وعلى ضوءه تم إنشاء هذا المنتدى، ومن جهة أخرى يتنحى الكثير من القادرين على مهمة الاشراف عن هذه المهمة ضارين بهذه المسئولية عرض الحائط وتاركين الأعضاء يتخبطون في المنتديات دون توجيه وإرشاد..

سماحة العلامة الشيخ حسين المصطفى حفظه الله تعالى، بما أنني أحد المشرفين في هذا المنتدى أردت أن أستفيد من توجيهاتكم لي ولكافة المشرفين.. وفقكم الله تعالى لما فيه صلاح الأمة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جواب: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

علينا كأنا موحدين ومرتبطين بشريعة أساسها القرآن وتعاليم الإسلام المرتبطة بأقوال وأفعال وتقرير الرسول وأهل بيته عليهم السلام أن نكون بمستوى أداء المسئولية التي ينشدها لنا تلك التعاليم الخيرة.

وعندما نأتي إلى المبدأ في هذه الأمور، وكما لمست ذلك في أكثر من سؤال مطروح في هذا المنتدى الموقر، فلا بد من الرجوع إلى الأساس في هذا التعامل وهو تحذير الله لنا من خلال قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

ولنا وقفة في أجواء هذه الآية الكريمة:

أولاً: يؤكد القرآن كثيراً على وجوب نقاء الأجواء الإسلامية من التهمة والافتراء والبهتان والقول السيئ. والمسلمون مكلفون بوأد كل ما يسمعون عن إخوانهم وأخواتهم المؤمنات طالما لم يبلغ حد اليقين القطعي - لا بمجرد الظن والتصور - وأن لا يتناقلوه حتى بصورة «لقد سمعت» ما

(1) النور: 19.

دامت ليست فيه أية بينة شرعية، لأنّ نقل الكلام على هيئة «سمعت أنّ» هو نوع من إشاعته أيضاً.

والإسلام يرفض أي نوع من الإشاعة لمثل هذه الأقاويل والأخبار القذرة الدنيئة فقد جاء في الآية: ﴿وَاللّٰهُ يَعْزَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إنكم لا تعلمون مدى جسامة هذه الجريمة، وما تشتمل عليه هذه القضية من مفسد سلبية على أكثر من صعيد، مما يفرض الردع على كل المستويات، بحجم العقوبة المقررة لها.. فلا تقبل أية شهادة منهم، وإدانتهم بالفسق والفجور، وافتضاح أمرهم.

ثانياً: يريد الإسلام أن تتوطد أسس المجتمع الإسلامي على أساس الثقة المتبادلة وحسن الظن والقول الحسن، ولهذا السبب حرّم الغيبة إلى الحدّ الذي جعل القرآن الكريم يقول عنها: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾⁽¹⁾ وعلى هذا الأساس يؤكد القرآن بصيغ وأساليب شتى على هذه القضية، ومن جملة ذلك ما ورد في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللّٰهُ يَعْزَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

ثالثاً: أحد الذنوب الكبيرة التي توعد القرآن بالعذاب الأليم جزاءً لها هي إشاعة الفحشاء بين الناس. فهناك من يروج لإشاعة الفساد بين الناس لأغراض مادية أو لأطماع أخرى. وأكثر هذه الأغراض في عصرنا الحاضر أغراض استعمارية. يريدون إشاعة الفحشاء بين الناس لأنّه ما من شيء يضعف العزائم مثل شيوع الفساد والفحشاء.

إذا كنت ترمي إلى صرف شباب بلد ما عن القضايا الجادة والمصيرية وتلهيهم عن النشاط والعمل المثمر الذي يهدد مصالح القوى الاستعمارية، ما عليك إلا أن تشيع الفساد بمختلف أشكاله.

رابعاً: قول القرآن عمن يريد إشاعة الفاحشة لقتل هذه الروح

(1) الحجرات: 12.

(2) النور: 19.

الإنسانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد حددت الآية نوع العذاب الأليم للإشارة إلى أهمية وحساسية هذه القضية في الرؤية الإسلامية.

ونشير إلى أنّ حرف الجر (في) يأتي أحياناً بمعنى يشير إلى الظرف المكاني، وأحياناً بمعنى (بشأن) أو (فيما يخص). ويمكن تفسير الآية حينئذ على الوجهين وكلاهما صحيح. وبهذا يكون المعنى الثاني للآية هو: «الذين يجبون إشاعة الفاحشة عن أهل الإيمان»، أي ليس المراد: الذين يجبون إشاعة الفساد ذاته بين الذين آمنوا، بل أن تشيع تهمة الفساد بشأن الذين آمنوا، أي يساء إلى سمعتهم.

وفي الصحيح قال الإمام الباقر عليه السلام: «خطب رسول الله صلّى الله عليه وآله الناس فقال: ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: الذي يمنع رفته، ويضرب عبده، ويتزوّد وحده. فظنوا أنّ الله لم يخلق خلقاً هو شر من هذا.

ثم قال: ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: الذي لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره. فظنوا أنّ الله لم يخلق خلقاً هو شر من هذا.

ثم قال: ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: المتفحش اللعان الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم، وإذا ذكروه لعنوه»⁽¹⁾.

(1) الكافي: ج 2 ص 290.

وإلى هنا توقف الرسول، ومعنى هذا أنه لا يوجد من هو شر من هذا.

إذن فالمعنى الثاني للآية هو أنّ الذين يجبون أن تشيع الفاحشة بشأن الذين آمنوا لهم عذاب أليم.

خامساً: ثم يقول تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إنّ الكثير من الذنوب لا عذاب لها في الدنيا، ولكن لكل ذنب عقوبة في الآخرة. إلا أنّ ثمة ذنوب لا يتغاضى الله عن المعاقبة عليها حتى في دار الدنيا.

وأحد هذه الذنوب هو ذنب التهمة وهدر كرامة الآخرين. فمن يتهم الآخرين بالباطل سيقع هو في نفس هذا المأزق يوماً ما؛ فقد يأتي شخص مثله ويتهمه بالباطل، أو يفتضح أمره وتهدر كرامته بشكل أو بآخر.

﴿وَالله يَعلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إنّ الموضوع على قدر عظيم من الأهمية بحيث أنّ الله يعلم خطورته وأنتم لا تعلمونها.

سادساً: تساهم الإشاعات والكلمات اللامسؤولة في انحراف الفكرة والإحساس، وانحراف الخطوة والموقف، وتشكل خطوة تربوية سلبية، بدلاً مما يريده الإسلام للكلمات أن تتحرك فيه، بحيث تكون خطوة تربوية إيجابية، فإنّ الإنسان يتأثر بالمجتمع سلباً أو إيجاباً من خلال الفكرة التي يحملها عنه، أو من خلال الجو الذي يحتويه بفكره وروحه وحركته.

وقد يكون هذا هو السبب في تحريم الإسلام لتداول الحديث في الجو الاجتماعي العام عن الانحرافات الحقيقية التي تحدث في المجتمع بحيث تصبح تلك الانحرافات حديث الناس كلهم، لأنّ ذلك يחדس سلامة التصور الأخلاقي الذي يحتاجه الإنسان في عملية النمو الذاتي، بما يثيره من مشاعر سلبية منحرفة.

كما قد يسيء إلى سمعة الإنسان المنحرف الذي لا يريد الإسلام أن يتحول الخطأ عنده إلى عقدة مستحكمة بسبب خوض الناس فيه، بل يريد الإسلام أن يفسح له فرصة التحرك نحو التصحيح في خطوة تراجعية دون أن يفقد شيئاً من الإحساس بالكرامة، ما دام الخطأ حالة طارئة خفية عاشها، ويشعر بثقلها في داخله.

سابعاً: الإسلام يؤكد على:

1- احترام الفرد في خطئه، وحصر الخطأ في الدائرة الخاصة المتصلة بالمسؤولية، لينال جزاءه عليه، أو ليتراجع عنه.

2- احترام المجتمع في جوه العام، وإبعاد الأجواء الشريفة، وما يوحى بها من كلام وخطوات.

وقد ورد في الحديث الشريف عن الرسول الأكرم ﷺ: «من أذاع فاحشة كان كمبتدئها»⁽¹⁾.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾»⁽²⁾.

والذي يهمننا هو تحذير المجتمع من مغبة الوقوع في برائن الذين يختلفون الشائعات وينشرونها بين الناس، وأن نعلم الناس بأن يذفنوا الشائعة في موضع نشوئها.

يقول زين العابدين عليه السلام: «وألبسني زينة المتقين، في بسط العدل وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضم أهل الفُرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة...»⁽³⁾.

ويقول أيضاً: «اللهم اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكراً لعظمتك، وتفكراً في قدرتك، وتدبيراً على عدوك، وما أجرى على لساني من لفظة فحش، أو هجر، أو شتم عريض، أو شهادة باطل، أو اغتيال مؤمن غائب، أو سب حاضر وما أشبه ذلك نطقاً بالحمد لك، وإغراقاً في الثناء عليك، وذهاباً في تمجيدك، وشكراً لنعمتك، واعترافاً

(1) الكافي: ج 2 ص 356.

(2) الكافي: ج 2 ص 357.

(3) الصحيفة السجادية: دعاء مكارم الأخلاق.

بإحسانك، وإحصاءً لمنك»⁽¹⁾.

لذا علينا أن نتقي الله في أنفسنا وفي من حولنا، ولو أصبح لكل شخص أن يحاكم شخصاً على جريمة ارتكبها لعمت الفوضى، ولما رُخي ستر العدل على المجتمع، فقد حولنا عمل القضاة ومن إليهم الفصل في الدعاوى إلى تراشقات بألستنا في مجالسنا ودورنا فأعوذ بالله مما يفعله الجاهلون أو المستهترون أو الغافلون.

سؤال: مما لاشك فيه أنّ أجواء محرم هي أجواء تستدر العاطفه بالدرجة الأولى، وما لها من تأثير في الروح والوجدان، وهو المسوغ الذي أدى لخلودها من القرون الماضية والى وقتنا الحالي، وستبقى مستمره خالدة، وهذا هو الهدف من إعادة الأحداث التاريخية بما تحوي من جرائم بشعه من قتل ونهب وسلب وظلم وسبي.

ومن خلال هذا التأثير فإنّها تفتح العقول والإدراك للبحث والتنقيب عن الأهداف الحسينية الخالدة. وتزيد من روح الإصرار والتمسك بالقيم الإسلامية المتمثلة أهميتها في ثورة الأمام الحسين المدافعة عن الحق والرافعة لبيرق الولاية.

وهذا التمسك ينبع من خلال المفارقة بين الظالم المتمثل في جيش يزيد وأعوانه وبين المظلوم المتمثل في الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه رضوان الله عليهم. وما تميزوا به من إيثار وإقدام وشجاعة وصبر وعزة وإخلاص.

وخلاصة القول: إننا نعيش هذه الأجواء من خلال تفاعلنا في المجالس الحسينية بالعاطفة والعقل الواعي المنفتح، ومن خلال هذا التفاعل ترتفع الروح حماساً لتمسك بالقيم الإسلامية أكثر.

(1) م.ن.

وهنا يتوارد في ذهني سؤال: أين هو موقع أطفالنا في هذه المجالس الحسينية الناشرة لكل فضيلة، المتمثلة في صياغة الأحداث التاريخية وربطها بالفكر والعقل المدرك؛ لتحقيق التربية الحسينية المطلوبة. فالهدف من ثورة الإمام عليه السلام تربية الأجيال تربية حسينية قائمة على المبادئ الإسلامية الرفيعة.

من منطلق ما حدث مع الإمام عليه السلام وأهل بيته من ظلم وتشريد وقتل وتضحية حيث رخصت الأنفس في سبيل رفع راية الإسلام والدفاع عن الحق.

فهل مجالسنا الحسينية تناسب أطفالنا بما يتناسب مع وعيهم وإدراكهم؛ حيث إن التربية الحسينية يجب أن تكون منذ الصغر.. فأطفالنا باعتبارهم أهم شريحة في المجتمع وعليهم يقوم عماد المستقبل فإنهم معنيون بالدروس والعبر الحسينية. فما يتأسس عليه الطفل، ينطبع في شخصيته ويتحول إلى سلوكه بشكل طبيعي.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى أهمية التأديب منذ الصغر في قوله لولده الإمام الحسن عليه السلام: «وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل بك».

ما أريد قوله؛ لماذا لا توجد مجالس حسينية تناسب وعي الطفل وإدراكه ليشعر من خلال الاستماع بأنه معني أيضاً، وله دور كبير في المشاركة والعطاء في مثل هذه المجالس.

أعلم أن هذه الخطوة المباركة تبدأ بتلقين الطفل من البيت من خلال الأبوين والمجتمع الخاص المحيط به.. ولكن أين هو دور المجتمع العام المتمثل في المجالس الحسينية والفعاليات الحسينية بشكل عام، وأين هو موقع الطفل منها؟!!

ومتى سيكون للطفل دور في هذه المجالس؟ وكيف ومن أين نبدأ بهذه الخطوة؛ حيث إن المجالس الحسينية المعتادة تخاطب أذهان الكبار فقط.

أتمنى أن أكون قد تمكنت من إيصال الفكرة التي أريد. من خلال المشاركة بمرثياتكم ومقترحاتكم البناءة حول هذه الأطروحة، وأقدم التخصيص لسماحة الشيخ حسين المصطفى حفظه الله ورعاه لمعرفةنا بأرائه وتوجيهاته النيرة لا حرماننا الله هذا العطاء الثمير. مع خالص التمنيات لك بالتوفيق.

جواب: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أشكر لك اهتمامك البالغ بهموم تربيته لأبنائنا، وما يعيشه الأبناء من نقص روحي ومعنوي، سواء على صعيد المنزل أم على صعيد المسجد والحسينية.

ولكي نصل إلى تربية متكاملة، نطرح ثلاثة أمور:

1- من الأمور المفقودة في مجتمعنا لغة (التمرين)، ولا شك أن التمرين يحتاج إلى مؤازرة من الوالدين بالدرجة الأولى، وإلى الأقرب فالأقرب. وأقصد بالتمرين: تمرين الطفل على الطاعات:

فالطاعات وإن كانت سهلة ويسيرة إلا أنها تحتاج إلى تمرين وتدريب ينسجم مع القدرة على الأداء، والطفل يحتاج إلى عناية خاصة في التمرين والتدريب على الطاعات من أجل أن تذلل مشقتها عليه وأن يحدث الأنس بينه وبينها فتكون متفاعلة مع عواطفه وشعوره لكي تتحول إلى عادة ثابتة في حياته اليومية، يقدم عليها بشوق واندفاع ذاتيين دون ضغط أو إكراه أو كلل أو ملل.

ويبدأ المنهج التربوي الإسلامي في وضع قواعد أساسية تتناسب مع أعمار الأطفال للتمرين على الطاعات مع مراعاة القدرة العقلية والبدنية للأطفال، ففي التمرين على الصلاة قال رسول الله ﷺ: «مروا صبيانكم

بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين واضربوهم على تركها إذا بلغوا تسعاً»⁽¹⁾.

والمقصود من الضرب إما الضرب الحقيقي في حالة تمرد الأطفال أو استخدام الشدة النفسية، فإنها وإن كان لها ضرر سلبي على الطفل ولكنه ضرر وقتي سرعان ما ينتفي، ولا يمكن اعتباره ضرراً بالقياس إلى المصلحة الكبرى وهي التمرين على الصلاة.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أدب صغار أهل بيتك بلسانك على الصلاة والطهور، فإذا بلغوا عشر سنين فاضرب ولا تجاوز ثلاثاً»⁽²⁾.

والأفضل أن يكون التمرين غير شاق للطفل، لأنه يؤدي إلى النفور من الصلاة وخلق الحاجز النفسي بينه وبينها، فعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إنه كان يأخذ من عنده الصبيان بأن يصلوا الظهر والعصر في وقت واحد والمغرب والعشاء في وقت واحد، فقليل له في ذلك، فقال عليه السلام: «هو أخف عليهم وأجدر أن يسارعوا إليها ولا يضيعوها ولا يناموا عنها ولا يشتغلوا»، وكان لا يأخذهم بغير الصلاة المكتوبة، ويقول: «إذا أطاقوا فلا تؤخرونها عن المكتوبة»⁽³⁾.

ويبدأ التمرين على الصوم من العام السابع ويستمر بالتدرج كلما تقدم العمر مع مراعاة الطاقة والقدرة البدنية والاستعداد النفسي له، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إننا نأمر صبياننا بالصيام إذا كانوا بني سبع سنين بما أطاقوا من صيام اليوم، فإن كان إلى نصف النهار أو أكثر من ذلك أو أقل، فإذا غلبهم العطش والغرث أفطروا حتى يتعودوا الصوم ويطبقوه فمروا صبيانكم إذا كانوا أبناء تسع سنين بما أطاقوا من صيام فإذا غلبهم العطش أفطروا»⁽⁴⁾.

وعن سماعة قال: سألته عن الصبي متى يصوم؟

(1) بحار الأنوار: ج 85 ص 134.

(2) مجموعة ورام: ج 2 ص 155.

(3) بحار الأنوار: ج 85 ص 133.

(4) الكافي: ج 4 ص 124.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا قوي على الصيام»⁽¹⁾، فإذا تمرن على الصيام في السنوات السابقة لسن التكليف فإنه سيؤديه بآتم صورته ولا يجد في ذلك حرجاً.

وعن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام في كم يؤخذ الصبي بالصيام؟

قال عليه السلام: «ما بينه وبين خمس عشرة سنة وأربع عشرة سنة، فإن هو صام قبل ذلك فدعه، ولقد صام ابني فلان قبل ذلك فتركته»⁽²⁾.

ويستحب تمرين الطفل على الحج؛ فعن أحد الإمامين الباقر أو الصادق عليه السلام قال: «إذا حج الرجل بابنه وهو صغير فإنه يأمره أن يلبي ويغرض الحج، فإن لم يحسن أن يلبي لبي عنه، ويؤطاف به، ويصلى عنه».

قلت: ليس لهم ما يذبحون.

قال عليه السلام: «يذبح عن الصغار، ويصوم الكبار، ويتقى عليهم ما يتقى على المحرم من الثياب والطيب، فإن قتل صيداً فعلى أبيه»⁽³⁾.

وفي جواب للإمام جعفر الصادق عليه السلام عن سؤال حول الخوف على الصبي من البرد في حالة الإحرام قال: «ائت بهم العزج فيحرموا منها.. فإن خفت عليهم فائت بهم الجحفة»⁽⁴⁾.

وقال عليه السلام: «انظروا من كان معكم من الصبيان فقدموه إلى الجحفة، أو إلى بطن مر، ويصنع بهم ما يصنع بالمحرم، ويؤطاف بهم، ويرمى عنهم، ومن لا يجد منهم هدياً فليصم عنه وليه»⁽⁵⁾.

وكان الإمام علي بن الحسين عليه السلام يضع السكين في يد الصبي ثم

(1) الكافي: ج 4 ص 125.

(2) الكافي: ج 4 ص 125.

(3) الكافي: ج 4 ص 303.

(4) الكافي: ج 4 ص 303.

(5) الكافي: ج 4 ص 304، ومن لا يحضره الفقيه: ج 2 ص 434.

يقبض على يديه الرجل فيذبح⁽¹⁾.

ويستحب تمرين الطفل على عمل الخير كالصدقة على الفقراء والمساكين، يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «مر الصبي فليصدق بيده بالكسرة والقبضة والشيء وإن قل، فإن كل شيء يراد به الله وإن قل بعد أن تصدق النية فيه عظيم...»⁽²⁾.

وقال عليه السلام: «فمره أن يتصدق ولو بالكسرة من الخبز»⁽³⁾.

فتمرين الطفل على الصدقة من أفضل أساليب التربية على عدم الركون إلى الدنيا والتقليل من تأثير حب المال في نفس الطفل، وهو تمرين له على التعاطف مع الفقراء والمساكين.

2- كما ينقص عندنا شيء مهم في مجال تربيته ألا وهو موضوع المراقبة) حيث يحتاج الطفل في هذه المرحلة من أجل إنجاح العملية التربوية أن يقوم الوالدان بمراقبة الطفل سلوكياً وإرشاده إلى الاستقامة والصلاح، وكذلك مراقبة أفكاره وتصوراتهِ وعواطفه بالأسلوب الهادئ غير المشير له، وأن يتعامل الوالدان معه كأصدقاء لمساعدته في شق طريقه في الحياة.

ومراقبة سلوكه في المجتمع أكثر ضرورة منه في البيت، فيختار له الأصدقاء الصالحين، ويمنع من مسابرة الأصدقاء غير الصالحين، وتكون العقوبة أحياناً ضرورية إن لم ينفع الإرشاد والتوجيه، ويجب تمرين الطفل على محاسبة نفسه، وتقبل المحاسبة من قبل الآخرين، إضافة إلى ترسيخ مفهوم الرقابة الإلهية في أعماقه لتكون رادعاً له من الانحراف في حالة غياب المراقبة من قبل والديه.

والمراقبة من حيث الأساليب والوسائل متروكة للوالدين، كل حسب وعيه وتجربته في الحياة، وهما بحاجة إلى التعاون في هذا المجال، ومراقبة

(1) الكافي: ج 4 ص 304، ومن لا يحضره الفقيه: ج 2 ص 434..

(2) الكافي: ج 4 ص 4.

(3) الكافي: ج 4 ص 6.

الوالدة للطفل ذكراً كان أم أنثى أكثر ضرورة لانشغال الوالد غالباً بأعماله خارج المنزل.

ومن الضروري أن يشعر الطفل بأنه غير متروك من قبل والديه، وأتمها يحرصان عليه ويراقبان سلوكه، ويمكن للوالدين الاستعانة بغيرهما في المراقبة، كالاكتفاء على الأقارب والأصدقاء في المجالات الحياتية للطفل التي لا يدخلها الوالدان، كالمدرسة مثلاً وبعض تجمعات الأطفال، والتعاون في هذا المجال مثير جداً في تربية الطفل تربية صالحة، وإنقاذه من الانحراف الذي يمكن أن يطرأ عليه في حالة الغفلة والإهمال.

3- ربط الطفل بالقدوة الحسنة:

الطفل في الأعوام المتأخرة من هذه المرحلة يحاول التشبه بالأشخاص الأكثر حيوية والأشد فاعلية في المجتمع، ويطلق علماء النفس مفهوم المحاكاة للتعبير عن التشبه الفجائي السريع الذي ينتهي بانتهاج المؤثر، فهو تشبه آني ويطلقون عبارة الاقتباس على التشبه البطيء⁽¹⁾.. الذي يستحكم في العقل والعاطفة ومن مصاديقه التقليد والاقتداء، والنماذج العالية من الشخصية هي المؤثرة في التشبه، فأهل الكرامة وأهل القدوة يكرمهم الشعب ويجلهم وهم الذين «يقتدي بهم عامة الشعب»⁽²⁾.

والطفل غالباً ما يتشبه بمن لهم سلطان روحي ونفسي على الناس ومنهم الملوك والحكام، والفائزون والناجحون في الحياة، وكل من له تأثير على الناس كالمعلم وعالم الدين.

ويرى بعض علماء النفس الحاجة إلى تصور المثل الأعلى لدى كل إنسان وهي حاجة ضرورية⁽³⁾، والمثل الأعلى في رأي هؤلاء العلماء يختلف باختلاف الناس، ويتبدل بتبدل ظروفهم المادية والنفسية والاجتماعية، ويعتبرون المثل الأعلى متجسداً في القيم المعنوية والأهداف المتوخاة في

(1) علم الاجتماع، نقولا حداد: ص 86.

(2) م.س: 140.

(3) علم النفس، جميل صليبا: ص 728.

والمثل الأعلى بهذا المفهوم ضروري جداً لكل إنسان وخصوصاً الطفل في الأعوام المتأخرة من هذه المرحلة، ولكن المثل الأعلى إن لم يتحول من المفهوم إلى المصداق وإلى من تتجسد فيه قيم هذا المثل الأعلى يبقى محدوداً في حدود التصورات، فالطفل بحاجة إلى التشبه والافتداء بما هو ملموس في الواقع الموضوعي، وخير من يتجسد به المثل الأعلى هو النموذج الأعلى للشخصية الإنسانية.

والافتداء بالأسلاف أكثر من الافتداء بالطبقة العليا.

ومن هنا فالضرورة الحاكمة في الافتداء هي الافتداء بالسلف الصالح والأنبياء والأئمة من أهل البيت، والصالحين من الصحابة والتابعين، والماضين من علماء الدين، فهم قمم في الفضائل والمكارم والمواقف النبيلة، ومما يساعد على التشبه والافتداء بهم تأثيرهم الروحي على مختلف طبقات الناس الذين يكتون لهم التبجيل والتقديس.

ولذا ينبغي الاهتمام بزرع هذا النموذج في عقولهم، ولا يقتصر هذا على المشايخ، بل كل إنسان يستطيع أن يعمل على تكريس هذه الحالة، وهناك تجربة قام بها أحد الأقارب في المنطقة التي يعيش فيها. ما الذي قام به هذا الشخص؟

فتح بيته لقراءة حسينية وللقراءة في كل المناسبات، واستدعت زوجته خطيبة حسينية لها كفاءتها في طرح المواضيع المختلفة، وبالفعل استطاع هذا البيت أن يستقطب كثيراً من الفتيات الشابات والصغيرات، بحيث أنّ 80% من حضور هذا المجلس من المراهقات وصغيرات السن، وقد أصبح رافداً مهماً لهذا الجيل الطلائعي.

وهكذا الحال لو استطاع الرجال أن يفتحوا بيوتهم لقراءة حسينية هدفها استقطاب الأطفال والمراهقين مع الإيعاز لقارئ يحمل خبرة تربوية واجتماعية وبأسلوب شيق أو أسلوب عرض مختلف لا شك أنّ هذا سيؤثر على صعيد شبابنا ومراهقينا وأطفالنا.

نحتاج إلى من يتحمل المسؤولية، والمسؤولية للجميع لا يتخلف عنها شخص بل « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ».

وأختم حديثي بتوصية مهمة ينبغي تكريسها في حالة تربيته لأطفالنا: فما هي مفاتيح الاتصال مع الأبناء؟

قبل أية محاولة من جانبك لتغيير ابنك ابدأ بنفسك فتغيير سلوكك هو من القنوات الهامة للاتصال، وقد يكون التغيير مجدياً إذا التزمت بلاءات الثلاث: لا تلم - لا تنتقد - لا تتجاهل.

واعلم أنّ ابنك مدير نفسه فقد يسترسل معك في الحوار عن نفسه وقد يتوقف، لذا يجب أن تتقبل مزاجه المتقلب، واتبع أسلوباً آخر غير التعنيف أو الصراخ؛ كأن تخبر ابنك عن يومك كيف كان في غيابه في المدرسة وسيبدأ هو بدوره في الحديث أيضاً لو شاركته ذكريات طفولتك التي استفدت منها قد يشجعه ذلك على الحديث معك وحاول أن تباعد بين فترات النقاش الحاد في مشاكله.

وحبذا لو تشارك ابنك الضحك على بعض المواقف الحياتية السارة. كذلك استخدامك مع ابنك عبارات مثل أنا أشعر.. أو أنا أحب كذا.. أو يعجبني كذا.. سيسعره بقربك منه فأنت تعتبره صديقاً.

وأخيراً لا تفعل هذه الأمور:

- لا تلتق محاضرات في الأخلاق في غير مناسبة.
- لا تتحدث بصيغة المتكلم « يجب أن تفعل كذا.. لأنني أريد ».
- لا تتهم « أخبرني المعلم عنك... ».
- لا تتجاهل مشاعره وآراءه.
- لا تنس أن تعتذر عندما تخطئ أمامه.
- لا تنتقد، وتذكر كلما زاد انتقادك وتدمرك كلما أصر ابنك فيما لا تحب لذا عبر عن رأيك بهدوء.

سؤال: المرأة كالرجل لها حقوق اجتماعية ودينية تكفل الإسلام بحفظها ورعايتها، ونهى عن التعدي عليها او سلبها، ومن تلك الحقوق: التعلم، والمشاركة في بناء المجتمع واصلاحه وترسيخ القيم والمبادئ فيه.

ومن الأمور التي نستكشفها من الشرع أنه لم يحدد إطاراً معيناً من خلاله تتحرك المرأة في تعلمها وتحملها للمسؤولية تجاه نفسها ومجتمعها.

ونحن عندما ننظر إلى واقع المرأة في مجتمعنا نجدنا بعيدة كثيراً عن مسائل الدين والشرع، وذلك بسبب البعد عن مراكز التثقيف والتوعية الدينية، ولأن مراكز الشيعة الثقافية في بلدنا هي - في الأغلب - المسجد والحسينة، فسؤالي هو التالي:

بما أن المسجد هو من المراكز المهمة في عملية التثقيف والتعليم وله دور رائد في ترسيخ القيم والمبادئ الدينية بدءاً من صلاة الجماعة وما يتعلق بها من مسائل وانتهاءً بتعلمها جميع المسائل والعقائد الدينية وما تحتاجه لاصلاح اسرتها ومجتمعها، فلماذا هذا الإقصاء المتعمد والمجحف للمرأة من قبل كبار العلماء في منطقتنا! عن صلاة الجماعة، التي هي في حقيقتها خيط يربط المرأة بالمراكز الثقافية والتوجيهية؟

جواب: لقد عايشت المرأة في أكثر من موقع: في الدرس، وفي صلاة الجماعة، وفي مواسم الحج والتبليغ... ومن خلال ذلك كله أرى أنّ المرأة قد تقدمت خطوات (كباً) ولكنها لم تتقدم (كيفاً) بالمستوى المطلوب، وخاصة أنّ هناك انجرافاً لمتابعة ثقافة الصورة على حساب ثقافة الكتاب، وكم تلعب هذه الثقافة في الأذهان، بحيث شوهدت ثقافتنا وبعض عاداتنا الجميلة.

وربما أحد الله أن وفقني قبل أكثر من عشر سنوات من فتح باب صلاة الجماعة للمرأة وحضورها للمسجد مع ما منيت به من مصادمات عنيفة من قبل بعض الجماعات، ولكنني صمدت بالتوجه إلى الله تعالى وبالسكوت وعدم التعليق على ما يقال في مساجد ومجالس تلك الجماعات، وكان لذلك أثره بحيث تشجع أكثر من عالم دين بفتح مجال حضور المرأة للمسجد، وكسر طوق العادات البالية.

وقد قمت في أكثر من محاضرة في المسجد تارة، وفي المنتديات أخرى، وفي الحسينيات أخرى، وفي كتاباتي أيضاً بإفراغ الوسع في الحديث عن المرأة ودورها الإيجابي، وما ينبغي أن تصير عليه.

وأقول لنسائنا العزيزات إنَّ التغيير لا يكون إلا عن طريقهن، فنحن نرى أنَّ للمرأة تأثيراً على واقعنا من خلال لبسها وطريقة هندامها، فقد استطاعت أن تفرض بعض ظواهر الترف والإسفاف، أفلا تستطيع أن تفرض واقعاً ثقافياً مناهضاً، ينبغي على النساء الفاضلات أن يجاهدن في سبيل التنمية الصحيحة، وأن لا تفرض المسؤولية على الرجل فقط.

وينبغي أن نعترف أنَّ مجالس النساء تخلو من المسائل الجادة، كما أنَّ كثيراً من النساء المتدينات لا يحملن طموحاً ثقافياً وواقعياً، ولذا ينبغي من أخواتنا الكريهات أن يقمن علاقات ثقافية مع بعضهن البعض.

الذي أريد أن أقوله: عليكن المبادرة للتفكير الجاد في تنمية شؤونكن، وتنظيمها بشكل مدروس، والابتعاد عن الأجواء العاطفية أو السلبية الباهتة، فليكن رائدكن خدمة الدين.

وربما يكون الإنترنت وهذه المنتديات رافداً مهماً لأخواتنا، وخاصة الكاتبات والخطيبات منهن ومن لها حظ من التعليم أن يدلين بهموهمنَ ومحاولة إيجاد الحلول المرنة للخروج بأفكار ومقترحات.

سؤال: جاء في روايات أهل البيت عن كربلاء الحسين عليه السلام في أنَّ السماء قد بكت دماً على الحسين أربعين يوماً؛ هل أن هذا التعبير مادي أو معنوي؟ وما هي معانيه؟

الجواب: لقد وردت روايات كثيرة في هذا الصدد، ومنها ما هو معتبر:

منها: صحيحة عبد الخالق بن عبد ربه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾⁽¹⁾ الحسين بن علي لم يكن له من قبل سمياً، ويحيى بن زكريا لم يكن له من قبل سمياً، ولم تبك السماء إلا عليهما

(1) مريم: 7.

أربعين صباحاً.

قال: قلت: ما بكاؤها؟

قال عليه السلام: كانت تطلع حمراء و تغرب حمراء⁽¹⁾.

وقد فسرت هذه الرواية المراد من بكاء السماء، وهو معنى مجازي.

ومنها: صحيحة حنان بن سدير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما تقول في زيارة قبر الحسين بن علي عليه السلام فإنه بلغنا عن بعضهم أنها تعدل حجة وعمره؟!

قال عليه السلام: لا تعجب! ما أصاب من يقول هذا كله؟ ولكن زره ولا تجفه فإنه سيد شباب الشهداء وسيد شباب أهل الجنة وشبيه يحيى بن زكريا وعليهما بكت السماء والأرض⁽²⁾.

وقد أورد صاحب البحار أكثر من 40 رواية في بكاء السماء على الحسين.

سؤال: أرجو أن توضحوا لنا بشيء من التفصيل التركيب الاتحادي والانضمامي.

جواب: التركيب لا يخلو إما أن يكون تركيباً عقلياً من جنس وفصل، أو خارجياً من مادة وصورة، أو عقلياً من مادة وصورة.

والفرق بين هذه الأقسام اعتباري، وإلا فهي متحدة ذاتاً، فالجنس والفصل هما عين المادة والصورة.

فالجنس عين المادة إلا أنّ الجنس يمكن حمله على الفصل وعلى النوع، وأما المادة فلا تحمل على الفصل ولا على النوع.

والفصل عين الصورة إلا أنّ الفصل يمكن حمله على الجنس وعلى النوع، وأما الصورة فلا تحمل على الجنس ولا على النوع.

(1) بحار الأنوار: ج 45 ص 211 ح 22.

(2) م.ن: ح 27.

فنعندما ننضم الأجزاء فيما بينها - ولكنها لا تنفعل ولا تفعل - كالجيش، مثلاً، عندما يتركب من عشرة أفراد، فنقول بأنّ هذا التركيب هو تركيب اعتباري؛ لأنّ اجتماع أفراد الجيش اجتماع انضمامي، حيث إنّ الفرد لم يؤثر في الآخر ولم يتأثر به. فما هو إلا كوضع حجر صغير بجانب حجر صغير آخر وهكذا، فتسميته حينئذ (حجر كبير) إنّما هو اعتبار محض.

وأما الآخر فهو التركيب الاتحادي بحيث يؤلف هذا التركيب ماهية حقيقية لا ماهية اعتبارية.. ومعنى ذلك أنّ كل واحد من الأفراد ينفعل بالثاني ويفعل فيه. فإذا انفعل كل جزء في الجزء الآخر وفعل فيه فمعنى ذلك أنه غني والآخر فقير. فذات الجزء من طرف بحاجة لهذا الجزء، وهذا من طرف إغناء لذلك الجزء، وكذلك الجزء لا بد أن يفعل في هذا الجزء كما انفعل به. فلا بد أن يكون غني وفقير في كلا الطرفين، فهذا فقير للآخر، وهذا فقير للآخر، وكل واحد منهما يغني الآخر.

ونمثل مثلاً تقريبياً: عندما ننظر إلى التركيب من الجنس والفصل نقول: لا بد من فقر وغنى، أي لا بدّ أن يكون الجنس فقيراً إلى الفصل فالفصل يغنيه، وكذلك الفصل لا بدّ أن يكون فقيراً إلى الجنس فالجنس يغنيه ... فحقيقة الحيوان - مثلاً - ناقصة لأننا لا نستطيع إيجادها في الخارج، وكل شيء لا يمكن إيجاد دليل على أنّ فيه نقصاً، ولا شك أنّ الذي يكمل الجنس ويعطيه التمام والكمال هو الفصل، فحينئذ نعتبر الجنس - بهذا اللحاظ - فقيراً ويكون الفصل غنياً. وكذلك الحال بالنسبة للفصل فإنه لا يمكن أن يوجد في الخارج بدون جنسه، فلا توجد الناطقية بدون الحيوانية، فيكون الفصل حينئذ مفتقراً إلى الجنس في تحققه خارجاً.

تطبيقات:

1- فمثلاً في بحث اجتماع الأمر والنهي ربطه المحقق النائيني تتبت بنظرية تعدد الموجود حيث قال في مثال اجتماع الصلاة والغضب في صورة واحدة في الأرض المغصوبة: بأننا إن قلنا في مثال اجتماع الصلاة والغضب أنّ حيثية الغضب والصلاة حيثيتان تقيديتان، بمعنى أنّ الصلاة عمل

يرتبط بمقولة الوضع، والغضب حركة ترتبط بمقولة الأين، والأعراض أجناس عالية متباينة بتنام الذات، فالحركتان اجتماعتا على نحو التركيب الانضمامي لا الاتحادي، وبالتالي لا مانع من اجتماع الأمر والنهي لتعدد المتعلق، وإن قلنا بأن الحثيتين تعليلتان ومجتمعتان في هوية واحدة فالتركيب بينهما اتحادي - بحسب نظره - وبالتالي نقول بامتناع الاجتماع.

2- قولنا الجسم أبيض يعد إسناداً حقيقياً بنظر العرف والعقل، ولكن بحسب الدقة الفلسفية المبنية على تعدد الوجود للجوهر والعرض فالأبيض في الواقع هو البياض لا الجسم، وهذا الإسناد مجازي باعتبار ارتباط الوجودين خارجاً على نحو التركيب الاتحادي أو الانضمامي على الخلاف فيه، ومثله قولنا زيد موجود فإنه إسناد حقيقي بنظر العرف والعقل لكنه إسناد مجازي بنظر الفيلسوف المتأمل باعتبار القول بأصالة الوجود، فالموجود حقيقة هو الوجود وإنما ينسب للماهية ثانياً وبالعرض، إذن فالواسطة في هذه الأمثلة أخفى من الواسطة في الموردين السابقين لأنّ التنبه لها يحتاج لدقة فلسفية.

3- الحمل المجازي العقلي، أي ما يعد بنظر العرف حملاً حقيقياً وإن كان بنظر العقل حملاً مجازياً، لأنّ هذا الحمل مستند لواسطة في العروض ولكن لخباء هذه الواسطة عند العرف عده العرف حقيقياً ولجلائها عند العقل المتأمل كان الحمل مجازياً عنده، ومثال ذلك «الإنسان موجود»، فإنّ الموجود في الحقيقة هو الوجود لا الإنسان ولكن لأجل وجود واسطة خفية وهي كون الماهية حاداً للوجود صح حمل الموجود على الإنسان، فهو حمل حقيقي عرفاً لخباء الواسطة وحمل مجازي عقلاً لمعرفة الواسطة عند العقل.

ومثال ذلك أيضاً «الجسم أبيض»، فإنّ الأبيض في الواقع هو البياض لا الجسم لكن لوجود واسطة وهي تقوم وجود البياض بوجود الجسم، سواء فسرنا هذا التقوم بالتركيب الانضمامي، كما هو رأي بعض الفلاسفة، أم فسرناه بالتركيب الاتحادي، كما هو رأي البعض الآخر منهم، فهذا الحمل حقيقي عرفاً لخباء الواسطة مجازي عقلاً للعلم بها عند العقل.

إذن فهذا الحمل الشائع نحو «زيد قائم» واجد لكلا عنصريه، وهما

التغاير المفهومي والاتحاد الوجودي ولكن بنظر العرف لا بنظر العقل،
والوحدة الوجودية العرفية كافية في تصحيح الحمل الشائع.

4- في مورد التزاحم: تارة يكون لأجل اتفاق اتحاد متعلق الحكمين
في الوجود مع كونها متغايرين بالذات مختلفين في الهوية، بحيث يكون
الاتحاد بينهما من قبيل التركيب الانضمامي وعلى ذلك يبتني جواز اجتماع
الأمر والنهي ويندرج مورد تصادق متعلق الأمر والنهي في صغرى
التزاحم. وأما لو كان التركيب بين المتعلقين اتحادياً وكان أحد المتعلقين
متحداً مع الآخر بالهوية والذات ولو في الجملة وفي بعض الموارد، فلا
يكون من باب التزاحم، بل يندرج مورد تصادق متعلق الأمر والنهي في
صغرى التعارض - كتعارض العامين من وجه - وعلى ذلك يبتني امتناع
اجتماع الأمر والنهي، فإنه على هذا يكون الأمر بالصلاة والنهي عن
الغضب بعينه كالأمر بإكرام العالم والنهي عن إكرام الفاسق، ولا إشكال في
أنه في مورد تصادق العالم والفاسق يقع التعارض بين الدليلين، لأنه يلزم أن
يتعلق الأمر بعين ما تعلق به النهي.

سؤال: المتبادر من كلمة التصرف عند العرف ليس شيئاً واحداً
في جميع الأمور، أي أن التصرف في كل شيء بحسبه، فمثلاً التصرف
في الأرض غير التصرف في الملابس فإن التصرف في الثاني يحصل
بمجرد لبسه فضلاً عن تمزيقه أو خرقه أو ما شابه ذلك، ولكن
التصرف في الأرض يحصل بإحداث أو تخريب فيها أو انتقالها إلى
الغير دون مجرد الكون فيها، فهل التصرف الذي وقع الكلام فيه هو
التصرف بحسب العقل أم بنظر العرف؟

جواب: إن هذه العناوين إنما تؤخذ بالاستعمالات العرفية لها، إلا ما
جاء فيه نص خاص.

فإذا جئنا إلى مصطلح الاستطاعة فالاستعمال العرفي يأخذ بنا إلى أن المراد
به هو القدرة على الشيء، ومنه ما رواه محمد بن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام،
قال: سمعته يقول: « لا يكون العبد فاعلاً إلا وهو مستطيع وقد يكون مستطيعاً

غير فاعل، ولا يكون فاعلاً أبداً حتى يكون معه الاستطاعة»⁽¹⁾.

ولكن نلاحظ أنّ مصطلح الاستطاعة - في باب الحج - قد فسره الإمام عليه السلام بتحديدات خاصة لا يتوافق بعضها والاستعمال. كما جاء في رواية هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾⁽²⁾ ما يعني ذلك؟ قال: من كان صحيحاً في بدنه، مخلى سربه، له زاد وراحلة⁽³⁾.

سؤال: هل القائل بتحريف القرآن كافر؟

الجواب⁽⁴⁾: إنّ كل من قال بثبوت التحريف من علمائنا إنّما قاله لوجود بعض الروايات عندنا.

ونحن لا نتحاشى الاعتراف بوجود روايات قد تنم عن تحريف الكتاب في المجاميع الحديثية عند الشيعة الإمامية، كما هي في المجاميع الحديثية عند أبناء السنة. غير أنّ وجود مثل هذه الروايات الشاذة في كتب الحديث لا يعبر عن شيء من عقيدة صاحب الكتاب، فضلاً عن الطائفة التي ينتمي إليها صاحب الكتاب؛ لأنّ نقل الحديث لا ينم عن عقيدة ناقله، ولا سيما إذا كان له تأويل وجيه، كما هي الحالة في الأحاديث المنقولة عن كتب أصحابنا المعتمدين، مما ظنّ دلالتها على التحريف، أما النظر الدقيق فيأبى هذا الاحتمال.

على سبيل المثال: نسبوا إلى الكليني⁽⁵⁾ أنّه ممن يقول بالتحريف، لنقله روايات، قد يحسب القارئ لأول وهلة دلالتها على التحريف، في الكافي. وذكروا لذلك ما جاء في الباب (35) من كتاب الحجة، والذي عقده لبيان:

(1) التوحيد: ص 350 ح 13.

(2) آل عمران: 97.

(3) الكافي: ج 4 ص 267.

(4) لقد اعتمدنا في هذه الإجابة على: التمهيد لعلوم القرآن، للشيخ محمد هادي معرفة. والتحقيق في نفي التحريف، للسيد علي الميلاني.

(5) وقد نسه إليه الشيخ النوري في المقدمة الثالثة من فصل الخطاب ص 25.

أنّ علم القرآن كله ظاهره وباطنه عند الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ⁽¹⁾.

ويحتوي هذا الباب على ست روايات: الثانية والثالثة والرابعة والخامسة من هذه الروايات ضعيفة السند. والأولى مختلف فيها، وأما الأخيرة حسنة، حسب مصطلحهم في دراية الحديث ⁽²⁾.

وأما بالنسبة لأحاديث هذا الباب فهي كالتالي:

1- جاء في الحديث الأول: عن الباقر عليه السلام قال: «مَا ادَّعَى أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّهُ جَمَعَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ كَمَا أَنْزَلَ إِلَّا كَذَّابٌ وَمَا جَمَعَهُ وَحَفِظَهُ كَمَا نَزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَالْأَئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ عليهم السلام» ⁽³⁾.

أقول: هذا الجمع إشارة إلى مصحف علي عليه السلام حيث ألفه على ترتيب النزول تماماً، مشتملاً على بيان التنزيل والتأويل - على الهامش - ومن ثم قال محمد بن جُزَيِّ الكلبي: «ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير» ⁽⁴⁾.

2- والحديث الثاني أوضح هذا المعنى، حيث قال الباقر عليه السلام: «مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ عِنْدَهُ جَمِيعَ الْقُرْآنِ كُلِّهِ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، عَزِيزُ الْأَوْصِيَاءِ» ⁽⁵⁾.

3- وفي الحديث الثالث: قال الباقر عليه السلام: «إِنَّ مِنْ عِلْمٍ مَا أَوْتَيْنَا تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامَهُ» ⁽⁶⁾.

4- وفي الحديث الرابع: قال الصادق عليه السلام: «إِنِّي لِأَعْلَمُ كِتَابَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِهِ إِلَى آخِرِهِ كَأَنَّهُ فِي كَفِّي» ⁽⁷⁾.

(1) الكافي: ج 1 ص 229.

(2) مرآة العقول: ج 3 ص 30 - 34.

(3) الكافي: ج 1 ص 228.

(4) التسهيل لعلوم التنزيل: ج 1 ص 4.

(5) الكافي: ج 1 ص 228.

(6) الكافي: ج 1 ص 229.

(7) م. ن.

5- وفي الحديث الخامس: قال الصادق عليه السلام: «وَعِنْدَنَا وَاللَّهِ عِلْمُ الْكِتَابِ كُلِّهِ»⁽¹⁾.

6- وفي الحديث السادس: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾⁽²⁾ قال الباقر عليه السلام: «إِيَّانَا عَنِّي»⁽³⁾.

هذه هي كل أحاديث الباب التي رواها الكليني عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام دلالة على أنّ علم القرآن كله عند أئمة أهل البيت لا يدانيهم في ذلك غيرهم إطلاقاً.

فهل ترى فيها أي دلالة فيها على وقوع تحريف في القرآن، كما حسبه الشيخ النوري وأتباعه؟!

فما قدمناه من روايات تشتمل على أنّ علم القرآن كله ظاهره وباطنه عند الأئمة من أهل البيت عليهم السلام. وهذا المعنى لا يمس مسألة التحريف في شيء.

بعض الروايات المشكّلة:

نعم، أخرج الكليني بعض الروايات التي تحتاج إلى تفسير، وربما ظن البعض أنّها تدل على ثبوت التحريف، ومن هذه الروايات:

1- ما جاء في آخر باب النوادر من كتاب فضل القرآن، بإسناده إلى هشام بن سالم - أو هارون بن مسلم، كما في بعض النسخ - عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ جِبْرَائِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْعَةَ عَشَرَ آيَةً»⁽⁴⁾.

وهذا الحديث بهذه الصورة نادر غريب، لأنّ آيات القرآن لا تبلغ سبعة آلاف آية فكيف بسبعة عشر ألفاً؟! ومن ثم وقع شراح الكافي في

(1) م.ن

(2) الرعد: 43.

(3) الكافي: ج 1 ص 229.

(4) الكافي: ج 2 ص 634 ح 28.

مشكلة العلاج!

وقد جزم الشيخ أبو الحسن الشعراني - في تعليقه على شرح الكافي للمولى صالح المازندراني - بأن لفظه (عشر) من زيادة النساخ أو الرواة، والأصل: سبعة آلاف، عدداً تقريبياً ينطبق مع الواقع نوعاً ما⁽¹⁾.

هذا مع العلم بأن كتابة الألف والآلاف - في القديم - كانت متقاربة بلا ألف.

والدليل على صحة ما ذكره الشعراني ما جاء في كتاب الوافي للمولى محسن الفيض الكاشاني، وقد وضع كتابه على جمع أحاديث الكتب الأربعة: الكافي، والفقيه، والتهذيب، والاستبصار.

وعليه، فهذا الحديث عندما ينقله عن الكافي نراه بلفظ «.. سبعة آلاف آية» من غير تردد⁽²⁾ الأمر الذي يدل على أن نسخته كانت على ذلك من غير شك.

وقد اعترف النوري أيضاً باختلاف النسخة وأن بعض النسخ تشتمل على «سبعة آلاف»⁽³⁾.

وعلى أي تقدير، فالنسخة المشتملة على رقم سبعة عشر ألفاً غلط بلا ريب.

وهذا نظير ما روي عن عمر بن الخطاب، كان يزعم أن عدد حروف القرآن أكثر من مليون حرف.

فقد أخرج الطبراني بإسناده عن طريق محمد بن عبيد بن آدم عن عمر أنه قال: «القرآن ألف ألف حرف وسبعة وعشرون ألف حرف (1027000) فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين»⁽⁴⁾.

(1) شرح أصول الكافي، للمازندراني: ج 11 ص 76.

(2) الوافي: ج 9 ص 1781.

(3) فصل الخطاب: ص 236.

(4) الاتقان: ج 1 ص 198.

في حين أنّ حروف القرآن بالضبط - وفق المأثور عن ابن عباس - ثلاثمائة وثلاثة وعشرون ألف وستمائة وواحد وسبعون حرفاً (323671) وهو ثلث المأثور عن عمر: فيا ترى بماذا يوجه أبناء السنة هذا العدد الضخم المبالغ فيه من حروف القرآن، مأثوراً عن مثل الخليفة عمر بن الخطاب؟!

وهل له محمل سوى اشتباه أو خلط في الرواية أو النقل.

وهكذا فيما روي عن بعض نسخ الكافي حسبنا تكلمنا فيه.

2- والحديث الثالث: ما قاله الإمام الصادق عليه السلام: «وَإِنَّ عِنْدَنَا لَمُصْحَفَ فَاطِمَةَ عليها السلام وَمَا يُذَرِيهِمْ مَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ عليها السلام؟. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ عليها السلام؟ قَالَ: مُصْحَفٌ فِيهِ مِثْلُ قُرْآنِكُمْ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَاللَّهِ مَا فِيهِ مِنْ قُرْآنِكُمْ حَرْفٌ وَاحِدٌ. قَالَ: قُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ الْعِلْمُ، قَالَ: إِنَّهُ لَعِلْمٌ وَمَا هُوَ بِذَاكَ»⁽¹⁾.

ولا شك أن المصحف هنا بمعنى الصحف، ولعله تصحيف عنه. ولا غرابة في اشتغال صحيفة فاطمة عليها السلام على حِكْم ومواعظ وآداب وسنن ما يزيد على حجم القرآن بكثير.

والدليل على ذلك ذيل الحديث: «والله ما فيه من القرآن حرف واحد. قال الراوي: قلت: هذا والله العلم. قال: إنه لعلم وما هو بذاك».

إذن فالصحيفة تشتمل على غير القرآن، لا أنها قرآن وزيادة، كما زعم الزاعم!

قال العلامة المجلسي: «الظاهر أنّ مصحفها يشتمل على الأخبار فقط»⁽²⁾.

3- وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: «قَالَ دَفَعَ إِلَيَّ أَبُو الْحَسَنِ

(1) الكافي: ج 1 ص 239.

(2) مرآة العقول: ج 3 ص 56.

ﷺ مُضْحَفًا وَقَالَ: لَا تَنْظُرْ فِيهِ، فَفَتَحْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيهِ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽¹⁾ فَوَجَدْتُ فِيهَا اسْمَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ قَالَ فَبَعَثَ إِلَيَّ ابْعَثْ إِلَيَّ بِالْمُضْحَفِ»⁽²⁾.

قوله: فوجدت فيه أي في المصحف - على الهامش طبعاً - إذ لم يقل فيها أي في السورة.. ولعله كان عند قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾⁽³⁾ تفسيراً وتعييناً للمعنيين بها من الكفار حينذاك.

وهكذا ذكر شرح الحديث أيضاً.

4- تفاسير مدرجة ضمن تلاوة الآية، كما كان عليه السلف الصالح، حيث كان مأموناً من الاشتباه والخلط. وهو كثير ماثور عن ابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما من الأصحاب الكبار، وهكذا عن الأئمة الأطهار عليهم السلام.

مثلاً: قول الإمام الصادق عليه السلام: فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي وِلَايَةِ عَلِيِّ وَوِلَايَةِ الْأَيْمَةِ مِنْ بَعْدِهِ ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾⁽⁴⁾ هَكَذَا نَزَلَتْ،⁽⁵⁾.

وقوله: هكذا نزلت، قال الشراح: أي بهذا المعنى؛ قال المولى محسن الفيض: «وهكذا في نظائره»⁽⁶⁾.

وهذا نظير ما ورد عن ابن مسعود، كان يقرأ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾⁽⁷⁾.

وقرأ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَهُوَ أَبُو لَهُمْ، وَأَزْوَاجُهُ

(1) البينة: 1.

(2) الكافي: ج 2 ص 631.

(3) البينة: 1.

(4) الأحزاب: 71.

(5) الكافي: ج 1 ص 414.

(6) الروافي: ج 3 ص 885.

(7) الكشاف: ج 1 ص 255.

وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، أَنْ عَلِيًّا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (٢).

وغيرهن من آيات، أدرج التفسير ضمن الآية؛ وقد شرحها العلامة الحجة الشيخ محمد هادي معرفة^(٣) في كتابه بها لا مزيد عليه.

الأخباريون ومحنة الطائفة:

قال بعض الأفاضل أثناء كلامه في ترسيم دور الحديث عند الشيعة:

كان علماءنا منذ زمن حضور الحجة عليه السلام وفي زمن الغيبة، على طريقتين في الاتجاه الأصولي وفي استنباط مباني شريعة الإسلام:

1- الطريقة الأول: أهل نظر وتحقيق، وهم المجتهدون.

2- الطريقة الثانية: أهل نقل وتحديث، وهم المحدثون.

ويختلف المحدثون عن المجتهدين بالاعتماد على النقل أكثر من العقل، ولا سيما في مسائل الأصول، حيث لا حجية لأخبار الآحاد هناك عند المجتهدين.

وقد كان لأهل الحديث أساليب معروفة بالإتقان والإحكام في الأخذ والتلقي والتحديث في أسانيد الروايات وفي متونها، عرضاً ومقابلة مع الأصول المعتمدة.

وعلى هذا الأسلوب الروائي المتقن دونت الأصول الأربعة الجامعة لأحاديث أهل البيت عليهم السلام مأخوذة من مشايخ أجلاء وعن كتب ذوات اعتبار. وقد سادت طريقة الإتقان في النقل والتحديث حقبة من الزمان،

(1) الكشاف: ج 2 ص 523.

(2) الدر المنثور: ج 2 ص 298.

(3) التمهيد: ج 1 ص 259 - 263.

وانتهت بدور العلمين: الشيخ الحرّ العاملي (1033 - 1104) صاحب الوسائل، والمولى محسن الفيض الكاشاني (1007 - 1082) صاحب الوافي.

وبعد هذا الدور يأتي دور الانحطاط والاسترسال في نقل الحديث وفي رواية الأخبار، وأصبح أهل الحديث منذ القرن الحادي عشر مجرد نَقْلَة الآثار وحفظة الأخبار، من غير اكتراث لا بالأسانيد ولا بصحة المتون. فقد زالت الثقة بأحاديث ينقلها هؤلاء الأخباريون المسترسلون، بعد انتهاء دور المحدثين المتقنين فنلاحظهم:

أولاً: قد اهتموا بضخامة الحجم أكثر من الدقة في النقل، ومن ثم لم يأبهوا بمن يأخذون وعلى أي مصدر يعتمدون. إنما المهم عندهم حشد الحقايب وملء الدفاتر بنقول وحكايات هي أشبه بقصص القصاصين وأساطير بني إسرائيل.

ثانياً: ومن ثم واكبوا إخوانهم الحشوية الذين سبقوهم في هذا المضمار، وساروا على منهجهم في الابتذال والاسترسال.

فإن كانت محنة أهل السنة قد جاءتهم من قبل أهل الحشو في الحديث، فكذلك جاءتنا البلية من قبل هؤلاء الأخباريين المسترسلين.

وأول من طرح مسألة التحريف على منصة البحث والتدليل عليه، هو عميدهم السيد نعمة الله الجزائري (ت 1112) في كتابه (منبع الحياة) وضعه لتقويض دعائم أصول التحقيق في مباني الشريعة الغراء. وانطلقت وراءه مجموعات غير عميقة الرأي، وأخيراً رائدهم الشيخ النوري (ت 1320) في كتابه (فصل الخطاب) الذي وضعه نقضاً لدلائل الكتاب ونفي حججته القاطعة الثابتة عند أهل الصواب.

آراء جماعة العلماء:

وإذ قد وقفت على هذا التفصيل من جماعة علماء الشيعة، فاعلم أنهم - بأسرهم سواء المحققون والمحدثون - أجمعوا على رفض احتمال التحريف في كتاب الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ

وإليك سرد أسماء من صرح بنفي التحريف وكان من أعلام الطائفة بالذات:

1- الشيخ محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت: 318 هـ). فقد عد رفض التحريف من ضرورات المذهب الاعتقادية للشيعة.

2- الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت: 413 هـ). صرح بذلك في كتابه (أوائل المقالات). وبينه بتفصيل في أجوبة المسائل السروية.

3- الشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين (ت: 436 هـ). أكد القول في ذلك وشنع على القائلين بالتحريف من الحشوية والأخبارية، في أجوبة المسائل الطرابلسيات.

4- شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: 460 هـ). عد احتمال شبهة التحريف واهياً مجمعاً على بطلانه.

5- أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: 548 هـ). قال: أما الزيادة فمجمع على بطلانها. وأما القول بالنقيصة فالصحيح من مذهب أصحابنا الإمامية خلافه.

6- جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف، ابن المطهر الحلي (ت: 726 هـ). جعل القول بالتحريف متنافياً مع ضرورة تواتر القرآن بين المسلمين.

7- المولى المحقق أحمد الأردبيلي (ت: 993 هـ). جعل العلم بنفي التحريف ضرورياً من المذهب.

8- الشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء (ت: 1228 هـ). كذلك جعله من ضرورة المذهب بل الدين وإجماع المسلمين وأخبار النبي والأئمة الطاهرين.

9- الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء (ت: 1373 هـ). جعل رفض احتمال التحريف أصلاً من أصول الشيعة.

10- الشيخ البهائي، محمد الحسين الحارثي العاملي (ت: 1031 هـ).

11- المولى محمد بن المحسن الفيض الكاشاني (ت: 1090 هـ) فصل البيان في رد مزعومة التحريف تفصيلاً شافياً، في مقدمة تفسيره الصافي (ج 1 ص 33 - 34). وفي كتابه الوافي (ج 2 ص 273 - 274). وأكمل الاستدلال عليه في كتابه الذي وضعه لبيان أصول الدين والكلام عن إعجاز القرآن الكريم.

12- محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت: 1104 هـ) في رسالة كتبها ردّاً على سفاسف بعض معاصريه.

13- المولى المحقق التبريزي (ت: 1307 هـ) في تعليقه التفصيلية على رسائل الشيخ مرتضى الأنصاري في الأصول، مما ينبؤك عن رأي شيخه المحقق بلا ريب.

14- الشيخ محمد الجواد الحجة البلاغي (ت: 1352 هـ)، شيخ أهل التفسير والتحقيق في العصر الأخير. والذي برأ ساحة الشيعة الإمامية من هذه التهمة بكل جد وصرامة تحقيق.

15- المحقق البغدادي السيد محسن الأعرجي (ت: 1227 هـ). له في شرح الوافية كلام واف بإثبات صيانة القرآن من التحريف.

16- المحقق الكركي الشيخ عبد العالي (ت: 940 هـ). له رسالة في نفي التحريف.

17- الإمام السيد شرف الدين العاملي (ت: 1381 هـ). استوعب البحث عن ذلك.

18- السيد محسن الأمين العاملي (ت: 1371 هـ). له رد لطيف على نسبة القول بالتحريف إلى الشيعة الإمامية الأبرياء.

19- العلامة الأميني صاحب كتاب (الغدير) (ت: 1390).

20- العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان (ت: 1402هـ). له بحث واف بإثبات صيانة القرآن من التحريف.

21- الإمام الراحل الخميني (ت: 1409هـ) في تقريراته الأصولية.

22- السيد الخوئي (ت: 1413هـ) الذي استوفى البحث عن ذلك.

هؤلاء هم أعلام الأمة، ممن دارت بهم رحى الشريعة، وقويت أركان الدين الحنيف. وقد عرفت إطباقهم، من مجتهدين ومحدثين، على رفض شبهة التحريف عن كتاب الله العزيز الحميد.

بعض من ذهب إلى القول بالتحريف:

1- صاحب تفسير (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) مجهول أصل الكتاب ومؤلفه!

وعلى أي تقدير، فإنّ هذا الكتاب نموذج آخر من كتب الأخباريين المسترسلين غير المعروفين، أمثال كتب الجزائري والنوري من المتأخرين غير الملتزمين بطريقة الشيعة الإمامية المجتهدين والمحدثين.

2- السيد عبدالله شبر، فهو من أعلام المحدثين في القرن الثالث عشر (ت: 1242هـ) كان يرى رأي أصحابه الأخباريين، وكانت عبارته عند تفسير الآية 9 من سورة الحجر: «وإنّا له لحافظون، عند أهل الذكر.. أو في اللوح.. وقيل: الضمير للنبي»⁽¹⁾. واردة وفق المأثور عندهم. الأمر الذي لا يأخذ به سائر أعلام الإمامية ولا سيما القدامى منهم والمحققين المجتهدين إطلاقاً.

4- السلطان محمد الخراساني، صاحب كتاب (بيان السعادة في مقامات العبادة) (1311هـ).. فهو قطب صوفي زعيم الفرقة (النعمة اللهيّة) الملقب في الطريقة بـ(سلطان علي شاه).

(1) تفسير شبر: ص 266.

5- الشيخ حسين النوري صاحب كتاب (فصل الخطاب) (1320هـ) والذي حاول فيه إثبات تحريف الكتاب.

إن أمثال هؤلاء الشواذ لا يؤخذ بشيء من أقوالهم وأقلامهم ما دامت حائدة عن طريقة العقل الرشيد، وقد نبذت آراءهم الأمة في أي صقع من الأصقاع كانوا وفي أي حقب من حقب التاريخ عاشوا.

فإذا علمت هذا، فاعلم أنه قد زعم بعضهم سكوت الشيعة المعاصرين عن أخطاء علمائهم السابقين، بل ومحاولة الدفاع عن تلك الأخطاء التي توجب الكفر كروايات شبهة التحريف أو من ذهب إلى القول بالتحريف.. متسائلاً: أهناك مجال للشك في تكفير من يروي التحريف، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁽¹⁾!

أقول: إن تدارك الخطأ - ما لم يكن عن عمد - في أي كتاب من كتب التراث عند جميع المسلمين بشتى مذاهبهم لا يتم بتكفير مؤلفه، وإنما يكتب في ذلك بالتنبيه على الخطأ أو يتجنب.

وأما لو كان ذلك الخطأ عن عمد من مؤلفه، فالأمر مختلف، كل بحسب نوعية الخطأ وحجمه ومقدار تأثيره، وفي كل ذلك تفصيل.

فلو فرض أن ذلك الخطأ مما يستلزم الردة، وعلم صاحبه بهذا وأصر عليه، فحكمه هنا ليس كحكم ردة المخطئ، والغافل، والساهي، والمكروه وإن لم يكن في الواقع كذلك لكنه ادعاه فيقبل منه ولا يحكم بردته ولا يراق دمه.

وذلك للأصل الثابت عند جميع المسلمين في رفع حكم هذه الأشياء كلها، أعني: قوله ﷺ في الحديث المشهور: «رفع عن أمتي تسعة أشياء: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة»⁽²⁾.

(1) الحجر: 9.

(2) التوحيد: ص 353 ح 24، والخصال: ج 2 ص 417 ح 9 باب التسعة، ومن لا يحضره الفقيه: ج 1 ص 36 ح 132، والوسائل: ج 15 ص 369 ح 20769.

وقد صرح فقهاء السنة ومفسروهم بأن الإكراه إذا وقع على فروع الشريعة لا يؤخذ المكروه بشيء محتجين بحديث الرفع⁽¹⁾.

هذا ما لم يثبت العكس، فإن ثبت فينظر في إسلام المرء قبل رده، هل كان عن فطرة، حتى يقتل من دون استتابة؟؛ لحديث: «من بدل دينه فاقتلوه»⁽²⁾. أم عن ملة فيستتاب؟ فإن تاب فهو، وإلا فالقتل بعد اليأس منه.

وعلى أية حال فإن من يزعم نفي الشك في تكفير العلماء لمجرد فرض تحقق قولهم بشبهة تحريف القرآن الكريم، قد أثبت لنا جهله بما لا مزيد عليه، فهو لم يكن له سابق عهد لا بالقرآن الكريم، ولا بفقهاء المسلمين، ولا بكتب الحديث، ولا بسيرة أرباب المذاهب وعلماء الإسلام في التعامل مع الفرض المذكور، فلا جرم عليه إذن فيما زعم، للأصل المذكور، أعني: حديث رفع التسعة، ومنها «ما لا يعلمون».

سؤال: هل هناك أدلة نقلية تدل على سلامة القرآن من التحريف؟ وهل يمكن الاستدلال بالأدلة النقلية على سلامة القرآن من التحريف؟

جواب: هناك الكثير من الأدلة النقلية الدالة على سلامة القرآن من التحريف، ولا ريب أنّ بها يثبت المراد المنشود، ونقسم الأدلة النقلية إلى جهتين:

الجهة الأولى: آيات من القرآن الكريم:

إنّ في القرآن الكريم آيات تدل بوضوح على صيانتها من كل تحريف، وحفظه من كل تلاعب، بل ينفي كل أشكال التصرف فيه، ويعلن بصورة واضحة وجلية على أنّه لن يصيبه ما يشينه ويحط من كرامته إلى الأبد، ومن تلك الآيات:

(1) أحكام القرآن، لابن العربي: ج 3 ص 1177 - 1182.
(2) سنن الترمذي: ج 4 ص 59 ح 1458، ومصنف ابن أبي شيبة: ج 5 ص 563 ح 28992، وصحيح البخاري: ج 3 ص 1098 ح 2854.

1- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿﴾⁽¹⁾.

إذا كان القرآن الكريم موصوف بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أظهر مصاديق الباطل هو وقوع النقصان والزيادة فيه، فهو مصون من قبل الله تعالى عن النقصان والزيادة منذ نزوله وإلى يوم القيامة.

2- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿﴾⁽²⁾.

والمراد من الذكر هنا هو القرآن العظيم، فالله سبحانه أنزله على نبيه الكريم، وتعهده بحفظه، منذ نزوله إلى الأبد، من كل ما يتنافى وكونه منهاجاً خالداً في الحياة ودستوراً عاماً للبشرية جمعاء، ومن الواضح أنّ من أهم ما يتنافى وشأن القرآن العظيم وقديسيته الفذة ووقوع التحريف فيه وضياح شيء منه على الناس، ونقصانه عما أنزله عز وجل على نبيه ﷺ.

3- قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَجَ بِهِ ﴿﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ ﴿﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿﴾⁽³⁾.

عن ابن عباس وغيره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿﴾ إِنَّ المعنى: إنّ علينا جمعه وقرآنه عليك حتى تحفظه ويمكنك تلاوته، فلا تخف فوت شيء منه⁽⁴⁾.

الجهة الثانية: الأحاديث الواردة عن النبي وأهل بيته عليهم السلام:

لو رجعنا إلى السنة الشريفة لوجدنا الأحاديث الكثيرة الدالة بأقسامها العديدة على أنّ القرآن الكريم الموجود بين أيدينا هو ما أنزل على

(1) فصلت: 40 - 42.

(2) الحجر: 9.

(3) القيامة: 16 - 19.

(4) مجمع البيان: ج 5 ص 397.

والتمست شواهدا من التنزيل، فوجد لها موافقاً وعليه دليلاً، كان الإقتداء بها فرضاً لا يتعداه إلا أهل العناد...»⁽¹⁾.

- معتبرة عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه...»⁽²⁾.

- مقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... ينظر فما وافق حكمه حكم الكتاب والسنة، وخالف العامة فيؤخذ به، ويترك ما خالف الكتاب والسنة ووافق العامة»⁽³⁾.

إنّ هذه الأحاديث ونحوها تدل على أنّ القرآن الموجود بين أيدينا هو نفس ما أنزله الله عز وجل على النبي ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان، لأنّه لو لم يكن كذلك لم يمكن أن يكون القرآن مرجعاً للمسلمين يعرضون عليه الأحاديث التي تصل إليهم عن النبي ﷺ، فيعرف بذلك الصحيح ويؤخذ به، والسقيم فيعرض عنه ويترك.

القسم الثاني: خطبة الغدير:

أمر النبي ﷺ في هذه الخطبة بتدبر القرآن والرجوع في تفسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال ﷺ: «معاشر الناس تدبروا القرآن، وافهموا آياته وانظروا إلى محكماته، ولا تتبعوا متشابهه، فوالله لن يبين لكم زواجه ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذ بيده ومصعده إلي وشائل بعضه ومعلمكم أنّ: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن أبي طالب أخي ووصيي، ومولاته من الله عز وجل أنزلها علي»⁽⁴⁾.

فإنّ أمر المسلمين بتدبر القرآن وفهم آياته والأخذ بمحكماته دون متشابهاته يستلزم أن يكون القرآن مؤلفاً مجموعاً موجوداً في متناول أيديهم،

(1) تحف العقول: ص 343.

(2) وسائل الشيعة: أبواب صفات القاضي ب 9 ح 29.

(3) وسائل الشيعة: أبواب صفات القاضي ب 9 ح 1.

(4) الاحتجاج: ج 1 ص 60.

بمحكماته ومتشابهاته، غير أنهم مأمورون - للوقوف على أحكامه التفصيلية وأسراره ودقائقه التي لا تبلغها العقول - بالرجوع إلى خليفته ووصية أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين من ولده عليه السلام.

القسم الثالث: حديث الثقلين:

نواتر عن النبي صلى الله عليه وآله حديث الثقلين الذي رواه جمهور علماء المسلمين بأسانيد متكثرة متواترة، وألفاظ مختلفة متنوعة، عن أكثر من ثلاثين صحابي وصحابية، وأحد ألفاظه: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً».

وهذا يقتضي أن يكون القرآن الكريم مدوناً في عهده صلى الله عليه وآله بجميع آياته وسوره حتى يصح إطلاق اسم الكتاب عليه، ولذلك تكرر ذكر الكتاب في غير واحد من سوره الشريفة.

كما أنه يقتضي بقاء القرآن كما كان عليه، على عهده صلى الله عليه وآله، إلى يوم القيامة، لتتم به - الهداية الأبوية للامة الإسلامية والبشرية جمعاء، ما داموا متمسكين بهما، كما ينص عليه الحديث الشريف بألفاظه وطرقه، وإلا لزم القول بعدم علمه صلى الله عليه وآله بما سيكون في أمته، أو إخلاله بالنصح التام لأمته، وهذا لا يقول به أحد من المسلمين.

القسم الرابع: الأحاديث الواردة في ثواب قراءة السور في الصلاة وغيرها:

لقد وردت طائفة من الأحاديث في فضيلة قراءة سور القرآن الكريم في الصلوات وغيرها، وثواب ختم القرآن وتلاوته في شهر رمضان وغير ذلك، فلولا أن سور القرآن وآياته مجموعة مؤلفة ومعلومة لدى المسلمين لما تم أمرهم بذلك، ولو كان قد تطرق النقصان في ألفاظ القرآن لم يبق مجال للاعتماد على شيء من تلك الأحاديث والعمل بها من أجل الحصول على ما تفيده من الأجر والثواب، لاحتمال أن تكون كل سورة أو كل آية محرفة عما كانت نازلة عليه، ومن تلك الأحاديث:

- ما رواه سعد بن طريف عن الإمام الباقر عن أبيه عن جده عن

رسول الله ﷺ: «من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كتب من الذاكرين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كتب له قنطار»⁽¹⁾.

- عن أبي عبيدة الحذاء عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين وقل هو الله أحد، قيل له: يا عبد الله أبشر فقد قبل الله وترك»⁽²⁾.

- عن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «...وعليكم بتلاوة القرآن، فإن درجات الجنة على عدد آيات القرآن، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن إقرأ وارق، فكلما قرأ آية رقى درجة...»⁽³⁾.

- وقول الإمام الباقر عليه السلام: «من ختم القرآن بمكة من جمعة إلى جمعة وأقل من ذلك وأكثر، وختمه يوم الجمعة، كتب الله له من الأجر والحسنات من أول جمعة كانت إلى آخر جمعة تكون فيها، وإن ختمه في سائر الأيام فكذلك»⁽⁴⁾.

إلى غير ذلك من الأحاديث وما أكثرها، وقد ذكر الفقهاء تفصيل ما يستحب أن يقرأ في الصلوات الخمس من سور القرآن⁽⁵⁾.

كما روى الشيخ الصدوق رحمته الله ثواب قراءة كل سورة من القرآن بحسب الأحاديث الواردة عن الأئمة عليهم السلام⁽⁶⁾.

وبهذا القسم من الأحاديث استدل بعض أكابر الإمامية كالشيخ الصدوق على ما ذهب إليه من عدم تحريف القرآن⁽⁷⁾.

(1) الكافي: ج 2 ص 612 ح 5.

(2) أمالي الشيخ الصدوق: ص 60 ح 8.

(3) م.س: ص 359 ح 10.

(4) ثواب الأعمال: ص 125.

(5) جواهر الكلام: ج 9 ص 400 - 416.

(6) ثواب الأعمال: ص 130 - 158.

(7) الاعتقادات، للصدوق: ص 93.

القسم الخامس: الأحاديث التي تأمرنا بالرجوع إلى القرآن الكريم واستنطاقه:
وهي كثيرة جداً، نكتفي هنا منها بما جاء في كتب وخطب أمير
المؤمنين عليه السلام.

قال عليه السلام في خطبة له ينبه فيها على فضل الرسول والقرآن: «أرسله على
حين فترّة من الرُّسل، وطول هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَانْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ
بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ، ذَلِكَ الْقُرْآنُ، فَاسْتَنْطَقُوهُ، وَلَنْ
يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أَخْبِرْكُمْ عَنْهُ، أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي،
وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»⁽¹⁾.

وقال عليه السلام: «واعلّموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش،
والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن
أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى،
واعلّموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقه، ولا لأحد قبل القرآن من
غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من
أكبر الداء وهو الكفر والتفأق والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجّهوا
إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه إنّ ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله،
واعلّموا أنّه شافع مسمع، وقابل مصدق، وأنّه من شفّع له القرآن يوم
القيامة شفّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنّه ينادي
مُنادٍ يوم القيامة ألا إنّ كل حارث مبتلى في حزيه، وعاقبة عمله غير حريه
القرآن، فكونوا من حارثيه وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على
أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم»⁽²⁾.

وقال عليه السلام: «فالقُرْآنُ أَمْرٌ رَاجِعٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ، حُجَّةٌ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ،
أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ وَأَزْمَنَ، عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، أَنْتُمْ نُورُهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ
نَبِيَّهُ عَلَيْهِ، وَقَدْ فَرَعَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ، فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا
عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئاً رِضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ
إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْماً بَاطِئاً، وَآيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ»⁽³⁾.

(1) نهج البلاغة: الخطبة 158.

(2) نهج البلاغة: الخطبة 176.

(3) نهج البلاغة: الخطبة 183.

وقال عليه السلام: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يَجْبُو تَوَقُّدُهُ، وَيَخْرَأُ لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَا جَا لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَسُعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفَرْقَانًا لَا يُخَمِّدُ بُرْهَانُهُ، وَتَبَيَّنَانَا لَا يُهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَا تُخْسِي أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَا تُهْزِمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ، فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيْمَانِ وَبُخْبُوْحَتُهُ، وَيَتَابِعُ الْعِلْمَ وَبُخُوْرُهُ، وَرِيَاضَ الْعَدْلِ وَعُدْرَانُهُ، وَأَنَايِقَ الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانَهُ، وَأَوْدِيَةَ الْحَقِّ وَعَيْطَانَهُ، وَبَحْرًا لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُودًا لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلًا لَا يَغِيْضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلًا لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَغْلَامًا لَا يَغْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَأَكَامًا لَا يَجُوْرُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ، جَعَلَهُ اللهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيْعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَحِمَاجَ لِبَطْرِيقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لِنَسِّ بَعْدَهُ ذَاكَ، وَنُورًا لِنَسِّ مَعَهُ ظُلْمَتُهُ، وَحَبْلًا وَثِيْقًا عَزُوْتُهُ، وَمَعْقِلًا مَنِيْعًا ذِرْوَتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنْ اتَمَّ بِهِ، وَعُدْرًا لِمَنْ انْتَحَلَهُ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ، وَجَنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَ، وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى»⁽¹⁾.

وقال عليه السلام في كتاب له إلى الحارث الهمداني: «وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، وَاسْتَنْصَحَهُ، وَأَحْبَلَ حَلَالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ»⁽²⁾.

فهذه الكلمات البليغة وأمثالها تنص على أنّ الله تعالى جعل القرآن الكريم نوراً يستضاء به، ومنهاجاً يعمل على وفقه، وحكماً بين العباد، ومرجعاً في المشكلات، ودليلاً عند الحيرة، ومتبعاً عند الفتنة، وكل ذلك يقتضي أن يكون ما بأيدينا من القرآن هو نفس القرآن الذي نزل على الرسول الأعظم عليه السلام، وعرفه أمير المؤمنين وسائر الأئمة والصحابة والمسلمون أجمعون.

القسم السادس: الأحاديث التي تتضمن تمسك الأئمة من أهل البيت بمختلف الآيات القرآنية المباركة:

روى المحدثون من الإمامية أحاديث كثيرة عن الأئمة الطاهرين تتضمن تمسكهم بمختلف الآيات عند المناظرين وفي كل بحث من البحوث، سواء

(1) نهج البلاغة: الخطبة: 198.

(2) نهج البلاغة: الكتاب: 69.

في العقائد أو الأحكام أو المواعظ والحكم والأمثال، كما لا يخفى على من راجع كتبهم الحديثية وغيرها، وعلى رأسها كتاب الكافي.

فهم عليه السلام تمسكوا بالآيات القرآنية « في كل باب على ما يوافق القرآن الموجود عندنا، حتى في الموارد التي فيها آحاد من روايات التحريف، وهذا أحسن شاهد على أنّ المراد في كثير من روايات التحريف من قولهم عليه السلام كذا نزل هو التفسير بحسب التنزيل في مقابل البطن والتأويل»⁽¹⁾.

القسم السابع: الأحاديث الواردة في أنّ ما بأيدي الناس هو القرآن النازل من عند الله:

وصريح جملة من الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت، أنهم عليهم السلام كانوا يعتقدون في هذا القرآن الموجود بأنه هو النازل من عند الله سبحانه على النبي صلى الله عليه وآله، وهذه الأحاديث كثيرة نقل هنا بعضها:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ، مُبَيَّنًّا حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ، وَقَرَائِضُهُ وَقَضَائِلُهُ، وَنَاسِخُهُ وَمَنْسُوخُهُ، وَرُخْصَةٌ وَعَزَائِمُهُ، وَخَاصَّةٌ وَعَامَّةٌ، وَعِبْرَةٌ وَأَمْثَالُهُ، وَمُرْسَلَةٌ وَمَحْدُودَةٌ، وَمُحَكَّمَةٌ وَمُتَشَابِهَةٌ، مُفَسَّرًا مُجْمَلًا، وَمُبَيَّنًّا عَوَامِضُهُ، بَيْنَ مَاخُودٍ مِيثَاقٍ عَلَيْهِ، وَمَوْسَعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وَبَيْنَ مُثَبَّتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ، وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، وَمُرْتَحِّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ، وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، وَمُبَايِنٍ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرَصَدَ لَهُ عُقْرَانَهُ، وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أذْنَاهُ، مُوسَعٍ فِي أَقْصَاهُ»⁽²⁾.

وقال عليه السلام: « أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِمْتَائِهِ، أَمْ كَانُوا سُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى، أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامًا، فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾⁽³⁾ وَفِيهِ نَبِيَّانَ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ

(1) تفسير الميزان: ج 12 ص 111.

(2) نهج البلاغة: الخطبة 1.

(3) الأنعام: 38.

عِنْدَ غَيْرِ اللَّهِ لَوْ جَدُّوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿⁽¹⁾ وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقُضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ﴾ ⁽²⁾.

وعن الريان بن الصلت قال: «قلت للرضا عليه السلام يا بن رسول الله ما تقول في القرآن؟

فقال: كلام الله، لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا» ⁽³⁾.

وجاء فيما كتبه الإمام الرضا عليه السلام للمؤمن في محض الإسلام وشرائع الدين: «وإن جميع ما جاء به محمد بن عبد الله هو الحق المبين، والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله وأنبيائه وحججه، والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ⁽⁴⁾ وأنه المهيمن على الكتب كلها، وأنه حق من فاتحته إلى خاتمته، تؤمن بمحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ووعده ووعيده، وناسخه ومنسوخه، وقصصه وأخباره، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله» ⁽⁵⁾.

وعن علي بن سالم عن أبيه قال: «سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له: يا ابن رسول الله ما تقول في القرآن؟

فقال: «هو كلام الله، وقول الله، وكتاب الله، ووحى الله وتنزيله، وهو الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾».

(1) النساء: 82.

(2) نهج البلاغة: الخطبة 18.

(3) أمالي الشيخ الصدوق: ص 546.

(4) فصلت: 42.

(5) عيون أخبار الرضا: ج 2 ص 130.

رؤية

رسالة من الأستاذ الأديب محمد آل سليمان العاملي⁽¹⁾ رحمه الله محررة بتاريخ: 28 / 8 / 2002 بعثها إلى منتدى دانا فجر.

سيدي المصطفى..

كنت أتابع أفكارك الموسوعية الشّاملة بشغف وشوق شديدين. تحذوني لقراءتها شهوة الثقافة وحب الإطلاع والنظرة العسسية المنقّبة بين ثنايا سطورك وحروفك المتمدّدة بإسهاب لا يداخله كلل أو ملل.

لكنني، وعندما قرأت مداخلتك الأخيرة⁽²⁾، قرأتها بألم طغى على ما عداه من مشاعر. حيث صُدمت جرّاء قرارك بالانسحاب من المقابلة فضلاً عن انسحابك من المنتدى.

ما أريد قوله مختصراً - سيدي - بأنّ مذهب وفكر أهل البيت عليه السلام يتعرض لحملة تشويهية شرسة تقودها أجهزةٌ عابرة للقارات، وعابقة برائحة النفط والذهب أو ما يعادلها من أوراق نقدية ملوّنة..

لذا: كان وجود وحضور أمثالكم في ميدان المطارحة الفكرية والثقافية والمعرفية - التي تنهل من مذهب أهل البيت عليه السلام - ضرورياً

(1) أحد أعضاء منتدى دانا فجر المميزين، وكان يكتب باسم (أكتب لكي أكتب)، توفي إثر نوبة قلبية حادة في أفريقيا، وأثبت هذه الرسالة لذكراه الغالية.

(2) كانت مداخلتني تلك عن قرار اتخذته في عدم مواصلة المشاركة في المنتدى بسبب مشاغل قاهرة عرضت لي أعاققتني عن المواصلة.

وملحاً إن لم يكن واجباً شرعياً متعيناً..

مع فائق احترامى

ودُمتَ شاخناً..

والختام كلمة (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد مرت أيام هذه الرحلة الإيمانية المباركة التي قضيناها مع واحد من أبرز علماء منطقة القطيف وأبنائها المخلصين صاحب النظرة الثابتة والعلم الغزير سماحة العلامة الشيخ حسين المصطفى أطال الله في عمره.

وفي نهاية هذا اللقاء المثمر والمفيد تتقدم إدارة الديوانيات للحوار ومنسوبيها بالشكر الجزيل لسماحة العلامة الشيخ حسين المصطفى حفظه الله ورعاه على ما بذله من جهد في الإجابة على أسئلة واستفسارات الأخوة الأعضاء، والتي نالت إعجاب الجميع، مما ساهمت بشكل كبير في إنجاح هذا اللقاء بشكل فاق كل التوقعات حتى صار له صدأً واسعاً على مستوى المنطقة.

ولا غرابة في هذا النجاح الكبير، فشخصية هذا اللقاء غنية عن التعريف، فسماحة الشيخ من العلماء العاملين وله من النشاطات والمؤلفات والإصدارات ما يؤهله للنهوض بأعباء مجتمع كامل وليس لقاء عابر على مدى أربعة أيام.

إنّ المتابع لهذا اللقاء قد لاحظ وبشكل جلي كيف أجهد سماحة

(1) كلمة مشرف الحوار في منتدى (ديوانيات) الموقر.

الشيخ - حفظه الله - نفسه في الإجابات الدقيقة والتفصيلية بالرغم من مشاغله المتعددة، حيث برزت قدرة سماحته على إعطاء كل سؤال أكثر من حقه في الإجابة، مما أغنى السائل، أو لنقل وفر عليه الجهد عن طلب المزيد من التوضيح حول استفساره. فالبرغم من توقيت هذا اللقاء في أيام عاشوراء حيث يحرص الجميع على التواجد في مجالس العزاء الحسيني، إلا أننا لاحظنا تواجد سماحته على صفحة الديوانيات للحوار لوقت متأخر من الليل في سبيل الإجابة على جميع الاستفسارات حال ورودها أولاً بأول.

ومع انتهاء هذا اللقاء الروحاني، سوف يتم إقفال ديوانية الحوار الخاص، إلا أنّ سماحته وبفضل منه وعدنا بالإجابة على باقي الأسئلة التي لم يتمكن من الإجابة عليها.

وأخيراً وليس بأخير اسمحوا لنا أيها الأخوة والأخوات أن نتقدم باسم جميع أعضاء الديوانيات للحوار بالشكر الجزيل لساحة العلامة الشيخ حسين المصطفى حفظه الله ورعاه آمليين أن تتجدد مثل هذه اللقاءات مع سماحته لننهل من علمه الوافر وأفقه الواسع حتى ينير لنا طريقنا نحو آفاق المستقبل المشرق. كما نتقدم بالشكر الجزيل للأخوة الأعضاء على تجاوبهم مع هذا اللقاء والتزامهم بأداب وأساليب الحوار الجاد واستغلالهم لتواجد سماحته حفظه الله ورعاه في طرح كل ما هو مفيد على أمل أن نلتقاكم في القريب العاجل مع لقاء آخر، وكلنا أمل في تفاعلكم معنا في إنجاح مثل هذه اللقاءات الحوارية.

نستودعكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إدارة الحوار الخاص

7 / 1 / 1424هـ

فهرس موضوعي

قرآنيات

- 61.....وظيفتنا تجاه القرآن الكريم
73.....قراءة القرآن بالألحان والمقامات
358.....إضاءات في مسألة تحريف القرآن
370.....نصوص في سلامة القرآن من التحريف

الفقه (ومعطياته)

- 32.....الشهادة الثالثة في الأذان
51.....مشكوك التذكية.. الحكم والأثر
115.....الفرق بين الحكم والفتوى
116.....الفرق بين الاحتياط في الفتوى والفتوى بالاحتياط
291.....حكم قهوة الشعير
325.....إضاءات حول الخمس وأحكامه
357.....دور العرف في تفسير العناوين الشرعية

مسائل في علم الحديث والرجال

- 89.....الفرق بين إخبار الثقة وشهادة الثقة
95.....مناهج توثيق الأخبار
97.....طرق إثبات وثاقة الرواي
102.....ألفاظ التوثيق
110.....الشهرة الفتوائية وأثرها
183.....الإجماع.. المفهوم والدلالة
322.....موقفنا من طرائق قراءة النصوص الشرعية

قضايا الدعوة والوحدة الإسلامية

- 17..... القضية المذهبية ولغة التسامح
118..... دور الطالب الجامعي في ترسيخ الوحدة
125..... دعوة الرسول.. منهج وخصائص
162..... مشكلات الدعوة ومنهج مواجهتها
288..... أطر التعاطي مع السجال المذهبي

كربلاء ومدرسة الحسين عليه السلام

- 220..... المنبر الحسيني.. تحديات الحاضر وآمال المستقبل
225..... مفهوم الإصلاح الديني في قضية كربلاء
235..... المآثم الحسيني النسوي وآفاق التطوير
322..... محاولات في قراءة تاريخ كربلاء
323..... ممن تلقى الحسين الأمر بالرحيل إلى كربلاء؟
324..... الخطباء ووعي الوضع الراهن في منطقتنا
343..... نحو مجالس حسينية للأطفال
353..... هل بكت السماء على الإمام الحسين؟

العلماء والحوزة.. هموم وآمال

- 13..... رحلتي إلى طلب العلم
14..... مسؤولية طالب العلم
21..... المثقف وعالم الدين والدور المتكامل
24..... المرجعية وضرورات الفتوى 1
25..... المرجعية وضرورات الفتوى 2
194..... الحوزة بين التقليدية والتجديد
290..... إدارة الحقوق الشرعية
291..... علماء الدين والعمل الجمعي في إدارة شؤون المجتمع
307..... دور علماء الدين في المطالبة بحقوق الطائفة
308..... آفاق دور علماء الدين في المنطقة
310..... أصناف العلماء من منظور الإمام علي
320..... علماء الدين وآفاق العمل الاجتماعي

قضايا اجتماعية وتربوية وثقافية

المرأة:

- 19..... ثقافة المرأة المتدينة.....
23..... المرأة والمنتديات الاجتماعية.....
25..... الحجاب الشكل والمضمون.....
352..... المرأة والمسجد نحو علاقة تفاعلية.....

الأسرة:

- 22..... الأسرة مؤسسة تربوية.....

المسجد:

- 20..... تفعيل دور المسجد.....
243..... آفاق رسالة المسجد العبادية والدعوية والتربوية والاجتماعية.....

الثقافة وآفاقها:

- 111..... الشباب والقراءة.....
312..... دور المثقف في النهوض بالإنسان.....
315..... المثقف والغزو الثقافي.....
337..... مسؤوليات العمل الثقافي.. الإنترنت نموذجاً.....

اجتماعيات تربوية:

- 20..... الزواج بأخرا.....
76..... إحباط العمل.....
83..... الستلايت (الدش) في الميزان.....
87..... الجنس.. نظرة واقعية.....
178..... معطيات التغيير الاجتماعي.....
214..... أوقات الفراغ عند الشباب.. الإجازات الصيفية تحديداً.....
269..... ظاهرة التقديس في الميزان.....

تطلعات رائدة (منوعة):

- 354..... مفهوم التركيب الاتحادي والانضمامي.....

وضوحات هذا الكتاب

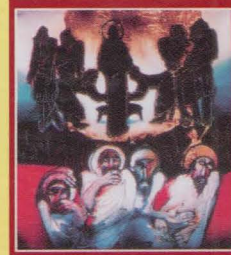
السؤال هو الآلة التي ينقّب بها الإنسان عن الحقيقة ضالته، وهو الوسيلة التي يسافر بها من أرض المجهول إلى المعلوم، والمفتاح الذي لا غنى عنه للهجرة من زنانات الظلام إلى نور الحقيقة، ومراياها. بل هو العلامة الفارقة والفيصل الذي يميّز الإنسان عن سواه، والعامل الأساسي في حصول الزلازل التي تهزّ المؤلف والمعروف، فتغيّر من تضاريس المعرفة، وتخرج الحقيقة من بطون الباطل، والملتبس.

وأمامك -أيها القارئ العزيز- كتاب حوى سيلاً من الأسئلة المتنوعة التي شملت قضايا الدين والفكر والمجتمع، وهي تعبّر بصدق ووضوح عن هموم الإنسان المسلم، وآماله وآلامه، وعن رؤيته لما تزخر به الحياة من أفكار وإشكاليات في عصر أصبح بلا حدود أمام المعرفة، ولا خرائط تفصل بين الخاص والعام المشترك.

وقد كانت أجوبة المؤلف متحررة من قانون جاذبية المؤلف والشائع: ومن قانون (خالف تعرف)؛ فهو في حين لم يتمسك بالوقوف على شفا جرف هار فيهلك، ويهلك القارئ معه لم يقفز به إلى الفضاء دون مرجعية، وأصول يعتمدها، بل دلة على الطريق، وأرشده إلى القواعد الأساس ليسيير على هدى، حراً طليقاً في رحاب المعرفة وبها.

حسين علي المصطفى

مطارحات في الدين و الفكر والمجتمع



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٢٨٧١٧٩ / ٠٣ - تلفاكس: ٥٥٢٨٤٧ / ٠١

E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com - info@daralmahaja.com



دار المسجّة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان